جامعةالجزائر2 أبو القاسم سعد الله

كـلية العلوم الإنسانية

قســم: التــاريــخ

أثر الغزوات المغولية على العلاقات السنّية الشيعيّة خلال القرن 7هـ/13م

اطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ل م د في الدراسات التاريخية في العصر الوسيط

إعداد الطالب:

محمد قاوي

إشراف الأستاذ الدكتور:

أحمد شريفي

لــجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الاصلية	الصفة
بشار قويدر	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر02	رئيسا
أحمد شريفي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	مشرفا ومقررا
عبد العزيز بوكنة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	عضوا مناقشا
عبد الحميد خالدي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	عضوا مناقشا
خالد كبير علال	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–	عضوا مناقشا
مبارك بوطارن	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 1441– 1442هـ / 2020 – 2021

جامعةالجزائر2 أبو القاسم سعد الله

كـلية العلوم الإنسانية

قســـم: التـــاريـــخ

أثر الغزوات المغولية على العلاقات السنّية الشيعيّة خلال القرن 7هـ/13م

اطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ل .م. د في الدراسات التاريخية في العصر الوسيط

إعداد الطالب:

محمد قاوي

إشراف الأستاذ الدكتور:

أحمد شريفي

السنة الجامعية 1441- 1442هـ / 2020 - 2021

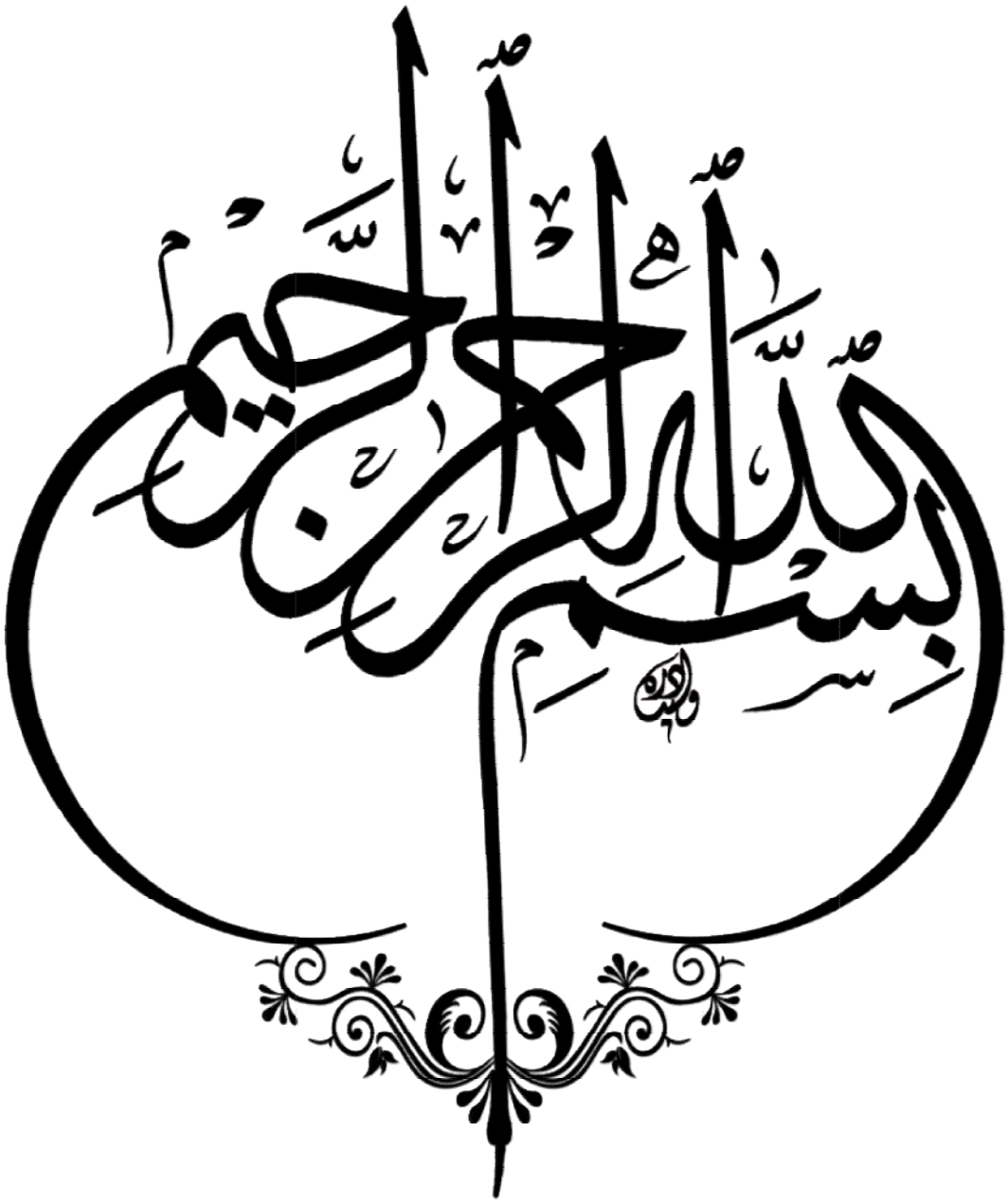
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى

روح عمي الطاهرة التي صعدت إلى ربها

الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما ومنحهما الصحة والعافية

إلى كل أعضاء **السفارة الجزائرية بالنمسا** كل بإسمه مع حفظ الألقاب وعلى رأسهم السيدة السفيرة فوزية بومعيزة مباركي والأم الحنون غنيمة آيت بشير وحفيظة وسليمة والأخ الفاضل خالد ونصر الدين وبلال و فتحي وعبد الكريم والحاج وعمار وزين الدين وسيد علي والقائمة تطول .

الإخوة والأصدقاء في النمسا والجزائر العاصمة والأغواط

إلى كلّ من يستنطق التاريخ ليعي حاضره ويستشرف مستقبله

إلى كلّ الشرفاء الذي ينبذون الفكر الطائفي ويعملون على العودة إلى الإسلام الذي كان عليه الصحابة الكرام

شكر وعرفان

أولا الحمد لله الأحد الصّمد والشكر له على أن وفقني إلى كتابة هذا العمل المتواضع

ثانيا أشكر الأستاذ الدكتور أحمد شريفي الذي شرّفني بقبوله الإشراف على هذه الأطروحة وعلى نصائحه القيّمة التي تظهر في خضمّ البحث خاصة الإسقاطات التاريخية واستنطاق التاريخ .

ثالثا أشكر الأساتذة الذين تتلمذت على يدهم بشكل أو بآخر في جامعة الجزائر وجامعة الأغواط

مقدمـــة

مقدمة :

شهد العالم الإسلامي مطلع القرن 7هـ/13م بروز قوّة جديدة اكتسحت معظم أراضيه في المشرق، جارفة أمامها دولا كبرى وممالك عظمى اندثرت معالمها وسقط اسمها من التاريخ وولّى عليها الدهر.

تمثّلت هذه القوّة في المغول أو التّتار الذين قدموا من أواسط آسيا واتحدوا تحت لواء جنكيزخان وراحوا يوسّعون رقعتهم الجغرافية على حساب الممالك والدّول المجاورة لهم بسرعة فائقة النّظير، فلم ينتهِ القرن 7هـ/13م إلاّ والمغول يسيطرون على أجزاء واسعة من العالم أنذاك .

فقد امتدت الإمبراطورية المغولية من بلاد الصّين إلى نهر الفرات مرورا بكلِّ من منغوليا ومنشوريا وبلاد التبت وبلاد ماوراء النّهر وخراسان وفارس وأذربيجان ومن الشّمال امتدت إلى غاية بلاد الرّوس والبلغار والقفجاق وإلى الشمال الغربي وصلت حدودها إلى دولة بولندا والمجر ، كما وصلت الغزوات التي شنّها المغول على أوربا إلى غاية أسوار فيينّا التي لم ينقذها من الدّمار سوى موت الخان الأعظم في قراقورم.

على أنّ المشرق الإسلامي لم يكن أكثر حظّا، فقد دمّرت جحافل المغول معظم مدنه الزاهرة بداية من الدّولة الخوارزمية التي صارت وجها لوجه أمام المغول بعد القضاء على دولة القراخطائيين التي كانت سدّا منيعا بين جحافل المغول والعالم الإسلامي .

وعلى إثر ذلك انثال المغول بقيادة جنكيزخان كالسّيل الجارف فاستولوا على أملاك الخوارزميين وخرّبوا جميع الحواضر الكبرى، كبخارى وسمرقند وخوارزم ونيسابور وتعتبر هذه الحملة الأولى للمغول على العالم الإسلامي .

أمّا الحملة الثانية فقد جاءت بعد تولّي حفيده منكوخان عرش خانية المغول، فأسند إلى أخيه هولاكو استكمال فتح بلاد المشرق الإسلامي فانطلق من قراقورم إلى فارس حيث دمّر نهائيّا قلاع الإسماعيلية في إيران ثم غزا بغداد وأسقط الخلافة العبّاسية لأوّل مرّة منذ ما يزيد عن خمسة قرون، وتابع زحفه نحو جميع المدن العراقية والجزيرة الفراتية وسلاجقة الروم وبهذا تكوّنت نواة الدّولة الإيلخانية في فارس التي اتّخذت من تبريز عاصمة لها .

واصل هولاكو حملته إلى مصر مستوليا في طريقه على حواضر بلاد الشام كدمشق وحلب وحمص والكرك ، وفي طريقه وصله نبأ وفاة الخان الأعظم في قراقورم فقفل راجعا ، وأرسل قائده كَتْبُغَا لغزو مصر التي كانت تحت حكم المماليك الذّين خرجوا إلى مواجهة المغول ، وانتصروا عليهم نصرا مؤزّرا في أحد أهم المعارك التي شهدها التاريخ الإسلامي وهي معركة عين جالوت .

بعد معركة عين جالوت تغيّرت الفكرة النّمطية السائدة لدى المسلمين بأنّ المغول قوم لا يُهزمون ، فنجدهم يثورون على الحكم المغولي في بلاد الشام ويطردون الحاميات المغولية الصغيرة منها ، وتوطّدت أركان دولة المماليك بعد اعتلاء الظاهر بيبرس عرش الدولة في مصر وبلاد الشام ، وراح يحقّق الانتصارات المتتالية على مغول الدّولة الإيلخانيّة خاصّة بعد تحالفه مع مغول القبيلة الذهبية التّي دخلت في الإسلام. وظلّ تحالف المماليك مع القبيلة الذهبية حتى بعد وفاة بيبرس وبـــــــركة خان .

ومن المعلوم أن العالم الإسلامي عموما والمشرق على وجه الخصوص كان يضمّ العديد من الملل والنحل إلاّ أنّ الفرق التي كان لها تأثيرها على الساحة السيّاسية تمثّلت في الأغلبية السنّية التي كانت تتمثّل في الدّولة الخوارزمية في بلاد ما وراء

النّهر وعاصمتها خوارزم ، والخلافة العباسية في العراق ودولة المماليك النّاشئة في مصر والأمراء الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية بالإضافة إلى سلاجقة الرّوم في آسيا الوسطى ، أما الأقليّة الشّيعيّة فقد تمثّلت في دولة الإسماعيلية في إيران وبلاد الشام أو ما يعرف بدولة الحشّاشين ، إلاّ أنّ الفترة التي سبقت الغزو المغولي كان بها تواجد العديد من الشّيعة الإمامية أو الرافضة خاصّة في المدن العراقية مثل بغداد والكوفة والحلّة و واسط والمدن الشامية مثل دمشق وحلب وحمص حسب كتب الرّحالة والجغرافيين ، وقد بلغوا مناصب حسّاسة ومرموقة في عهد الخلافة العباسية مثل أستاذ الدار ابن الصاحب في عهد الناصر ومؤيّد الدين ابن العلقمي الذّي بلغ الوزارة في عهد المستعصم بالله العباسي .

انتقلت الخلافة العبّاسية إلى مصر حيث حرص الظاهر بيبرس على إحياء الخلافة في مصر لإضفاء الشرعيّة على حكم المماليك، إلاّ أنّها كانت شكليّة فقط حيث اقتصر حكم الخليفة على الدّعاء له في المنابر مع السلطان المملوكي .

وقد اختلف المؤرخون حول مدى دور الشّيعة في سقوط بغداد، والغزو المغولي برمّته، فمنهم من يرى بأنّهم عملاء للمغول ساعدوا العدوّ وخانوا الأمّة ، ولعلّ الرواية الأشهر على الإطلاق أنّ الشّيعة وعلى رأسهم الوزير مؤيّد الدّين ابن العلقمي هو الذي راسل المغول وأطمعهم في القدوم إلى بغداد وإسقاط الخلافة العبّاسية بعد الفتنة التي جرت في بغداد بين السنّة والشّيعة بالإضافة إلى الخواجة نصير الدين الطوسي المنجّم الذي هوّن على هولاكو فتح بغداد وقتل الخليفة العبّاسي خاصة إذا ما علمنا بأن هولاكو كان مولعا بالتنجيم .

وهناك رأي آخر من المؤرخين على رأسهم سعد الغامدي الذي برّأ الشيعة على العموم ومؤيّد الدين ابن العلقمي على الخصوص من أيّة خيانة للخلافة العباسية

ونسب سقوط بغداد إلى المشروع المغولي الذي كان يهدف إلى التوسّع عبر الإستيلاء على ممالك جديدة ، ومن ثمّ فلم يكن المغول في حاجة إلى مراسلة ابن العلقمي أو غيره للإستيلاء على بغداد والزّحف نحو العراق والشرق الأدنى للعالم الإسلامي.

ويرجع الغامدي ذلك إلى أن الرّوايات التي جاءت بخيانة ابن العلقمي والنّصير الطوسي إنّما هي روايات شامية أو مصرية ، أو من بلاد الهند كالجوزجاني في كتابه طبقات ناصري، وعلى أساس البعد الجغرافي استبعد تصديق هذه الروايات ، إلاّ أنّه تجاهل سهوا أو قصدا رواية المؤرّخ ابن السّاعي (ت674هـ/1275م) الذّي عاش وتوفيّ في بغداد .

وهذا البحث ليس للطعن أو للردّ على الغامدي أو غيره ، وإنما محاولة جادّة للبحث عن جزء من الحقيقة التاريخيّة المبعثرة في بطون الكتب ، فموضوع العلاقات السنيّة الشيعية من أعقد المواضيع التاريخية .

و على ضوء هذا تبلورت فكرة هذا البحث لأن يكون موضوع أطروحة الدكتوراه الموسومة بأثر الغزوات المغوليّة على العلاقات السنّية الشيعيّة خلال القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي.

دوافع اختيار الموضوع:

إنّ الأحداث التي يشهدها العالم اليوم لتدعو الباحث الحصيف إلى التأمّل والعودة إلى التاريخ لفهم مجريات الأمور، ومن ثمّ فاستخدام الطائفية والتفريق بين السنّة والشّيعة كانت الورقة الرابحة للغزو الأمريكي بالعراق ، بالإضافة إلى الدّور الذي تلعبه إيران وحزب الله في تقتيل أهل السنّة والجماعة في سوريا.

إنّ ما يحدث من عمليّات قتل ونهب وتهجير لأهل السنّة والجماعة في بلاد الشام والعراق لهو إنتقام سافر هدفه تغيير شامل في الديموغرافيا المذهبيّة في العراق والشام من أغلبية سنيّة إلى أغلبية شيعيّة .

إنّ الغزو الأمريكي للعراق سنة 2003 ليدعونا إلى التأمّل في الغزو المغولي لبغداد سنة 656هـ/1258م ، فقد سعى الأمريكان إلى استمالة الشيعة وتأليبهم ضدّ إخوانهم من أهل السنّة ، بعد أن قضوا على الدّولة العراقيّة وحوّلوها إلى دولة تمزّقها الصّراعات الطائفية والمصالح الضيّقة.

إنّ فتوى المرجع الشيعي السيستاني بعدم القتال ضد الغزاة الأمريكيين وغيرهم لتشبه إلى حدّ كبير ما جرى أيام الغزو المغولي لبغداد حين خرج علماء الشّيعة وعلى رأسهم مجد الدين ابن طاووس الحلّي وسديد الدين ابن مطهر الحلّي إلى هولاكو يطلبون الأمان ويضمنون عدم مقاومة الأهالي في مدينة الحلة ذات الأغلبيّة الشيعيّة .

لقد صرّح الحاكم المدني الأمريكي بالعراق بأنّهم أنهوا ألف عام من حكم الإسلام السنّي في العراق واستبداله بحكم الميليشيات الشيعية. وعلى هذا فإنّ الموضوع مستفّز للغاية خاصّة إذا ما علمنا كيف وظّف الغزاة الأمريكان الصراع السنّي الشّيعي بين أبناء الوطن الواحد.

ولعلّ الفارق الوحيد بين ما حدث بالأمس وما يحدث اليوم أنّ حكّام أذربيجان وحاكم الموصل وسلاجقة الروم هم فقط من رضخوا لجيش المغول رهبة وساروا معه لغزو بغداد في حين قاوم المماليك، ومن على شاكلتهم الغزو المغولي ، أما في وقتنا الحاضر فقد تواطأ الجميع ولم يقف أحد في وجه أمريكا أثناء غزوها للعراق واستباحة بغداد .

استغلت إيران الشيعيّة الغزو الأمريكي وراحت تزيد نفوذها حتى خلا لها الجوّ وصارت بعد الإنسحاب الأمريكي، الحاكم الفعلي للعراق والمتحكم الرئيسي في العشائر الشيعيّة العراقيّة . بل ذهبت أبعد من ذلك في سوريا وبلاد الشام.

إنّ تعاون الجزء الشيعي من قبائل خفاجة أحد أكبر العشائر العراقية مع المغول في حروبهم ضدّ المماليك السنّة، هو شبه يصل إلى حدّ التّطابق مع ما يحصل اليوم من استغلال إيران الشيعيّة لهاته القبائل للقتال بالنيابة عنها في بلاد الشام بغية المحافظة على نظام شيعي متهالك.

إنّ ما تمرّ به الأمّة الإسلامية في تاريخنا المعاصر والواقع السياسي المحبط اليوم هو أكبر دافع لدراسة هذا الموضوع.

إشكالية الموضوع:

وعلى هذا الأساس فقد كانت الإشكاليّة الرئيسيّة كالتّالي: ما هو أثر الغزوات المغولية على العلاقات السنيّة الشيعيّة ؟ لتتمخّض عنها بعض الإشكاليّات الفرعيّة ، من أين جاء المغول ؟ وكيف وحّدوا قبائلهم تحت راية واحدة ؟ وما هي أبرز حملاتهم على العالم الإسلامي ؟ وكيف كانت العلاقات السنيّة الشيعيّة قبل الغزو المغولي ؟ وكيف صارت بعده ؟ ثم من هم الحشاشون الشّيعة ؟ وكيف سقطوا بين براثن المغول ؟ وكيف استطاع المماليك السنّة الانتصار عليهم عين جالوت ؟ وما هي أبرز المحطات في العلاقات بين المماليك السنّة والشّيعة الإسماعيلية ؟ .

خطة الموضوع :

وقد جاء البحث مكوّنا من خمسة فصول ومقدمة وخاتمة بالإضافة إلى الملاحق والفهارس وقائمة المصادر والمراجع، أمّا المقدّمة فقد كانت عبارة عن لمحة موجزة

عن الموضوع مع الإشارة إلى أمّهات المصادر والمراجع التي استقى منها هذا البحث أهمّ المعلومات.

أمّا الفصل الأول فقد جاء بعنوان المغول دراسة بشرية جغرافية فتطرّقت فيه إلى جغرافية الموطن الأوّل للمغول، والأصول الأولى للمغول والفرق بين المغول والتّتار ، والقبائل المكوّنة للمجتمع المغولي ، ثم توحيد جنكيزخان لقبائل المغول وجمْعهم تحت دولة واحدة وقانون واحد تمثّل في الياسا ، بالإضافة إلى لمحة خاطفة عن دول المغول عقب توسعاتهم الكبيرة .

كما جاء الفصل الثّاني موسوما بالعلاقات السنيّة الشيعيّة قبيل الغزوات المغولية فعرّجت على كلّ من السنّة والشيعة مع تعريف موجز لكلّ منهما ، فضلا عن أهمّ الفرق الشّيعيّة ، وأوضاع الخلافة العباسية في بغداد والفتن التي كانت قائمة بين السنّة والشّيعة خاصة بين حيّ الكرخ وحيّ باب البصرة في العصر البويهي والّتي امتدّت إلى غاية أواخر عهد المستعصم ، بالإضافة إلى الدّولة الأيوبيّة التي ظلّت على سياسة الدولة السلجوقية والزنكيّة في بناء المدارس لمحاربة الفكر الشّيعي حتى تمكّنت من الإجهاز على الخلافة العبيديّة المهترئة في مصر ، وراحت تعمل على مقاومة الصّليبيين في الشام حتى تمّ تحرير بيت المقدس ، وتحدّثت أيضا عن نشأة الدولة الإسماعيليّة في إيران بعد الإنقسام الكبير الذي حدث بوفاة المستنصر العبيدي وانقسام الشيعة إلى مستعلية ونزارية .

في حين جاء الفصل الثالث تحت عنوان الحملة المغولية الأولى على العالم الإسلامي فذكرت فيه تأسيس الدولة الخوارزميّة ونشأتها والمناطق الشاسعة التي استولت عليها ، بالإضافة إلى أهمّ حكّامها ، والأسباب التي جعلت المغول يشنّون الحرب عليها وأدّت إلى سقوطها ووفاة سلطانها محمد خوارزم شاه ، بالإضافة إلى

المقاومة العظيمة لولده جلال الدّين منكبرتي والعلاقات الخوارزمية الإسماعيلية في عهده .

وجاء الفصل الرّابع بعنوان الحملة المغولية الثّانية على العالم الإسلامي وهي حملة هولاكو على المشرق الإسلامي إبّان حكم أخيه منكوخان فتطرّقت إلى نهاية الدولة الإسماعيليّة في إيران والأسباب الرئيسيّة في العَداء الذي حدث بين المغول والشّيعة الإسماعيليّة واستسلام خورشاه آخر حاكم إسماعيلي وقتله بعد ذلك ، ثم مسير المغول لإسقاط بغداد والمراسلات التي حدثت بين هولاكو والمستعصم وحصار بغداد الذي انتهى بمقتل آخر خليفة عبّاسي واستباحة بغداد من طرف العساكر المغولية وتحدثت عن دور الشّيعة في سقوط بغداد بداية من موقعة الكرخ ودور ابن العلقمي ونصير الدّين الطوسي في ذلك على اختلاف الرّوايات المؤكِّدة والمفنِّدة والمتحفِّظة على ذلك ، وكيف واجه السّنة والشّيعة المغول ، ثم استمرار المغول في الإستيلاء على بلاد الشام كدمشق وحلب والكرك وغيرها من المدن الشامية إلى غاية انتصار المماليك عليهم في معركة عين جالوت الحاسمة.

كما جاء الفصل الخامس معنونا بعلاقات المماليك السنّة مع المغول والشيعة الإسماعيليّة ، فتطرّقت فيه أوّلا إلى انتشار الإسلام السنّي والشّيعي بين صفوف المغول ، والعلاقات التي ربطت المماليك مع مغول القبيلة الذّهبية ، ثم العلاقات بين المماليك والشّيعة الإسماعيليّة في بلاد الشام التي تحدثت فيها عن كيفيّة نشأتها في بلاد الشام والقلاع التي تمكّنت منها وسقوطها السياسي في أيدي المماليك حتى صارت أداة في أيديهم يرهبون بها أعداءهم ، وأخيرا العلاقات بين المماليك ومغول فارس منذ عهد أباقا والظاهر بيبرس إلى غاية الناصر بن قلاوون وأبى سعيد التي اختلفت بين المراسلات الوديّة خاصة مع إسلام أحمد تيكودار والمعارك الحربية خاصة في عهد أباقا .

المنهج المتبع :

وقد إرتأيت إتباع المنهج الوصفي التّاريخي في هذه الدراسة مع عدم إغفال التّحليل عند الإقتضاء، واتّباع المنهج المقارن في بعض الأحيان خاصة عند تضارب الرّوايات حول مسألة تاريخيّة محدّدة .

تقييم المصادر والمراجع :

اعتمدت هذه الأطروحة على العديد من المصادر والمراجع ، ولعل من بين أبرزها كتاب تاريخ جهانكشاي أيّ –فاتح العالم – لصاحبه عطا ملك الجويني ، وقد كتب الكتاب أثناء حملة هولاكو على العالم الإسلامي وبدأه بذكر أحوال المغول في بداية أمرهم وأهمّ قبائلهم ثم إنضوائهم تحت راية جنكيزخان وذكر حملاته ولكنّ أهمّ ما جاء فيه هو ذكر حملة هولاكو فقد كان الجويني مستشاره ورفيقه في تلك الحملة إلاّ أنّ كتابه ينتهي عند سقوط القلاع الإسماعيليّة . ويعقبه ما يسمى بذيل تاريخ جهانكشاي وهي رسالة في فتح بغداد منسوبة إلى الخواجة نصير الدّين الطّوسي وقد ألحقتها ضمن قائمة الملاحق .

كما يعتبر كتاب **جامع التواريخ** لفضل الله رشيد الدّين الهمذاني الّذي ولد في همذان سنة 645هـ ، وأمضى فترة شبابه في تحصيل العلوم المختلفة وخاصّة الطّب فاشتغل طبيبا في بلاط اباقا خان (663–680هـ) وصار يترقّى شيئا فشيئا إلى أن تمّ تعيينه وزيرا في عهد محمود غازان (694–703هـ) واستمرّ يتقلّد أعباء هذا المنصب في عهد أولجايتو (703–716هـ), إلى غاية مقتله في عهد أبى سعيد سنة 718هـ، وبهذا فقد لبث وزيرا للمغول زهاء عشرين سنة مكّنته من الإطلاع على الكثير من الوثائق الخاصّة بالتاريخ المغولي الأول ، بالإضافة إلى أنّه شارك في

الأحداث التاريخية للدولة الإيلخانيّة فهو يعتبر من أهمّ المصادر التي أرّخت للتاريخ المغولي وكتبت عن تلك الأحداث باستفاضة بالغة قلّ أن نجدها في مصدر آخر.

والجوزجاني في كتابه طبقات ناصري ، فيعتبر هذا الكتاب أوّل ما كتب بعد سقوط بغداد فقد كتبه أبو عمر منهاج الدّين عثمان المعروف بالقاضي منهاج السراج الجوزجاني سنة 658هـ في دهلي بالهند ، ويعتبر هذا الكتاب المصدر الأوّل لمن يؤرخون للدولة الغورية في أفغانستان والهند ، والدولة الشّمسية في الهند ، والهجوم المغولي على العالم الإسلامي ، وقد بدأ في كتابة هذا الكتاب عام 655هـ لأنّه حينما تحدّث عن الخليفة المستعصم بالله في الطبقة الرابعة ، كانت طلائع المغول في طريقها نحو بغداد ، فيقول " في شهر ذي الحجة سنة خمس وخمسين وستمائة انتصر أمير المؤمنين المستعصم أمام المغول في عدّة معارك" وفي آخر حديثه في هذا الصدد يدعو للخليفة بالنّصر :"فلينصر الله –عزوجل– أمير المؤمنين".

وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير علي بن محمد عزّ الدين الجزري المولود عام 544هـ/1150 والمتوفّى سنة 630هـ/1233م ، الّذي يعتبر المصدر الأساسي في الحملة المغولية الأولى ، وقد كتب ذلك متحسّرا ومتردّدا لا يخفى على القارئ مدى تألّمه وهو يكتب عن سقوط المدن الزاهرة في بلاد ما وراء النّهر كبخارى وسمرقند وخوارزم ونيسابور، وينتهي كتابه في أواخر سنة 628هـ ولعلّ الأمر المثير للجدل في تاريخ ابن الأثير هو اتّهامه الضمني للخليفة الناصر أنّه كان سببا في غزو المغول للعالم الإسلامي حيث ذكر بأنّ ما "كان ينسبه العجم إليه صحيحا من أنّه هو الذي أطمع التتر في البلاد ، وراسلهم في ذلك" . وقد استقيت العديد من المعلومات التي لا غنى عنها لأيّ باحث في التاريخ المغولي. حتّى أنّ المؤرّخ النَّسوي قد قال في كتاب الكامل "ورأيت الكامل من تأليف علي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير ، يتضمن من أحاديث الأمم عموما ، وغرائب أخبار

العجم خصوصا ، ماشذَّ عن غيره ، وأنصف لعمري في تسميته كاملا ما ألَّف ، ولم أستبعد ظفره بشيء من تواريخهم المؤلّفة بلغتهم ، وإلاّ فما الأمر ممّا يؤخذ بالقياس ، والذي أودعه تأليفه منها أكثر من أن تتلقّف من أفواه الناس. ولمّا أفضت بي المطالعة إلى ما تضمّنه من أخبار السلطان الأعظم علاء الدّين وابنه جلال الدّين وجدته لم يفته من معظمات الأمور جليل ، ولم يتجاوز الصّحة إلاّ قليل ، قلت : لله درّ مقيم بديار الشام ، دعته همّته إلى ضبط ما حدث من الوقائع بأعالي بلاد الصّين ، وأعماق ديار الهند".

وكتاب **التحفة المملوكية في الدولة التركية** وهو عبارة عن تاريخ المماليك في الفترة 648-711هـ وقد ألّفه الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الذي قدم إلى مصر سنة 659هـ في عهد الظاهر بيبرس واشتراه الأمير قلاوون الألفي ثم أعتقه، وتدرّج في المناصب حتى ارتقى أيّام النّاصر بن قلاوون لأعلى منصب بعد السلطان وهو منصب نائب السلطنة في مصر سنة 711هـ إبّان حكم النّاصر بن قلاوون ولقد وُجدت هذه المخطوطة في فيينا ، وقام بتحقيق الكتاب الدكتور عبد الحميد صالح حمدان سنة 1987م ، وقد اقتصر بيبرس المنصوري في هذا الكتاب على ذكر الأحداث مرتبة وفق السنين الهجرية على عادة المؤرخين في عصره ، وتكمن أهمية هذا المصدر أنّه كتب من طرف أحد المؤرّخين الذين شاركوا في صنع هذه الأحداث التاريخية فلم يكن المؤرّخ شاهدا على الأحداث فحسب بل كان أحد صنّاعها خاصة أنّه وصل إلى مرتبة نائب السلطان وشارك في العديد من المعارك التي دارت بين المغول والمماليك ، إلا أنّه لم يذكر من توفي من مشاهير الرجال أو الأعلام ، إلا أنّ ما يؤخذ عليه إستخدامه لأسلوب السّجع والمحسّنات اللفظيّة بالرغم من أنّه لم يخلّ بسياق الوقائع التاريخية .

وقد ألفّ بيبرس كتابا آخر بالغ الأهمية وهو زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ويبدأ تاريخ هذا الكتاب من سنة 650هـ إلى غاية سنة 709هـ وهو كتاب يشمل التاريخ المملوكي وعلاقات المماليك الخارجية والغزو المغولي للعراق وبلاد الشام وهزائمهم المتلاحقة أمام المماليك ، وقد حقّق هذا الكتاب المستشرق الإنجليزي دونالد س.ريتشاردز "Donald S Richards" وقد استفدت من هذين الكتابين حول العلاقات المغوليّة المملوكية في الفصل الخامس .

وكتاب سيرة جلال الدين منكبرتي للمؤرخ شهاب الدين محمد بن علي النَّسوي ويعتبر كتابه في سيرة آخر سلطان للخوارزميين ، وهو جلال الدين ، وقد نشر المستشرق الفرنسي هوداس O.Houdas – أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس– كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي سنة 1891م عن نسخة خطيّة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ثم ترجمه إلى اللغة الفرنسية سنة 1895م ، وقد قال النَّسوي في مقدمته "انّني لما وقفت على ما أُلّف من تواريخ الأمم الماضية ، وسير القرون الخالية ، واتّساق أخبارها من لدن انتشار ولد آدم أبي البشر ، عليه السلام والتحيّة ، إلى زماننا هذا ، سوى ما صادف فترة رأيت قصارى كل مؤرخ تكرير ما ذكره المتقدم عليه بالزمان ، معيدا بذلك بيسير من الزيادة والنقصان ، إلى أن يسوق الحديث إلى زمانه وحوادث أوانه ، فيوردها شافية كافية ، ومن وراء الإشباع والإقناع آتية وشتّان مابين الخُبر والخَبَر ، وأين العيان من اقتفاء الأثر؟" ولقد أعاد تحقيقه الدكتور حافظ أحمد حافظ سنة 1953م بالقاهرة وهي الطبعة التي أخذت منها معظم المعلومات التي أدرجتها في الفصل الثالث خلال الحملة المغولية الأولى على الدولة الخوارزمية ومقاومة جلال الدين منكبرتي وعلاقته بالشيعة الإسماعيليّة.

وكتاب التاريخ السرّي للمغول وهو لمؤلف مجهول كتبه باللغة المغولية، وقد تُرجم إلى عدّة لغات منها الإنجليزية خاصة في النّشأة الأولى لجنكيزخان وقد ترجمه

إيجور دو راشفيلتز Igor de Rachewiltz ولا غنى للباحث عن هذا الكتاب خاصة في معرفة قبائل المغول التي كوّنت نواة الإمبراطورية المغولية، بالإضافة إلى نشأة جنكيزخان وشبابه.

أما بالنسبة لكتب السير والتراجم :

فيأتي في مقدمتهم كتاب ابن عبد الظاهر محي الدين (620-692هـ/1223-1292م) ، وهو عبارة عن سيرة الملك الظاهر بيبرس مرتبة حسب السّنين ، وقد كان ابن عبد الظاهر كاتبا للسلطان الأمر الذي مكنّه من الإطلاع على تفاصيل حياته السياسية خاصة في جانب العلاقات والرّسل والوفود التي كانت تهلّ على الدولة المملوكية إبّان حكم الظاهر بيبرس ، كما كان يكتب المراسلات باسم السلطان. وقد استمرت خدمة ابن عبد الظاهر حتى عهد الناصر قلاوون فكتب في عهده كتاب "تشريف الأيام والعصور لسيرة السلطان الملك المنصور"، ويعتبر الكتاب مكمّلا للأحداث التاريخية التي أعقبت فترة الظاهر بيبرس.

وابن شدّاد(عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الحلبي ت684هـ/1285م) وقد كتب تاريخ الملك الظاهر ، وهو عبارة عن سيرة شاملة للملك الظاهر بيبرس إلاّ أنّ الجزء الأول منها مفقود فلم يصل إلينا غير الجزء الثاني الذي يبتدأ من تاريخ سنة 670هـ إلى غاية سنة 676هـ وهي وفاة بيبرس .

بالإضافة إلى كتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، وكتاب الوافي بالوفيات للصفّدي ، وهو يشبه كثيرا ما جاء به الكتبي حول النّصير الطوسي وابن العلقمي وشخصيات البلاط العباسي آنذاك وكتاب المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغرى بردي الذي نقل عن الكتبي والصفدي بشيء من الايجاز .

بالإضافة إلى كتب الجغرافيا والرّحلات كرحلة ابن جبير محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي البلنسي الذي ولد سنة 540هـ/1145م وتوفي سنة 614هـ/1217م وقد قام ابن جبير بكتابة تفاصيل دقيقة عن ما شاهده في بلاد المشرق الإسلامي ، من العمران والأحوال السياسيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة لتلك المدن التي زارها ، وقد أفاد البحث من المعلومات القيمة بشأن التركيبة الديموغرافية للسنّة والشّيعة في بعض المدن التي زارها كدمشق مثلا التي دوّن بشأنها ملاحظات قيّمة ذات أهمية كبرى مثل تمركز التسنّن والتشيّع في ذلك الوقت ، ومنها أن الشّيعة كانوا أكثر من السنيّين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وفرقهم شتىّ ، منهم الرافضة والزيدية والإمامية والإسماعيلية والنصيرية والغرابيّة وغيرها ، مما يدّل على أن التشيّع الذي نشرته الدولة العبيدية لم يكن تأثيره قد زال تماما على يد صلاح الدين الأيوبي .

وابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ت 779هـ/1377م) في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار أو المشهور برحلة ابن بطوطة وقد اعتمدت على النسخة المحققة من طرف عبد الهادي التازي ، وتعتبر رحلة ابن بطوطة مصدرا أساسيا في هذا البحث نظرا للروايات التي تعدّدت أثناء رحلته للمشرق الذي زاره في عهد الناصر بن قلاوون ، حيث يذكر معلومات مهمة عن علاقة المماليك بالحشاشين في بلاد الشام ، واصفا الحصون التي يعيشون فيها بأن لا أحد يدخل عليهم من غيرهم "وهم سهام الملك الناصر يصيب بهم من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتّبات " ولعلّ هذا يدل على أنّ الحشاشين أو كما يصفهم ابن بطوطة بالفداويّة صاروا بعد الغزو المغولي أداة في يد السلطان المملوكي في مصر.

بالإضافة إلى الكتب الجغرافية الأخرى التي استفدت منها في شرح الاماكن والمدن كمعجم البلدان لياقوت الحموي وآثار العباد وأخبار البلاد للقزويني والروض المعطار في خبر الأقطار الحميري .

أما بالنسبة لأهم المراجع التي اعتمد عليها هذا البحث فيأتي في مقدمتها:

كتاب تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي للمستشرق الروسي الكبير بارتولد فاسيلي فلاديميروفتش وكتاب العالم الإسلامي في العصر المغولي للمستشرق الألماني شبولر بارتولد وكتاب المغول في التاريخ لفؤاد عبد المعطي الصياد ، وكتاب المغول للباز العريني .

بالإضافة إلى العديد من المصادر والمراجع المثبتة في المتن و قائمة الببليوغرافيا

صعوبات الموضوع :

لا يخلو أيّ بحث من صعوبات وعوائق قد تضطرّ الباحث إلى التوقف باستمرار والابتعاد عن جوّ البحث العلمي ، إلا أنّ أهم صعوبة واجهتني في كتابة هذا البحث تمثلت في كيفية الكتابة في التاريخ الطائفي والتجرّد من الإنتماء لأيّة طائفة ، بالإضافة إلى ندرة المادة العلمية التي تتحدث عن أثر الغزوات المغولية على العلاقات السنيّة الشيعيّة ، فلم أقف على أيّ دراسة متخصصة بهذا الموضوع إلاّ لمحمد بن المختار الشنقيطي الذي بحث في أثر الحروب الصيليبية على العلاقات السنيّة الشيعيّة .

فضلا عن الأيّام الصعبة التي قضيتها في الغربة محاولا الدراسة والبحث والكتابة في ظروف كانت استثنائية للعالم أجمع ، ولكنّها كانت أصعب للطلبة الباحثين الذين بقوا عالقين شهورا طويلة بعيدا عن أهلهم وذويهم.

ولا يسعني في نهاية البحث إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى **الأستاذ المشرف الدكتور أحمد شريفي** ، الذي كان معي على تواصل دائم طيلة أيّامي الصعبة التي قضيتها بالنّمسا، وأساتذتي الذين زرعوا في نفسي حبّ التاريخ، كما أتوجه بالشكر إلى **الأستاذ الدكتور برونو دي نيكولا Bruno De Nicola** الذي كان مشرفا على الأطروحة بالأكاديمية النمساوية للعلوم –مخبر الدراسات الإيرانيّة– الذي لم يبخل عليَّ بالنصح والتوجيه والإرشاد وأشكر كل أعضاء المكتبة الوطنية والجامعية بفيينا، والشكر موصول لرئيسة قسم الدراسات الإفريقية بجامعة فيينا **الأستاذة الدكتورة كريستن روثر Kirsten Ruther** ، على دعمها الكبير أثناء تربصي في جامعة فيينا في إطار برنامج طلبة الدكتوراه الزائرين ، بالإضافة إلى السفارة الجزائرية بفيينا الذين كانوا بمثابة عائلتي الثانية، كما لا أنسى كل أساتذتي في قسم التاريخ بجامعة الجزائر وعلى رأسهم أعضاء لجنة المناقشة الموقّرة الذين سهروا على قراءة هذا البحث المتواضع .

الفصل الأول:

المغول دراسة جغرافية بشريّة

المبحث الأول : موطن المغول

المبحث الثاني : القبائل المكوّنة للمجتمع المغولي

المبحث الثالث : توحيد القبائل المغولية

المبحث الرابع : دول المغول

المبحث الأوّل: موطن المغول :

شهد القرن السابع ميلادي الثالث عشر هجري ميلاد قوة جديدة و إعصار مدمّر قادم من أقاصي الشرق يجرف كل من يقف أمامه ، ابتلي به الناس عامة والمسلمون خاصة ، عرف هؤلاء القوم بالمغول أو التتار الذين كوّنوا في مدّة سنوات قليلة إمبراطورية عظيمة شملت معظم قارة آسيا وشمال أوروبا فما هو موطن المغول الأول ؟

1- الموقع الجغرافي:

يذكر الجويني بأنّ "موقع إقامة التتار ومنشأهم و مولدهم بواد غير ذي زرع ، يزيد مساحته طولا وعرضا عن مسيرة سبعة أو ثمانية أشهر ، يحدّه من الناحية الشرقية بلاد الخطا ، ومن الناحية الغربية بلاد الأويغور ، ومن الشمال بلاد القيرغيز وسلنكاي ، ومن الجنوب تـنكت و التبت[1]" [2] ، كما يذكر ابن الأثير بأنّ " مساكنهم جبال طمغاج[3] من نحو الصين ، وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد عن ستة أشهر"[4]

---

[1] التبت : تقع بلاد التبت في بلاد الترك وهي بلاد متاخمة للصّين يحدّها جنوبا الهند أما غربها حدود بلاد ما وراء النهر و بعض حدود الخلخ وشمالها بعض بلاد الخلخ والتغزغز، وهي بلاد عامرة لها خصائص عجيبة في هواءها ومائها ، ولا تحصى عجائب أنهارها وثمارها وآبارها ، جميع أهلها أتراك يتميزون برقة الطبع وحسن اللون وجمال الخلق . للإستزادة أنظر : القزويني ، **آثار البلاد وأخبار العباد** ، دار صادر ، بيروت، 1969،ص 79 والحميري ، **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، ط2، تحقيق : إحسان عباس ، مكتبة لبنان ،1984 ، ص 130 و مؤلف مجهول ، **حدود العالم من المشرق إلى المغرب** ، تحقيق : يوسف الهادي ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ، 1999، ص 59-60 .

[2] عطا ملك الجويني ، **تاريخ فاتح العالم جهانكشاي** ، تحقيق : محمد عبد الوهاب القزويني ، ترجمة : السباعي محمد السباعي ،المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2007 ، ج 1 ، ص 62 .

[3] طمغاج : مدينة مشهورة كبيرة في بلاد الترك ، ذات قرى كثيرة ، وقراها بين جبلين في مضيق لا سبيل إليها إلا من ذلك المضيق ، ولا يمكن دخولها لو منع مانع فلا يتعرض لها أحد من ملوك الترك ، لعلمهم بأن قصدها غير مفيد و سلطانها ذو قدر ومكانة عند ملوك الترك . للإستزادة أنظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 411 .

[4] ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، مراجعة و تصحيح : محمد يوسف الدقاق ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2003 ، ج 10 ، ص 401 .

ويورد الصياد بأنّ موطن المغول الأول كان"في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي ، وهي تمتد في أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا ، وشرقي التركستان[1] بين جبال ألتاي غربا وجبال خنجان شرقا"[2].

وبهذا فقد عاشت قبائل المغول في المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهري سيحون[3] وجيحون[4] من الغرب حتى حدود الصين الجبلية ، ومن جهة الشرق ممتدة حتى أقصى الشمال الشرقي لآسيا[5].

ويمكن إعتبار هضبة منغوليا وسلاسل جبال تيان شان و جبال التاي وما بينهما من سهول ، وصحراء جوبي ، وحول بحيرة بايكال وضفاف الأنهار الموجودة في تلك المنطقة ، الموطن الرئيسي لقبائل المغول [6] ، و يؤكّد مؤنس بأن المغول " كانوا يسكنون حتى منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي في الفيافي

---

[1] تركستان : اسم جامع لجميع بلاد الترك ، وحدّها من الإقليم الأول ضاربا في المشرق عرضا إلى الإقليم السابع وأكثرهم أهل الخيام ، ومنهم أهل القرى ، تمتاز عن جميع الأمم بكثرة العدد ، ، وزيادة الشجاعة والجلادة، وهم عراض الوجوه فطس الأنوف للإستزادة : أنظر القزويني ،المصدر السابق ، ص 514 .

[2] فؤاد عبد المعطي الصياد ، **المغول في التاريخ** ، دار النهضة العربية ، لبنان ، 1980 ، ج 1 ، ص30 .

[3] سيحون : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وحاء مهملة هو نهر مشهور كبير في بلاد ما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند يجمد في الشتاء فتعبر من خلاله القوافل وهو في حدود بلاد الترك ، ويدعى كذلك بنهر سيرداريا Syrdarja. للإستزادة أنظر : ياقوت الحموي (ت626هـ/1228م) **معجم البلدان** ، دار صادر ، بيروت ، 1977 ، ج3 ، ص294 و بارتولد فاسيلي فلاديميروفتش ، **تركستان من الفتح العربي إلى العصر المغولي**، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، قسم التراث العربي ، الكويت ، 1981 ، ص 145.

[4] جيحون : ويسمى كذلك بنهر "أمودايا Amu Darya" يعتبر الحد الذي يفصل بين إيران و توران ، ينبع من موضع يدعى ريوساران وهو جبل يتصل بناحية السند والهند وكابل ، ويصب في بحيرة خوارزم – بحر آرال – ، به روافد كثيرة ، وقد سمّى العرب البلاد التي تقع وراءه بلاد ما وراء النهر أي نهر جيحون ، للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 196 و كي لسترنج ، **بلدان الخلافة الإسلامية** ، ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1985 ، ص 476 .

[5] إسماعيل عبد العزيز الخالدي ، **العالم الإسلامي و الغزو المغولي** ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، 1984 ، ص 19 .

[6] السيد الباز العريني ، **المغول** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص 5-10 .

وأراضي الإستبس الواسعة الواقعة شمال منشوريا و منغوليا والتركستان ، وكانت تجاورهم في مراعيهم القبائل التركية و القبائل التنغورية [1]" و فلكيا فإن موطن المغول يتحدد بين دائرتي عرض (55،41) شمال خط الاستواء ، وخطي طول (138،110) شرقا[2] .

وبهذا فإن البعد الشديد عن البحار بالاضافة إلى الإرتفاع عن مستوى سطح البحر أسهم باختصاص هذه الاراضي المرتفعة بمناخ قاري ، شديد الحرارة صيفا ، و قارس البرودة شتاء ، والمناخ القاري واضح بين الفصول بين الليل والنهار زيادة عن ندرة الأمطار خاصة في وسط الصيف والشتاء ففي أوجرا Ougra الواقعة بمنغوليا ، تتفاوت درجة الحرارة بين 38 فوق الصفر ، و42 تحت الصفر [3].

ومن خلال استعراض طبيعة الموطن جغرافيا، فإنه يلاحظ وجود أجزاء كبيرة من المساحة لبلاد المغول يغلب عليها الطابع الصحراوي الجاف ، فهي امتداد لصحراء جوبي ، إضافة إلى الاحاطة بالسلاسل الجبلية مثل : جبال ألتاي و يابوني و سايان وتخترق هذه السلاسل عدة أنهار مثل نهر أمور amor ونهر كيرولين keroulen ونهر انون Onon [4].

ومن خلال قساوة البيئة الجغرافية التي كان يعيش فيها المغول ندرك مدى الخشونة التي كانوا يتحلون بها زيادة إلى صلابة أجسادهم و قوتهم في المراس و ثباتهم في الحروب [5].

---

[1] حسين مؤنس ، **أطلس تاريخ الإسلام** ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1987 ، ص 239 .

[2] زيادة نيقولا ، **أطلس العالم** ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1996 ، ص 66 .

[3] العريني ، المرجع السابق ، ص 6 .

[4] قاسم محمد غنيمات و آخرون ، **قبائل المغول الأولى** : النشأة والاندماج والتوحيد (616هـ/1218م) ، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار ، المجلد 5 ، العدد 3 ، 2011 ، ص 92 .

[5] أنظر الملحق رقم 01 ، ص 330 .

2- أصل المغول :

ظلت عملية البحث عن الأصول الأولى للمغول محل إهتمام المؤرخين نظرا للغموض السائد حول جذورهم التاريخية القديمة ، بالإضافة إلى تضارب الروايات حولها الأمر الذي شكل عائقا أمام الباحثين لمعرفة أصول و مواطن طوائف الأتراك والمغول التي كانت تسكن القارة الآسيوية في تلك الفترة نظرا لكثرة الحروب والأزمات الداخلية التي سيطرت على حياتهم ، فيعتبرهم البعض بأنّهم أقرب الأقوام إلى الترك لاسيما من الناحية الثقافية[1] ، في حين يُدخلهم البعض ضمن الترك فعلا [2] والواقع أن أصل كلمة "مغول" تحتمل عدة شروح كما لا نملك تفسيرا موحدا لمعنى كلمة "مغول" ولعل الإقتراح الأقرب للواقع أن أصل كلمة "مغول" – التي كانت تعني في البداية قبيلة واحدة– أصبحت إسما جامعا يحمل بين ثناياه الشعوب والقبائل المغولية كافة "[3].

يرى رشيد الدين أن أصل كلمة "مغول" كانت تعني "الواهن " أو " الضعيف" ، أو "بسيط السريرة" ، أو "صافي القلب" [4].

كما عرفهم المؤرخون المعاصرون سيما الذين عاشوا زمن المغول وغزواتهم للعالم الإسلامي بأنهم هم التتر أو التتار كابن الأثير و ابن العبري و غيرهم ، وقد نهج منهجهم من جاء بعدهم من المؤرخين ، بل وحتى الأغلبية من مؤرخي المغول في عصرنا الحاضر ، على أن هذه التسمية الخاطئة لن تقتصر فقط على المؤرخين

---

[1] يلماز أوزطونا ، **المدخل إلى التاريخ التركي** ، ترجمة : أرشد الهرمزي ، الدار العربية للموسوعات ، لبنان ، 2005 ، ص 361 .

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 33 .

[3] ي. إ . كيتشانوف ، **حياة تيموجين (جنكيزخان) الذي فكر في السيطرة على العالم** ، ترجمة : طلحة الطيب ، مركز جمعة ماجد للثقافة والتراث ، دبي ، 2005 ، ص 9 .

[4] الهمذاني (رشيد الدين فضل الله ت718 هـ/1317م) ، جامع التواريخ ، تحقيق : فؤاد عبد المعطي الصياد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ت ن ، مج 1 ، ص 154 .

المسلمين من العرب ، بل وسار على ذلك التعريف الخاطئ المؤرخون والرحالة الأوربيون الأقدمون منهم [1].

إلا أن المؤرخين المستشرقين الكبار أمثال فلاديمير بارتولد الروسي ، وشبولر الألماني وبويل الإنجليزي ، تفطنوا إلى الفرق بين المغول و التتار وذلك من خلال ماكتبه رشيد الدين الهمذاني في كتابه جامع التواريخ بالإضافة إلى مصدر مهم عن حياة المغول هو التاريخ السري للمغول الذي كتب باللغة المغولية ، وبناء على ذلك نجد أن التتار فرع من المغول ، ويذكر المؤرخ المنغولي بيرا Bira Shagdaryn بأن المغول قد ظهروا وفق المصادر الصينية القديمة حوالي القرن الرابع الميلادي تحت اسم الشيواي مينغ–غو Shi Wei Meng–gu أو شيواي المغول Shi–wei Mongol [2]. كما يلاحظ وجود قبيلة كبيرة تحمل اسم التتار في حين لا وجود لقبيلة تحمل اسم المغول ومن ثم فالاسم العام لهذه القبائل هو المغول أي أن التتار جزء من المغول و ليس العكس ولعل أول من تفطن لهذا هو الجوزجاني الذي ذكر بأن " قبيلة التتار كانت أكبر قبائل المغول "[3] .

في حين يذكر الروسي بارتولد بأن الصينيين صنفوا التتار والقبائل المغولية طبقا لدرجات حضارتهم إلى :

- التتار البيض : وهم من المنطقة الجنوبية شمالي الحدود الصينية مباشرة
- التتار السود : بعيدا عنهم إلى الشمال

---

[1] سامي حمود الحاج جاسم ، **المغول ، نشأتهم ، موطنهم ، حروبهم الأولى** ، مجلة كلية التربية الأساسية ، الجامعة المستنصرية ، بغداد ، المجلد 19 ، العدد 81 ، ص 447 .

[2] Bira Shagdaryn and authers , **History of civilization of central Asia** , unesco publishing , France , 1998 , V4 , p 249 .

[3] الجوزجاني (أبي عمر منهاج الدين عثمان) ، **طبقات ناصري** ، ترجمة وتقديم : ملكه علي التركي ، المركز القومي للترجمة مصر ، 2012 ، ج2، 117 .

- التتار المتوحشون أو ساكنو الغابات الذين كانوا يعيشون على الصيد و قد اعتنقوا الديانة الشمانية [1] .

و يرى لين بول lane pool أن اسم المغول لم يظهر في عالم الوجود حتى القرن العاشر الميلادي ويرجح انه أطلق على بعض القبائل التي انضوت تحت قيادة زعيم كان يحمل هذا الاسم ثم استطاع بعد ذلك فرض سيادته على قبائل أخرى دخلت في تحالف معه ومن ثم حملت اسمه [2] .

أما فاروق عمر فيكتب عنهم بشيء من التفصيل فيقول : "عرف المغول بأسماء مختلفة ، منها المغول والتتر والتتار وهي مسميات واحدة لشعب واحد يتكون من قبائل متعددة ، ويعتبرون جميعا من الترك "[3].

ومهما يكن من أمر فقد شكّلت امبراطورية المغول اتّحاد يتألف من عدة قبائل كانت تنتشر في مناطق آسيا الوسطى ، وترجع في جذورها الأولى إلى أصول متعددة كالترك والتتار والمغول ، وبهذا أصبحت العشائر جميعها في القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي نواة الشعب المغولي الذي برز على الساحة منذ ذلك التاريخ و أصبح يعرف بهذا الإسم [4].

---

[1] بارتولد شبولر، **العالم الإسلامي في العصر المغولي** ، ترجمة : خالد أسعد عيسى ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق ، 1992، ص 20 .

[2] Stanley Lane poole , **The Mohammedan dynasties. Chronological and genealogical tables with historical introductions**, Westminster, A. Constable and Co., 1894, p 228-229.

[3] حسن شبر ، **خلفاء بني العباس و المغول أسقطوا بغداد** ، ط4 ، المجمع العالمي لأهل البيت ، بيروت ، 2011، ص 424-425 نقلا عن فاروق عمر ، تاريخ العراق في عصور الخلافة العباسية .

[4] قاسم محمد غنيمات و آخرون ، المرجع السابق ، ص 93 .

المبحث الثاني: القبائل المكونة للمجتمع المغولي:

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) كان ينزل شمال منشوريا ، ومنغوليا ، وتركستان ، قبائل بدوية متأخرة تتخذ من الرعي والصيد مهنة لها ، تنتقل وراء العشب من مكان إلى آخر وتنتمي هذه القبائل من الناحية اللغوية إلى مجموعات : منها مجموعات تركية ومجموعات مغولية وأخرى تونغوزية[1] ويصعب على المؤرخ أن يفصل بشكل قاطع بين هذه المجموعات ذلك لأن صلات وثيقة قامت بينهم جعلت ألقابهم ، وعاداتهم ، وكلامهم متقاربا [2] ، وجميعهم من الجنس الآلتائي [3].

كما ذكر الهمذاني مجموعة كبيرة من القبائل التي كانت تعيش في هذه المنطقة وقسمها إلى قبائل مغولية وأخرى تركية . أما القبائل المغولية : فهي جلاير، سونيت، تاتار ، المركيت ، ترقوت ، قوم أويرات بوقاتيمور ، سقايت ...الخ . وأمّا القبائل التركية فهم : الكرايت ، النايمان ، الأونكوت ، تنكقوت ، أويغور ،توركش ، القارلوق، قبجاق..الخ [4] .

ولا شك أنّ تحديد المواقع الجغرافية لهذه القبائل جميعها أمر عسير ومن ثم سيتم الإشارة إلى أشهر هذه القبائل ولعلّ من أهمها:

1- القبائل التركية :

المعروف أن لفظة ترك (في الصينية توكيو Tu-kue) ، وفي اليونانية Toup Koi ، ظهرت لأول مرة اسما لشعب بدوي في القرن السادس الميلادي ، حين أسّس

---

[1] قسم من تتار المانجو ، وقد أطلق عليهم الروس هذا الإسم (التنغوز) ويسمون أحيانا (صولون) ومعناها بلغة المانجو الصيادون والرماة . للإستزادة أنظر : الصياد ، المرجع السابق ، ص 25 .

[2] إسماعيل الخالدي ، المرجع السابق ، ص 21 .

[3] الصياد ، المرجع السابق ، ص 25 .

[4] الهمذاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 48-49 .

الترك إمبراطورية قوية ، امتدت من منغوليا وشمال الصين حتى البحر الأسود واقتسم أخوان حُكم هذه الإمبراطورية ، فحكم أحدهما تومين Tu-men(مات سنة 552م) أتراك الشمال ، بينما تولى أخوه Istami (مات سنة 576م) أمر أتراك الغرب . وفي القرن السابع خضعت المملكتان لأسرة تانج الصينية (618-907م) ، على أن أتراك الشمال لم يلبثوا أن استقلوا ، وحافظوا على هذا الاستقلال حتى سنة 744 م ، ويرجع زمنهم إلى نقوش أرخون (نسبة إلى نهر أرخون في منغوليا) التي تعتبر أقدم النقوش التركية ، بينما لم ينجحوا في إخضاع الغرب [1].

أ)- قبيلة توركش :

وذكرها ابن الفقيه ضمن قبائل الأتراك[2] ، التي اتخذ رؤساؤها لقب "خانات" أواخر القرن السابع الميلادي وظلت محافظة على استقلالها حتى سنة 739م/121هـ حين قضى عليها المسلمون بقيادة نصر بن سيار ، وكان خاقان الغرب ينزل على نهر جو وعرف قومه باسم أونوك (السهام العشرة) [3].

ب)- قبائل القرغيز :

كانوا ينزلون في أعالي نهر ينيسي ، واتخذ أميرهم لقب خاقان في القرن الثامن (نقش أرخون). على أنهم لم يشتهروا من الناحية السياسية إلى حوالي سنة 840م/226هـ ، حينما انتزعوا أراضي الأويغور من منغوليا ، واتسعت بلادهم لكن لم يلبث الخطا أن طردوهم من منغوليا في أوائل القرن العاشر ميلادي ، بينما احتفظ الجانب الأكبر منهم بمنازلهم في أعالي نهر ينيسي ولذا

---

[1] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 28-29 .

[2] ابن الفقيه (أبي عبد الله أحمد بن محمد الهمذاني) ، **البلدان** ، تحقيق : يوسف الهادي ، عالم الكتب ، لبنان ، 1996 ، ص 634 .

[3] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 29 .

كان على الخطا أثناء طردهم من منغوليا وسيرهم نحو الغرب أن يقاتلوا القرغيز الذين احترفوا الزراعة ، ثم خضعوا للمغول زمن جنكيزخان 1218م/615 هـ [1].

ج)- قبائل الأويغور Uighur :

كانوا ينزلون شمال منشوريا على نهر سلنجا (Selenga) وقد انتقل اليهم الملك في منغوليا عن الاغوز[2] ، و كان أتراك الأويغور يسمون أميرهم " أيدى قوت " و معناه سيد الدولة ، وكان أميرهم هو بارجوق ، وفي ذلك الربيع استولى القراخطاي على بلاد ما وراء النهر و تركستان فدخل بارجوق أيضا في طاعته و قبل دفع الجزية له أرسل إليه شحنة وكان إسمه شاوكم ، فلما استقر شاوكم في الحكم سلك سبيل الظلم و الاستهزاء بأيدى قوت و أمرائه حتى نفر الأمراء والرعية ، فلما استولى جنكيزخان على بلاد الخطا وذاع صيته وشاع أمر انتصاره أمر أيدى قوت بعض رجاله بالقبض على شاوكم ، و أرسل بعض رسله إلى إلى جنكيزخان معلنا الانشقاق والعصيان على القراخطاي ومذعنا و مستسلما لجنكيزخان ، فأكرم وفادة الرسل و أمر بإعزازهم و إكرامهم ، و نوه برغبته في ضرورة حضور أيدى قوت إليه بنفسه ، فسارع إليه امتثالا لأمره ، وحينما وصل إلى هناك شاهد ما وعد به من وعود ، وعاد محملا بالهدايا والهبات [3].

أما في الجانب العقائدي فقد اعتنقوا المانوية حوالي النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (النصف الأول من القرن الثاني الهجري) ، ونشط في هذه الفترة دعاة البوذية والمسيحية "النسطورية" في نشر دعوتهم بين الصينيين و بين القبائل التركية[4]

---

[1] الصياد ، المرجع السابق ، ص 30 .

[2] الخالدي ، المرجع السابق ، ص 22 .

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 81 .

[4] الخالدي ، المرجع السابق ، ص 22

د)- قبائل القراخطائيين :

اختلف المؤرخون حول الجذور التاريخية للقراخطائيين فمنهم من يرى أنّ أصولهم تعود إلى القبائل التركية كابن خلدون الذي ذكر بأنهم " أمّة بادية يسكنون الخيام التي يسمّونها الخركاوات وهم على دين المجوسية كما كانوا موطّنين بنواحي اوزكنده وبلاد ساغون وكاشغر .."[1] بينما يرى بارتولد بأن أصولهم تعود إلى المغول [2]، في حين يرى بعض المؤرخين أنهم من التتار [3]. على أن أغلب المؤرخين يرون أن القبائل التركية قد انقسمت إلى قبائل شمالية و قبائل جنوبية و صنفوا الخطا ضمن القبائل التركية الجنوبية [4] ، في حين انفرد أحد المؤرخين مؤكدا أن أصول الخطا تعود إلى بلاد الصين غير أنهم طردوا منها فيما بعد ، ولعل هذا المؤرخ يستند إلى سيطرة الخطا على بلاد الصين وتكوين إمبراطورية لهم فيها لسنوات عدة [5]، إلا أنه مهما يكن من أمر فقد أجمع غالبية المؤرخين على الأصل التركي لقبائل الخطا [6].

هاجم القراخطائيون دولة الترك القراخانية واستولوا منهم على منطقة واسعة جنوبي بحيرة بلكاش ، واستنجد الترك القراخانية بالسلطان أحمد سنجر السلجوقي ، ولكن القراخطاي هزموه شمال سمرقند سنة 536هـ/1141 م وبذلك امتدت مملكة

---

[1] ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد ت 808هـ/1406م)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، تحقيق : خليل شحادة ، دار الفكر ، لبنان ، 2000 ج5 ، ص 122 .

[2] فاسيلي بارتولد ، **تاريخ الترك في آسيا الوسطى** ، ترجمة : أحمد سعيد سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص 114 .

[3] ويرجح الباز العريني أنهم من قبائل التونغوز أو مغول حسب بعض الآراء مستدلا بنقش أرخون التي أشارت أن الخطا أو الخيتاي كانوا ألد أعداء الترك . للإستزادة أنظر : العريني ، المرجع السابق ، ص 32 .

[4] سعد زغلول ، **الإسلام و الترك في العصر الإسلامي الوسيط** ، مجلة عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت 1979 ، المجلد العاشر ، العدد 02 ، ص 112 .

[5] حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 239 .

[6] سعاد الطائي ، **دراسات في تاريخ الترك والمغول** ، دار مكتبة عدنان ، بغداد ، 2015 ، ص 33 .

القراخطاي من بلاد القرغيز على نهر ينسي حتى بلخ جنوبا و من خوارزم إلى بلاد الاويغور ، واتخذ ملكهم لقب كورخان و أقام عاصمته في بلاساغون على نهر جو[1].

هـ)- الكرايت :

ينتسبون إلى العنصر التركي انتشروا في الجانب الغربي لبحيرة بايكال بين نهر أرخون و جبال كنتاي حتى سور الصين ، و يعد الكرايت من القبائل التي كان لها شأن كبير في الصراعات التي شهدتها منغوليا في منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي [2] ، فقد وصفهم الجويني بأنهم " قبيلة ذات قوة ومكانة تفوق غيرها من القبائل بالعدة والعتاد والعدد " [3]باستثناء التتار الذين كانوا في أكثر الأوقات على خصام معهم وكثيرا ما كان زعماؤهم يستعينون بحكام الصين الشمالية للإيقاع بهم [4]، وتعتبر قبيلة الكرايت من أكثر القبائل التركية التصاقا بالمغول وتشبها بهم حتى اعتبرهم البعض قبيلة مغولية خالصة [5] فقد اعتبرهم الهمذاني من قبائل المغول و تبعه في ذلك الصياد بينما تحفظ جروسيه عن كونهم من الأتراك أم من المغول [6].

---

[1] مؤنس ، المرجع السابق ، ص 239 .

[2] رغد عبد الكريم أحمد النجار ، **إمراطورية المغول (دراسة تحليلة عن التاريخ المبكر للمغول وتكوين الامبراطورية والصراعات السياسية على السلطة 603-766هـ/1206-1365م)** ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2012 ، ص 33 .

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 69 .

[4] العريني ، المرجع السابق ، ص 34 .

[5] كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 43 .

[6] الصياد ، المرجع السابق ، ص 27 .

و)- النايمان :

تعتبر قبائل النايمان من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي وهم يقطنون الحوض الأعلى لنهر أرخن و منحدرات جبال ألتاي [1] حول البحيرات الواقعة في تلك المناطق [2] .

عاش النايمان غرب أعالي نهري أرخون و نارون ، امتدت ديارهم إلى نهر أرتيش ومع أن اسمهم يبدو انه مغولي فإن ألقابهم كانت تركية ، ولذا فقد اعتبرهم بعض المؤرخين من الترك المغول ، كما اعتنقوا الشامانية مثل سائر شعوب الإستبس ، غير أن المسيحية النّسطورية تسلّلت إليهم ، وجاءتهم أسباب الحضارة من الأويغور الترك الذي كانوا يعيشون إلى الجنوب منهم [3].

ذكر بارتولد عن النايمان بأنه وجد ذكرا لهم في كتاب أرسله قس نسطوري في آسيا الوسطى إلى الجاثليق في بغداد ، تحدّث في هذا الكتاب عن هجوم قام به قوم منقسمون إلى ثمان قبائل ، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء المغول المُسمّون (نايمان) وكانوا في عهد جنكيز خان يسكنون الجزء الغربي من منغوليا ، ومعروف أن كلمة (نايمان) بالمغولية تعني (ثمانية) وفي الكتاب أن القوم المهاجمين كانوا منقسمين إلى ثمانية قبائل [4]، ومن ثم فأغلب الظن أن القس كان يتحدث عن قبائل النايمان ولو لم يذكرهم بصريح العبارة ، وقد يتراءى للباحث من هذا النص مدى غموض القبائل التي كانت تعيش في أواسط آسيا حتى على القس النسطوري نفسه ، بالإضافة إلى وجود علاقة متينة بين جاثليق بغداد و رجال الدين النّساطرة في أواسط آسيا .

---

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 146 .

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 29 .

[3] العريني ، المرجع السابق ، ص 35 .

[4] شبولر ، المرجع السابق ، ص 121 .

بعد ظهور جنكيزخان على مسرح الأحداث توجّس النايمان منه خيفة وأقلقتهم قوته المتصاعدة ممّا دفعهم إلى اتخاذ إحتياطاتهم والاستعدادات التي تقيهم الأضرار التي كانت من الممكن أن تقع عليهم نتيجة لاختلال موازين القوى في منطقتهم وإقامة الأحلاف التي تجعل من قبيلة النايمان قوة قادرة على حماية مصالحها [1]، ولتحقيق ذلك بدأ الحاكم النايماني "تايان خان" في إقامة تحالفات جديدة ، فقد حاول أن يكوّن حلفا مع قبيلة أنكوت ، التي كانت تعيش في المناطق القريبة من سور الصين العظيم ، وذلك محاولة منه أن يهاجموا معا جنكيزخان من كلا الجانبين[2] .

وحين سمع جنكيزخان بتحركات حاكم النايمان من خلال معلومات تسربت إليه من قبيلة أنكوت ، قام بتنظيم جيشه و بدأ حملته العسكرية ضد النايمانيين سنة 600هـ/1204م و خرج إليه حاكم النايمان تايان خان و ابنه كوتشلوك لمقابلة المغول إلا أنهم منيوا بهزيمة ساحقة على أيدي المغول فبينما هرب كوتشلوك ، فإن والده لقي حتفه في المعركة [3].

ولكن بروكلمان ذكر بأنه " في سنة 1206م تم له إخضاع قبيلة النايمان النصرانية القوية في منغوليا الغربية " [4].

ز)- قبائل القارلوق :

ظهرت قبائل القارلوق على مسرح التاريخ منذ منتصف القرن الثامن الميلادي(منتصف القرن الثاني الهجري) وذلك حينما استولوا على وادي نهر (جو) بعد سقوط إمبراطورية "خاقان" الترك الغربيين ، لم يتخذ أمراءهم لقب

---

[1] فلاديمير ستوف ، **حياة جنكيزخان** ، ترجمة : سعد الغامدي ، د د ن ، الرياض ، 1983 ، ص 20 .

[2] ساهرة عواد عبدعلي ، **قبيلة النايمان المغولية** ، مجلة ديالي ، العراق ، العدد 54 ، ص 272 .

[3] ستوف ، المرجع السابق ، ص 95 .

[4] كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، ترجمة : نبيه أمين فارس و منير البعلبكي ، ط5 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1968 ، ص 283 .

خاقان بل اكتفوا باتخاذ لقب (يبغوا)[1]. ويذكر الصياد بأن بلادهم تقع جنوب مملكة الأويغور ، وكانت تشمل كل الحوض الأسفل لنهر تاريم و هؤلاء الأتراك كانوا يعرفون في الشعر الفارسي باسم (خَلُّخ) ، ويوصفون باستقامة القامة وجمال الوجه [2].

2- القبائل المغولية :

أ)- التتار :

ظهر مصطلح التتار لأول مرة سنة 731م/112هـ وذلك في نقش تركي كول-تيجن kul-tegin تحت اسم التتار الثلاثون ، والتتار مصنّفون من الشعوب الأكثر عداوة للأتراك [3].

ويرى الكثيرون أن اسم التتار مشتق من اللغة الصينية ، إذ كانت هناك قبيلة مغولية يطلق عليها اسم "تاتا" أو "دادا" أو "تاتان" ، تسكن منطقة منشوريا و شمال شرقي منغوليا في القرن الخامس الميلادي ، وكانت بعض اللهجات الصينية التي يتوفر فيها صوت يشبه حرف (ر) ، تطلق عليها " ترتار" أو "تاتار" . وقد تميزت تلك القبيلة بروح قتالية عالية ، مما جعلها تهدد القبائل المغولية المجاورة أو القريبة منها ، وصارت مصدر إزعاج للصينيين أنفسهم . ومن ثم فقد صورهم الصينيون بالبرابرة الهمجيين . كما أطلق مؤرخو الصين هذا الاسم فيما بعد على الشعوب الشمالية المجاورة لها ، أو على الشعوب المعادية لها بصفة عامة ، وكانت منها

---

[1] الخالدي ، المرجع السابق ، ص 24 .

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 30 .

[3] Christopher P.Atwood , **Encyclopedia Of Mongolia And The Mongol Empire** , Facts on file library of world history , New york , united states of america , 2004 , p 529.

قبائل غير مغولية الأصل من منطقة آسيا . ومن الصينيين انتقل اسم التتار كمرادف للبرابرة المتوحشين إلى المصادر العربية والفارسية ثم الأوربية [1].

كان التتار يقطنون المنطقة التي تحد شمالا بنهر أرغون و سلنجا selenga ومملكة القرغيز ، وشرقا بإقليم الخطا (الصين الشمالية) وغربا بممالك الاويغور ، وجنوبا باقليم التبت ، ومملكة التانجوت ، كانت هذه القبائل من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا و جبروتا في أقاليم آسيا الشمالية وهم يتشعبون إلى شعب كثيرة [2] .

وقد عبر جنكيزخان عن شدة غضبه و مقته على قبائل التتار بقوله :" كان التتار يقتلون آباءنا و أجدادنا من قديم الزمان ، فسوف نأخذ بثأر هؤلاء السلف " ، وجمع جنكيزخان كل جيوشه و قضى بالفعل على تلك القبائل [3].

ويقول كيتشانوف : " هكذا تم القضاء على قبيلة التتار قبل ظهور المغول على مسرح التاريخ ، تلك القبيلة التي تركت مجرد اسمها يطلق على جميع القبائل المغولية . وعقب مرور ما يقرب من ثلاثين عاما ارتفع صياح التتار أثناء مجازر المغول في مدن و قرى الغرب النائية ، مع أن التتار لم يبق منهم في جيوش الغزاة الجارفة إلا القليل ، ولم يبق منهم إلا الاسم الذي كان يثير الرعب بين الشعوب المختلفة ، بينما هم أنفسهم كانوا مدفونين منذ زمن بعيد في تراب أوطانهم بعد أن بترتهم السيوف المغولية " [4].

---

[1] أبرار كريم الله ، **من هم التتار** ؟ ، ترجمة : رشيدة رحيم الصبروتي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1994 ، ص 26 . و جورج لاين ، **عصر المغول** ، ترجمة : تغريد الغضبان ، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، الإمارات ، 2012 ، ص 51 .

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 26 .

[3] أبرار ، المرجع السابق ، ص 27 .

[4] كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 172 –173 .

وقد اختلف المؤرخون المعاصرون حول موقف جنكيز خان من تسمية أتباعه بالتتار ففي حين يذكر بعضهم بأن جنكيزخان قد أصدر أمرا بمنع استخدام اسم التتار الذي كرهه من أعماق قلبه ، حتى انه حينما قام الرحالة الأوربي روبروك (Rubruk) بزيارة جيوش المغول في عام 1254م حذروه بشدة من ذكر اسم التتار أمام المغول ، لكن هذا الاسم كان قد انتشر في ذلك الوقت انتشارا واسعا شمل مناطق آسيا و أوربا بكافة بلادها حتى المحيط الأطلنطي ، ولم تستطع مثل هذه الإجراءات الإدارية أن تمح هذا الإسم من ذاكرة الشعوب[1] أما البعض الآخر فيذكرون بأنه على بعد إنتصار جنكيزخان على التتار ، أطلق إسمهم عليه وعلى أتباعه ، وذلك بالرغم من أن جنكيزخان كان ينظر إليهم على أنهم ألد أعدائه بل إن تفرغه لقتال التتار كان مدفوعا بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم ، فقام مع جنوده بالإجهاز عليهم واستئصال شأفتهم ، وأصدر أمرا قاطعا بألاّ يُترك أحد منهم على قيد الحياة . و تنفيذا لهذا القرار الرهيب ، صار جنود المغول يقتلون حتى النساء والأطفال ، ويشقّون بطون الحوامل ، لأنه تأكد لدى المغول أنّ التتار هم سبب الفتنة و رأس الفساد ، ولم يقف جنكيزخان عند هذا الحد ، بل أنّه لم يترك فرصة لأيّ شخص لكي يقوم بحماية هؤلاء التتار ، ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشدّدة فقد أقبل الكثير من المغول على الزواج من بنات التتار ، وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم [2]. وفي هجوم المغول على الممالك الإسلامية كانوا يعرفون باسم بالتتار كما أطلق عليهم أيضا إسم المغول [3].

[1] أبرار ، المرجع السابق ، ص 27 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 62 . و الصياد ، المرجع السابق ، ص 27 .

[3] إن لهذا الرأي وجهة نظر أقرب إلى الصواب فلعل مراد جنكيزخان من إطلاق هذا الاسم – التتار – على أتباعه مفاده إخافة أعداءه الذين كان يرهبهم اسم التتار الذي كان يرادف البربرية والوحشية و هو الأمر الذي=

ب)- قبائل أويرات (Oirotes)

يلفظ اسم هذه القبيلة المغولية اويرات Oirat أو أويرار (Oyirad)[1]وكانوا يقطنون في المنطقة الواقعة بين نهر أونن (Onon) ، و بحيرة البايكال و غير بعيد من الشاطئ الغربي لبحيرة البايكال وقد عاش إلى جوار قبائل اويرات قبائل آرلاد و جلاير[2]، وذكر بعض المؤرخين أن مكان إقامتهم غرب بحيرة البايكال ، على مقربة من منابع نهر ينسي أو الأنهار الثمانية [3].

كان عدد قبائل الاويرات كبيرا جدا وقد تشعبوا إلى عدة شعب ، كما كانوا قبائل بدائية جدا [4]. و لهم ملوك وحكام يأتمرون بأمرهم كسائر القبائل المغولية الأخرى . ولما جاء جنكيزخان خالفوه بعض الشيء ، إلا أنهم سرعان ما قدموا له الخضوع والطاعة ، وتم ذلك على خير وجه . وقد صاهرهم جنكيزخان[5].

ج)- المركيت (Merkites) :

وهي قبيلة مغولية أقامت في المنطقة الواقعة شمال بلاد الكرايت ، وإلى الجنوب من قبيلة الاويرات ، على المجرى الأسفل لنهر سلنجا و أرخون، جنوبي بحيرة بايكال [6] ، وإضافة إلى هذا المسمى القبلي فإنه يطلق عليها أيضا اسم مكريت[7] .

طالما لعب على وتره المغول كثيرا ذلك أن دعاية الرعب كانت من أكثر الوسائل التي اعتمدها المغول في إرهاب وإخافة أعداءهم ومن ثم الانتصار عليهم .

[1] قاسم محمد غنيمات و آخرون ، المرجع السابق ، ص 105 .

[2] عباس إقبال ، **تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان إلى قيام الدولة التيمورية** ، ترجمة : عبد الوهاب علوب ، دار المجمع الثقافي ، الإمارات ، 2000 ، ص 48

[3] شبولر ، المرجع السابق ، ص 152 و أحمد حطيط ، **حروب المغول** ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1994 ، ص 14 .

[4] رجب محمود إبراهيم بخيت ، **تاريخ المغول وسقوط بغداد** ، مكتبة الإيمان ، مصر ، 2010 ، ص14 .

[5] الصياد ، المرجع السابق ، ص 29 .

[6] الهمذاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 73 و رجب بخيت ، المرجع السابق ، ص 15 .

[7] الصياد ، المرجع السابق ، ص 28 .

و من المعروف تاريخيا أن والدة تيموجين[1] تنتمي إلى هذه القبيلة[2].

تعتبر قبيلة المركيت من أقوى القبائل المغولية بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي الموافق للخامس والسادس هجري[3] ، نظرا لكثرة عددهم وقوة تسلّحهم العسكري ، فقد كان لديهم جيشا قوياّ ذا بأس شديد في الحروب ، وقد سطّر تاريخهم العسكري القديم في المنطقة تلك بالأحداث التي جرت ، وكانوا هم طرفا فيها في أغلب الأحيان [4].

وقد عرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن ، ولهذا شن عليهم جنكيزخان حربا لا هوادة فيها مستخدما أقسى ما عرف عن المغول من غلظة و شدة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أصدر أمره بالقضاء عليهم جميعا ، فلم ينج من سيوفهم سوى بعض الهاربين أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم ، أو من كانوا لا يزالون أجنة في بطون أمهاتهم [5].

د)- قبيلة قيات :

تعتبر قبيلة قيات من أفضل القبائل المشهورة من حيث الأصالة والعظمة ، لأن آباء جنكيزخان وأجداده كانوا سادة لهذه القبيلة و رؤساء عليها ، وهم ينتسبون إليها فمنها ينحدر تيموجين الاسم الأول لجنكيزخان [6].

---

[1] author anonymous , **The secret History Of The Mongols** , Translated by : Igor De Rachewiltz , The Austrailian National University , Australia , 2015 , p 10 .

[2] العريني ، المرجع السابق ، ص 35 و الخالدي ، المرجع السابق ، ص 27 .

[3] كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 43 .

[4] قاسم محمد غنيمات و آخرون ، المرجع السابق ، ص 103 .

[5] الصياد ، المرجع السابق ، ص 29 .

[6] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 74 .

تعرف قبيلة قيات ايضا باسم بروجقين أو برجقين (Borjigin) ، ، وهي نواة الإمبراطورية المغولية و أصلها ومركزها ما بين نهري كيرولين و أونن على سفوح جبال قراقورم [1].

وتعد العشيرة الأم و الأهم من بين العشائر والقبائل التي تكونت منها إمبراطورية المغول ، كون مؤسس الدولة تيموجين جنكيزخان ينتمي إليها ، إضافة إلى أنه اتخذها قاعدة للإنطلاق و الإتحاد مع الآخرين لتكوين دولته الكبرى فيما بعد [2].

سطع نجم هذه القبيلة بداية في عهد يسوكاي بهادر والد تيموجين الذي استطاع بجهوده الكبيرة تثبيت أركان القبيلة والمحافظة على استقرارها و إكسابها الشهرة بين الجميع بالإعتماد على التحالف مع القبائل الكبرى ، وذلك من أجل ضمان الأمن للقبيلة و عدم غزوها من القوى الأخرى و دليل ذلك تحالفه مع الكرايت ومساعدته لهم [3].

المبحث الثالث : توحيد قبائل المغول

1- ظهور جنكيزخان (حياته و نشأته):

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ميلادي السادس هجري ولد لأمة المغول من سيوحد لها كيانها السياسي والإجتماعي ، وشأن كل الأساطير والنبوءات التي تحوم حول القادة العظام من كل أمة فقد كان ميلاد جنكيزخان وفي يده قطعة من الدم المجمّد نبوءة أدركها أبوه "يسوكاي بهادر" بأن ولده سيكون له شأن عظيم في المستقبل ، وصادف ذلك اليوم انتصاره على قبيلة التتار ومقتل قائدهم

[1] عباس إقبال ، المرجع السابق ، ص 48 .

[2] قاسم غنيمات و آخرون ، المرجع السابق ، ص 95 .

[3] العريني ، المرجع السابق ، ص 34 .

تيموجين[1] ، أما مؤلف كتاب التاريخ السري للمغول فيروي بأن يسوكاي أسر قائد التتار تيموجين مع جماعة من أصحابه ولم يذكر مقتله [2]. وعلى أي حال فقد سمّى هذا الأخير ابنه على اسم قائد التتار تخليدا لانتصاره ، إلا أنه لم يرَ هذا المستقبل فقد مات مسموما من طرف التتار بعد ذلك ، وابنه لم يتجاوز العاشرة من عمره [3]. وهكذا فقد عُرف جنكيزخان أول حياته باسم تيموجين [4] .

وقد اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها تيموجين ، فمنهم من يرى بأنه ولد في منغوليا عام 549هـ/1155م على الضفة اليمنى لنهر أونون في منطقة "دولون بولداق" dulunBoldaq [5] ، في حين يرى آخرون أن السنة التي ولد فيها هي 1162م/556 هـ[6] ، غير أن لاين « lane» يرى أن ولادته حدثت سنة 1167م/561هـ [7] على أن التاريخ الأنسب والأشهر الذي اتفق عليه مجمل المؤرخين هو التاريخ الأول أي سنة 1155 م /549 هـ [8].

---

[1] كلمة تيموجين تعني عند المغول القوي الصلد ولهذا أطلق يسوكاي على ولده هذه التسمية التي كان متفائلا بها للإستزادة أنظر : ثروت عكاشة ، **إعصار من الشرق "جنكيز خان** " ، ط5 ، دار الشروق ، مصر ، 1992، ، ص 32 .

[2] author anonymous , ibid ,p **34** .

[3] Morris Rossabi , **The Mongols And Global History** , Norton Company , New york United States Of America , 2011 , P 3 .

[4] الصياد ، المرجع السابق ، ص 41 .

[5] كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 33 و دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ص 126 .

[6] جون مان ، **جنكيزخان – الحياة والموت والانبعاث–** ، ترجمة : حسن عبد العزيز عويضة ، دار الكتب الوطنية ، أبوظبي ،2013، ص 78 .

[7] جورج لاين ، المرجع السابق ، ص 17 .

[8] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 43 . و كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 33

كان والده يسوكاي بهادر[1] بن برتان بهادر رئيسا لقبيلة قيات وكان جميع أعمامه و أبناء عمومته يدينون له بالطاعة و الولاء ، فهم من اختاروه رئيسا عليهم ، وذلك لما كان يتصف به من الشجاعة والقوة والاقدام ، وكثيرا ما حارب أقوام التتار والخطا ، مما أدى إلى شهرته بين سائر القبائل المغولية التي حظي باحترامها و تقديرها له بالإضافة إلى كونه حازما و نشيطا فقد استطاع أن يخضع بعض القبائل المغولية التي كانت تجاوره [2]، الأمر الذي أقلق إمبراطور الصين الشمالية – الذي كان أجداد جنكيزخان والطوائف الخاضعين لهم ، يدفعون الخراج له[3] – من خشية اتساع نفوذه أرسل إليه جماعة لصده والقضاء عليه ، ولكنه تغلب عليهم وأخضعهم لسلطته خضوعا تاما وبذلك فقد رسم يسوكاي لإبنه تيموجين الخطوط الأولى لبناء دولته على أسس محكمة وواضحة المعالم [4].

تزوج يسوكاي بهادر من نساء كثيرات من شتى الأقوام ، ولكن أكبر نسائه و أشهرهن كانت أولون فوجين [5] كما أنجبت هذه السيدة أربعة أولاد مشهورين هم : تيموجين : و هو أكبر أولاده و أشهرهم ، قام بتوحيد قبائل المغول تحت رايته ، وقتل ملك النايمان ، ثم لقب بلقب جنكيزخان سنة 1206م /603هـ [6].

جوجي قسار و كان يتمتع بقوة كبيرة فتذكر الروايات أنه كان يمسك شخصا بكلتا يديه ، فلا يتركه حتى يقصم ظهره ، فكان يوصف بضخامة الجسم وقلة العقل[1]

---

[1] بهادر : كلمة تعني الباسل في اللغة المغولية أما يسوكاي فتعني التاسع . للإستزادة أنظر : الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 38 .

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 39 .

[3] ولعل رأي الصياد يجانب الصواب ففي كثير من الأحيان ثار المغول ضد أباطرة الصين الشمالية فقد قاد كابل من أجداد جنكيزخان الغارة ضد الجيش الصيني و اشترك في هذه الحملة يسوكاي ، وانهزم الصينيون كما حصل المغول على غنائم وفيرة للاستزادة أنظر : الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 42 .

[4] الصياد ، المرجع السابق ، ص 39 .

[5] author anonymous , ibid ,p **34** .

[6] محمود السيد ، **التتار والمغول** ، مؤسسة شباب الجامعة ، مصر ، 2001 ، ص 61 .

وفي أكثر الأوقات كان متفقا و متحدا مع أخيه تيموجين ، ولكنه انفصل عنه حينما كان يحارب أونك خان . كذلك آثر العزلة عنه في ظروف اخرى ، كان يعتبرها من بين أخطائه التي تردى فيها . لكن عندما حارب جنكيزخان عدوه تايانك خان أمر بأن يكون أخوه جوجي قسار على قلب الجيش فأبدى شجاعة فائقة فأعزه جنكيزخان و رفع قدره على سائر اخوته و ابنائهم[2]. أما قاجيون فقد نال منزلة كبيرة لدى أوكتاي و منكو و قوبيلاي ، وكانوا يستشيرونه في أعظم الأمور[3] بالإضافة إلى تيموجي الذي اشتهر ايضا باسم أوتجي نويان ، وتزوج من سيدة كانت تمت بصلة القرابة إلى والدة جنكيزخان ، ولهذا السبب نال منزلة كبيرة ، وكان معظما ومحترما بين أفراد أسرته ، وقد اشتهر من بين المغول بميله الشديد إلى العمارة والتشييد ، فحيثما حل كان يقيم القصور والحدائق ، وكان جنكيزخان يحبه كثيرا [4] .

وابنة اسمها تيمولين Temulun وكان ليسوكاي من زوجتين اخريين ولد يسمى بكتار Bekter و آخر يدعى بيلجيتي Belgutei[5].

وعندما توفي يسوكاي بهادر انفض عن الأم وأبنائها الأقارب والأتباع ، واستغلت القبيلة صغر سن الأولاد ، لا سيما أن أكبرهم وهو تيموجين لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره فرمته قبيلته بالضعف ، ورفضت أن تطيعه وأعلنت التمرد والعصيان ، ورغم نشاط أمه ورجاحة عقلها وبعد نظرها فقد تخلى عنه أيضا من

---

[1] كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 88 .

[2] إبراهيم محمد علي مرجونة ، **المغول والحضارة والإسلامية رحلة المغول من الإستكبار إلى الإنصهار** ، مؤسسة شباب الجامعة ، مصر ، 2010 ، ص 64 .

[3] author anonymous , ibid ,p **12** .

[4] الصياد : المرجع السابق ، ص 40 .

[5] author anonymous , ibid ,p **12** .

بقي من أتباع أبيه و حملوا معهم قطعانهم و انضموا الى قبائل التايجوت[1] ، وفي قسوة بالغة قال أحدهم : " لاحاجة للقوم إلى امراة ضعيفة و أطفال مساكين "[2]

ويصف الرمزي أحوال تيموجين فيقول : "...وفي تلك الأيام استضعفت قبائل المغل تيموجين فتفرقوا من عنده شذر مذر ، ولم يبق لديه إلا ما قل وندر فحدثت بينهم الفتن والجدال وامتدت في تلك الناحية الحروب والقتال وتقلب بتموجين الأحوال وجرعه الدهر أنواع الغصص والأهوال وصار أسيرا مقيدا محبوسا مرات كثيرة ..."[3]

وعلى هذا فقد اضطرت العائلة إلى أن تبذل كل ما في طاقتها من اجل تحصيل الزاد الضروري فصارت الأم تلتقط الثمار لأبناءها وما ينبت بالأرض من خضروات ولم يتطرق اليأس إلى قلوب أفراد الأسرة بل قد احتفظت بالحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب ، وأخذ الصبيان يصيدون من نهر أونون ما يلزم لسدّ رمقهم ، وحرصت "أولون" على أن تتوطّد المودّة و المحبّة بين أفراد الأسرة ، فلمّا وقع الخصام بين أبناء يسوكاي الأشقاء وغير الأشقاء [4]، أسفر هذا الشقاق عن مصرع بكتار الذي اخترقت سهام كاسار وتيموجين جسده [5]، فلما أدركت أولون ما جرى صرخت في وجه أبناءها قائلة : "أيّها السفاحون لم يكن اعتباطا خروج هذا من بدني قابضا بيده على علقة لقد قتلتموه كالكلاب المسعورة التي تمزق أجساد أمهاتها من

---

[1] Jack Weatherford , **Genghis Khan and The Making Of The Modern World** , Three Rivers Press , New York , 2004 , p 19 .

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 41 .

[3] الرمزي ، **تلفيق الأخبار و تلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار و ملوك التتار** ، تقديم و تعليق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2002 ، ج1 ، ص 348 .

[4] العريني ، المرجع السابق ، ص 45 .

[5] author anonymous , ibid ,p **20** .

سيساعدكم في الانتقام من التايجوت ؟ ليس لديكم الآن سوى ظلكم"[1]. وظلت الأم غاضبة على أبناءها لمدة طويلة نظرا لقسوتهم الزائدة [2].

ولقد انفرد صاحب كتاب التاريخ السري للمغول بذكر هذه الحادثة دون غيره من المؤرخين مثل عطا ملك الجويني ورشيد الدين الهمذاني ومنه أخذ المؤرخون هذه القصة التي ذكرت بقوة في الكتب التي أرخت لجنكيزخان فيما بعد وقد تم تفسيرها على أنها كانت إظهارا لغريزة السيادة والسلطة ، بالإضافة إلى أنها توضح مدى قسوة جنكيزخان مع أي أحد ينافسه على الحكم حتى لو كان أخاه أو ابنه جوجي الذي تم تسميمه بأمر منه بعد ذلك بسنين طويلة[3] .

اغتنم التايجوت هذه الفرصة ورأوها فرصة سانحة لمعاقبة تيموجين فتعرضت الأسرة لغارات التايجوت الذين حرصوا على إذلالهم ، فلم يجد تيموجين وأسرته مفرّا سوى الانتقال بمعسكرهم إلى جبال بورقان كالدون وإلى جبل كنتاي ، الذي كان له من القداسة عندهم ، ما حمل تموجين على الإعتقاد بأنّ الجبل هو الذي حماه وعصمه من أعدائه [4].

بالرغم من ذلك أغار أعداءهم على مخيمهم و سرقوا ثمانية أفراس من أصل تسعة كانوا يملكونها ، فأصرّ تيموجين على ملاحقة اللصوص فالتقى بغلام اسمه بورتشو أحسّ بالميل والرغبة بمساعدة تيموجين فاشترك معه في البحث حتى عثروا على الأفراس فساقها الى مخيمه وقويت الصداقة بينهما [5].

---

[1] author anonymous , ibid ,p **21** .

[2] كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 86 .

[3] جون مان ، المرجع السابق ، ص 84

[4] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 45 .

[5] ينتسب بورتشو إلى قبائل أرولات التي كانت تربطها علاقات طيبة مع يسوغاي ، وقد التحق بخدمة تيموجين حينما كان عمره ثلاثة عشر سنة وهكذا فقد اكتسب تيموجين صديقه وحارسه الأول بورتشو الذي كان أفضل قائد ونصير له . للإستزادة انظر : كيتشانوف ، المرجع السابق ، ص 100 .

وأصبح في أيام عظمته واحد من خيرة قواده. وبذلك أظهر تيموجين براعة في مراماة أعدائه و إجبارهم على أن يتخلوا عن اللحاق به ليقوم هو بالإغارة عليهم و يسقط عددا منهم قتلى ، وما انقضت سنوات حتى بدأ الناس يرددون أن قوة تيموجين و رفاقه أخذت لا تبارى حين بلغ عدد من يتبعه أكثر من مائة محارب مجهّزين بعدّة حرب كاملة ويمتطون خيولا سريعة يستخدمونها في الإغارة على الأعداء [1].

وفي ظل هذه الحياة القاسية ، بدأ يبرز نجم تيموجين و بطشه ، فقد أجاد فن الرماية ومهر في الصيد واشترك في حلبات سباق الخيل و أتقن المصارعة ، وبزّ أقرانه فيها على الرغم من أنه كان يميل إلى النحافة ، كما كان سريع الحركة شديد المكر كالثعلب ، حكيما في رسم الخطط و تدبير الأمور ، وآمن بعقيدة راسخة تتلخص في أن البقاء للأقوى [2].

وهكذا بعد أن كان هذا الفتى شريدا طريدا ، تتلقفه أيدي من يشفق عليه من أصدقاء أبيه ، بدأ نجمه يلمع في سماء منغوليا ، حتى إذا ما بلغ السابعة عشر من عمره قام برحلة يطالب فيها بزوجته " بورتة" تلك الصبية التي سبق وان اتفق على الزواج منها في عهد والده ولكن وفاة والده المفاجئة أحالت دون زواجه آنذاك ، وقد اندهش والد خطيبته بورتة حيث قال لتيموجين " عندما بلغنا قيام عدد كبير من الأعداء ضدك لم نتوقع البتة أن نراك حيا مرة ثانية "[3].

[1] رغد عبد الكريم أحمد النجار ، المرجع السابق ، ص 46

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 45 .

[3] رغد عبد الكريم النجار ، المرجع السابق ، ص 46 .

وبعد ذلك استطاع تيموجين بفضل ذكائه ودهائه وحنكته وشجاعته وصبره أن يجتذب إليه كبار الشخصيات من قبيلته ، وأن يخضع المناوئين له في هذه القبيلة حتى تمت له السيطرة التامة عليها [1].

2- اخضاع القبائل المغولية المجاورة (الكرايت – النايمان) و تلقبه بجنكيزخان :

كانت قبيلة المركيت ترغب في الانتقام من أبناء يسوكاي ذلك أن هذا الأخير قد سبى أولون من أحد رجالهم وتزوجها ، وعندما ذاع خبر زواج تيموجين داهم المركيت معسكره واختطفوا زوجته بورته Borte ، بينما فرت أولون وإخوته ، و نجح في إنقاذ زوجته بورته ، وبعد فترة وجيزة أنجبت له ولدا اسمه جوجي ويعني الضيف ويعكس الاسم شكوك تيموجين بشأن أبوة ابنه [2].

ويعتبر الهجوم المضاد على المركيت حوالي 575هـ / 1180م بمثابة بداية دخول تيموجين إلى مسرح الأحداث الكبرى في منغوليا ، فقد أعجب به أونك خان حاكم قبيلة الكرايت الذي أكرمه وأخذه تحت جناحه فكان تيموجين كثيرا ما يتردد عليه لدنوّ الديار وقرب الجوار ، فكان بينهما ود ومحبة ، ، فقد لاحظ أونك خان صواب رأيه و سديد فكره وشجاعته وهيبته فبالغ في إكرامه وإعزازه وزاد من رفع منزلته عنده وإعلاء مقامه يوما بعد آخر [3]، بالإضافة إلى أن أونك خان كان أخا ليسوكاي بالدم وكان فضل يسوكاي على هذا الخان عظيما حيث انه ساعده على إعتلاء عرشه بعد أن ثار عليه أعداءه [4].

وبفضل دعم اونك خان والذي دان له تيموجين بالتبعية فقد انحاز إليه زعيم مغولي آخر إسمه جاموخا ، رئيس قبيلة الجاجيرات ، فقام بينهما من المحبة والود ما جعل

---

[1] الصياد ، المرجع السابق ، ص 45 .

[2] Christopher P.Atwood , ibid , p 98 .

[3] عطا ملك الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 74 .

[4] Christopher P.Atwood , ibid , p 98.

منهما أخوين ، غير أن النزاع لم يلبث أن دب بينهما ، فانفرط عقد التحالف ، وانحاز إلى كل منهما جماعة من الموالين له ، وكان من بين من انحاز إلى تيموجين أربعة من الأمراء المغول الذي يجري في عروقهم الدم الملكي [1].

على أنه يجدر الإشارة إلى أمر مهم ، فحينما خصّ أونك خان تيموجين بهذا الكرم تألم أبناؤه وإخوته والمقربون منه ، وامتلأت نفوسهم حقدا وحسدا على تيموجين فاتبعوا سبيل الغدر والوشاية وتسويد صورته وأخذوا يعدون ويختلقون القصص عن استيلاءه واستعلاءه ويرددون الأحاديث عن ميل الناس إليه واقترابهم منه والتفافهم حوله ، يكررون لأونك خان ذلك الحديث كناصحين ، وكان من بين أبرز المحرضين على تيموجين صديقه جاموخا وذلك طمعا بالزعامة ، فكثيرا ما كان يلتقي باونك خان ليوغر صدره ضد تيموجين وكان يقول له " إني أعلم أنه يخطط للقضاء عليكم [2]، حتى شك أونك خان في أمره ودب الخوف في قلبه من بأسه وسطوته وتمكنه منه ، ولكنه رأى الأجدر في دفعه بالمكر والخديعة خير من مواجهته مباشرة ، فأمر جنده بالإغارة عليه ليلا ، وقت السحر بينما هم نائمون في غفلة من أمرهم ، إلا أن تيموجين عرف بالأمر بواسطة غلامين هربا من عند أونك خان و أطلعاه بما يحاك ضده وعلى هذا فقد أخلوا الخيام من أهلها واستعدوا للمواجهة التي انتصر فيها تيموجين على عدوه حليف الأمس[3] وبذلك قضى تيموجين على أونك خان وانضم الباقون من جنود قبيلة المركيت إلى جيشه فقويت

---

[1] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 47 .

[2] رغد عبد الكريم أحمد النجار ، المرجع السابق ، ص 53 .

[3] ابن العبري (غريغوريوس أبي الفرج بن اهارون ت 1286م)، **مختصر تاريخ الدول** ، تحقيق: الأب أنطوني الصالحاني اليسوعي ، ط2 ، دار الرائد اللبناني ، لبنان، 1983 ، ص 394 و عطا ملك الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 75 .

شوكته وعظم أمره [1]. وقد مات أونك خان بعد هذه المعركة متأثرا بجراحه أما جاموغا فقد تم أسره بعد ذلك بقليل و تم إعدامه [2].

تلقبه بجنكيز خان : ولما كان تيموجين قد عرف بين قومه بالرجولة و الشجاعة والجرأة والقتال ، واكتسب شهرة بينهم ، فقد اتفقوا على توليته أميرا عليهم ، لأنه لن يستطيع أي شخص سواه أن ينهض بهذه الأمور ، ولن يستقيم هذا الأمر على يد شخص غيره ، ولن يقوم به سواه . ووسط تلك القبائل كان تيموجين قد وطن نفسه على الإنقياد للأوامر والامتثال لما تنص عليه الوثائق والعهود ، كما أحكم قواعد تلك الأمور مع قومه بالصورة التي كانت مألوفة عندهم فقال لهم : "الإنقياد لأوامري يعني أنه إذا أمرت أن يقتل الأبناء الآباء ، ويقتل الآباء الأبناء ، فعلى الجميع أن ينقادوا لهذا الأمر فتعاهدوا على ذلك [3].

ولما غلب على أونك خان حاكم قبيلة الكرايت الذي كان في ذلك الوقت أكبر خوانين تركستان لقب نفسه على سبيل التمدح و الافتخار بجنكيز خان قيل لقبه به واحد من رعاياه كان يدعي الكهانة وعلم الغيب وقال له : إني أمرت أن ألقبك بجنكيزخان و معناه شاهنشاه وملك الملوك وكان ذلك سنة 599هـ/1202م وكان يبلغ من العمر آنذاك 49 سنة [4].

- محاربته لقبائل النايمان

بعد أن تغلب جنكيزخان على قبائل الكرايت هاجم قبائل النايمان وكان رئيس قبيلتها يدعى تايانك خان الذي استنجد بقبيلة الأنكوت يطلب دعمها في حربه ضد جنكيزخان التي رفضت وانضمت إلى جنكيزخان فأعلنت الحرب بين الفريقين ، واتخذ

---

[1] الصاوي محمد الصاوي ، **جنكيزخان فاتح العالم** ، دار طيبة للطباعة ، مصر ، 2012 ، ص 84 .

[2] شبولر ، المرجع السابق ، ص 24 .

[3] الجوزجاني المصدر السابق ، ج2، ص 119 .

[4] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 348-349 .

تايانك خان الأهبة للقتال وجمع جيوشا كبيرة بفضل تحالف بعض القبائل الأخرى معه ودارت الحرب رحاها سنة 1203م/600هـ فانتصر جنكيزخان وقتل رئيس قبيلة النايمان وسبيت نساؤه ، وبعد ذلك شرع جنكيزخان يؤلب القبائل الواحدة منها على الأخرى ، ويتحالف مع القوي منها ضد الضعيف . وبهذه الوسائل استطاع التغلب على أغلب القبائل التي كانت تقطن في منطقة التبت و شرقي تركستان [1].

زادت هذه الموقعة من شوكة جنكيزخان ، وأوقعت الرعب في نفوس القبائل المجاورة التي سارعت إلى تقديم فروض الخضوع والطاعة كقبائل الأويرات والقنقورات ، فاشتغل جنكيزخان في الفترة الممتدة من سنة 1203 م حتى سنة 1206 م بتوطيد سلطانه و السيطرة على كافة المناطق التي تسكنها القبائل المغولية والتركية الواقعة بين نهري أمور في الشمال الشرقي وتاريم في الجنوب الغربي [2].

ويذكر العزاوي حول معارضة قبيلة النايمان وعدم طاعتها لجنكيزخان " وأن أول من عارضه تايانك خان ففي سنة 600هـ/1203م حاربه وكانت من أعظم الحروب التي صادفت جنكيزخان وكان هولها خطيرا . وهذه الحرب طالت من وقت السحر إلى الغروب جرح فيها تايانك وكسر جيشه وقد فر مجروحا فمات في الطريق ... وأما ابنه وهو كوجلو فقد سلم وذهب إلى عمه الأكبر بويروق خان "[3].

3- سيطرته على أقاليم الصين وبلاد الأويغور والخطا :

في الجنوب الغربي من صحراء جوبي ، كانت مواطن الأويغور الذين كانوا تحت تبعية ملوك الخطا ، وكان جنكيزخان يريد أن يبسط نفوذه على هؤلاء الأقوام ، مما

---

[1] الصياد ، المرجع السابق ، ص 48 .

[2] عبد السلام عبد العزيز فهمي ، **تاريخ الدولة المغولية في إيران** ، دار المعارف ، مصر ،1981 ، ص 32.

[3] عباس العزاوي ، **موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين – حكومة المغول 656-738هـ/1258-1338 م-** ، الدار العربية للموسوعات ، لبنان ، 2004 ، مج 1 ، ص 90 .

جعل ملك الأويغور يقطع ما يربطه بملوك الخطا من صلات التبعية ويعترف بسيادة جنكيزخان سنة 1209 م فصار أقوى حليف له [1] .

وقد ذكر ابن العبري أن ذلك حدث في سنة 606هـ/1208م فيقول " وفيها استولى جنكزخان على بلاد الخطا وكان أمير بلاد الأويغور وهم طائفة كثيرة من الترك في طاعة ملك الخطا فلما ذاع صيت جنكيزخان وشاع ذكره في البلاد أرسل إليه أمير الأويغور وهو الذي يسمونه "ايدي قوب" أي "صاحب الدولة" يطلب الأمان لنفسه ورعيته والدخول في زمرته . فأكرم جنكيزخان رسله وتقدم بوصوله إليه .فبادر ايدي قوب إلى الحضور في خدمته من غير توقف .فأقبل عليه جنكيزخان وأحسن قبوله وأعاده إلى بلاده مكرما " [2].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى توتر العلاقات بين ملك الأويغور وملك القراخطاي فقد أرسل هذا الأخير عاملا له إلى بلاد الأويغور فشرع يظلمهم و يعتدي عليهم بشكل لا يطاق ، وتزامن هذا مع ظهور جنكيزخان و شهرته في كافة الأقطار ، مما جعل ايدي قوت يقتل عامل ملك الخطا و ينضوي تحت لواء جنكيزخان الذي أكرمه وزوجه من احدى بناته [3].

وسار على نهجه أرسلان ملك القارلوق سنة 1211م ، وكذلك أمير المالق . ولم يلبث أن تمكن جنكيزخان من إخضاع قبائل القرغيز التركية النازلة على نهر ينيسي سنة 1218 م [4] .

تفرغ جنكيزخان بعد ذلك إلى قبائل الخطا حيث يذكر الجويني بأن جنكيزخان قد : " أرسل الرسل إلى بلاد الختاى بعد أن طهرت تلك المناطق من الطغاة ، وبعد أن

---

[1] العريني ، المرجع السابق ، ص 64 .

[2] ابن العبري ، المصدر السابق ، 398-399 .

[3] العزاوي ، المرجع السابق ، مج 1 ، 92 .

[4] فهمي ، المرجع السابق ، ص 33 .

صار جميع أفراد القبائل جنودا له ، ثم مضى بنفسه أيضا وقتل التون خان ملك الختاى و استولى على مملكته "[1].

ولم يكن الإستيلاء على مملكة الخطا بالأمر الهين فقد وصف الجوزجاني حصار جنكيزخان لها بقوله " جاء إلى باب مدينة طمغاج عاصمة التون خان ، وظل أربع سنوات على باب المدينة ، وأقام المحاصرون المجانيق في المدينة وأخذوا يقذفون أعداءهم . وحينما قل الحجر و الآجر وغير ذلك وضعوا في المنجنيق كل ما كان حديدا أو صفيحا أو نحاسا أو رصاصا "[2].

ويعزو الرمزي إلى أن احد أهم الأسباب التي أدت إلى انتصار جنكيزخان على ممالك الخطا القوية هو إضعاف محمد خوارزم شاه لهم عبر تلك الحروب الطويلة التي جرت بين الفريقين [3].

قرّر جنكيز خان بعد ذلك غزو الصين التي كانت مقسمة إلى قسمين : الصين الشمالية وعاصمتها بكين وكانت تحت حكم أسرة كين ، أما الصين الجنوبية فكانت تحت حكم أسرة سونج وأكبر مدنها هانج شو [4]. بالإضافة إلى مملكة التانغوت أو مملكة سي – هيا في التبت وهي اضعف الممالك الثلاث التي تقاسمت النفوذ في الصين، فبدأ أولاً بمملكة التانغوت، فقد كان استيلاؤه عليها يعني تحكّمه في الطريق الذي يربط بين الصين وتركستان بالإضافة إلى محاصرة مملكة كين من جهة الغرب ، العدو التقليدي للمغول[5].

---

[1] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 77 .

[2] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 121 .

[3] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص349 .

[4] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 65 .

[5] إيناس محمد البهيجي ، **تاريخ المغول وغزو الدولة الإسلامية** ، مركز الكتاب الأكاديمي ، الأردن ، 2017 ، ص 64 .

قام جنكيزخان بغزو مملكة التانغوت على ثلاث حملات كان أولها في سنة 602هـ / 1205م ثم كانت حملته الثانية سنة 604هـ / 1207م ، ثم اكتسح جميع أراضي المملكة في حملته الثالثة سنة 606هـ / 1209م باستثناء العاصمة ننج – هسيا فإنه لم يفلح في دخولها مع أنه حاصرها طويلا، ولكنه أبى أن يفكّ عنها الحصار إلا بعد أن وافق ملكها على القبول بالسيادة المغولية على أراضيه عام 606هـ / 1209م، ودفع الجزية لجنكيز خان ، وبذلك أصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت، أي إقليم كانسو الصيني الحالي، وسهوب أوردوس وألدشان[1].

ثم تفرغ جنكيزخان لغزو مملكة كين أو مملكة الذهب التي لقي أثناء غزوها ، صعوبات جمة لم يصادفها خلال غزوه لمملكة التانغوت، و تمثلت تلك الصعوبات في التحصينات المنيعة لهذه المملكة ، وبالتالي فان حروب الحصار الطويلة لم يكن جيشه قد اعتاد عليها بعد، بالإضافة إلى وجود سور الصين العظيم، وحصونه الممتدة من الشرق إلى الغرب، مما شكل خط دفاع مستمر لحماية مملكة كين، وللتغلب على هذه الصعاب فقد توجهت أنظار جنكيز خان أولاً إلى التحالف مع قبائل الأنغوت المقيمة شمال سور الصين في منغوليا الداخلية حالياً، ونجح في إقامة حلف مع ملكها، بعد أن وافق على تزويج إحدى بناته لملك الأنغوت الذي كان يعتبر بمثابة سد بشري للحدود الصينية خلف السور العظيم ، وبهذا بدأ جنكيزخان بتفكيك أدوات الدفاع لمملكة كين وأوصل حدوده إلى الخطوط الأمامية لها[2] .

وبعد حملتين متتالتين عام 611هـ / 1215م استسلمت العاصمة بكين[3] ثم انهارت الإمبراطورية الصينية الشمالية [1]، وبدأ المغول يوطدون سلطتهم في النصف

---

[1] أحمد حطيط ، المرجع السابق ، ص21 .

[2] ايناس البهيجي ، المرجع السابق ، ص 64 و أحمد حطيط ، المرجع السابق ، ص 22 .

[3] أبي الفدا (عماد الدين إسماعيل بن علي ت 732هـ/1331م) ، **المختصر في أخبار البشر** ، تحقيق : محمد زينهم عزب و يحي سيد حسين ، دار المعارف ، مصر ، دت ن ، ج3 ، ص 153 .

الشمالي للممتلكات الصينية الهائلة ، أما الإمبراطورية الجنوبية فقد تركها المغول على حالها بشكل مؤقت فقط[2].

وبهذا فقد كوّن جنكيزخان إمبراطورية مترامية الأطراف واتخذ من قراقورم عاصمة لملكه وجلب لها الصنّاع والحرفيين من كافة أصقاع البلاد التي غزاها.

فنجاح المغول في الاستيلاء على الصين كان نقطة انطلاق لانتصارات لاحقة حقّقها المغول في الصين الجنوبية حيث أسرة سونج ثم التوجه غربا نحو العالم الإسلامي والاستيلاء على أراضي الدولة الخوارزمية و القضاء على الخلافة العباسية وجنوبا حيث بلاد الهند و شمالا حيث بلاد الروس والبلغار والعالم المسيحي .

وبعد اتساع الرقعة الجغرافية للامبراطورية المغولية انقسمت إلى عدّة دول رئيسية[3] ، والواقع أن جنكيزخان قد قسم الإمبراطورية المغولية الكبرى على أولاده الأربعة من زوجته الرئيسية ، وطبقا للتقاليد المغولية القديمة كان الابن الأصغر تولوي هو الوارث الرئيسي والوصي على أملاك والده وبذلك فقد أصبحت الأراضي المغولية الرئيسية من نصيبه ، أما جغتاي فقد أخذ الأراضي الواقعة شمال شرق نهر جيحون أي منطقة ما وراء النهر التي سميت مغول تركستان أو المغول الجغتائية ، وأخذ أوكتاي الأراضي الواقعة أقصى الشرق ، وأما الأكبر جوجي فقد نال الأراضي الواقعة في الغرب ، أي روسيا وبعد وفاته ورث أبناؤه هذه المنطقة التي تدعى مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية [4].

---

[1] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 563 .

[2] شبولر ، المرجع السابق ، ص 29 .

[3] أنظر الملحق رقم 02 ، ص 331 .

[4] شبولر ، المرجع السابق ، ص 34 .

4- دستور الياسا:

لما وحّد جنكيزخان قبائل المغول تحت راية واحدة ، قرّر أن يجمعهم تحت دستور واحد ضمن قوانين محددة جمعها من سائر الأديان والشرائع والأعراف المغولية ولقد تم تدوين هذه التعاليم أي الأعراف والتقاليد الشعبية التي أكسبها جنكيزخان صبغة قانونية أقرب إلى الدستور[1].

فيذكر السبكي بأن جنكيزخان "لا زال أمره يعظم ويكبر ، وكان من أعقل الناس ، وأخبرهم بالحروب ، ووضع لهم شرعا اخترعه ، ودينا ابتدعه سماه الياسا لا يحكمون إلا به"[2].

أما ابن العميد فيصفه بأنه " كان رجلا جبارا عنده مكر ودهاء وتحيل عظيم ، فعمل لهم شريعة وسماها الأسه وأمرهم بالوقوف عند أوامرها ونواهيها ومن تعدى ما فيها يقتل ورتب عرفاء ومقدمين على الألوف والمئيين والعشرات وأمرهم في الأسه – الياسا– أن يبذلوا السيف في أهل البلاد التي تملكوها ويقتلوا كل من فيها وينهبوا الأموال لتعظم هيبتهم ويشتد خوف الناس منهم"[3]. ويروي المقريزي أن جنكيزخان "كان لا يدين بشيء من أديان أهل الأرض فصار الياسة حكما باتا بقي في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه"[4].

وجاء في كتاب العبري بأن جغتاي هو أكثر العارفين من أبناء جنكيزخان بأمر الياسه أي " الناموس والقضاء "[5] ، وهم مع هذا لا يدينون بدين غير أنهم يعترفون

---

[1] بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص 114 .

[2] السبكي (أبي نصر عبد الوهاب بن علي ت 771هـ) ، **طبقات الشافعية الكبرى** ، تحقيق : محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ، دار الإحياء للكتب العربية ، 1964 ، ج1 ،ص 330 .

[3] ابن العميد جرجس ، **أخبار الأيوبيين** ، مكتبة الثقافة الدينية ، د ت ن ، ص 7 .

[4] المقريزي ، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1997 ، ج3 ، ص 83.

[5] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 395 .

بالصانع سبحانه وتعالى ويعظمونه ، ولا يعتقدون شريعة من الشرائع ، واتفق أن ملكهم جنكيزخان وضع لهم ضوابط يدينون بها ويعملون بما تقتضيه يسمونها الآسة[1] أما من جملة الشرائع التي جاءت في الياسا فتعددت من شرائع إجتماعية و سياسية و دينية وحتى في جوانب أخرى من الحياة العامة.

فكان من جملة الشرائع الدينية أنه اشترط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى، وألزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب.

أما الشرائع السياسية الخاصة بتدبير الملك فقد أمر ألا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك قتل، ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير إذن قتل، وألزم الملك بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة.[2]

وبعض الشرائع العسكرية التي كانت تطبق في وقت الحروب فمن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال ، وكان وراء أحد فإنه ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه ، فإن لم ينزل ولم يناوله قتل ، كما قسم قادة الجيوش إلى التوامين قادة عشرة آلاف فارس ، و الألوف والمئيين والعشرات [3].

في حين كانت الشرائع الإجتماعية تنص على أنه من زنى أو لاط يقتل بدون تفريق بين المحصن وغير المحصن ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد أو دخل بين إثنين متخاصمين وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال في الماء أو على الرماد قتل ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق

---

[1] ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت 697هـ) ، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** ، تحقيق : حسنين محمد الربيع ، مركز تحقيق التراث ، مصر ، د ت ن ، ج4 ، ص 36-37 .

[2] المقريزي ، الخطط ، ج3 ، ص 83 .

[3] ابن العميد جرجس ، المصدر السابق ، ص 7 .

بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح . في حين نجد بعض الشرائع التجارية ومن ذلك أنه من أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة.[1]

المبحث الرابع : دول المغول

1- مغول القبيلة الذهبية (القبجاق) :

تمتد خانية القبيلة الذهبية من نهر إيرتش شرقا إلى أرض بلغار الفولغا غربا ، و من بلاد الروس والصقالبة شمالا إلى مملكة الإيلخانيين في إيران وآسيا الصغرى، بالإضافة إلى بلاد ما وراء النهر وتركستان في الجنوب [2].

قال النويري في وصف هذه المملكة : "وهذه المملكة تقع ببلاد الشمال ونواحي الترك والقفجاق ، وكرسيها مدينة حراي [3]، وهي أرض كثيرة المرعى صيفا وشتاء ، وفيها أماكن باردة في الصيف ، وأماكن حارة في الشتاء وغياض وهي على ساحل البحر "[4]. ويؤكد ذلك ما ذكره القلقشندي بأن" هذه المملكة متسعة الجوانب طولا وعرضا ، كبيرة الصحراء قليلة المدن ، وبها عالم كثير لا يدخل تحت حد ، إلا أنهم ليس لهم كثير نفع لقلة السلاح ورداءة الخيل ، وأرضهم سهلة قليلة الحجر ، لا تطيق خيل ربيت فيها الأوعار فلذلك يقل غناؤها في الحروب "[5].

---

[1] المقريزي ، الخطط ، ج 3 ، ص 84 .

[2] محمد سهيل طقوش ، **تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند** ، دار النفائس ، لبنان ، 2007، ص 13

[3] حراي : والأصح سراي وهي مدينة عظيمة على شط نهر الأثل غربي بحر الخزر بناها بركة بن جوجي بن جنكيزخان للإستزادة انظر : القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي ت 821هـ/1418م) **صبح الأعشى في صناعة الانشا** ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1922 ، ص 451 ج4، ص 457 .

[4] النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت 733هـ/1333م) ، **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، تحقيق : نجيب مصطفى فوّاز و حكمت كشلي فوّاز ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2004، ج27 ، ص 221 .

[5] القلقشندي المصدر السابق ،ج4 ، ص 451

أطلق عليهم إسم مغول القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي كما عرفوا أيضا باسم مغول الشمال نظرا إلى أن دولتهم كانت تقع شمال خانية تركستان وما وراء النهر وإيلخانية إيران وآسيا الصغرى ، وعرفوا كذلك بمغول القبجاق أو القفجاق لأنهم استقروا في أراضي شعب القبجاق [1].

تألفت خانية مغول القبيلة الذهبية من شعبين أساسين هما القبجاق والبلغار ، فالقبجاق ينتمون إلى العنصر التركي ، وكانوا شعوبا بدوية عماد حياتها التنقل والترحال كما كان أغلبهم وثنيا ، وقد تزايدت أعدادهم في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فانتشروا في أماكن واسعة ثم استقروا في حوض نهر الفولغا الأدنى و في صحراء الغز الواقعة شمالي بلاد ما وراء النهر وخوارزم ، وتمتد غربا حتى البحر الأسود ، وتصل في تمددها شمالا إلى جنوبي روسيا ، ولذلك سميت باسم صحراء القبجاق أو دشت القبجاق [2]. أما شعب البلغار والمقصود هنا بلغار الفولغا ، فهم قوم من الترك أو مولدون من الترك والصقالبة وقد أسلم البلغار على يد رجل صالح يدعى بلار ، كما جاهدوا ضد الغزاة من الخزر و الروس والروم البيزنطيين حتى الغزو المغولي لبلادهم سنة 635هـ/1237م و حينما أدركوا عجزهم أمام جحافل المغول استسلموا لهم وكفوا عن مقاومتهم ، وصاروا جزءا من خانية المغول الشمالية ، وتعاونوا معهم في عهد بركة خان بعد أن وحدهما الإسلام [3].

ظروف انفصال مغول القبيلة الذهبية عن الإمبراطورية المغولية .

---

[1] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 378 .

[2] محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 14 .

[3] محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 14-15 .

انفصل مغول القفجاق عن الإمبراطورية المغولية في عهد بركة خان الذي اعتنق الإسلام وحكم ما بين 655-665هـ/1257-1267م[1]. ولعل بوادر الانفصال بدأت مبكرا منذ عهد جوجي بن جنكيزخان حيث لما قام الأخير بتقسيم إمبراطوريته على أبنائه الأربعة كان القفجاق من حظ جوجي الذي حرص على توسيع ملكه والاستئثار به بالإضافة إلى إعماره والإعتناء به كما كانت سياسته مخالفة لوالده ففي حين يميل جنكيزخان إلى التدمير والتخريب و القتل والنهب فضّل جوجي الانتصار السلس دون إراقة الدماء أو خراب العمران ومن ثم فقد أنقذ جوجي هذه البلاد و سكانها من الدمار والخراب كما أنه الابن الوحيد الذي لم يعد إلى منغوليا بعد أن فرض سيطرته على البلاد الواقعة إلى الغرب منها . وقد زاد من حدة النزاع بينه وبين أبيه أنه قال يوما أمام حاشيته " إن جنكيزخان قد فقد عقله كي يقتل مثل هذا الخلق ويخرب مثل هذا العدد من البلاد ... "[2]

وبعد وفاة الخان "أوكتاي" رفض "باتو خان" الذي كان حاكما على القفجاق- تولية كيوك خانا أعظم للمغول . فقد ساند "باتو خان" ابن عمّه "منكوخان" في الصراع الذي دار بينه وبين كيوك على الحكم قبل أن يتوفّ بقليل . إلا أنه بعد قيام هولاكو بغزو الخلافة العباسية رمز المسلمين آنذاك انقطعت حبال الود بين أبناء العمومة في البيت الخاني واستقل مغول القبيلة الذهبية عن قراقورم بشكل نهائي بل ذهبوا أبعد من ذلك حينما بدأوا في محاربة هولاكو والدولة الإيلخانية نظرا للأعمال الوحشية التي كانت تقوم بها ضد إخوانهم المسلمين في المشرق ولعل أبرز مثال على هذا تلك التحالفات التي قامت بين مغول القبيلة الذهبية ومماليك مصر.

[1] شبولر ، المرجع السابق ، ص 91 .

[2] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 640 .

تعاقب على عرش القبيلة الذهبية بعد وفاة بركة خان 1266م/665هـ بعض من الخانات غير المسلمين إذ لم يستقر الإسلام فيها نهائيا إلا في عهد أوزبك خان (712-736هـ/1313-1335م) بالإضافة إلى سك العملة باسمه [1]. وظلت هذه الدولة تدين بالإسلام إلى غاية سقوطها سنة 1505م/911هـ و بهذا فقد عمّرت مائتين وثمانية وستين عاما[2].

2- مغول إيران (الدولة الإيلخانية) :

ضمت هذه الدولة بلاد إيران و وأذربيجان والعراق وخراسان ومازندران وبلاد الروم (آسيا الصغرى) وقد تأسست نواة هذه الدولة حينما أصدر قوبيلاي خان مرسوما يقضي بأن يتولى هولاكو خان وذريته البلاد الواقعة بين شط نهر جيحون حتى بلاد الشام ومصر[3] . ويذكر الحافظ الذهبي وصفا لهولاكو يقول فيه " طوى الممالك وأخذ حصون الإسماعيلية وأذربيجان والروم والعراق والجزيرة والشام ، وكان ذا سطوة ومهابة وعقل وغور وحزم ودهاء ، وخبرة بالحروب وشجاعة ظاهرة وكرم مفرط ومحبة لعلوم الأوائل من غير أن يفهمها .. مات على كفره في هذه السنة 664هـ بعلة الصرع ، فإنه اعتراه منذ قتل الشهيد صاحب ميافارقين الملك محمد بن غازي ، حتى كان يصرع في اليوم مرة ومرتين . وقيل مات في ربيع الآخر عام 663هـ بمراغة ، ونقلوه إلى قلعة تلا وبنو عليه قبة . وخلف سبعة عشر ابنا . تملّك عليهم ابنه أباقا "[4].

---

[1] شبولر ، المرجع السابق ، ص 185 .

[2] محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 136 .

[3] عبد السلام فهمي ، المرجع السابق ، ص 149

[4] الذهبي (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد ت 748هـ) ، **دول الإسلام** ، تحقيق : حسن إسماعيل مروة ، دار صادر ، بيروت ، 1999 ، ج2 ، ص 186 .

قامت هذه الدولة نتيجة توسعات المغول في المشرق الإسلامي وذلك بعد صعود منكوخان على عرش المغول الذي أسند لأخيه هولاكو مهمة التوسع وغزو العالم الإسلامي فتوجه هذا الأخير نحو قلاع الإسماعيلية وأسقطهم ثم توجه صوب العراق و قضى على الخلافة العباسية سنة 565هـ/1285م ثم استولى على بلاد الشام لكن انتصارات المغول إنصدمت بجدار المماليك في معركة عين جالوت الحاسمة سنة 658هـ/1260م [1].

وبعد وفاة الخان الأعظم منكو خان تنازع على الحكم أخواه أريق بوقا وقوبيلاي الأمر الذي أثر سلبا على البيت المغولي فانتهز المماليك هذه الفرصة واسترجعوا بلاد الشام إلى حاضنة المسلمين بعد معركة عين جالوت[2]، واستقر هولاكو وأبناؤه من بعده في ايران والعراق بعد تولّي قوبيلاي الذي أقرّ أخاه على البلدان التي استولى عليها وهكذا بدأت تتشكل نواة الدولة الإيلخانية وتلقب حاكمها بالإيلخان وليس بالخان أي تابع إلى الخان الأعظم في قراقورم ، ولقد ظل هذا الاسم قائما إلى غاية وفاة قوبيلاي سنة 1294م / 693 هـ ثم قطعت روابط الصلة والتبعية للخان بدخول حكام ايران المغول في الاسلام نهائيا سنة 1295م/ 694هـ [3]. ومنذ ذلك الوقت اختفى اسم الخاقان من السكة الايرانية وحل لقب "الخان" محل لقب "الإيلخان"، ومع ذلك فقد جرت عادة المؤرخين على أن يطلقوا على حكام المغول في ايران حتى نهاية دولتهم في سنة 1355م/756هـ اسم العصر الإيلخاني [4].

---

[1] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 257 .

[2] محمد الأنطاكي ، **معركة عين جالوت** ، دار الشرق العربي ، بيروت ، د ت ن ، ص 50-51.

[3] رجب عبد الرحيم ، **انتشار الإسلام بين المغول** ، دار النهضة العربية ، مصر ، 1986 ، ص 196.

[4] عبد العزيز فهمي ، المرجع السابق ، ص 154 .

3- مغول تركستان:

وهي تشمل بلاد تركستان الشرقية والغربية ما عدا خوارزم ، ويطلق على هذه الدولة أيضا إسم الدولة الجغتائية[1] ، فقد كان من نصيب جغتاي[2] بن جنكيزخان بلاد الأويغور وماوراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة وبخارى، وكان نهر جيحون (أموداريا) الحد الفاصل بينها وبين الدولة الإيلخانية المغولية في إيران أيضا من جهة الغرب . أما من جهة الشرق فلم تكن حدودها واضحة المعالم في بداية الأمر فلم يضع جنكيزخان أي حدود فاصلة بين المناطق التابعة لجغتاي و المناطق الأخرى المخصصة لابنه أوكتاي ، ولهذا وجدت بعض الخصومات والمنازعات عندما حكم الأخوان هذه المنطقة ، فعندما عين أوكتاي أحد التجار المسلمين وهو محمود يلواج[3] الذي يذكره ابن العبري " بالصاحب المعظم يلواج" [4] حاكما على منطقة

---

[1] عبد العزيز جنكيزخان ، **تركستان قلب آسيا** ، الجمعية الخيرية التركستانية ، مصر ، 1945 ، ص 84

[2] جغتاي بن جنكيزخان : هو الإبن الثاني لجنكيزخان من زوجته بورته ، وكان يعد أحسن من يعرف الياسا (قوانين المغول القبلية التي جمعها جنكيزخان) والحجة الأكبر في جميع مسائل القانون والعرف ، اشترك كسائر اخوته في حروب أبيه مع الصين (1211-1216م) و مملكة خوارزمشاه (1216-1224م) على أنه لم يشترك جديا في الحروب بعد وفاة أبيه ،فقد كانت له مكانة عظيمة لأنه كان أكبر من بقي على قيد الحياة من أبناء جنكيزخان ذلك أن أخاه جوجي توفي قبل وفاة أبيه ، وقد ترأس جغتاي مع عمه أوجكين مجلس الأمراء "القوريلتاي" الذي أسفر عن انتخاب أوكتاي خانا أعظم للمغول وبهذا فقد كان جغتاي حجة القانون في المملكة بأسرها توفي سنة 640هـ/1242م للاستزادة انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، نقلها إلى العربية : إبراهيم زكي خورشيد وآخرون ، دار المعارف العمومية ، دم ن ، د ت ن ، مج7 ، ص 3 .

[3] محمود يلواج : هو فخر الدين أبو القاسم محمود بن محمد ، يعرف بيلواج الخوارزمي وزير قاءان : كان من أعيان دولة جنكيزخان والعظماء من الوزراء في زمانه و إليه مدار الملك في المشرق وتدبير ممالك تركستان وبلاد الخطا و ما وراء النهر وخوارزم ، وكان مع هذا الحكم والدهاء كاتبا سديدا ، يكتب بالمغولية والأويغورية والتركية والفارسية ، ويتكلم بالخطائية والهندية والعربية . وكان غاية في الفهم والذكاء والمعرفة ، وبتدبيره السديد انتظم للمغول ملكهم . للاستزادة انظر : ابن الفوطي (كمال الدين أبوالفضل عبد الرزاق بن أحمد ت723هـ) ، **مجمع الآداب في معجم الألقاب** ، تحقيق : محمد الكاظم ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، ايران ، 1996 ، ج 3 ، ص 197-198 .

[4] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 459 .

ماوراء النهر وعاصمته خجندة[1] وعمد هذا بمهارة في إعادة ترتيب المنطقة من جديد وبالرغم من العصيان الذي حدث في بخارى عام 1238-1239 إلا أنه نجح في تنمية العمران وتشجيع الحضارة وعندما أمر جغتاي بطرد هذا الحاكم، أمر القان الأعظم أوكتاي بتنصيب ابنه مسعود بك يلواج [2] بدلا منه الذي تابع باصرار سياسة والده العمرانية و اتخذ من مدينة بخارى عاصمة له[3] .

وبذلك لم تقم الدولة المغولية الجغتائية التى تحمل اسم جغتاي إلا على يد حفيده (قرا هولاكو بن موتكن 1251-1260م/648-659 هـ)، وكانت عاصمتها ألماليق [4] بجوار غولجا الحالية في تركستان الشرقية .

كما يجدر الإشارة إلى أن الأويغور تبوؤوا مكانة عظيمة في دولة المغول نظرا لما كانوا يتمتعون به من كفاءة علمية وإدارية فكانت الدواوين والحسابات والختم بيد الأويغور، . والمؤكد أن تأثيرهم على المغول كان عظيما فاعتنق المغول الإسلام وتبنوا قيم الحضارة الإسلامية التركية ، وقد أسلمت أسرة جغتاي في عام

[1] خجندة : بضم أوله ، وفتح ثانيه ، تقع في الإقليم الرابع وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ نهر سيحون بينها وبين سمرقند عشرة أيام ، وهي متاخمة لفرغانة ، زاد في عمارتها مسعود يلواج لما جعلها عاصمة لحكمه ، للإستزادة أنظر : ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 347. و

[2] **مسعود يلواج** : هو برهان الدين مسعود بك بن محمود يلواج تولى البلاد الشرقية من نهر جيحون إلى منتهى بلاد الخطا في عهد كيوك قان وأقره عليها منكوقان للإستزادة أنظر : ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 147 .

[3] شبولر ، المرجع السابق ، ص 85 .

[4] ألماليق : وتسمى أبضا أمالغ هي مدينة اتخذها المغول الجغطائية عاصمة لهم في عهد جغتاي بن جنكيزخان ، وتقع بالقرب من موضع غولجا القديمة على نهر ايلة ، للإستزادة أنظر ليسترنج ، المرجع السابق ، ص 530

1357م في عهد " توقلوق تيمور "[1] 748-762هـ/1348- 1362م الذي كان يحكم في القسم الشرقي من بلاد الدولة الجغتائية [2].

دخل خانات الدولة الجغتائية في صراعات مع خانات الدول المغولية الناجمة عن تقسيم إمبراطورية المغول مما تسبب في ضعفها، كما مزقتها الحروب الداخلية إلا أنها احتفظت بمكانتها بين دول أبناء جنكيز خان، كما أخرجت من سمرقند رجلا خطيرا هو تيمورلنك الذي أخضع لسلطانه أملاك آل جوجي وآل هولاكو وأقام آخر مملكة قوية فى آسيا الوسطى على أنقاض خانيات المغول.

ولم يستطع تيمورلنك بعد تأسيسه لدولة التيموريين فى تركستان الغربية السيطرة على تركستان الشرقية وإسقاط خانية الجغتائيين إلا أنه استولى على أجزاء من الجنوب واحتل كاشغر عام 782 هـ/1380م حتى توقفت الحرب وعقد صلح بينهما عام 1386م.

ضعفت الدولة الجغتائية بسبب الحروب الخارجية والصراعات بين الأمراء وتكونت بها إمارات داخلية متنازعة. تمكن يونس خان و الذي كان حاكما على الولايات الشرقية فى شرق تركستان (1462- 1487م) من القضاء على النزاعات الداخلية

---

[1] توقلوق تيمور : ويدعى كذلك بتغلق تيمور ولد سنة 729هـ/1329م وهو من أحفاد من جغطاي حكم الدولة الجغطائية من سنة 748-762هـ/1348-1362م وضم بعضا من بلاد ما وراء النهر ، وخلال فترة حكمه اعتنق الإسلام للإستزادة أنظر :

René Grousset , **The empire of the steppes** , Translated : Naomi walford , Rutgers University press , New jersey , United state of America,1970 , p 344-345.

[2] عزالدين الورداني ، **تاريخ وجغرافيا المغول وتركستان –الدولة الجغتائية فى تركستان الشرقية (1251 – 1514م)(648 – 920هـ)**- ، تركستان تايمز ، 2017 . http://turkistantimes.com/m/news-2306.html .

ورغبة حكام المدن فى التصرف كولاة مستقلين وبسط سيطرته على شرق تركستان كله ، وتولى بعده ابنه محمود خان (1487 . 1514 م) .

بوفاة محمود خان انهارت وحدة الدولة فانتهت الدولة الجغتائية التي استمر حكمها فى تركستان الشرقية ما يقرب من ثلاثمائة سنة .

4- مغول الصين :

ويطلق هذا الاسم على المغول العظام الذين بقوا في منغوليا والصين وكانت حدود هذه الإمبراطورية مترامية الأطراف ، ومع ذلك فقد استغرق استيلاء المغول على الصين وقتا طويلا ، خاصة الصين الجنوبية التي كانت تحت حكم أسرة سونغ والتي أرسل لها القان أوكتاي ثلاثة جيوش لغزوها ، كان الجيش الأول بقيادة جودان ، الإبن الثاني لأوكتاي ، واستولى على تشينج-تو في سنة 1236م وقاد الجيش الثاني ابن آخر لأوكتاي اسمه كوتشو رفقة القائد تيموتاي ، ونجح هذا الجيش في الاستيلاء على سيانج -يانج في نفس السنة . أما الجيش الثالث الذي تولى قيادته الأمير كون بوقا والقائد تشاغان فانه هبط إلى هوانج-تشو على نهر يانج تسي ، غير أن أسرة سونج صمدت لهم ، بل واستردت سيانج يانج سنة 1239 . والواقع أن الحروب مع أسرة سونج استمرت نحو أربعين سنة 1234-1279 ولم يشهد أوكتاي سوى مراحلها الأولى [1].

وحينما اعتلى منكوقان عرش المغول أرسل أخاه قوبيلاي في جيش كبير للاستيلاء على الصين الجنوبية فنجح في إخضاعها و ضمها للمغول ، وحكمها باسم الخان الأعظم في قراقروم [2]، فلما مات منكو تصارع على خلافته كل من قوبيلاي وأخيه

[1] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 65 .

[2] حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 241 .

اريق بوقا ، وبعد حروب أهلية دامية آلت الأمور إلى قوبيلاي فاضطر أريق بوقا للخضوع واختفى من الميدان السياسي نهائيا ، ثم مات عام 1266م /664هـ [1].

نقل قوبيلاي العاصمة من قراقورم إلى – خان باليق– بكين ، ويعتبر عصره العصر الذهبي للمغول في الصين ومنغوليا [2]. ذلك أن قوبيلاي اهتم بالعمارة فأعاد إعمار المدن التي خربت في عهد من سبقه كما أنشأ نظام بريد قوي نال إعجاب ماركو بولو عند زيارته لبلاط قوبيلاي ، فيصف نظام البريد بأنه " نظام مدهش بالغ العجب ، كما أنه فعال في عمله إلى حد ، لا يكاد يستطاع معه وصفه"[3] .

على أن انتقال مركز الحكم المغولي من قراقورم حاضنة الشعب المغولي إلى –خان باليق– بكين عاصمة مملكة كين الصينية جعلت العنصر المغولي يذوب في الحضارة الصينية و يصطبغ بصبغتها الحضارية العريقة وينسى بداوته المتأصلة ، ومع هذا فقد كان لمغول الصين غزوات على المناطق القريبة منهم التي لم تخضع لهم فهاجموا اليابان سنة 1281 م [4].

توفي قوبيلاي سنة 1294م/693هـ ، وخلفه على العرش حفيده تيمور خان ، الذي يعتبر آخر الخاقان العظام فقد خلفه خانات ضعاف ، ركنوا إلى الراحة والدعة وتساهلوا مع الحركات الإنفصالية التي كانت تهدف إلى إزالة الحكم المغولي من الصين إلى أن نجح أحد المغامرين اسمه تشويوان –تشانغ في دحر القوات المغولية

---

[1] شبولر ، المرجع السابق ، ص 49.

[2] محمد سهيل طقوش ، **تاريخ المغول العظام والإيلخانيين** ، دار النفائس ، لبنان ، 2007 ، ص 180 .

[3] ماركو بولو ، رحلات ماركوبولو ، ترجمة : عبد العزيز جاويد ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مصر ، 1996 ، ج2، ص 70.

[4] جورج لاين ، المرجع السابق ، ص 19–20 .

عقب ثورة عاتية بدأت من جنوب الصين اقتلعت الحكم المغولي في بكين عام 1368م/769هـ ، وقتل كافة المغول الذين قاوموه ، وجلس على العرش وأسس أسرة جديدة هي أسرة مينغ ، وعرفت باسم هونغ – وو أي المتألقين ، وأعلن نفسه أول إمبراطور من هذه الأسرة [1].

[1] طقوش ، تاريخ المغول العظام والايلخانيين ، ص 182– 183 .

الفصل الثاني: العلاقات بين السنة والشيعة قبيل ظهور المغول

المبحث الأول: السنة والشيعة

المبحث الثاني : الخلافة العباسية

المبحث الثالث: الدولة الأيوبية

المبحث الرابع: القلاع الإسماعيلية

المبحث الأول : السنة و الشيعة

1- تعريف السنّة :

لغة : تعني الطريقة والسيرة[1] و العادة[2].

اصطلاحا : هي الهدي الذي كان عليه –الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام– علما واعتقادا وقولا وعملا ، وهي السنة التي يجب إتباعها ، ويحمد أهلها ويذم من خالفها ، كما تطلق السنة على سنن العبادات والاعتقادات ، كما تطلق على ما يقابل البدعة وأنه لا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنّة[3].

والسنّة هي كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول ، أو فعل ، أو تقرير[4].

أما مصطلح أهل السنة والجماعة فقد ظهر للدلالة على من كان على طريق السلف الصالح و منهجه من التمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية والآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، ليتميز عن مذاهب المبتدعة وأهل الأهواء[5] .

ولعل أهم الطوائف التي تندرج ضمن أهل السنة والجماعة هي ثلاثة طوائف :

الأولى : أهل الحديث ويعتمدون أساسا على الأدلة السمعية وهي الكتاب والسنّة والإجماع ومن أبرزهم المذاهب الأربعة في الإسلام (المالكي والشافعي و الحنفي والحنبلي) .

---

[1] ابن منظور ، **لسان العرب** ، تحقيق : عبد الله علي الكبير و آخرون ، دار المعارف ، مصر ، د ت ن ، ج24 ، ص 2124 .

[2] الجرجاني (علي بن محمد ت 816هـ/1413م) ، **معجم التعريفات** ، تحقيق : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة ، مصر ، د ت ن ، ص 105 .

[3] القيرواني (أبي محمد عبد الله بن أبي زيد ت 387هـ/ ..) **الرسالة الفقهية** ، تحقيق : الهادي حمّو ومحمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1980 ، ص 79 .

[4] مجموعة مؤلفين ، **الموسوعة الفقهية** ، دار الصفوة ، الكويت ، 1992 ، ج 25 ، ص 265 .

[5] حمد السنان و فوزي العنجري ، **أهل السنة الأشاعرة شهادة علماء الأمة و أدلتهم** ، دار الضياء للنشر والتوزيع ، د م ن ، د ت ن ، ص 80 .

الثانية : أهل النظر العقلي والصناعة الفكرية ، وهم الأشاعرة أصحاب أبو الحسن الأشعري ، والماتردية أصحاب أبو منصور الماتريدي .

الثالثة : وهم الصوفية ، أهل الوجدان والكشف ، ومبادؤهم مبادئ أهل النظر والحديث في البداية ، والكشف والإلهام في النهاية[1] .

ومن الناحية السياسية يمكن القول بأن الدول السنية التي كانت متواجدة قبيل الغزو المغولي تتمثل في الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية والدولة الأيوبية فضلا عن سلاجقة الروم الذي كانوا يحكمون منطقة آسيا الوسطى أو ما يعرف بالأناضول .

[1] حمد السنان و فوزي العنجري ، المرجع السابق ، ص 81 .

2- تعريف الشيعة :

لغة :

شايعت الرجل على الأمر مشايعة وشياعا، إذا مالأته عليه وشيّعت الرجل على الأمر تشييعا ، إذا أعنته عليه . وفلان من شيعة فلان أي ممن يرى رأيه و الشِّيَع أي الفِرق من الناس [1]. والشيعة أنصار الرجل وأتباعه ، وكل قوم إجتمعوا على أمر فهم شيعة . والجماعة شِيَع و أشياع ، والشيعة قوم يهوون عترة النبي –صلى الله عليه وسلم– ويوالونهم[2].

ويقال شايعه أي والاه ، و أصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة [3].

إصطلاحا :

يعرف النوبختي الشيعة بأنها " فرقة علي بن أبي طالب المسمون بشيعة علي في زمان النبي صلى الله عليه و سلم و بعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته "[4].

وهذا التعريف يدعي بأن هناك شيعة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا غير صحيح على الإطلاق فلا سند لهذه الدعوى من الكتاب والسنة ، وشواهد التاريخ الصادقة فالله سبحانه يقول (إن الدين عند الله الإسلم)[5] لا التشيع ولا غيره ، والصحابة كانوا في عهده –صلى الله عليه و سلم – عصبة واحدة و جماعة واحدة ولاؤهم للنبي –صلى الله عليه وسلم– وحده [6].

---

[1] ابن دريد (أبي بكر محمد بن الحسن ت 321 هـ) ، **جمهرة اللغة** ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين، بيروت ، 1986 ، ج 2 ، ص 872.

[2] الأزهري (أبي منصور محمد بن أحمد ت 370هـ) ، **تهذيب اللغة** ، تحقيق : عبد الحليم النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر ، 1964 ، ج 3 ، ص 61 .

[3] ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة شيع ، ج 27 ، ص 2377 . و الزبيدي ، **تاج العروس** ، مادة شاع ، تحقيق : عبد العليم الطحاوي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، 1984، ج 21 ، ص 309 .

[4] النوبختي (الحسن بن موسى ق3هـ) ، **فرق الشيعة** ، منشورات الرضا ، لبنان ، 2012 ، ص 51 .

[5] آل عمران ، الآية : 19 .

[6] ناصر بن عبد الله القفاري ، **أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية عرض ونقد** ، رسالة دكتوراه ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، مجلد 1 ، ص 41 .

يعرّف شيخ الشيعة المفيد بأنهم " أتباع أمير المؤمنين علي- صلوات الله عليه-[1] على سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول- صلوات الله عليه وآله - بلا فصل ، ونفي الإمامة عمن تقدمه في مقام الخلافة ، وجعله في الاعتقاد متبوعا لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء"[2] .

في حين قال ابن حزم في تعريف الشيعة ما يلي : " ومن وافق الشيعة في أن عليّا رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم و أحقهم بالإمامة وولده فهو شيعي ، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون ، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا" [3].

ويذكر الشهرستاني (ت548هـ) بأن الشيعة " هم الذين شايعوا عليًّا رضي الله عنه على وجه الخصوص ، وقالوا بإمامته نصا ووصية ، إما جليّا وإما خفيّا ، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقيّة من عنده ، وادّعوا بأن الإمامة ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين ، لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله" [4].

ويقول محمد جواد مغنية : " إن الشيعة هم الذين يعتقدون بوجوب النص من النبي على خليفته و أن محمد -صلى الله عليه وسلم- قد نصّ على الإمام علي " [5].

ويذكر Tritton بأن : " إسم الشيعة يعني فريقا أو حزبا أو أتباعا ولكن عندما يستخدم بكل ما في الكلمة من معنى فإنه يشير إلى طائفة في الإسلام كونها إستقطابا لحزب علي .

---

[1] و في هذا تخصيص لعلي رضي الله عنه بلا دليل دون غيره من الصحابة رضي الله عنهم ، كما يكتبون صلوات الله عليه و آله و هذا تقصير في حقّ النّبي صلى الله عليه و سلم . للإستزادة أنظر : عبد الرحمان بن سعد الشتري ، **عقائد الشيعة الإثنى عشرية سؤال و جواب** ، ط6 ، مكتبة الرضوان السلفية ، مصر ، 2007 ، ص 17 .

[2] المفيد (محمد بن محمد البغدادي ت 413هـ) ، **أوائل المقالات** ، تحقيق : إبراهيم الأنصاري ، دار مهر ، د م ن ، 1996 ، ص 35 .

[3] ابن حزم الظاهري (علي بن أحمد ت 456هـ) **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ، ط2، تحقيق :محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمان عميرة ، دار الجيل ، بيروت ، 1996، ج2 ، ص 270 .

[4] الشهرستاني (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم ت548هـ) ، **الملل والنحل** ، ط6 ، تحقيق : أمير علي مهنا وعلي حسن فاعود ، دار المعرفة ، لبنان ، 1997 ، ج2 ، ص 169 .

[5] محمد جواد مغنية ، **الشيعة والحاكمون** ، دار مكتبة الهلال ، لبنان ، 2000 ، ص 14 .

لقد بدأت كحزب سياسي بين العرب ، ونظر أتباع هذا الحزب إلى علي ابن عم وصهر محمد ، وسلالته زعيما و سرعان ما استقرت هذه الحركة في العراق "[1] .

وقد جاء تعريف الشيعة في دائرة المعارف الإسلامية بأنه " الإسم الشامل لمجموعة كبيرة من فرق إسلامية مختلفة أشد الخلاف ترجع نشأتها جميعا إلى القول بأن عليا رضي الله عنه هو الخليفة الشرعي بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام "[2].

[1] A.S. Tritton , Islam , Hutchinson University Library , London , 1968 , p 72 .

[2] موجز دائرة المعارف الإسلامية ، مركز الشارقة للإبداع الفكري ، الشارقة ، 1998 ، ج 20 ، ص 6405 .

3- فرق الشيعة :

انقسمت الشيعة إلى عدة فرق لعل من أبرزها[1]:

أ)- الزيدية : يذكرهم الشهرستاني بأنهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها ، ورفضوا أن يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم ، إلا أنهم جوزوها في كل فاطمي عالم شجاع كريم .[2]

في حين يعرفهم الشيخ المفيد بأنهم " القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن والحسين وزيد بن علي –عليهم السلام– و بإمامة كل فاطمي دعا إلى نفسه و هو على ظاهر العدالة ومن أهل العلم والشجاعة و كانت بيعته على تجريد السيف للجهاد "[3] .

أخذ زيد بن علي يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم فتتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء[4] فاقتبس منه الإعتزال ، وكان من مذهبه – أي زيد بن علي – جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، فقال : كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر الصديق لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية رعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة [5].

---

[1] أنظر الملحق رقم 03 ، ص 332.

[2] الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 179 .

[3] المفيد ، المصدر السابق ، ص 39 .

[4] واصل بن عطاء : أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي ، المعروف بالغزّال (80-131هـ/700-748م) ولد بالمدينة المنورة وتوفي بالبصرة ، كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علوم الكلام وغيره ، وكان يلثغ بالراء فيجعله غينا ، وصفه أبوالعباس في المبرد بأنه كان أحد الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ في الراء ، فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك لإقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه . للإستزادة أنظر : الجاحظ (أبى عثمان عمرو بن بحر ت 255هـ) ، **البيان والتبيين** ط7، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1998 ، ج1 ، ص 23 و المبرد (أبى العباس محمد بن يزيد ت 285هـ) ، **الكامل في اللغة والأدب** ، ط3، تحقيق : محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1997، مج3 ، ص 1111 و ابن خلكان (أبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت681هـ) ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1994 ، ج6 ، ص 7 .

[5] الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 180 .

وقد قدّر لهذه الفرقة تأسيس دولة في المغرب الأقصى هي دولة الأدارسة [1]، ولقيت دعوتهم قبولا في بلاد الديلم[2] أيضا ذلك أنه ارتحل إليهم أحد الدعاة العلويين المعروف بناصر الأطروش[3] .

وكان وقتــئذ لم يتحلوا بدين الإسلام بعد فدعا الناس دعوة إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي فدانوا بذلك ونشأوا عليه و بقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين ، وقد خالفوا بني أعمامهم من الموسوية في مسائل الأصول ، ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول ، وطعنت في الصحابة طعن الإمامية [4].

ب)- الشيعة الإسماعيلية :

---

[1] دولة الأدارسة : هي دولة قامت على المذهب الزيدي في أقصى بلاد المغرب الإسلامي ما بين 172-375هـ/788-990م على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ، الذي فرّ إلى المغرب عقب معركة فخ 169هـ/786م . للإستزادة أنظر : ابن عذارى المراكشي ، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، ط3، تحقيق : ج.س كولان و ليقي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983، ج1 ، ص 82-83 .

[2] بلاد الديلم : تقع بلاد الديلم في شمال إيران تطل على بحر الخزر ومن الجنوب قزوين وعلى الغرب أذربيجان وبلاد الران ومن الشرق الري وطبرستان ، وهي بلاد ذات مياه جارية وأنهار كثيرة ، عامرة يستقر بها التجار ، وأهلها ذو بأس وشجاعة وأخلاق حسنة ، وينسب الحميري إسلامهم إلى الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب فداخلتهم العلوية ، فأسلم أكثرهم و إليهم ينسبون بنو بويه . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 544 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 255 و ابن حوقل ، **صورة الأرض** ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992 ، ص 318 ومؤلف مجهول ، حدود العالم ، ص 109 وابن الوردي ، **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، تحقيق : أنور محمود زناتي ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، د ت ن ، ص 36 .

[3] ناصر الأطروش : هو الحسن بن علي العلوي ولد بالمدينة سنة 230هـ و وتوفي في آمل سنة 302 هـ ، اشتدت دعوته هناك وأسلم على يديه الكثير من الناس حيث اشتغل بالدعوة في طبرستان و الديلم و جيلان التي كان صاحب الحكم فيها اشتهر بالعدل وحسن السيرة وإقامة الحق .للإستزادة أنظر : الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير ت310هـ)، **تاريخ الرسل والملوك** ،ط2 ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، د ت ن ،ج10 ، 149 والنجاشي (أبو العباس أحمد بن علي ت 450هـ) ، **رجال النجاشي** ، شركة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، 2010، ص 58.

[4] الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 183 .

فرقة من الشيعة الإمامية ساقوا الإمامة إلى جعفر الصادق[1] ، وزعموا أن الإمام بعده إبنه إسماعيل [2]، وافترق هؤلاء إلى فرقتين :

فرقة منتظرة لإسماعيل بن جعفر الصادق ، مع اتفاق أصحاب التواريخ على موت إسماعيل في حياة أبيه ، وفرقة قالت بأن الإمام بعد جعفر سبطه محمد بن إسماعيل بن جعفر حيث أنّ جعفر الصادق نصّب إبنه إسماعيل للإمامة بعده فلمّا مات إسماعيل في حياة أبيه علمنا أنّه إنما نصب ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل السابع التام[3] ، وإنّما تمّ دور السبعة به ، ثم ابتدئ منه بالأئمة المستورين الذي كانوا يسيرون في البلاد سرّا ويظهرون الدعاة جهرا . وقالوا: لن تخلُ الأرض قط من إمام حيّ قائم، إمّا ظاهر مكشوف وإمّا باطن مستور فإذا كان الإمام ظاهرا جاز أن يكون حجّته مستورا، وإذا كان الإمام مستورا فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين. ومن مذهبهم أنّ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية.[4]

---

[1] جعفر الصادق : هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولد بالمدينة سنة 80هـ/702م وتوفي بها سنة 148هـ/765م ، عالم جليل وله مكانة عظيمة عند جميع المسلمين ، كما يعتبر لدى الشيعة الإثنا عشرية والإسماعيلية الإمام السادس لهم ، وهو بريء مما ينسب له من الأحاديث الشيعية التي تنص عن الإمامة بالنص وغيرها من التشيع الديني ، ومما يروى عنه أن بعض الشيعة لما اختصمت مع زيد بن علي –عم جعفر الصادق– حول الشيخين أبى بكر وعمر فسماهم زيد بالرافضة جاءوا يستشيرون جعفر في ذلك فأقر مقالة زيد في الشيخين ، وانقطع عن الخوض في السياسة للإستزادة انظر : الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 181 و صالح بن عبد الله الدويش ، **الإمام جعفر الصادق** ، دار ابن الجوزي ، د م ن ، د ت ن ، ص 9–10 .

[2] إسماعيل بن جعفر الصادق : ولد سنة 103هـ بالمدينة وتوفي قبل أبيه سنة 138هـ ويزعم الإسماعيلية أنه لم يمت في حياة أبيه بل بعده وإنما جعل والده جنازة وهمية له لإبعاد خطر العباسيين عليه ، ومن ثم فهم يرون أن الإمامة في نسله على خلاف الشيعة الإثناعشرية الذين يرون انتقال الإمامة في نسل أخيه موسى الكاظم . للإستزادة أنظر : الأردبيلي ، **جامع الرواة وإزاحة الإشتباهات عن الطرق والإسناد** ، منشورات آية الله العظمى المرعشي ، إيران ، 1982 ، ج1 ، ص95 و والشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 226 .

[3] البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد ت429هـ/1037م) ، **الفرق بين الفرق** ، تعليق : إبراهيم رمضان ، ط2 ، دار المعرفة ، لبنان ، 1997 ، ص 68 .

[4] الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 227 .

و من أشهر ألقابهم الباطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطن، ولكل تنزيل تأويل. وعلى هذا يسمّون بالعراق بالباطنية و القرامطة [1]والمزدكية ، وبخرسان : التعليمية والملحدة .

ولعل أكبر تجسيد سياسي لهذه الفرقة تمثل في قيام الدولة العبيدية "الفاطمية " سنة 297هـ/909م .

انقسمت الإسماعيلية إلى قسمين كبيرين في عهد الخليفة العبيدي المستنصر[2] المتوفى سنة 487هـ/1094م فقد كان له ولدين نزار وأحمد، أكبرهما نزار الذي بايعه نفر من الإسماعيلية لقبوا بالنزارية وذلك لأنهم يدينون بإمامة نزار ، ولكن الذي تولى الخلافة أحمد الملقب بالمستعلي ، ونسبت إليه المستعلية ، الباقية إلى اليوم والمعروفة باسم البهرة [3].

وكان المؤهل للخلافة بنظر بعض الإسماعيليين ولده نزار ويرون أن أباه عهد إليه بولاية العهد . وكان الحسن بن الصباح أبرز المؤيدين لهذا الأمر، بل كان صاحب دعوتهم مستندا في ذلك للحاجة إلى إمام يميز بين الحق و الباطل.

---

[1] القرامطة : نسبة إلى حمدان بن قرمط وهم فرع من الشيعة الإسماعيلية الذين انحازوا إلى أطراف العراق والبحرين وانشقوا عن السلالة الفاطمية الحاكمة ، ولم يعترفوا بعبد الله أو بأسلافه أئمة لهم ، وهم من أغاروا على الحجاج وسرقوا الحجر الأسود من مكة سنة 317هـ . للإستزادة أنظر : الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1، ص 229 و ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج4، ص 118 و فرهاد دفتري ، **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعليين** ، ترجمة : سيف الدين القصير ، دار المدى للثقافة والنشر ، سوريا ، 1996 ، ص 39 .

[2] المستنصر العبيدي : هو معد الملقب بالمستنصر بالله بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله بويع بالخلافة سنة 427هـ/1035م ، حكم زهاء ستين سنة ، وجرت في عهده الكثير من الأحداث كقضية أبى الحارث أرسلان المعروف بالبساسيري الذي عظم أمره ، وكبر شأنه ببغداد فخطب له على منابرها سنة 450هـ ، كما خطب له أيضا في اليمن وقطعت في بلاد المغرب، وتوفي سنة 487هـ للإستزادة أنظر : ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 229-230.

[3] البهرة : وهو إسماعيلية مستعلية ، يعترفون بالإمام المستعلي ومن بعده الآمر ثم إبنه الطيب ، ولذا يسمون بالطيبية ، وهم إسماعيلية الهند واليمن ، تركوا السياسة وعملوا بالتجارة فوصلوا إلى الهند واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة ، والبهرة لفظ هندي قديم بمعنى التاجر ، والإمام الطيب دخل الستر سنة 525هـ والأئمة المستورون من نسله إلى الآن لا يعرف عنهم أي شيء ، كما انقسمت البهرة إلى فرقتين : البهرة الداوودية نسبة إلى قطب شاه داوود وهؤلاء ينتشرون في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجري أما الفرقة الأخرى فهم البهرة السليمانية نسبة إلى سليمان بن حسن وهؤلاء مركزهم في اليمن حتى اليوم .للإستزادة أنظر : **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة** ، إشراف : مانع بن حماد الجهني ، ط4 ، دار الندوة العالمية ، الرياض ، 1999، ص 386 .

ولكن لما فقد نزار الخلافة ، مضى إلى الإسكندرية ، حيث بايعه واليها نصر الدين أفتكين وأهلها، ولكن الوزير الأفضل صاحب الأمر في عاصمة الخلافة المصرية جرد حملة عليهما و قضى عليهما ، مما جعل الحسن بن الصباح يفر من مصر إلى قلعة ألموت ، وأرسل فدائييه فاحضروا ابنا لنزار ، ودعا إلى إمامته ، وهكذا تأسّست الإسماعيلية النزارية.[1]

ج)- الشيعة الإثنا عشرية :

هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم نصا ظاهرا وتعيينا صادقا من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين ، قالوا : وما كان في الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام ، حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فإنه إنما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا يرى كل واحد منهم رأيا ويسلك كل واحد منهم طريقا لا يوافقه في ذلك غيره، بل يجب أن يعيّن شخصا هو الرجوع إليه و ينصّ على واحد هو الموثوق به والمعول عليه.[2]

و كان أول من نقض هذا القول هم الشيعة الإمامية أنفسهم بحيث اختلفوا فيما بينهم, ففي حين ساقت الإمامية الإسماعلية الإمامة إلى إسماعيل وولده ، ساقت الإمامية الإثناعشرية الإمامة من جعفر الصادق إلى إبنه موسى الكاظم[3] ، وزعموا أن الإمام بعده علي بن موسى الرضا ثم محمد الجواد وبعده علي الهادي ثم الحسن العسكري فالمهدي المنتظر الذي هو الإمام الثاني عشر عندهم واسمه محمد بن الحسن العسكري وعلى هذا الأساس تم تلقيبهم بالإثناعشرية [4].

---

[1] شريف يحي الأمين ، **معجم الفرق الإسلامية** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1986 ، ص 33 .

[2] الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 190 .

[3] موسى الكاظم : هو موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي العلوي أبو الحسين المدني الكاظم ، ثقة صدوق و إمام من أئمة المسلمين ولد بالمدينة سنة 128هـ وأقدمه الخليفة العباسي المهدي إلى بغداد ثم رده إلى المدينة وأقام بها إلى أيام الرشيد فقفل هارون منصرفا من عمرة رمضان سنة 179هـ فحمله معه إلى بغداد وحبسه بها إلى أن توفي في محبسه سنة 183هـ .للإستزادة أنظر: العسقلاني (شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن علي ت852هـ) ، **تهذيب التهذيب** ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ،1993 ، ج10 ، ص 339-340

[4] البغدادي ، المصدر السابق ، ص 71 .

ويزعمون بأنّ محمداً بن الحسن العسكري دخل سردابا في دار أبيه بسرّ من رأى[1] ، ولم يعد بعد ثم اختلفوا في سنه عند غيابه فقيل كانت سنه إذ ذاك أربع سنوات و قيل ثماني سنوات وكذلك اختلفوا في حكمه فقال بعضهم : إنه كان في هذا السن عالما بما يجب أن يعلمه الإمام وأنّ طاعته كانت واجبة ، وقال آخرون كان الحكم لعلماء المذهب [2].

ويعتبر الشيعة الاثناعشرية أكبر فرق الشيعة عددا ، بل إن لفظ الشيعة الإمامية يطلق اليوم عليهم ، وهم على المذهب الجعفري [3].

وقد قامت لهذه الفرقة دول في بلاد الشام كالدولة الحمدانية[4] والدولة المرداسية[5] .

المبحث الثاني : أوضاع الخلافة العباسية قبيل الغزوات المغولية :

[1] سرى من رأى : وتدعى كذلك سامراء ، مدينة تقع بين تكريت وبغداد ، بناها الخليفة العباسي المعتصم بالله وجعلها عاصمة ملكه وأخذ معه جنده الأتراك واستمرت مقر الخلفاء إلى غاية حكم المعتمد أحمد بن المتوكل . وبها قبر الإمام علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر وابنه الحسن بن علي العسكريين ، ويزعم الشيعة الإمامية أنه المنتظر غاب في أحد سراديب سامراء . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 178 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 300 و مؤلف مجهول ، حدود العالم ، ص 117 و ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 218 و اليعقوبي (أحمد بن أبى يعقوب إسحاق ت284هـ) ، **البلدان** ، وضع حواشيه : محمد أمين ضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ن ، ص 52-53 .

[2] محمد أبو زهرة ، **ابن تيمية حياته و عصره آراؤه و فقهه** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1991 ، ص 143 .

[3] شريف يحي الأمين ، المرجع السابق ، ص 19 .

[4] الدولة الحمدانية : أسسها بنو حمدان وينتمون إلى قبيلة تغلب العربية ، هي إمارة قامت في الموصل بعد ان انفصلت عن الخلافة العباسية وامتدت إلى حلب اشتهرت بالجهاد ضد البيزنطيين خاصة في فترة سيف الدولة الحمداني(332-356هـ/944-967م) الذي عاش في عصره الشاعر المشهور أبى المطيب المتنبي ، اتخذت المذهب الشيعي الجعفري مذهبا رسميا للدولة إلا أنها تسامحت مع باقي المذاهب .سقطت الدولة الحمدانية بين براثن البويهيين في الموصل سنة 367هـ/987م وتوسعات العبيديين في حلب سنة 393هـ/ 1003م .للإستزادة أنظر : ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد ت 660هـ) ، **زبدة الحلب من تاريخ حلب** ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الكتاب العربي ، مصر ، 1997 ، ج1 ، ص 118-120 . وابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 378.

[5] الدولة المرداسية (414-471هـ/ 1024-1079): قامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الحمدانية ، أسسها صالح بن مرداس الذي ينتمي إلى قبيلة كلاب المنحدرة من عامر بن صعصعة ، استولى على حلب سنة 415هـ، ثم ملك سنة= 416هـ حمص و بعلبك و حصن ابن عكار بناحية طرابلس ، ودانت هذه الدولة بالتشيع الإثنا عشري إلى أن اجتاحتها الإمبراطورية السلجوقية . للإستزادة أنظر : ابن العميد ، زبدة الحلب ، ج1 ، ص ص 197-210 .

من الصعب على الباحث تحديد سنة معينة يتطرق فيها إلى أحوال الخلافة العباسية قبيل مجيء المغول ، والأصعب هو اختصار التاريخ العباسي الطويل الذي تتداخل عصوره فيما بينها في بضع صفحات تناقش الأحوال السياسية للدولة العباسية ، ومهما يكن من أمر فقد قامت الدولة العباسية سنة 132هـ/749م عقب ثورة و تخطيط قام بها العباسيّون والعلويّون تحت شعار فضفاض هو "الرضا من آل محمد" جمع كل الناقمين على الدولة الاموية ، ولقد كان العصر العباسي الأول عصرا ذهبيا بامتياز بلغ ذروته في عهد الرشيد[1] وولده المأمون[2] حيث كانت سوق الكتب رائجة ومكتبة الحكمة تزخر بكافة علوم الدنيا والدين، وأضحت بغداد عاصمة الدنيا و قبلة لكل طالبي العلم والمعرفة .

وفي عهد الخليفة المعتصم بالله[3] استكثر من الجند الأتراك الذين كانوا يجلبون من أقاصي الشرق غلمانا يربّون تربية إسلامية ويُلحقون بالجيش الذي صار في أيديهم بعد مدة يسيرة

---

[1] الرشيد : هو أبو جعفر هارون بن محمد بن المهدي بني أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي ولد بالري سنة 150هـ/766م ، و بويع بالخلافة سنة 170هـ/786م ، وهو خامس الخلفاء العباسيين وأشهرهم وأكثرهم ذكرا في التاريخ ، اشتهر بنكب البرامكة وكان يغزو عاما و يحج عاما ، محبا لأهل العلم ومعظما لحرمات الإسلام وتوفي سنة 193هـ/809م بمدينة طوس – مشهد – ودفن بها. للإستزادة أنظر : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان ت911هـ) **تاريخ الخلفاء** ، دار ابن حزم ، بيروت ، 2003 ، ص 225–226 و الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ت 748هـ) ، **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط و كامل الخراط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1982 ، ج9، ص 286 و ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ، ص 319 و شوقي أبو خليل ، **هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا** ، دار الفكر ، دمشق ، 1996 ، ص 15 .

[2] المأمون : ولد ليلة بويع أبوه هارون بالخلافة سنة 170هـ /786م ، ظفر بالخلافة سنة 198هـ/813م بعد مقتل أخيه الأمين الذي خلعه من ولاية العهد ، شهد عهده نهضة علمية عالية فأسس بيت الحكمة و ترجمت الكتب وراجت سوق العلم كما تحول إلى مذهب المعتزلة وامتلأ مجلسه بهم ، توفي غازيا بطرسوس عام 218هـ/833م . للإستزادة أنظر : السيوطي، المصدر السابق ، ص 242–243.

[3] المعتصم بالله : أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ولد سنة 179هـ/796م وقيل 180 هـ ، ويلقب بالمثمن لأنه ثامن الخلفاء العباسيين ، ويصفه الذهبي بأنه من أعظم الخلفاء وأهيبهم ، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن ، التي ضرب فيها أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن سنة 220هـ ، وفي هذه السنة تحول من بغداد إلى سرى من رأى،= وفي سنة 223هـ غزا عمورية و فتحها و هو أول من استكثر من الجند الأتراك ، توفي سنة 227هـ/842م. للإستزادة انظر : الطبري ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 119–120 و ابن الأثير ، الكامل ، ج 6 ، ص 70–71 . السيوطي ، المصدر السابق ، ص 265 .

حيث بلغوا فيه أعلى المناصب وذاق الناس بهم ذرعا في عاصمة الخلافة بغداد ما جعل المعتصم يقوم ببناء عاصمته الجديدة سرّ من رأى سنة 221هـ/836م ، وبهذا بدأ عهد نفوذ الأتراك الذين شاركوا الخلفاء العباسيين في الحكم بل نازعوهم إياه وصار الخلفاء لعبة في أيديهم يُولّون ويَعزلون من يشاؤون منهم[1] .

وقد لاقى الخلفاء العباسيون من الأتراك كافة أنواع المهانة والاستهانة ، فحرضوا المنتصر[2] بن الخليفة المتوكل[3] على قتل أبيه فقتله ، ثم لما تولى الحكم وعارض استبدادهم قتلوه بدس السم له ، ويلاحظ أنه بعد مقتل المتوكل بالله إستبد الأتراك بالسلطة تماما ، وحجروا على الخلفاء واستضعفوهم حتى كانوا في أيديهم كالأسرى ، ولعل أبلغ دليل على استفحال أمرهم وعظم نفوذهم أنه لما ولي المعتز بالله[4] الخلافة جمع خواصه بعض المنجمين وقالوا لهم : "انظروا كم يعيش وكم يبقى بالخلافة . وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ قال : ما اراد الأتراك . وقد كان ذلك فعلا فقد قام الأتراك بالثورة على المعتز وخلعه ثم قتله بعد ذلك.

---

[1] حافظ أحمد حمدي ، **الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي** ، دار الفكر العربي ، مصر ، 1950 ، ص 22-23 .

[2] المنتصر : هو أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن المتوكل ولد سنة 222هـ/837م ، وتولى الخلافة لمدة ستة أشهر فقط بعد قتل أبيه ، سنة 247هـ/861م ، ويعد عهده بداية ضعف الدولة العباسية ، وتسلط الأتراك على مقاليد الحكم فيها ، وتوفي مسموما سنة 248هـ/862م ، للإستزادة أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج6 ، ص 148 . والسيوطي ، المصدر السابق ، ص 283 .

[3] المتوكل : هو أبو الفضل جعفر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، 205هـ-247/822-861م عاشر الخلفاء العباسيين ، من أبرز أعماله أنه أحيا السنة و أنهى الفتنة التي نشأت عن القول بخلق القرآن ، تمذهب بالمذهب الشافعي وفي عهده ازداد نفوذ الأتراك . للإستزادة أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج6 ، ص 136-137 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج14 ، ص 451-452 .

[4] المعتز بالله : ولد بسامراء سنة 232هـ/847م ، وتوفي بها سنة 255هـ/869م ، وكنيته أبو عبد الله بن المتوكل بن المعتصم ، بويع بالخلافة بعد خلع عمه المستعين بالله ، ، ولم يلبث طويلا حتى تم خلعه وقتله سنة 255هـ/869م للإستزادة انظر : السيوطي ، المصدر السابق ، ص 285 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج14 ، ص 505 و ابن الأثير ، الكامل ، ج6 ، ص 199-200 .

ولما أعاد المعتضد [1] عاصمة الخلافة إلى بغداد لم يتغير تيار الحوادث بل بقيت القوة في يد قواد الجيش من الأتراك وهكذا ظل حال الخلافة العباسية حتى دخل البويهيّون بغداد سنة 334هـ/945م بعد أن استنجد بهم الخلفاء العباسيون فكانوا كمن استجار من الرمضاء بالنار [2].

والحقيقة أن عصر النفوذ التركي كان أخفّ على الخلفاء من عصر بني بويه فقد اتّبع البويهيون سياسة التنكيل والاستخفاف بالخلفاء العباسيين و قد عبر ابن الأثير عن حال الخلافة العباسية في عهد البويهيين بقوله :" ازداد أمر الخلافة إدبارا ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة وقد كانوا يراجعون ويأخذون أمرهم فيما يفعل و الحرمة قائمة بعض الشيء فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير ، إنما كان له كاتب يدير اخراجاته لا غير ... وكان من أعظم الأسباب في ذلك أنّ الدّيلم كانوا يتشيّعون ويغالون في التشيّع ، ويعتقدون أنّ العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة"[3] ، ويصف ابن خلدون الخلافة العباسية في العصر البويهي بالعليلة فيقول : " وكانت الخلافة قد طرقها الإعلال وغلب عليها الموالي والصنائع "[4].

وقد بالغ معز الدين البويهي 334-356هـ /945م-967م في الإستهزاء بالخليفة المستكفي عند خلعه فيذكر صاحب الفخري " أن معز الدولة ركب يوما إلى دار الخلافة وسلم على المستكفي وقبل الأرض بين يديه ... ثم تقدم إلى المستكفي رجلان من الديلم بمواطأة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه فظن المستكفي أنهما يريدان تقبيل يده ، فمد يده

[1] المعتضد : وهو أحمد بن محمد بن جعفر بن المعتصم بن هارون ولد سنة 242هـ/856م وبويع بالخلافة سنة 279هـ/892م ، أعاد مركز الخلافة العباسية إلى بغداد ، وتوفي بها سنة 289هـ/902م وكانت مدة حكمه عشر سنوات للإستزادة أنظر : السيوطي ، المصدر السابق ، ص 293-294 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج14 ، ص 644 وابن الأثير ، الكامل ، ج6 ، ص 370 .

[2] حافظ أحمد حمدي ، المرجع السابق ، ص 25 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 208 .

[4] ابن خلدون ، المصدر السابق، ج4، 571 .

فجذباه و نكساه من السرير ووضعا عمامته في عنقه وسحباه ... ودخل الديلم إلى حرم الخليفة وحمل المستكفي إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، وخلع من الخلافة و نهبت داره، وسُملت عيناه "[1].

بل لقد وصل معز الدولة البويهي إلى حد التفكير في اسقاط الخلافة العباسية كليا و إسناد الخلافة إلى أحد العلويين إلا أن أصحابه أثنوه عن ذلك قائلين له : "ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت و أصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا .."[2] فأعرض عن ذلك في استغلال صارخ للنعرات الطائفية بين السنة والشيعة لمصلحة البويهيين السياسية .

وبهذا فقد انهارت أحوال الخلفاء الإقتصادية وانحدرت من سيء إلى أسوأ وقد عبّر مسكويه عن هذا الوضع في رد الخليفة المطيع على بختيار عزّ الدولة 356-367هـ/966-977م حينما طالبه بالمال بحجّة الغزو بأن قال : " الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإليّ تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفائي وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف ، فما يلزمني غزو ولا حجّ ولا شيء مما ينظر الأئمة فيه ، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكّنون به رعاياكم فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركت لكم الأمر كله [3]. ومع هذا فقد باع الخليفة

---

[1] ابن طباطبا (محمد بن علي ت 709 هـ) ، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** ، دار صادر ، بيروت ، د ت ن ، ص 287 و ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 207.

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 208 .

[3] مسكوية (أحمد بن محمد ت 421هـ) ، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم** ، تحقيق : سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2003 ، ج5 ، ص 392 .

المطيع ثيابه وأنقاض داره مـــن ساج و رصاص وجمع من ذلك أربعمائة درهم وبعث بها إليه [1].

ولعلّ الإستثناء الوحيد للسلاطين البويهيين الذي عامل الخلفاء العباسيين معاملة حسنة هو فناخسرو المعروف بلقب عضد الدولة[2] ، الذي زوّج ابنته للخليفة العباسي الطائع (363-381هـ/974-991م) ولا يخفى للناظر أن الزواج كان زواجا سياسيا سعى من خلاله عضد الدولة إلى اكتساب حق للأسرة البويهية في الخلافة عبر ذرية الطائع[3] . فيروي ابن الأثير" وكان غرض الطائع عضد الدولة أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب "[4].

ومن الغريب أن عضد الدولة قد همّ بغزو مصر عاصمة الفاطميين الشيعة قصد إلحاقها بالخلافة العباسية السنيّة إلا أن المنيّة حالت دون قيام حملته المنشودة فيروي البغدادي عنه " وكان أبو شجاع فنا خسرو بن بويه قد تأهّب لقصد مصر وانتزاعها من أيدي الباطنيّة ، وكتب على أعلامه بالسواد : (بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائع لله أمير المؤمنين ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وقال قصيدة أولها :

أما ترى الأقدار إليّ طوائعا قواضيا لي بالعيان كالخبر

ويشهد الأنام لي بأنّني ذاك الذي يرجى وذلك المنتظر

لنصرة الإسلام والداعي إلى خليفة الله الإمام المفتخر

---

[1] ابن تغرى بردي (يوسف أبو المحاسن ت 874هـ) ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، وزارة الثقافة ، مصر، 1963، ج4 ، ص 66 .

[2] عضد الدولة : انظر ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 404 .

[3] محمد بن المختار الشنقيطي ، **أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية** ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان ، 2016 ، ص 109 .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 390 .

فلماّ خرج مضاربه للخروج إلى مصر عاجله الأجل "[1] .

وبوفاة عضد الدولة انتهت العلاقة الحسنة بين الخليفة العباسي والسلطان البويهي فكان أول عمل قام به السلطان البويهي الجديد بهاء الدولة هو خلعه للخليفة الطائع[2] والقبض عليه بعد أن دبّر مؤامرة ظن الخليفة أنها النهاية وأنه الموت الذي لابد منه فأخذ يقول : "إناّ لله وإنا إليه راجعون" فقد جذبه بعض المتآمرين بحمائل سيفه وتكاثروا عليه ولفوه طيّ كساء وحملوه إلى دار الملك وحبسوه فيها كما نهبوا دار الخلافة ، وقد صوّر الشريف الرضى هذه المأساة التي شاهدها في أبيات منها :

أمسيت أرحم من قد أصبحت ... لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني

هيهات أعتز بالسلطان ثانية ... قد ظل ولاج أبواب السلاطين [3].

وتولى بعده الخليفة القادر[4] عام 381هـ/991م وكان هذا بعد نصف قرن تقريبا من سيطرة البويهيين الشيعة على الخلافة العباسية في بغداد التي دخلوها حاملين روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب ، ومن ثم فقد أسرفوا في الإهانة بهم و خلعهم و قتل بعضهم مما أضعف سلطة الدولة وقضى على هيبتها ، كما حاولوا نشر المبادئ الشيعية في بغداد فجوبهوا برد فعل عنيف تمثل في كثرة الفتن بين السنّة والشيعة فعم القلق

---

[1] البغدادي ، المصدر السابق ، ص 254 .

[2] الطائع : ويسمى أبو بكر عبد الكريم بن المطيع ولد سنة 320هـ/932م ، وبويع بالخلافة بعدما تنازل والده عنها سنة 363هـ/974م وبقي خليفة حتى خلعه بنو بويه سنة 381هـ/991م ، توفي ببغداد سنة 393هـ/1003م .للإستزادة أنظر: السيوطي ، المصدر السابق ، ص 321–322 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج15 ، ص 345 و ابن الأثير ، الكامل، ج7 ، ص 343 .

[3] حورية عبده سلام ، **الحياة الإجتماعية في العراق زمن البويهيين** ، دار العالم العربي ، مصر ، 2008 ، ص 33 .

[4]القادر : أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ولد ببغداد سنة 336هـ/947م ، وبويع بالخلافة بعد خلع الطائع سنة 381هـ/991م ، وتوفي ببغداد سنة 422هـ/1031م ، للإستزادة أنظر : السيوطي ، المصدر السابق ، ص 324–325 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج15 ، ص 636 و ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ، ص 450 والسبكي ، المصدر السابق ، ج4، ص 5 .

والاضطراب ، وتكررت ثورات الجند من الأتراك والديلم ، وقاموا بأعمال السلب والنهب ، وتستروا على اللصوص ولم يستطع البويهيون السيطرة عليهم والدولة في عنفوان شبابها ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله تفكك البيت البويهي ، وصراع أفراده على النفوذ والسلطان بعد دخولهم بغداد بثلاثين عاما فقط تتضح الظروف السيئة التي تولى في ظلها القادر وغيره من الخلفاء العباسيين ، هذه الظروف التي تمثلت في استهانة البويهيين بالخلفاء استهانة لا حد لها ، وفي الضعف والوهن الذي أصاب البويهيين فازدادت أحوال الرعية سوءا ، وفي الفتن والمجاعات و الأوبئة التي كانت تحصد الناس حصدا ، وفي تزايد نفوذ اللصوص وقطاع الطرق حتى أثاروا الرعب و الفزع ، وسلبوا الناس أمنهم و سلامتهم [1].

وقد أدى تعصب البويهيين للتشيع أن أجبروا أهل السنة على الإحتفال بأعياد الشيعة [2] ، ومن ثم فقد كانت تلك السياسة الطائفية التي مارسها البويهيون سببا في قيام كثير من الفتن ببغداد ففي سنة 349هـ/960م قامت الفتنة بين أهل السنة والشيعة وتعطلت على اثرها صلاة الجمعة لمساجد أهل السنة ، ولم تقم الجمعة إلا في مسجد بارثا الشيعي[3]. كما أمر معز الدولة سنة 351هـ/962م بلعن الصحابة وكتابة هذا اللعن على المساجد إلا أن أهل السنة قاموا بمحو هذه الكتابة ليلا [4].

وفي العاشر من محرم من سنة 352 هـ / 963 م أمر معز الدولة بأن يحتفل الناس بيوم عاشوراء وهو أكبر عيد عند الشيعة حيث يغلق الناس حوانيتهم ويكثر العويل والبكاء وتخرج النساء كاشفات الشعور ، مسودات الوجوه وقد شققن ثيابهن ويلطمن خدودهم حزنا

---

[1] عبد المجيد أبو الفتوح بدوي ، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد** ، ط2 ، دار الوفاء ، مصر 1988 ، ص 61 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 267 .

[3] ابن تغرى بردي ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 323 .

[4] ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد ت1089هـ) ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، لبنان ، 1989 ، ج 4 ، ص 268-269 .

على ذكرى مقتل الحسين بن علي يوم كربلاء ففعل الناس ذلك ، ولم يكن لأهل السنة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم [1] .

ولم يكتف المعزّ البويهي بهذا الحد بل أمر في الثامن عشر ذي الحجة من نفس السنة بإظهار الزينة ببغداد ، وأن تفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد ، وأن تضرب الدبادب والبوقات ، وأن تشعل النيران بأبواب الأمراء وعند الشرطة فرحا بعيد الغدير – غدير خم – [2] ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله: " فكان وقتا عجيبا ويوما مشهودا و بدعة ظاهرة منكرة"[3].

ولكن لم يطل صبر السنة على ذلك كثيرا فبعد عام واحد فقط من صدور هذا القرار و في سنة 353هـ/964م عمل في عاشوراء مثلما عمل في السنة التي سبقتها من تعطيل الأسواق وإقامة النوح ، فلما أضحى النهار وقعت فتنة عظيمة في بغداد بين السنة والشيعة و نهب الناس بعضهم بعضا ووقع بينهم الكثير من الجرحى وعم الإضطراب [4]، لهذا كان يصدر الأمر في بعض الأحيان بمنع الشيعة من النوح وعمل المآتم مخافة للفتن [5].

كل هذه السياسات الطائفية التي انتهجها البويهون خلال حجرهم على الخلفاء العباسيين أثارت حفيظة أهل السنة في العراق فلم تنقطع ثوراتهم فقد قام أهل السنة سنة 362هـ/973م بمهاجمة أحياء أهل الشيعة وحرقها فيذكر ابن الأثير ما تعرض له أهل الكرخ وهو أكثر أحياء بغداد يسكنه الشيعة بقوله : " احترق الكرخ حريقا عظيما وسبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عاميا فثار به العامة والأتراك ، فأخرج منها مسحوبا وقتل وأحرق ، وفتحت السجون فاخرج من فيها ، فركب الوزير لأخذ الجناة وأرسل حاجبا له يسمى صافيا

---

[1] ابن الوردي (عمر بن المظفر ت 749هـ) ، **تاريخ ابن الوردي** ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1996 ، ج1 ، ص 280 . و ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 279 .

[2] الغدير : ينظر إلى النجوم الزاهرة ، ج4 ، ص 25

[3] ابن كثير(أبي الفدا اسماعيل بن عمر ت 774هـ) ، **البداية والنهاية** ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، مصر ، 1998 ، ج 15 ، ص 261 . و ابن الوردي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 280 .

[4] ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان بن علي ت597هـ) ، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1992 ، ج 14 ، ص 155 .

[5] ابن تغرى بردي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 239

في جمع لقتال العامة بالكرخ وكان شديد العصبية للسنيّة فألقى النار في عدة أماكن من الكرخ فاحترق حريقا عظيما وكان عدد من احترق سبعة عشر ألف إنسان و ثلاثمائة دكان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجدا ومن الأموال مالا يحصى [1]" كما عمّت الفوضى في العراق في أواخر عهد الخليفة المطيع [2] فلم تكن الفتن تحصل ببغداد فقط بل تعدى ذلك إلى كل من الكوفة[3] والبصرة [4] و واسط [5] وإن كانت بشكل أقل مما هي عليه ببغداد .

ويصف مسكويه عصر البويهيين فيقول " سقطت الهيبة وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض ، وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية وفشا القتل حتى كان يعدم في كل يوم قتلى لا يعرف قاتلوهم ، وإن عرفوا لا يتمكن منهم ، فانقطعت موارد الأموال وخربت

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 336 .

[2] حورية سلام ، المرجع السابق ، ص 62 .

[3] الكوفة : مدينة كبرى بالعراق وهي أول مدينة اختطها المسلمون فيه سنة 14هـ على نهر الفرات ، وقيل مصّرها سعد بن أبي وقاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة 18هـ ، وفيها قبر علي بن أبي طالب ، وقد زارها الرحالة ابن جبير(ت614هـ) ووصفها بأنها بالمدينة الكبيرة عتيقة البناء ، لكن الخراب قد استولى على أكثرها ، فالغامر منها أكثر من العامر ، ويرجع السبب في ذلك لقبيلة خفاجة التي تضر بها ، كما يصف الجانب الشرقي المليء بحدائق النخيل ويمتد امتداد البصر . للإستزادة أنظر : ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 188-189 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 490-491 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 501 و المؤلف المجهول ، حدود العالم ، ص117 و اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 201-202.

[4] البصرة : مدينة مشهورة بالعراق ، سميت بالبصرة لرخوة حجارتها وقيل لسوادها ، اختطها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ، وذلك أنه أراد أن يتخذ للمسلمين مصرا ، خاصة وأنهم كانوا قد غزوا من قبل البحرين مدنا كثيرة ، فلما فتحوها كتبوا إليه إنا وجدنا بطاسان مكانا لا بأس به . فكتب إليهم : إن بيني وبينكم دجلة ، لا حاجة في شيء بيني وبينه دجلة أن تتخذوه مصرا ، ثم قدم عليه رجل من بني سدوس يقال له ثابت ، فدله على مكان البصرة وكانت في ناحية مكان قديم يسمى الخريبة فوافق عمر على ذلك ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين مرحلة ويلتقي مع طريق الكوفة قرب معدن النقرة ، وأخبار البصرة كثيرة والمنسوبون إليها من أهل العلم لا يحصون . للإستزادة أنظر ، ياقوت ، المصدر السابق ، ج1 ، 440 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 107 و اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 227 و المؤلف المجهول ، حدود العالم ، ص 116

[5] واسط : وسميت بواسط لأنها تتوسط البصرة والكوفة إلى كل منهما خمسين فرسخا ، وقد بناها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 83 هـ ، وهي مدينة كبيرة يقسمها دجلة إلى نصفين وعليه جسر ، طيبة الهواء وأكثر مدن العراق من حيث وفرة نعمها ، للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 599 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 347 و اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 260 و المؤلف المجهول ، حدود العالم ، ص 115 .

النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة ، وظهر في كل قرية رئيس منها مسؤول عليها وتباغوا بينهم ، وحصل السلطان صفر اليدين ، والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة ، والجند متهارجون"[1]. وزيادة على ترسيم الأعياد الشيعية من طرف البويهيين فقد شجعوا كل عقيدة فاسدة بحجّة حبّهم لآل البيت فيذكر السيوطي أنه " ظهر في سنة 341ه قوم من التناسخية فيهم شاب يزعم أن روح علي انتقلت إليه ، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها ، وآخر يدعي أنه جبريل ، فضربوا ، فتعزّزوا بالانتماء إلى أهل البيت ، فأمر معز الدولة بإطلاقهم لميله إلى أهل البيت ، فكان هذا من أفعاله الملعونة [2].

وعلى هذا الأساس فقد أدّت سياسة البويهيين الطائفية إلى بروز فتن عظيمة بين السنّة والشيعة ، والتي كانت ميزان القوة يميل ناحية الشيعة الذين كانوا مدعومين من طرف سلاطين بني بويه ، كما تجدر الإشارة إلى أنه في بغداد نفسها كانت الفتن تنشب غالبا بين حيّين كبيرين حي الكرخ الذي كان يمثل غالبية شيعية وبين حي باب البصرة الذي كان يمثل غالبية سنيّة ، ويورد ابن الجوزي هذه الفتن في كل سنة تقريبا خلال العصر البويهي. ويعزو الشنقيطي ذلك إلى تأرجح ميزان القوى الطائفي بين الشيعة والسنة خلال العصر البويهي ، وعدم رجحانه لصالح طائفة معينة مما أدى إلى إندلاع مواجهات دائمة بين الطرفين في بغداد[3].

وقد تحول البويهون بعد سيطرتهم على العراق عن مذهبهم الزيدي وتبنوا المذهب الإمامي تماشيا مع التشيع الإمامي العراقي [4]، ولا يعرف الوقت التي تم فيه ذلك إلا أنها قد تكون من المرجّح بعد سنة 351ه/962م التي أمر فيها المعز البويهي بالكتابة على مساجد بغداد ما أورده ابن الأثير قائلا : " في هذه السنة كتب عامة الشيعة ببغداد ، بأمر معز

[1] مسكويه ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 395-396 .

[2] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 316

[3] الشنقيطي ، المرجع السابق ، ص 109 .

[4] نفسه ، ص 110 .

الدولة على المساجد ما هذه صورته ، لعن الله معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكا ، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام . ومن نفى أبا ذر الغفاري ، ومن أخرج العباس من الشورى ... فلما كان الليل حكه بعض الناس ، فأراد معز الدولة إعادته ، فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبي ، بأن يكتب مكان ما محي ، لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يذكر أحدا في اللعن إلا معاوية ففعل ذلك "[1]، وتعتبر هذه الرواية خروجا واضحا من طرف معز الدولة البويهي عن القاعدة الأساسية التي يتبناها الشيعة الزيدية القائلة بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل .

وبذلك وجد البويهيون وسيلة لاكتساب تأييد الشيعة العرب كعصبية لهم في بغداد والعراق، فقاموا بالإعلان عن تنظيم الاحتفالات بمناسبتي الغدير وعاشوراء، تنظيمًا تحتفل به الدولة رسميا ولكن المؤكد أن تشيعهم هذا لم يكن هو المهيمن على فكرهم وسياستهم، بل كان الملك ومصلحة السياسة وراء ذلك ، فقد كانوا قبل هذا يحكمون جزءًا كبيرًا من فارس ولم تكن فارس يومها شيعة، فلم يحرصوا على تشيعهم أو إقامة الأعياد والمناسبات الخاصة بالشيعة، فقد كانت فارس مستقرة لهم، بفضل العصبية القومية التي كانت حاضرة لهم هناك – فهم بين قبيلتهم من الديلم– وغائبة عنهم في العراق ، فلم يجدوا بدّا من توجيه أنظارهم إلى ناحية الشيعة لجذبهم من أجل كسب الشرعية السياسية منهم .

ويعزّز هذا القول صراعهم مع الفاطميين في مصر [2] والقرامطة في البحرين[3] و بنو حمدان في الموصل وكانوا جميعا من الشيعة[4].

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 275 .

[2] البغدادي ، المصدر السابق ، ص 254 .

[3] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 194 .

[4] ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 300 .

ومهما يكن من أمر فقد انتهى العصر البويهي بدخول الأتراك السلاجقة السنّة بقيادة طغرلبك إلى بغداد سنة 1055م/447هـ، وقد دخل السلاجقة الإسلام وفق المذهب السنّي على يد الدولة السامانية[1] ، وبقيادة طغرلبك قاموا بتحقيق الانتصارات الكبيرة مستغلين ضعف من حولهم فملكوا خرسان سنة 429هـ/1037م ومرو ونيسابور ثم ألحقوا كل من بلخ وطبرستان وجرجان وخوارزم والري وهمذان وأصفهان ، وفي هذه الأثناء كان الخليفة القائم في بغداد يئن تحت وطأة حكم البساسيري[2] المتعصّب للمذهب الشيعي والذي كان مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة ، فلم يجد الخليفة العباسي آنذاك بدّا من الإستنجاد بالقائد السلجوقي السنّي طغرلبك الذي دخل بغداد دخول المنتصر سنة 447هـ/1055م .

ومن الجدير بالذكر أنه تم نهب دار أبي جعفر الطوسي[3] بالكرخ – بعد سنة واحدة من حكم السلاجقة لبغداد – وهو فقيه الشيعة الإمامية[1]، ولعل هذا يرجع لحالة الإحتقان التي كان يشعر بها السنّة اتجاه الشيعة الذين طالما أحسوا بالأفضلية في ظلّ السلطة البويهية .

---

[1] الدولة السامانية : هي دولة إسلامية سنية قامت في المشرق الإسلامي ، والسامانيون هم من الفرس كانوا ولاة من قبل الطاهريين على إقليم ماوراء النهر ، ومع ضعف الطاهريين استقلوا عنهم و ضموا أراضي الدولة الصفارية بلغت أوج قوتها في عهد إسماعيل بن أحمد الساماني واتخذوا من بخارى عاصمة لهم ، اهتموا بالعلوم والفنون وأكرموا العلماء والفقهاء حتى أن بخارى كانت تضاهي بغداد آنذاك . للإستزادة أنظر : النرشخي (أبوبكر محمد بن جعفر ت348هـ/959م)، **تاريخ بخارى** ، تحقيق : أمين عبد المجيد البدوي و نصر الله مبشر الطرازي ، دار المعارف ، مصر ، 1965 ، ص 22–25.

[2] البساسيري : أبو الحارث الملقب بالمظفر ، ملك الأمراء آرسلان التركي البساسيري ، نسبة إلى تاجر باعه من أهل فسا . والصواب : فسوي ، فقيلت على غير قياس كعادة العجم ترقت به الأحوال إلى أن نابذ الخليفة وخرج عليه وكاتب صاحب مصر المستنصر فأمده بأموال وسلاح ، فأقبل في عسكر قليل ، وتوثب على بغداد ، ففر منه القائم ، وتذمم بأمير العرب مهارش وعاث جمع البساسيري ، وأقام الدعوة بالعراق للمستنصر ، وقتل الوزير وفعل القبائح حتى أقبل طغرلبك ، ونصر الخليفة ، ونزح البساسيري ، فلحقه العسكر ، فقاتل حتى قتل. للإستزادة أنظر : الذهبي ، السير ، ج 18 ، ص 133.

[3] أبو جعفر الطوسي : شيخ الطائفة ، وصاحب التصانيف أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي . ولد في طوس سنة 385هـ/995م ثم قدم بغداد ، وتفقه أوّلا للشافعي . ثم أخذ الكلام وأصول القوم عن الشيخ المفيد رأس الإمامية ، ولزمه وبرع ، وعمل التفسير ، وأملى أحاديث ونوادر في مجلدين ، عامتها عن شيخه المفيد . وروى عن : هلال الحفار ، والحسين بن عبيد الله الفحام ، والشريف المرتضى ، وأحمد بن عبدون ، وطائفة . روى عنه : ابنه أبو علي . وأعرض عنه الحفاظ لبدعته ، وقد أحرقت كتبه عدة مرات في رحبة جامع القصر ، واستتر لما ظهر عنه من التنقّص بالسلف ، وكان يسكن بالكرخ ، محلة الرافضة ، ثم تحوّل إلى الكوفة ، وأقام بالمشهد يفقههم . توفي سنة 460هـ/1050م ، وكان يعد من=

ففي سنة 448هـ/1056 أمر الخليفة بأن يؤذن بالكرخ و غيرها من المساجد الشيعية الصلاة خير من النوم وأن يتركوا خير على خير العمل ففعلوا ما أمرهم خوفا من السلطنة السلجوقية [2].

وفرّ البساسيري إلى الرحبة وأعلن بيعته للخليفة الفاطمي "العبيدي" المستنصر بالله الذي أرسل له الخلع و الأموال ، مما ساعده على دخول بغداد من جديد والقبض على الخليفة العباسي والدعاء للخليفة الفاطمي على منابر بغداد وزاد مرّة أخرى عبارة حيّ على خير العمل في الآذان [3] وقد أدّى هذا إلى حدوث فتنة عظيمة بين السنة والشيعة فيروي ابن الجوزي " في سنة 450هـ دخل ، البساسيري بغداد ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطئ دجلة ، فتلقاه أهل الكرخ ، فوقفوا في وجه فرسه وتضرعوا إليه أن يجتاز عندهم ، فدخل الكرخ وخيّم بها ، وكان على رأسه أعلام مكتوب عليها الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين ، وكان قد جمع العيّاريين وأهل الرساتيق وأطمعهم في نهب دار الخلافة ، والناس إذ ذاك في ضرّ و مجاعة ، ونزل بقريش ابن بدران في نحو مائتي فارس على مشرعة باب البصرة ، فلما استقر بالقوم المنزل ركب عميد العراق من الجانب الشرقي في العسكر وحواشي الدولة والهاشميين والعوام و العجم إلى آخر النهار فلم يجابهوا عسكر البساسيري بشيء ، ونهبت دار قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني ، وهلك أكثر السجلات والكتب الحكمية ، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة ، ونهب أكثر باب البصرة بأيدي أهل الكرخ تشفيا بالمذهب ، وعاود أهل الكرخ الآذان بحي على خير العمل وعملوا راية بيضاء و نصبوها وسط الكرخ عليها اسم المستنصر بالله" [4].

الأذكياء لا الأزكياء . ذكره ابن النجار في " تاريخه " . وله تصانيف كثيرة منها : كتاب " تهذيب الأحكام " كبير جدا ، وكتاب " مختلف الأخبار " ، وكتاب " المفصح في الإمامة " ، للإستزادة أنظر : الذهبي ، السير ، ج18 ، ص 335

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص 339 .

[2] نفسه ، ص 335 .

[3] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 329 .

[4] ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 32 .

وقد صادف دخول البساسيري لبغداد غياب طغرلبك عنها لانشغاله بإخماد ثورة قامت في شمال العراق ، فعندما سمع ذلك عاد لبغداد و قضى على البساسيري واستقر الأمر بعد ذلك للسلاجقة في بغداد[1]. وثار حينها أهل باب البصرة على أهل الكرخ فنهبوها وأشعلوا النار في أسواقها و دروبها[2]. وبالتالي فقد تحول ميزان القوى لصالح السنة تماما فما كان فوضى متأرجحة بين الطرفين في العقود السالفة تحول إلى صعود السنة وإخضاع الشيعة.[3]

ولم يكن ظنّ الخلفاء العباسيين في محله حينما اعتقدوا بأن خلاصهم على يد السلاجقة سيكون بمثابة انتهاء الوصاية عليهم و مباشرة ممارسة الحكم فعليا فقد نهج السلاجقة منهج البويهيين والأتراك من قبلهم في الإستئثار بالحكم دون الخلفاء[4]، ومما يدل على ضعف الخلفاء في العصر السلجوقي أنهم كانوا يعيشون من إقطاعات مقررة لهم يأخذون دخلها . ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة أو نقشه على السكة تماما مثلما كان يحدث أيام البويهيين [5]. على أن معاملة السلاجقة السنة للخلفاء العباسيين في العموم كانت جيدة مقارنة بمعاملة البويهيين الشيعة ، فقد احترم السلاطين السلاجقة خلفاء بني العباس ، فيروي ابن الأثير أنه حينما دخل طغرلبك بغداد " طلب السلطان الإجتماع بالخليفة فأذن له في ذلك و جلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوسا عاما و حضر وجوه عسكر السلطان و أعيان بغداد ، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع و عليه بردة النبي –صلى الله عليه وسلم– وبيده القضيب الخيزران ، فقبّل السلطان الأرض وقبّل يده ، وأجلس على كرسي فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده و رد عليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر

---

[1] أحمد حافظ حمدي ، المرجع السابق ، ص 34 .

[2] ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 48 .

[3] الشنقيطي ، المرجع السابق ، ص 110 .

[4] حسن إبراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ، **النظم الإسلامية** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1939 ، ص 68 .

[5] أحمد حافظ حمدي ، المرجع السابق ، ص 39 .

العدل وكف الظلم و إصلاح الرعية ، فقبل الأرض و أمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه فقام إلى موضع لبسها فيه ، وعاد قبل يد الخليفة ووضعها على عينيه و خاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب وأعطى العهد وخرج ، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسين ألف دينار و خمسين مملوكا تركيا من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وغيرها "[1].

كما وثّق السلاجقة علاقتهم بخلفاء بني العباس برباط المصاهرة فقد تزوج طغرلبك من ابنة الخليفة القائم الذي زوج ابنه المقتدى بابنة السلطان ألب أرسلان في سنة 464 هـ/1071م ، وكذلك تزوج الخليفة المستظهر (486-512هـ/1093-1118م) من ابنة السلطان ملكشاه في سنة 502هـ/1108م ، وتزوج الخليفة المقتفي (530-555هـ/1135-1160م) من فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان محمود ، وبهذا فقد ارتبط البيت السلجوقي بالبيت العباسي ارتباطا وثيقا[2]، وإن لم يمنع ذلك من قيام بعض الخلافات أحيانا خاصة بعض ضعف السلاجقة وتفككهم واستغلال الخلفاء العباسيين للتنصّل من الوصاية السلجوقية ومباشرة الحكم بشكل مستقل .

والواقع أن العباسيين قد أخذوا يثورون ضد الحكم السلجوقي منذ أيام الخليفة المسترشد بالله وقد انتهزوا فرصة ضعف البيت السلجوقي -خاصة بعد وفاة ملكشاه- الذي نخرته النّزاعات الداخلية والحروب الأهلية بين الأمراء السلاجقة ، التي أدّت إلى إنقسامهم إلى دويلات صغيرة مستقلة عن بعضها البعض مما مكن الخلفاء العباسيين من إقامة حكم فعلي في العراق[3] ، بالإضافة إلى استعانة الخلافة العباسية بالخوارزميين ، فقد استعان الخليفة

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 337 .

[2] حسن ابرهيم حسن و علي ابراهيم حسن ، المرجع السابق ، ص 70 .

[3] أحمد حمدي حافظ ، المرجع السابق ، ص 46 .

الناصر بالسلطان الخوارزمي علاء الدين تكش للقضاء على طغرلبك وهو آخر سلطان سلجوقي بالعراق وتمكن من قتله سنة 590هـ/1193 م [1].

وتميّزت العلاقات بين السنّة والشيعة خلال فترة الحكم الفعلي للخلفاء العباسيين بالهدوء والسكينة تارة و بالفتن و الفوضى تارة أخرى فقد اتبع بعض الخلفاء سياسة سنيّة بالكامل فالخليفة المستضيء(566-575هـ/1170-1180م)[2] مثلا قرّب السنّة ومارس سياسة أقرب إلى الإضطهاد ضدّ الشيعة ، مستعينا ببعض علماء السنّة لتطبيقها [3]، إلا أن ولده الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1180-1225م) [4] قد اتبع سياسة التوفيق بين السنّة والشيعة فأحبّه عامة الناس لذلك ، فيروي الرحالة ابن جبير الذي زار بغداد سنة 580هـ/1185م عن الخليفة الناصر بأنه " يحب الظهور إلى العامة ويؤثر التحبب لهم ، وهو ميمون النقيبة عندهم قد استعادوا بأيامه رخاء وعدلا و طيب عيش فالكبير و الصغير منهم داع له" و في وصفه يذكر أيضا " أبصرنا هذا الخليفة المذكور وهو في فتاء سنه أشقر اللحية حسن الشكل جميل المنظر أبيض اللون معتدل القامة سنّه نحو الخمس وعشرين سنة"[5].

---

[1] ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 100 .

[2] المستضيء بالله : مولده ببغداد سنة 536هـ/1142م واسمه أبو محمد الحسن بن يوسف كانت مدة حكمه ما بين عامي 566-577هـ/1170-1180م) وتوفي ببغداد سنة 577هـ/1180. للإستزادة انظر : ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 85 .

[3] محمد القدحات ، **الحياة الإجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير (575-656هـ/1179-1258م)** ، دار البشير ، الأردن ، 2005 ، ص 45 .

[4] الناصر لدين الله : أحمد بن المستضيء بأمر الله ، ويكنى بأبى العباس الناصر لدين الله ، ولد ببغداد سنة 553هـ/1158م ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة 575هـ/1180م وامتدت فترة حكمه حوالي سبع وأربعين سنة حاول من خلالها إعادة الحكم الفعلي للخلافة العباسية و تمديد سيادته على أقاليم العالم الإسلامي ، وفي عهده حرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس سنة 588هـ ، وكانت سياسته تقريب السنة والشيعة و القضاء على الفتن كما زار الرحالة ابن جبير بغداد في عهده . للإستزادة أنظر : ابن كثير ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 542 و الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 67 و ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص 451-452 و ابن العماد الحنبلي ، الشذرات ، ج7 ، ص 172 .

[5] ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد ت 614هـ) ، **رحلة ابن جبير** ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، د ت ن ، ص 173 .

وقد كان ظهور التشيع في بداية حكمه نتيجة طبيعية لما أفرزته الظروف السياسية عند توليه لمنصب الخلافة من تحكم أستاذ الدار[1] ابن الصاحب الذي كان مغاليا في تشيّعه ، وقد وصفه ابن الأثير بأنه " كان متحكما في الدولة ليس للخليفة الناصر معه حكم و كان القيّم بالبيعة له "[2] ، بينما وصفه الذهبي بأنّه " أحد من بلغ أعلى المراتب ، وصار يولّي ويعزل ، وأظهر الرفض ، ولم يزل في ارتقاء حتى قتل .. وكان قد تمرّد وسفك الدماء وسبّ الصحابة، وعزم على قلب الدولة فقصمه الله"[3].

وقد تخلّص منه الخليفة الناصر سنة 583هـ/1187م عندما عمّت الشكوى منه وكثرت السّعايات في أمره وهذا يدل على أن الناصر لم يكن شيعيّا كما يدّعي بعض المؤرخين الشيعة ، بل كان يرعى كافة رعيته سنّة وشيعة في إطار سياسيته التوفيقية بين عناصر المجتمع من جهة و إضعافا للمشاعر الطائفية والقضاء على الفتن التي كانت تتوالى بين السنّة والشيعة من جهة أخرى ، لذلك لمّا زاد ابن الصاحب في إظهار تشيّعه و بالغ فيه أجهز عليه [4]. كما كان الناصر يدعو شيخ الحنابلة ابن الجوزي[5] لعقد مجلس وعظ بباب بدر ليستمع أهله لمواعظه وفي المقابل أيضا جعل مشهد موسى الكاظم أمنا لمن لاذ به ، بل أمر سنة 607هـ/1211م أن يقرأ مسند الإمام أحمد[6] في المشهد نفسه [1].

---

[1] أستاذ الدار : منصب إداري من مناصب دار الخلافة العباسية ، يتولى صاحبه رعاية شؤون دار الخلافة وإعمارها و توفير ما يلزمها ، ويعد صاحب هذا المنصب في جملة كبار رجال الدولة ، للإستزادة أنظر : القلقشندي المصدر السابق، ج5 ، ص457 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 164 .

[3] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج 21 ، ص 164-165 .

[4] محمد القدحات ، المرجع السابق ، ص 51 .

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمان بن أبي الحسن علي بن محمد التيمي القرشي ، بغدادي المولد والنشأة (510-597هـ/1116-1201م) ، محدث ومؤرخ وفقيه مشهور حنبلي المذهب ، ألف ما يقرب من ثلاثمائة مصنف شملت العديد [5]من العلوم خاصة في الفقه و التفسير والحديث والتاريخ واللغة والطب . للإستزادة أنظر :

[6] أحمد بن حنبل : هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ولد ببغداد سنة 164هـ/780م ، وتوفي بها سنة 855/241م عالم وفقيه جليل ومؤسس المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي ، اشتهر بصبره على المحنة التي ألمت به وعرفت باسم= فتنة

وبالرغم مما حصل مع ابن الصاحب فلم يقاطع الشيعة وظائف الدولة فتولوا الكثير من المناصب فكان منهم الوزراء أمثال محمد بن أحمد بن القصاب[2] و نصير الدين بن مهدي العلوي[3] ومؤيد الدين القمي[4] و بعض الولاة مثل زعيم خوزستان الأمير مجير الدين طاشتكين[5].[6]

حرص الخلفاء بعد الناصر على هذه السياسية وقد أدّى ذلك إلى ظهور بعض الخلفاء الذين وصفوا بالعدل أمثال الخليفة الظاهر الذي بويع له في شوال من سنة 622هـ /1225م بعد وفاة والده الناصر فأظهر العدل و الأمن و أزال الظلم و رد على الناس حقوقهم و أزال مكوسا كثيرة من على كواهلهم ، فارتفع عن الناس الخوف فأظهروا النعمة وإمتنع المفسدون من السعايات ، ومازالت دولته كذلك عادلة آمنة منذ ولي إلى أن توفي في 14 رجب 623هـ/1226م بعد تسعة أشهر فقط [7].

خلق القرآن في عهد المأمون والمعتصم والواثق ، التي سجن وعذب على إثرها ، من أهم مؤلفاتها المسند ، أثنى عليه العلماء وعلى رأسهم الشافعي . للإستزادة أنظر :

[1] محمد القدحات ، المرجع السابق ، ص 52 .

[2] محمد بن أحمد القصاب : أعجمي الأصل وكان والده قصابا يبيع اللحم ببغداد فاشتهر بذلك ، وقد نشأ مشتغلا بالعلوم والآداب وبرع في علوم المتصرفين كالحساب ، ثم تبصر بأسباب الوزارة ، وقاد العساكر إلى نواحي الري وخوزستان فأقام أمرها ثم أدركه الأجل فمات هناك . للإستزادة أنظر : ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص 324.

[3] نصير الدين بن مهدي العلوي : ولد في مازندران ونشأ في الري وقدم بغداد مع شرف الدين محمد ابن عز الدين الذي كان نقيب بلاد العجم في عهد الخليفة الناصر ، وقد كان الناصر يستشيره في بعض الأمور فرآه سديد الرأي فاستخلصه لنفسه ورتبه أولا نقيب الطالبيين ، ثم فوض إليه أمور الوزارة . للإستزادة أنظر : ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص325.

[4] مؤيد الدين القمي : هو محمد بن محمد بن عبد الكريم ، قمي الأصل والمولد وبغدادي النشأة والوفاة ، ينتسب إلى المقداد بن الأسود الكندي ، كان خبيرا بأمور الملك والسياسة عالما بالقوانين عارفا باصطلاح الدواوين ، تولى الوزارة في عهد الناصر ثم الظاهر ثم المستنصر الذي قبض عليه وحبسه حتى مات سنة 629هـ/1231م للإستزادة أنظر : ابن طباطبا ،المصدر السابق ، ص 326-327 .

[5] مجير الدين طاشتكين : كان شيخا حسن السيرة كثير العبادة ، غاليا في التشيع ، كانت الحلة الشيعية إقطاعه ، ورماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين سرا فحبسه الخليفة الناصر ، ثم تبين له بطلان ذلك فأطلقه وأعطاه خوزستان ، وكان شجاعا سمحا قليل الكلام توفي 602هـ/1205م ، ودفن بمشهد علي بالكوفة . للإستزادة أنظر : ابن كثير ، المصدر السابق ، ج13 ، ص 45 .

[6] محمد القدحات ، المرجع السابق ، ص 52 .

[7] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 211-212 .

وفي سنة 633هـ/1235م أمر الخليفة المستنصر بالله (623-640هـ/1226-1242م) بتوزيع الأموال على الفقراء والمساكين جعل جزءا منها لفقراء الطالبيين وجزءا آخر لفقراء مشهد الحسين بن علي ووزّع الباقي على الفقراء المقيمين على تربة الإمام أحمد بن حنبل[1] . وفي سنة 634هـ/1236م قصد المستنصر زيارة مشهد موسى بن جعفر ، فلمّا عاد أمر بثلاثة آلاف دينار إلى أبي عبد الله الحسين الأقساسي نقيب الطالبيين بغية أن ينفقها على فقراء العلويين المقيمين في مشاهد علي بن أبي طالب والحسين وموسى بن جعفر[2] . كما قام المستنصر بإعمار مشهد سرّ من رأى حينما احترق سنة 640هـ/1242 م وأعاده أفضل مما سبق[3] . ولكن أهم شيء يُحسب للمستنصر ليس إظهار العدل وحسن السيرة وتوزيع الصدقات على مستحقيها من الفقراء فقط بل إنشاء مدرسته المعروفة بالمستنصرية ، التي وقفها على المذاهب الأربعة ورتّب فيها أربعة من المدرسين في كل مذهب مدرسا ، وثلاثمائة فقيه لكل مذهب خمسة و سبعون فقيها [4].

لقد أنشأ المستنصر المدرسة المستنصرية سنة 631هـ/1233م وجعلها وقفا على المذاهب الأربعة فوفد إليها طلاب العلم ونسوا الضغائن والأحقاد المذهبية التي كانت تقع فيما بينهم قبل ذلك ، بل صار يجمع طلبة المستنصرية على اختلاف عناصرهم ومشاربهم وطوائفهم شعور واحد وهو الإعتزاز بالإنتماء لهذه المدرسة ومكانتها وعلومها ، وهذا كان من أهمّ العوامل التي ساعدت على التقارب والوحدة بين الطوائف المختلفة التي كانت تتنافس و تتناحر فيما بينها في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، أما في القرن السابع الهجري فقد ضعف ذلك التناحر نوعا ما ، وليس ببعيد أن المستنصرية كانت من العوامل المؤثرة و

[1] الغساني ، **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك** ، تحقيق : شاكر محمود عبد المنعم ، دار البيان ، بغداد ، 1975 ، ج1 ، ص 470 .

[2] محمد القدحات ، المرجع السابق ، ص 53 .

[3] مجهول ، الحوادث ، ص 95 .

[4] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 212 .

بصورة كبيرة في تقليل وإضعاف ذلك التنافس والتناحر المذهبي[1]. ومن خلال سياسية الناصر والخلفاء من بعده أمثال الظاهر والمستنصر انخفضت حدّة الصراع المذهبي والطائفي بين السنّة والشيعة الذي كان يتكرر كل سنة تقريبا في العهد البويهي و أوائل العهد السلجوقي ، ولعل مردّ ذلك إلى السياسة الحكيمة التي انتهجها هؤلاء الخلفاء بالإضافة إلى عدم وجود قوى أجنبية تستفيد من الصراع القائم بين عامة الناس لتثبيت ركائز حكمها وهو الأمر الذي ظهر جليّا في العصر البويهي .

وفي سنة 640هـ/1242م توفي المستنصر بالله فاتفقت آراء أرباب الدولة على تقليد الخلافة إلى ولده عبد الله ولقبوه بالمستعصم بالله وهو الخليفة السابع والثلاثين والأخير، وفي عهده سقطت بغداد في أيدي المغول[2].

[1] محمد القدحات ، المرجع السابق ،ص 49 .

[2] أبي الفداء (عماد الدين اسماعيل بن علي ت 732هـ/1331م)، **المختصر في أخبار البشر** ، تحقيق : محمد زينهم عزب و يحي سيد حسين ، دار المعارف ، مصر ، د ت ن ، ج2 ، ص 276 .

المبحث الثالث : الدولة الأيوبية

1-الجانب السياسي

قام على أنقاض السلاجقة مجموعة من الدّول الصغيرة المفتتة ولعلّ أبرز هذه الدول تمثلت في الدولة الخوارزمية التي كانت وريثتها في المشرق في حين استقلّت الخلافة العباسية بالحكم في بغداد وأجزاء من العراق كما رأينا ، أما في بلاد الشام ومصر فقد قامت الدولة الأيوبية.

خرجت الدولة الأيوبية من رحم دولة الأتابكة النّورية سياسيّا وقامت على أنقاض الدولة الفاطمية العبيديّة جغرافيا ، فقد أسّس نور الدين محمود زنكي[1] ومن قبله والده عماد الدين زنكي[2] ، دولة قامت على أنقاض السلاجقة و قد كان والد صلاح الدّين قائدا في جيوش عماد الدين وصديقا مقربا منه وبالتالي كان لصلاح الدين[3] وعمه شيركوه [4] مكانة مرموقة

---

[1] نور الدين محمود زنكي : ولد بالموصل سنة 511هـ/1118 م ، وآلت إليه إمارة الدولة الزنكية بعد مقتل أبيه عماد الدين سنة 541هـ/1148م شملت إمارته معظم بلاد الشام واشتهر بمحاربة الصليبيين حيث تصدى للحملة الثانية بالإضافة إلى ضم مصر على يد نائبه شيركوه وصلاح الدين ، أسس العديد من المدارس السنية في بلاد الشام لإحياء المذهب السني ، اشتهر بالورع والتقوى والصلاح ولقب بالملك العادل ونور الدين الشهيد بالرغم من أن وفاته كانت بسبب المرض .للإستزادة أنظر : للإستزادة أنظر : ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 184-188.

[2] عماد الدين زنكي : هو عماد الدين بن آق سنقر الحاجب بن عبد الله أبو المظفر الأتابك ، وهو والد نور الدين محمود ، وقد كان آق سنقر مملوكا للسلطان السلجوقي ملكشاه فولاه الخليفة المسترشد سنة 516هـ على الموصل ، ثم ملك حلب سنة 521هـ واستولى على الرحبة وبلاد الجزيرة بتوقيع السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، واسقط الرها أول إمارة صليبية سنة 539 هـ ، وتوفي مجاهدا سنة 541هـ/1148م . للإستزادة أنظر : ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 227-229.

[3] صلاح الدين الأيوبي : الملك الناصر يوسف بن أيوب بن شادي ولد في تكريت عام 532هـ/1138م مؤسس الدولة الأيوبية التي ضمت مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن ، وبطل معركة حطين الخالدة ، توفي في دمشق سنة 589هـ/1193م .للإستزادة انظر : ابن شداد ، المحاسن اليوسفية و ابن خلكان ، ج7 ، ص 139 .

[4] أسد الدين شيركوه : هو شيركوه بن شادي و اسمه يعني أسد الجبل ، عمّ صلاح الدين وصاحب الفضل في انتصاراته العسكرية وتأسيس الدولة الأيوبية في مصر ، توفي سنة 564هـ/1169م .للإستزادة انظر : ابن خلكان ، المصدر السابق، ج2 ، ص 479-480.

عند نور الدين محمود الذي أرسلهما إلى مصر بطلب من الخليفة الفاطمي العاضد لإنقاذها من يد الصليبيين .

والحقيقة أنّ الدولة الفاطمية في ذلك الوقت كانت تحتضر بسبب ضعف الخلفاء وتسلط الوزراء بداية من عهد الوزير بدر الجمالي[1] الذي أوكل إليه الخليفة المستنصر[2] جميع شؤون الدولة ، وكتب له في سجل توليته : " وقد قلّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النّظر في كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلّدك أمير المؤمنين من ذلك مدبّرا للبلاد ، ومصلحا للفساد ومدمرا أهل العناد"[3], ومن ثمّ فقد تم الحجر على الخلفاء ووضعوا تحت الرّفوف وصار الأمر مشابها لحد كبير بما حصل مع خلفاء بني العباس أيام البويهين والسلاجقة .

---

[1] بدر الجمالي : أرمني الأصل وكان مملوكا لجمال الدولة بن عمار فلقب بالجمالي ، قاد الجيوش العبيدية في بلاد الشام ولما ساءت الأحوال في مصر أرسل الخليفة المستنصر إليه –وكان يومئذ في عكا – يطلب منه نجدته و عونه ويشكوا إليه الأمراء الذين ضيقوا عليه ، ويعده بتملك البلاد حيث ولاه الوزارة سنة 465هـ/ 1073م فقدم إلى القاهرة مع عساكره فتلقاه أهل الدولة باللهفة والمودة وهو يثني عليهم ولا يذكر الخليفة المستنصر إلا بكل سوء ، ثم أخذ مع الأمراء في الأكل والشرب والملذات حتى إذا استأنسوا له استدعاهم إلى ضيافته ، ورتب خطة قتلهم فيها جميعا ، ورتب على كل امير رجلا من أصحابه ، فدانت الدولة له ، ثم شرع في إصلاح ما فسد من إقليم مصر . ويعتبر عهده بداية حكم الوزراء في مصر . للإستزادة أنظر : المقريزي ، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا** ، تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ، 1996 ، ج2 ، ص 311–312.

[2] الخليفة المستنصر : ولد سنة 420هـ/1029م وهو أبو تميم معد بن الظاهر بويع بالخلافة سنة 427هـ/1036م وهو ابن سبع لم يتجاوز الثمانية ، فكانت مصر في بداية عهده تشهد رخاء منقطع النظير بفضل الوزير القائم بالملك أبى القاسم علي بن أحمد الجرجاني ، الذي كان وزيرا أيام الحاكم والظاهر ، وقد زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو مصر في بداية عهد المستنصر فأشاد برخائها واستقرارها ووصف المدن والإحتفالات والمواكب ، إلاّ أنّ أوضاع مصر بدأت بالتدهور بعد وفاة الوزير الجرجاني ، و تدّخل أم الخليفة المستنصر في شؤون الدولة الأمر الذي أدى إلى اشعال الفتن بين أمراء الجيش بالإضافة إلى المجاعة الكبرى بسبب انخفاض منسوب النيل والتي بقيت سبع سنين متصلة من 457–464هـ/1065–1071م) ، ومع اضطراب الأوضاع السياسية والإقتصادية في الدولة أرسل المستنصر يستدعي بدر الجمالي ، الذي بدأ في الإصلاح مع استبداده بالأمر دون المستنصر ، وتوفي المستنصر سنة 487هـ/1094م بعد حكم دام ستين سنة .
للإستزادة انظر : المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2 ، ص 184وناصر خسرو ، **سفر نامة** ، ترجمة : يحي الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993 ، ص 95–96.

[3] المقريزي ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، ج2 ، ص 346 .

وقد تعاقب على حكم مصر في هذا الوقت مجموعة من الوزراء الذين كادوا الدسائس فيما بينهم ، الأمر الذي زاد في إضعاف الجبهة الداخلية في مصر ، وكان للاختلاف المذهبي دوره في ذلك فيعزو المؤرخون النّزاع الذي كان قائما بين ابن السلار[1] الوزير السنّي الشافعي وبين ابن صال المغربي[2] الشيعي نزاعا بين السنّة والشيعة ، وقد كان ابن السلار يطمع في مساعدة نور الدين محمود زنكي لنشر مذهب أهل السنة في مصر بدل مذهب الشيعة ممّا جعل الخليفة الظافر يكيد لابن السلار ، ولعله هو الذي حرّض نصر بن عباس لقتله وهو شاب في سنّ الخليفة ومن أخص خواصه ، وكان من أمره أخيرا أن قتل الخليفة و الوزير معا.[3] بينما يروي الذهبي ذلك لأسامة بن منقذ غير أنه لم يؤكد أو ينفي ذلك قائلا "فأشار عليه أسامة بن منقذ –فيما قيل– بقتل العادل" [4].

ولكن الأمر الذي أفضى إلى تدخل نور الدين في سياسة مصر الداخلية هو الصراع الذي قام بين شاور و ضرغام وانتهى بهزيمة شاور الذي هرب إلى دمشق يدعو نور الدين لنجدته

---

[1] ابن السلار : سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار الكردي ، استوزر للخليفة الظافر بالله العبيدي ، نشأ في القاهرة وتنقلت به الأحوال وولي الصعيد وغيره ، ثم صار متولي الإسكندرية ، وكان الظافر قد استوزر نجم الدين سليم بن مصال أحد رؤوس الأمراء ، فعظم أمره ، فأقبل ابن السلار للقاهرة يطلب الوزارة فغلب على الوزير ابن مصال وقتله و استوزر مكانه ، وتسمى بالملك العادل ، وصفه الذهبي بقوله " وكان بطلا شجاعا ، مقداما مهيبا شافعيا سنيّا ، ليس على دين العبيدية ... لكنه فيه ظلم وعسف وجبروت" ، وجاء من إفريقية عباس بن أبي الفتوح بن الأمير يحيى بن باديس صبياً مع أمه، فتزوجها العادل قبل الوزارة، ثم تزوج عباس، وجاءه ابن سماه نصراً، فأحبه العادل، ثم جهز عباساً إلى الشام للجهاد، فكره السفر، فأشار عليه أسامة بن منقذ –فيما قيل– بقتل العادل، وأخذ منصبه، فقتل نصر العادل على فراشه غيلة في 548هـ/1153م بالقاهرة. ونصر هذا هو الذي قتل الظافر . للإستزادة أنظر : الذهبي ، السير ، ج20 ، ص281 و ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5 ، ص 299 .

[2]ابن مصال : هو نجم الدين أبو الفتح سليم بن محمد بن مصال ، يعود أصله إلى مدينة برقة ، وكان شيعيا إسماعيليا ، قدم إلى مصر رفقة أبيه فتدرج في المناصب حتى بلغ الوزارة في عهد الظافر بالله العبيدي لكنه لم يعمر طويلا ، فسرعان ما قتله ابن السلار سنة 544هـ/1150م. للإستزادة أنظر : المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا ، ج3، ص 198 و ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5 ، ص 299 .

[3] حسن ابراهيم حسن ، **الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص** ، المطبعة الأميرية ، مصر ، 1932 ، ص 295–296 .

[4] الذهبي ، السير ، ج20 ، ص 281 .

مقابل ثلث خراج مصر فقبل ذلك منه وسيّر معه أسد الدين شيركوه سنة 559هـ/1163م وتمّ القضاء على ضرغام و عاد شاور إلى الوزارة وأخل بالاتفاق ودار القتال بينه وبين شيركوه ، وحينما عجز شاور عن المقاومة استنجد بملك بيت المقدس الصليبي عموري وعند ذلك وقع الصلح بين الطرفين وعاد شيركوه إلى الشام . ولكن في سنة 564هـ/1169م طمع عموري في ملك مصر لما رآه من ضعف حالها ، وقلّة رجالها، ولم يكن في استطاعة مصر مقاومة الخطر الفرنجي ما جعلهم اضطرهم إلى الإستنجاد بقوّة نور الدين محمود وجاء الإستنجاد هذه المرة في رسالة من الخليفة العاضد إلى نور الدين دون علم شاور[1] وبذل له إن وصل ثلث البلاد ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكره وإقطاعهم عليه ، خارجا عن الثلث الذي لنور الدين [2]. وحينما علم شاور بالأمر أرسل للخليفة العاضد يحذره طمع نور الدين في ديار مصر ، فلما بلغه ذلك قال العاضد : "رضيت أن تكون إسلاميّة وأكون فداء للمسلمين "[3]. وما إن وصلت أنباء وصول جيوش نور الدين إلى مسامع عموري حتى لاذ بالفرار دون الإشتباك في أي معركة[4].

واتفق صلاح الدين ومن معه من الأمراء على قتل شاور ، ولم يستطع أسد الدين شيركوه ثنيهم عن ذلك فوافقهم على مضض[5] ، وحينما بلغ الخبر مسامع الخليفة العاضد أرسل إلى أسد الدين يطلب منه إيفاد رأس شاور ، وخلع عليه بالوزارة عام 564هـ/1169م [6] .

---

[1] المقريزي ، **اتعاظ الحنفا** ، ج3 ، ص 193 .

[2] ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت 697 هـ) ، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1953 ، ج1 ، ص 158 .

[3] المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج3 ، ص 294 . وهذا دليل واضح على نبذ الطائفية أمام الخطر الصليبي من قبل الخليفة العاضد الذي لم يجد مضاضة في الإستنجاد بأمير سني قد يطمع في ملكه و يلغي خلافته من الأساس . و هذه الحادثة تشبه إلى حد كبير ما حدث للمعتمد بن عباد الذي استنجد بالمرابطين عندما داهمه خطر الممالك النصرانية فعندما حذره حاشيته من تملك يوسف بن تاشفين لبلاده رد عليهم قائلا " لئن أرع الجمال عند ابن تاشفين خير لي من رعي الخنازير عند ألفونسو " .

[4] وفاء محمد علي ، **قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1987، ص 36 .

[5] ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 163 .

[6] ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 448

وفي نفس السنة مات أسد الدين شيركوه وخلفه ابن أخيه صلاح الدين في الوزارة[1] وأسقط الخلافة الفاطمية المهترئة بطلب من نور الدين الذي ألحّ عليه بتعجيل هذا الأمر والواقع أنه ما إن استقرت عساكر نور الدين في الديار المصرية حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجّل إقامة الخطبة له فيها ، ثم لمّا ولي المستضيء في عام 566هـ/1170م كرّر هذا الطلب وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين أن يسرع في تنفيذ هذه الخطوة الحاسمة ، لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه ، وفعلا كان يسير نحو ذلك بخطوات متأنّية استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي ، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام 567هـ/1171م ، ولم يلبث العاضد أن توفي بعد أيام قليلة من الدعاء للعباسيين على منابر مصر ، وبموته سقطت الدولة العبيدية "الفاطمية" التي دامت حوالي مائتان واثنتان وسبعون سنة كاملة [2] ، ولم ينكر أهل مصر ذلك الأمر على حد قول ابن الأثير " فلم يتنطح فيها عنزان"[3]

ولكن يجدر الإشارة أن سقوط الخلافة الفاطمية شكّل صدمة قويّة ، فبعد امتصاص هذه الصدمة بدأت الشيعة في مصر بالثورة على الحكم الجديد و لعلّ أخطر ثورتين قامت في عهد صلاح الدين هما ثورة جمعت معظم الشيعة بقيادة عمارة اليمني[4] وهو سنّي شافعي شافعي في حادثة غريبة تثبت أن الثورة ما قامت بسبب إلغاء المذهب الشيعي الإسماعيلي

[1] المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج3 ، ص 304 .

[2] بدوي ، المرجع السابق ، ص 221.

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 34 .

[4] عمارة اليمني : من شعراء اليمن الفحول المجيدين كان فقيها شافعيا أقام بيزيد ثلاث سنوات يتفقه بمذهب الشافعي وله كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ويذكر ابن واصل أن سبب مقتله هو وفاءه وحسن عهده لمن أحسن إليه وقد ذكر مباينته لمذهب القوم من قصيدة ينشد فيها : أفاعليهم في الجود أفعال سنّة ... وإن خالفوني في اعتقاد التشيّع، للإستزادة أنظر : ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1 ، 251 . و المقريزي ، الخطط المقريزية ، ج2 ،ص 363.

فقط والقضاء على الخلافة الفاطمية وإنما بسبب المصلحة والمكانة التي فقدها عمارة اليمني وغيره .

ويروي أبو شامة في حوادث سنة 569هـ مما نقله على ابن أبي طيء الحلبي "وفي هذه السنّة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام تآمروا فيما بينهم خفية ، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذّل والفقر ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا ، وتجمعوا هم وجماعة عيّنوهم من الأمراء وغيرهم وقرروا أن يكاتبوا الفرنج وأن يثبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال وأعدّوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها ، وكاتبوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر، فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث في اليمين وكفر عنها وصار إلى الملك الناصر وعرّفه بجليّة ما جرى"[1] .

ومهما يكن من أمر فقد علم صلاح الدين بأمر هذه الثورة قبل اندلاعها فأخمدها في مهدها و شنق جميع المتآمرين فيها وعفا عن البعض الآخر و نفى الباقي إلى صعيد مصر.

أما الثورة الثانية فقد كانت في الإسكندرية من طرف رجل يسمى "قديد" من دعاة الفاطميين حاول إدعاء نسبه للفاطميين وذلك بغية بعث الخلافة الفاطمية من جديد وقد نجح هذا الرجل إلى حدّ كبير في خداع عقول الناس الذين فتنوا به و تأثروا بأفكاره إلا أن صلاح الدين تمكن منه أيضا [2]. ويوضح صلاح الدين مدى خطورة هذه الثورة في الرسالة التي أرسلها إلى نور الدين عقب تمكنه من هذا الرجل فجاء فيها : " ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنّة فيه ، اطلع البحث أن فيه داعية خبيثا أمره ، محتقرا شخصه ، عظيما كفره ، يسمى قديدا القفاص ، وأنّ المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعايش فيها يحملون إليه

[1] أبي شامة (عبد الرحمان بن إسماعيل المقدسي ت 665هـ) ، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** ، ط2 ، تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1998 ، ج1 ، ق2 ، ص 561 .

[2] وفاء محمد علي ، المرجع السابق ، ص 69 .

جزءا من كسبهم ، والنّساء يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهنّ ، ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض عليه كتب مجردة فيها خلع العذار ، وصريح الكفر الذي ما عنه اندفاع واعتذار" [1].

ومع أن المذهب الإسماعيلي لم يترسّخ عند عامة المصريين إلا أن بقايا منه بقيت حتى بعد سقوط الخلافة الفاطمية العبيدية فيصف الرحالة ابن جبير مشهد الحسين بن علي عندما زار مصر بعد ذلك بسنين قليلة " و شاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وانكبابهم عليه و تمسحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين ، متوسلين إلى الله سبحانه ببركة تربته المقدسة ومتضرعين ما يذيب الأكباد ، ويصدع الجماد ، والأمر فيه أعظم و مرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم"[2].

استبد صلاح الدين بعد ذلك في حكم مصر دون الرجوع إلى نور الدين مما زعزع العلاقة الطيبة التي كانت تجمعهما[3] و بقيت كذلك إلى أن مات نور الدين فضم صلاح الدين أملاكه إلى مملكته ووحد مصر وبلاد الشام فصاروا جبهة موحدة ضد ممالك الصليبين فتجلت هذه الثمرة في معركة حطين[4] الخالدة عام 588هـ/1193م ولم يلبث أن توفي صلاح الدين بعد ذلك بعام واحد .

وعلى عادة جل الدول الإسلامية التي لم تطبق نظام الشورى كمبدأ يقوم عليه نظام الحكم فلم يكن خلفاء صلاح الدين على شاكلته أبدا فقد تفرقوا و اقتتلوا فيما بينهم وضاعت

---

[1] ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 250 .

[2] ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 48 .

[3] كان صلاح الدين بمثابة نائب عن نور الدين في مصر إلا أن صلاح الدين استأثر بالحكم دون إعلان استقلاله عن نور الدين مما جعل صلاح الدين يمتنع عن مقابلة نور الدين وجها لوجه خوفا من عزله فالثابت أنهما لم يلتقيا مجددا بعد الاستيلاء على مصر و اسقاط الخلافة العبيدية الشيعية و حصل أن صلاح الدين خرج ذات مرة لقتال الافرنج بغرض استعادة حصن الشوبك فلما سمع نور الدين بذلك خرج أيضا من دمشق لمهاجمة الافرنج من الشمال فلما سمع صلاح الدين بخروجه آثر العودة إلى مصر وتعلل لنور الدين بحدوث تمرد المصريين عليه مما عمق الهوة بين الرجلين وقد هم نور الدين بمهاجمة مصر إلا أن المنية عاجلته . للإستزادة أنظر : المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 154 .

[4] معركة حطين : هي معركة فاصلة في التاريخ الإسلامي واجه فيها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي الإفرنج الصليبيين حقق فيها المسلمون انتصارا ساحقا و حرروا بيت المقدس سنة 588هـ/1193م.

وحدة الدولة الأيوبية وانقسمت إلى ممالك صغيرة متفتتة ، ولعل أبرز الممالك التي كانت ظاهرة عشية الغزو المغولي تمثلت في دمشق التي كانت تحت حكم الناصر يوسف ومصر التي كانت تحت حكم نجم الدين أيوب والكرك التي كان يحكمها المغيث عمر وميافارقين التي كانت تحت حكم الملك السعيد والذين سنذكر أخبارهم عند الحديث عن الحملة المغولية الثانية على العالم الإسلامي .

2-الجانب الديني :

وأما الأثر الذي أحدثته الدولة الأيوبية في بلاد الشام ومصر فقد كان تكملة لما قامت به الدولة النورية قبل ذلك وبالمقابل أيضا فقد كانت إصلاحات الدولة النورية تكملة للطريق الذي سارت عليه الدولة السلجوقية في محاربتها للتشيع ، وخاصة ما قام به الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي[1] من إنشاء المدارس الفقهية النظامية التي حارب بها أفكار التشيع بفكر التسنن المعتدل ومن ثم فقد مضى نور الدين يعمل جاهدا على إتمام هذا الأمر وأنفق في ذلك الأموال وجعل كثيرا من الأوقاف وقفا على المدارس التي شيّدها فأسّس في دمشق دار الحديث النورية وأوقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث أوقافا كثيرة [2]، ويرى ابن الأثير وغيره من المؤرخين أنها أول دار للحديث بنيت في الإسلام [3]، وقد تخرّج فيها عدد كبير من المحدّثين والعلماء والفقهاء وتولّى التدريس فيها طائفة من الشيوخ

---

[1] نظام الملك الطوسي : ولد نظام الملك سنة 408هـ/1018م في مدينة طوس الإيرانية و اسمه الكامل هو قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي ويلقب بخواجة بزك أي نظام الملك ، يعد أشهر وزير لدولة السلاجقة فاستوزر للسلطان ألب أرسلان وولده ملكشاه ، لمع نظام الملك كسياسي ماهر وداعية للعلم ومحبا للأدب فألمّ باللغة العربية إضافة للفارسية والعلوم الدينية وتفقه بالمذهب الشافعي ، وإليه تنسب المدارس النظامية التي حارب من خلالها الفكر الشيعي في المشرق الإسلامي ، وقد ظل نظام الملك وزيرا للدولة السلجوقية منذ سنة سنة 455هـ/1063م إلى غاية وفاته على يد أحد الفداوية الذي طعنه في مدينة نهاوند سنة 484هـ/1092م. للإستزادة أنظر :

[2] النعيمي (عبد القادر بن محمد ت 988هـ) ، **الدارس في تاريخ المدارس** ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1990 ، ج1 ، ص 74 .

[3] ابن الأثير ، **التاريخ الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية** ، تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى ، مصر ، 1963، ص 172. و ابو شامة ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 23 .

والمدّرسين[1]، لم تحظ بهم مدرسة من المدارس بدمشق ، وقد تولّى مشيختها في عصر السلطان نور الدين محمود شيخ رجال الحديث أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر[2]، فقد عرف له السلطان قدره و مكانته فبنى له دار الحديث النورية في دمشق ووكّل أمرها إليه، ولقد بقيت هذه الدار منارة للعلم وقبلة لطلابه من جميع أرجاء العالم الإسلامي[3] .

بالإضافة إلى بناءه مدرسة أخرى هي المدرسة النورية الكبرى التي أنشأها نور الدين وجعلها وقفا على أصحاب الإمام أبي حنيفة وقد وصفها ابن جبير عندما زار دمشق عام 580هـ وصفا دقيقا فقال " ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهي قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر ، فكلّ من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله " [4].

والحقيقة أن الأمر الذي يحسب لنور الدين محمود زنكي أنه فتح عدة مدارس لمختلف المذاهب فلم يقتصر إهتمامه على مذهب واحد فقط فأنشأ سنة 550هـ/1155 م مدرسة للإمام شرف الدين بن أبي عصرون[5] (ت585هـ/1189م) الذي كان من أعيان فقهاء

---

[1] عائشة تازي ، **الجهود العلمية لنور الدين محمود في مقاومة الوجود الشيعي في بلاد الشام (541-569هـ/1146-1173م)** ، مجلة عصور الجديدة ، العدد27 ، مج 7 ، ص 130 .

[2] ابن عساكر : ولد في دمشق سنة 499هـ/1105م نشأ في بيت علم فحفظ القران الكريم في صغره ، ثم ألم بالفقه والحديث والتاريخ الإسلامي الذي ألف فيه مصنفه المشهور المعروف بتاريخ دمشق ، بالإضافة إلى عشرات المصنفات في العديد من العلوم والفنون توفي بدمشق سنة 571هـ/1176م. للإستزادة أنظر : ابن كثير ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 514 و السبكي ، المصدر السابق ، ج7 ، ص215 و الذهبي ، السير ، ج20 ، ص 554 .

[3] صالح بن محمد بن حمدان الغامدي ، **المدارس النورية و أثرها في إشاعة المذهب السني في بلاد الشام** ، أطروحة ماجيستير ، قسم التربية الإسلامية و المقارنة ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1995م/1416هـ ، ص 78-79 .

[4] ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 231 .

[5] شرف الدين ابن أبي عصرون : هو عبد الله بن محمد بن هبة الله التميمي، شرف الدين أبو سعد، ابن أبي عصرون سنة 492هـ/1099م فقيه شافعي ، ولد بالموصل ثم انتقل لبغداد ، واستقر في دمشق فتولى القضاء بها عام 573هـ/1177م

عصره في المذهب الشافعي ، وكان أول من درّس بها لذلك عرفت باسمه[1] ، كما بنى له عدّة مدارس في كل من حلب و دمشق ومنبج والرحبة وحماه وحمص وبعلبك وعرفت هاته السلسلة من المدارس بالمدارس العصرونية[2] ، وقد أنشأ بحلب المدرسة الحلاوية سنة 543هـ/1148 م وجعلها للمذهب الحنفي وأول من درّس بها الإمام برهان الدين البلخي[3] ، وفي العام الموالي أي 544هـ/1149م أنشأ في حلب المدرسة النفرية النورية وجعل المدّرس فيها قطب الدين النيسابوري[4] الذي لم يكن إختياره لهذه المهمة عبثا فقد كان قطب الدين متبحرا في علم الكلام و أصوله و كان غرض نور الدين من تعيينه على رأس هذه المدرسة ليكون بمثابة الحجّة الدامغة لأهل السنّة في مجابهة الشيعة الذين كانوا غالبية سكان حلب في ذلك الوقت [5].

=وفقد بصره قبل موته بعشر سنين، وإليه تنسب المدرسة "العصرونية" في دمشق. من كتبه: "صفوة المذهب على نهاية المطلب" سبع مجلدات، و"الانتصار لما جرد في المذهب من الأخبار والاختيار" أربعة أجزاء، و"المرشد" مجلدان، و"الذريعة في معرفة الشريعة" و"التيسير" في الخلاف . للإستزادة أنظر : ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 53 و الزركلي ، المرجع السابق ، ج4 ، ص124.

[1] عائشة تازي ، المرجع السابق ، ص 130 .

[2] صالح الغامدي ، المرجع السابق ، ص 82 .

[3] برهان الدين البلخي : هو أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد البلخي الحنفي نزيل دمشق ومدرس الصادرية ، كان عالما جليلا ذا وجاهة ، ويلقب بالبرهان البلخي ، كما درّس أيضا بمسجد خاتون ، وأبطل بحلب صيغة الآذان الشيعية "حي على خير العمل" ، ولا تعرف سنة مولده ولا مكانه إلا أنه يستشف من لقبه أنّه من مواليد بلخ ، توفي بدمشق سنة 548هـ كما جاء عند الذهبي ، وقيل 546هـ عند ابن كثير . للإستزادة أنظر الذهبي ، السير ، ج20 ، ص 276 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 363.

[4] قطب الدين النيسابوري : هو الإمام العلامة مسعود بن محمد بن مسعود الطريثيثي النيسابوري شيخ الشافعية ولد سنة 505هـ/1111م وتفقه على أبيه ومحمد بن يحي تلميذ الغزالي ، وتفقه على ابي اسحاق ابراهيم بن محمد في مرو ، وتأدب على أبيه وبرع وتقدم و أفتى وأوعظ في أيام مشايخه ، ودرس بنظامية نيسابور ، وصار من فحول المناظرين وبلغ رتبة الإمامة ، وقدم بغداد في سنة 538هـ/1143م ، فوعظ وناظر ، ثم سكن دمشق ودرس بالمجاهدية ، وولّي تدريس الغزالية ، ثم رحل إلى حلب فولي تدريس المدرستين اللتين أنشأهما نور الدين و أسد الدين ، ثم سار إلى همذان ودرس بها مدة ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها سنة 578هـ/1182م . للإستزادة أنظر : الذهبي ، السير ، ج21 ، ص 107.

[5] عائشة تازي ، المرجع السابق ، ص 132 .

وعندما خلفه صلاح الدين واصل على دربه فحينما استولى على حكم مصر " لم يكن بها شيء من المدارس"[1] ، فقام ببناء عدة مدارس للشافعية والمالكية. مقتدياً بالملك العادل نور الدين محمود زنكي. الذي بنى عدة مدارس في بلاد الشام للحنفية والشافعية، وقد تأسّى بصلاح الدين في إقامة المدارس في مصر والشام أقرباؤه وأمراؤه والأغنياء من الفقهاء وغيرهم.

ففي مصر بنى صلاح الدين عدة مدارس من بينها مدرسة الناصرية التي بدأ صلاح الدين بناءها في مصر سنة 566هـ/ 1170م ، وكان في ذلك الوقت وزيراً للفاطميين ، وعرفت باسم المدرسة الشريفية نسبة إلى الشريف القاضي شمس الدين الأرموى قاضي العسكر الذي تولى التدريس بها ، وباسم مدرسة زين التجار أول أساتذتها ، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي[2] . وفي نفس السنة حوّل صلاح الدين داراً كانت للمعونة بمصر إلى مدرسة للشافعية ، وبنى في مكان دار الغزل مدرسة للمالكية وسمّيت باسم المدرسة القمحية [3] فيروي ابن الأثير أنه كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين و بناها مدرسة للشافعية ، وأزال ما كان فيها من الظلم و بنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا[4].

وأسس كذلك المدرسة السيوفية وجعل التدريس فيها على المذهب الحنفي، وعيّن للتدريس فيها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجيني. ورتّب لها أوقافا خاصة لتمويلها [5]. بالإضافة إلى إلى المدرسة الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين بعد أن انفرد بحكم مصر 575 هـ سنة 1179 م بجوار ضريح الإمام الشافعي ، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي، وأوّل

[1] ابن تغرى بردي ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 54 .
[2] أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1 ، ق 2 ، ص 688 .
[3] ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 198 .
[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 32 .
[5] النعيمي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 157 .

من درّس بها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني[1] ووقف عليها حمّاما بجوارها وحوانيت بظاهرها [2]. ويروي ابن خلكان بأنّه " لمّا ملك السلطان صلاح الدين الدّيار المصريّة لم يكن بها شيئا من المدارس ، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فعمّر في القرّافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي ... وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وجعل عليها وقفا كبيرا ، وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاه ، ووقف عليه وقفا طائلا وجعل دار عباس مدرسة للحنفيّة ، وعليها وقفا جيّدا أيضا ، وبنى بالقاهرة مارستانا ، وله بالقدس مدرسة أيضا وقفها كثير ، وله بمصر مدرسة للمالكية "[3].

ويلاحظ بأن هذا الأمر لم يكن رغبة صلاح الدين وحده بل كان منهج دولة تحاول مسح الشوائب التي علقت بأذهان المصريين من طرف الفاطميين الشيعة وإعادتهم إلى مظلة السنّة وبذلك أسس الأيوبيون أثناء عهد صلاح الدين ومن بعده مجموعة من المدارس فأسّس تقيّ الدين بن عمر شاهنشاه بن أيوب[4]، ابن أخي صلاح الدين مدرسة سميت بمدرسة منازل العز وكانت في الأصل داراً تابعة للقصر الفاطمي في القاهرة ، اشتراها الأمير وجعلها مدرسة للفقهاء للشافعية سنة 574هـ/1178م [5]، واشترى حماما جعله وقفا عليها [6]. كما أسّس مدرسة أخرى اشتهرت باسم المدرسة التقوية نسبته له تقي الدين سنة 579هـ/ 1173م

[1] نجم الدين الخبوشاني : هو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد أصله من خبوشان من بلاد نيسابور قدم مصر سنة 565هـ ، للإستزادة أنظر: السبكي ، طبقات الشافعية ، ج 4 ، ص 190 .

[2] أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1 ، ق 2 ، ص 688 و النعيمي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 250 .

[3] ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 206-207 .

[4] تقي الدين بن عمر شاهنشاه بن أيوب : من رجال صلاح الدين الذي اعتمد عليهم في حروب الوحدة بين مصر والشام في تحرير القدس ، وناب عنه في مصر سنة 579هـ ، وحاول السير إلى المغرب لسوء تفاهم بينه وبين صلاح الدين ، فترضاه السلطان وولاه حماه ، وكان قبل هذا صاحب إقطاع الفيوم حيث أنشأ مدرستين للشافعية والمالكية . للإستزادة أنظر: أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1 ، ق1 ، ص 487 و ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 383-384

[5] المقريزي ، الخطط المقريزية ، ج2 ، ص 370 .

[6] أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1 ، ق 2 ، ص 487 .

بالفسطاط في المكان المقابل لجزيرة الروضة، ووقفها على المذهب الشافعي ، وحينما كانت الفيوم إقطاعا لتقي الدين عمر بنى بها مدرستين إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية[1].

وبنى الملك العادل أخو صلاح الدين المدرسة العادلية بالقاهرة ووقفها على المذهب المالكي[2]. وعلى العموم فقد بنى الأيوبيون في مصر عدة مدارس فقهية ذكرها المقريزي في خططه حيث كانت لا تزال موجودة في عهده [3]، وقد أحصى المؤرخون تلك المدارس فوجودها حوالي أربع عشرين مدرسة [4]، ومع افتتاح هذه المدارس انحسر المدّ الشيعي في مصر و استعاد المذهب السنّي مكانته من جديد [5].

كما بنى ابن الأرسوفي التاجر مدرسة بالقاهرة سنة 570 هـ وكان ذلك اقتداء بصلاح الدين وإرضاء له لما عرف من حبه للعلم وانشاء المدارس العلمية ، كما بنى قطب الدين خسرو أحد أمراء صلاح الدين المدرسة القطبية بالقاهرة سنة 570 هـ وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية[6] .

وحينما استولى صلاح الدين الأيوبي على بلاد الشام شرع في إكمال المدارس التي كان يبنيها مولاه نور الدين قبله وشرع في بناء مدارس جديدة أخرى فجدّد مدرسة الكلاسة سنة 575هـ التي بناها نور الدين محمود بدمشق وذلك بعدما أُحرقت هي ومئذنة الجامع الأموي [7] كما بنى في القدس المدرسة الصلاحية سنة 588هـ/1192م. وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي، ولحدّ الآن يوجد كتاب وقفها منقوشاً على حجر كبير وُضع على باب

---

[1] نعمان طيب سليمان ، **المدارس في العهد الأيوبي بمصر** ، مجلة الأزهر ، مصر ، العدد 751 ، 2015 ، ج5 ، ص 54 .

[2] النعيمي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 271 .

[3] المقريزي ، الخطط المقريزية ، ج2 ، ص 85 .

[4] نعمان طيب سليمان ، المرجع السابق ، ص 58 .

[5] وفاء علي ، المرجع السابق ، ص 56 .

[6] نعمان الطيب سليمان ، **منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة** ، مطبعة الحسين الإسلامية ، مصر ، 1991 ، ص 430

[7] النعيمي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 340 .

المدرسة، ونصها كالآتي: "بسم الله الرحمن الرحيم، وما بكم من نعمة فمن الله، هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين، أبو المظفّر يوسف بن أيوب بن شاذي محيي دولة أمير المؤمنين، أعزّ الله أنصاره، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة، على الفقهاء من أصحاب أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة"[1]

وفي دمشق أسّس الملك العادل مدرسة عظيمة بالقرب من الجامع الأموي سمّيت بالمدرسة العادلية ولقد بدأ بناءها في عهد السلطان نور الدين محمود زنكي لكنه توفي قبل إكمالها فواصل الملك العادل بناءها على أحسن وجه ولقد أقام فيها المؤرخ الكبير أبو شامة حيث يقول " المدرسة العادلية بناها بعده – أي بعد نور الدين – الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته ، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد و المحراب الآن . ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس ، وهي المأوى وبها المثوى ، وفيها قدّر الله تعالى جمع هذا الكتاب فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى "[2] .

وساهمت أختا صلاح الدين في بناء المدارس وتشييدها فبنت أخته ستّ الشام مدرستين للشافعية بدمشق و بنت أخته الأخرى ربيعة خاتون مدرسة بدمشق أيضا للحنابلة [3].

وبنت عصمة الدين الخاتون زوجة صلاح الدين ومن قبله نور الدين في بناء مدرسة للأحناف في دمشق سنة 581هـ و أوقفت عليها أوقافا كثيرة [4].

---

[1] عارف العارف ، **المفصل في تاريخ القدس** ، ط5 ،مطبعة المعارف ، القدس ، 1999، ج1 ، ص 180

[2] أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1 ، ق 2 ، ص 545 .

[3] نعمان الطيب سليمان ، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة ، ص 430 .

[4] ابن العماد ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 446-447 .

وقد تمّ بناء المدرسة الفاضلية على يد القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (ت: 596هـ/1200م) سنة 580هـ/1184م. ووقفها على الشافعية والمالكية، ووقف بها ما يقارب مائة ألف كتاب [1].

وبهذا فقد سعى صلاح الدين بالقضاء على المذهب الشيعي في مصر عبر إلغاء الخلافة الفاطمية نهائيّا ، بالإضافة إلى ذلك فقد عزل صلاح الدين القضاة المصريين الشيعة وأقام قاضي القضاة شافعيا في مصر ، وبدوره استناب هذا القاضي القضاة الشافعية في جميع أنحاء البلاد المصرية[2] وشكل هذا ضربة قاضية للشيعة الإسماعيلية في مصر من الناحية السياسية ، أما من الناحية الثقافية فقد عطّل الخطبة في الجامع الأزهر الذي أسسه الفاطميون الشيعة وبقي معطلا حوالي قرن من الزمان إلى أيام الظاهر بيبرس المملوكي ، وشرع في إنشاء مدارس تقوم على المذاهب السنية الأربعة التي ذكرناها[3] .

وهكذا واصل الأيوبيون مسيرة الزنكيين ومن قبلهم السلاجقة في إزاحة المذهب الشيعي والتمكين للمذهب السنّي بدون تعصب لمذاهبه الأربعة أو محاولة فرض أحد المذاهب على المذاهب الأخرى ، ويمكن للباحث معرفة ذلك بكل سهولة عن طريق تلك المدارس الكثيرة التي أنشؤوها في مصر و بلاد الشام وجعلوها وقفا على المذاهب السنية المختلفة .

والواقع أن مهمة الأيوبيين في مصر لم تكن صعبة إذا ما علمنا أن التشيع لم يتغلغل إلى نفوس المصريين بشكل كبير فيذكر البغدادي المتوفى سنة 429هـ أي بعد مجيء الفاطميين إلى مصر بأكثر من سبعين سنة بأن أهل مصر ثابتون على السنّة وإن أطاعوا صاحب القاهرة في أداء خراجهم إليه [4]. ويمكن القول أن التشيّع في مصر أثناء العصر الفاطمي لم يتجاوز حدود مدينة القاهرة التي بنوها ، وحتى في القاهرة ظلت الثقافة السنيّة منافسا قويا

---

[1] محمد الرحيّل غرايبة ، **جهود صلاح الدين الأيوبي في إحياء المذهب السنّي في مصر والشام (564هـ 589هـ/1169م . 1172م)**، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، الأردن ، مجلد 10 ، عدد 3 ، 1995 ، ص 7 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 32 .

[3] وفاء علي ، المرجع السابق ، ص 56 .

[4] البغدادي ، المصدر السابق ، ص 26 .

للمدّ الشيعي [1]. ولقد ساعدت هذه الأمور مجتمعة وسهلت من مهمّة الأيّوبيين الذين أعادوا مصر إلى المظلة السنيّة من جديد.

أما في بلاد الشام فقد كان الوضع مختلفا عن مصر فالشيعة الإمامية ظلوا مصدر قوّة من الناحية العددية فبالرغم من كل تلك المدارس التي أنشأها السلاجقة والزنكيون والأيوبيون من بعدهم في بلاد الشام إلا أن تواجد الشيعة بقي كبيرا نسبيا مقارنة مع التواجد السنّي ، فبقيت الشيعة أكثر عددا من السنة في دمشق فيروي ابن جبير(ت613هـ/1217م) "أنّ للشيعة في هذه البلاد أمورا عجيبة ، وهم أكثر من السنيّين بها ، وقد عمروا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى : منهم الرافضة ، وهم السبّابون ، ومنهم الإماميّة والزيديّة ، وهم يقولون بالتفضيل خاصة ، ومنهم الإسماعيلية والنصيرية[2] وهم كفرة فإنهم يزعمون الإلهية لعلي ، رضي الله عنه ، تعالى عن قولهم ، ومنهم الغرابية ، و هم يقولون : أن عليا رضي الله عنه، كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، من الغراب بالغراب ، وينسبون إلى الروح الأمين عليه السلام قولا تعالى الله عنه علوّا كبيرا ، إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء ، قد أضلهم الله و أضل بهم كثيرا من خلقه ، نسأل الله العصمة في الدين ، ونعوذ به من زيغ الملحدين" [3].

كما يروي ابن جبير عن وجود طائفة من السنة تدعى بالنبوية كانت بالمرصاد للشيعة الروافض فيذكر " وسلّط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنّبوية ، سنيّون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها . وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحزمونه السروايل فيلحقونه بهم ، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به لهم في ذلك مذاهب عجيبة

[1] الشنقيطي ، المرجع السابق ، ص 111 .

[2] النصيرية : من جملة غلاة الشيعة تنتسب إلى محمد بن نصير النميري ، و قد تكلم النوبختي عنهم بأنها فرقة شذت من القائلين بإمامة علي بن محمد في حياته فقالت بنبوة رجل يقال له محمد بن نصير النميري ، وكان يدعي أنه نبي بعثه أبو الحسن العسكري . وكان يقول بالتناسخ والغلو في أبي الحسن ويقول فيه بالربوبية . ويذكر الشهرستاني بأن النصيرية أميل إلى تقرير الجزء الإلهي لعلي بن أبي طالب . للإستزادة أنظر : الشهرستاني ، المصدر السابق ، ص 221 . و النوبختي، المصدر السابق ، ص 95.

[3] ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 227 .

، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ قسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الرّوافض أينما وجدوهم ، وشأنهم عجيب في الأنفة والإئتلاف" [1].

أما حمص فقد كان يغلب عليها التشيع أيضا فيروي ياقوت الحموي ت(626هـ/1228م) الذي زارها في مطلع القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي بأن " من عجيب ما تأملته من أمر حمص فساد هواءها و تربتها اللذين يفسدان العقل حتى يضرب بحماقتهم المثل ، إن أشد الناس على علي رضي الله عنه بصفين مع معاوية كان أهل حمص وأكثرهم تحريضا عليه وجدا في حربه ، فلما انقضت تلك الحروب ومضى ذلك الزمان صاروا من غلاة الشيعة حتى أن في أهلها كثيرا ممن رأى مذهب النّصيرية وأصلهم الإماميّة الذين يسبون السلف ، فقد التزموا الضلال أولا وأخيرا فليس لهم زمان كانوا فيه على صواب"[2]

أما ضواحي حلب فقد صار أمرها للسنّة فيتكلم ابن جبير عن قرية كبيرة تقع في ضواحيها تعرف بالباب وكان يعمرها منذ ثماني سنين قوما من الملاحدة الإسماعيليّة لا يحصي عددهم إلاّ الله ، فطار شرارهم ، وقطع السبيل فسادهم و إضرارهم ، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبيّة و حركتهم الأنفة والحميّة فتجمعوا عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم ، فسكّانها اليوم قوم سنيون [3].

أما مدينة حلب فقد تعاقب عليها عدة دول سنيّة بداية من الأمويين ثم العباسيين من بعدهم ثم الإخشديين الذين حكموها باسم العباسيين ثم حكمتها أسر شيعية إماميّة من الحمدانيين والمرداسيين ، فكانت بداية تشيّع أهل حلب مع مجيء الحمدانيين فيروي مؤرخ حلب ابن العديم سبب تشيعهم فيقول " وكان سيف الدولة يتشيّع فغلب على أهل حلب التشيع لذلك"[4] حتى استولى عليها السلاجقة سنة 463هـ/1071م فخطب حاكمها آنذاك وهو

---

[1] ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 227 .

[2] ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، مج2 ، ص 304 .

[3] ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 202 .

[4] ابن العديم (عمر بن أحمد ت 660هـ) ، **بغية الطلب في تاريخ حلب** ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، د ت ن ، ج1 ، ص 60

محمود بن صالح المرداسي للخليفة العباسي القائم بأمر الله و السلطان السلجوقي ألب أرسلان ، ويورد ابن الأثير قصة طريفة تدل على مدى تمسك أهل حلب بمذهبهم الشيعي الإمامي فيقول : " أنه لما رأى– أي محمود المرداسي – مدى قوة السلاجقة جمع أهل حلب وقال : هذه دولة جديدة ومملكة شديدة تستحل دماءها لأجل مذهبنا و الرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل ، فأجاب المشايخ ذلك ولبس المؤذنون السواد وخطبوا للقائم بأمر الله ، والسلطان فأخذت العامة حصر الجامع وقالوا : هذه حُصر علي بن أبي طالب ، فليأت أبو بكر بحُصر يُصلّي عليها بالناس "[1]. وحينما آل حكم مدينة حلب إلى الأيوبيين جعلوها منارة للعلم فقد كان الملك الظاهر الغازي محبا للعلماء ، وكان بلاطه مجمعا لأهل العلم والفضل كالقاضي ابن شداد الذي كان أثيرا عنده ، وله في نفسه منزلة رفيعة ، فأسند إليه قضاء حلب والنظر في أوقافها فكان فضله عظيما على النهضة السنيّة بها [2].

في حين أن جبل لبنان الذي يُعتبر الحدّ الفاصل بين المسلمين والإفرنج فيروي ابن جبير بأن "في صفحته تقع حصون للملاحدة الإسماعيلية ، فرقة مرقت من الإسلام وادعت الإلهية في أحد الأنام قيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل و خيالات موه عليهم باستعمالها و سحرهم بمحالها فاتخذوه الها يعبدونه و يبذلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته و امتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى ويستعجل في مرضاته الردى"[3].

وهكذا كانت المناطق التي تواجد فيها السنة والشيعة في بلاد الشام قبيل الغزوات المغولية ومن الجدير بالذكر أنه لم تكن هناك فتن بين الفريقين في بلاد الشام و مصر مثلما كانت عليه في العراق وخاصة في بغداد. أما من الناحية السياسية فقد كانت في مصر وبلاد الشام

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 387 .

[2] عبد المجيد بدوي ، المرجع السابق ، ص 257 .

[3] ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 206

بقايا الأيوبيين في حين أن الخليفة العباسي كان يباشر الحكم على العراق بنفسه أما في بلاد ما وراء النهر فقد ظهرت الدولة الخوارزمية التي ورثت الحكم على أنقاض السلاجقة ، وقد كانت الدولة الخوارزمية أول ضحايا الغزوات المغولية .

المبحث الرابع : القلاع الإسماعيلية :

نشأت القلاع الإسماعلية في إيران ، وكانت بداية نشأتها الإنقسام الذي حدث للدولة الفاطمية في مصر ، ففي أثناء الحكم الطويل للخليفة الفاطمي الثامن المستنصر (427-486هـ/1036-1094م) وصلت الدولة الفاطمية إلى أعلى مجدها ثم تهاوت إلى الإنحلال السريع ولدى وفاته تمزقت الرسالة الإسماعيلية إلى أكبر إنقسام داخلي في تاريخها[1]=.

فبعد وفاة المستنصر بالله إنقسمت الدولة إلى دولتين النزارية في الألموت[2] بفارس ، والمستعلية التي ظلت قائمة في مصر ، وإلى فرقتين دينيتين متصارعتين هما النزارية في فارس و المستعلية في مصر و أجزاء من اليمن[3].

وسبب انقسامها أنه كان للمستنصر ولدين أكبرهما نزار[4] الذي تنسب إليه النزارية والأصغر هو المستعلي زوج ابنة الأفضل الجمالي قائد جيوش الدولة الفاطمية بمصر[5]، ولذلك فإن الأخير ما علم بوفاة المستنصر حتى أعلن زوج ابنته خليفة ، وفرّ نزار إلى الإسكندرية حيث هبَّ في ثورة محلية أحرزت نجاحا مبدئيا ، ولكنه لم يلبث أن هُزم وتم قتله.

قامت هذه الدولة في بلاد فارس على يد رجل خطير يدعى الحسن بن الصباح[6] ولعل أوفر سيرة عنه قدمها الجويني بعد سقوط قلاعهم على يد المغول ذلك أنه عثر في مكتبة

---

[1] برنارد لويس ، **الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام** ، ترجمة : محمد الغرب موسى ، ط2 ، مكتبة مدبولي ، مصر ، 2006 ، ص 59 .

[2] ألموت : وهي قلعة تقع في نواحي قزوين ، قيل إن ملكا من ملوك الديلم كان كثير الصيد فأرسل يوما عُقابه و تبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة فوجده موضعا حصينا فأمر ببناء قلعة عليه فسماها اله موت و معناه بلسان الديلم : تعليم العقاب و يقال لذلك الموقع و ما يجاوره طالقان وفيها قلاع حصينة أشهرها ألموت التي كانت عاصمة للإسماعليين بفارس. للإستزادة انظر : ابن الأثير ، المصدر السابق ، مج9 ، ص 38 .

[3] عارف تامر ، المرجع السابق ، ص 11 .

[4] برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 61 .

[5] عارف تامر ، المرجع السابق ، ص 11 .

[6] **الحسن بن الصبّاح** : هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميري ، يرجع نسبه إلى قبيلة حمير اليمنية ، وقد رحل أبوه منها إلى الكوفة ثم من الكوفة إلى قم ومن قم إلى الري حيث يقال بأنه ولد في= مدينة

الألموت على مجلد يشمل ترجمة الحسن بن الصباح وعنوانه (سركذشت سيدنا) و من ثم فقد استخدم هذا الكتاب و اعتمد عليه بشكل كبير في كتابته عن تاريخ هذا الرجل .

ويعتبر الحسن بن الصباح المؤسس الحقيقي لدولة القلاع ، فقد إنتصر لنزار و صار يدعو له و لأولاده من بعده ، كما جعل نفسه نائبا للإمام المستور من ولد نزار[1] ، واستطاع الحسن أن يستغل الدعوة النزارية لمآربه و أهدافه فأصاب نجاحا بعيدا فيما فكّر فيه حيث تمكن من تأسيس دولة إسماعيلية فريدة من نوعها مكونة من عدة قلاع و حصون متفرقة ، كما أقام داخل هذه القلاع مجتمعات إسماعيلية بحتة يحيطها السر و الكتمان[2].

قم الإيرانية سنة 445هـ/1053م ، و قيل أيضا في مدينة الري سنة 447هـ/1055م ، كان والده من دعاة الشيعة الإثنا عشرية ، لكن الحسن إعتنق المذهب الإسماعيلي على يد الداعية الإسماعيلي عبد الملك بن عطاش صاحب قلعة أصفهان ، ومضى الحسن فطاف البلاد ووصل إلى مصر و دخل على المستنصر صاحبها فأكرمه و أعطاه مالا و أمره أن يدعُ الناس إلى إمامته ، فقال له الحسن : فمن الإمام بعدك فأشار إلى إبنه نزار ، وعاد الحسن من مصر إلى الشام إلى الجزيرة و ديار بكر و الروم و رجع إلى خراسان و دخل كاشغر و ماوراء النهر ينشر دعوته فلما رأى قلعة ألموت وإختبر أهل تلك النواحي أقام عندهم و طمع في إغوائهم و دعاهم إلى الستر و أظهر الزهد فتبعه أكثرهم ، وكان صاحب القلعة علويا قد أحسن الظن به فأخذ يجلس معه و يتبرك به ، فلما أحكم الحسن أمره دخل إليه وأمره بالخروج من القلعة ، فتبسم العلوي و ظنه يمازحه فأمر ابن الصباح بعض أصحابه فأخرجوه و أعطاه ماله ، و ملك القلعة ، ولما بلغ الخبر نظام الملك الطوسي وزير السلطان ملكشاه بعث عسكرا إلى حصار القلعة فحاصروه حتى ذاق ذرعه ، فأرسل من قتل نظام الملك فرجع العسكر عن القلعة و من ثم فقد كان من أساسيات دعائم دولته الإغتيال عبر فرقة الفدائيين التي أنشأها و بها قوي أمره و اشتد تأثيره و على ضوئها أقام دولة الإسماعيلية في فارس و قد توفي الحسن في قلعة الألموت سنة 518هـ /1124 م .

للإستزادة انظر :

- الجويني ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 302-303 .
- إبن الأثير ، المصدر السابق ، مج9 ، ص 39 .
- محمد السعيد جمال الدين ، **دولة الإسماعيلية في إيران** ، الدار الثقافية للنشر ، مصر ، 1999 ، ص 94-95 .
- محمد كامل حسين ، **طائفة الإسماعيلية تاريخها نظمها عقائدها** ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1959 ، ص ص 66-75 .
- عارف تامر ، **تاريخ الإسماعيلية الدولة النزارية** ، رياض الريس ، لندن ، 1991 ، ج4 ، ص 11 .

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، مج9 ، ص 39 .

[2] سليمان عبد الله السلومي ، **أصول الإسماعيلية** ، دار الفضيلة ، السعودية ، 2001 ، مج1 ، ص 390 .

تسمّى إسماعيلة إيران بأصحاب الدعوة الجديدة حينما أظهر الحسن بن الصباح دعوته فاستظهر بالرجال و تحصن بالقلاع و كان بدء صعوده على قلعة ألموت في شهر شعبان 483 هـ / 1090 م[1] ، ولم يكد يستولي عليها حتى بادر بالإستيلاء على القلاع المجاورة لها مطلقاً دعاته إلى الأطراف و الأكناف [2] لتحقيق هذا المأرب ولم يمض طويل وقت حتى كان ابن الصباح قد إستولى تباعا على قلاع شاهدز ، ميمون دز و كردكوه و غيرها من القلاع[3] الواقعة جنوبي بحر قزوين بعد أن سيطر دعاته على كافة القلاع المتناثرة في أرجائها[4] كما أطلقت عليهم بعض التسميات الأخرى كالحشاشين والفداوية .

ويروي الجوزجاني بأن الحسن بن الصباح قد اشترى تلك القلاع ، و عمر قلعة لمبسر وأنفق عليها الأموال الطائلة ، و كانت هذه القلعة تقع على جبل في أنحاء مدينة قزوين حيث كان سكان مدينة قزوين كافة يتبعون مذهب أهل السنة والجماعة ، وهم طاهرو المذهب ، أصفياء العقيدة ، و بسبب ضلال الباطنية والملاحدة كان القتال على نحو دائم بين الطرفين والجدال و النزاع على أشدهما [5].

ومما يثير الدهشة أنه منذ اليوم الأول الذي صعد فيه الحسن بن الصباح إلى القلعة ، إلى أن توفي سنة 518هـ/1127م أي بعد خمسة وثلاثين عاما ، لم ينزل من القلعة مرة واحدة ولم يخرج من القصر الذي كان يقيم فيه سوى مرتين ، و صعد إلى سطح القصر مرتين ، إذ أنه امضى جل وقته داخل القصر يطالع الكتب و يشتغل بأمور دعوته و تدبير دولته [6].

---

[1] الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت548هـ) ، **الملل والنحل** ، تحقيق : أمير علي مهنا و علي حسن فاعود ، ط3 ، دار المعرفة ، لبنان ، 1993 ، ج1 ، ص 231-232 .

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 307 .

[3] عارف تامر ، تاريخ الإسماعيلية الدولة النزارية ، ص 21 .

[4] محمد السعيد جمال الدين ، المرجع السابق ، ص 95 .

[5] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 196 .

[6] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 191 .

ويزعم عارف تامر[1] أن الحسن بن الصباح بعد أن حقق هذه الإنتصارات و وطّد أركان الدولة و وسّع من رقعتها أمر بإحضار الإمام الحسن بن نزار ووالدته إلى قلعة ألموت ، وكان يبلغ من العمر تسع سنوات فقط فأشرف على تربيته و تثقيفه وتهيئته للحكم بعد وفاته سنة 518 هـ/1124م ، ومن ثم فقد آلت دولة الإسماعيلية في إيران إلى أولاد نزار بداية من الحسن بن نزار و أولاده الذين تعاقبوا من بعده .

إلا أن هذا الطرح الذي جاء به عارف لا يصمد أمام الوقائع التاريخية حيث يروي كل من رشيد الدين الهمذاني[2] و عطا ملك الجويني[3] بأن الذي خلف الحسن الصباح في دولته هم سبعة ملوك[4]وهو ثامنهم دون ذكر الحسن بن نزار أو أحد من أولاده و هم كالآتي :

- كيا بزرك أميد ، وقد كان صاحب الحسن في دعوته وقد استمر في انتهاج المنهج

نفسه واتبع المسلك الصبّاحي طيلة عشرين عاما ، ولمّا كانت دولة السلطان سنجر السلجوقي مازالت قائمة فلم يكن أحد يجدّ في محاربتهم[5] ، وسبب ذلك أن الحسن بن الصباح الصباح لمّا أخذ السلطان سنجر يحارب النّزارية ويضيّق عليهم الخناق ، أرسل ابن الصباح إليه أحد فدائييه ، وقد نجح هذا الفدائي أن يتسلل لقصر السلطان و يدخل غرفة نومه و لكنه لم يقتله بل وضع السكين على فراشه مع رسالة من الحسن جاء فيها " إن الذي وصل إلى غرفة نومك وغرس الخنجر في فراشك قادر على غرسه في صدرك " ، وبهذا كفّ السلطان سنجر على محاربتهم .

---

[1] عارف تامر ، الطوسي في مرابع ابن سينا ، ص 22 .

[2] رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، **جامع التواريخ** ، مراجعة و تقديم : يحي الخشاب ، ترجمة : محمد صادق نشأت و آخرون ، دار إحياء الكتب العربية ، د م ن ، د ت ن ، مج 2 ، ج 1 ، ص 259 .

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 323 .

[4] انظر الملحق رقم 4 ، ص 333.

[5] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 192 .

وينسب إلى الإسماعيلية في عهد كيا بزرك أميد قتل الخليفة المسترشد بالله العباسي [1]

- محمد بن بزرك أميد ،وهو الذي اشتهر بلقب " على ذكره السلام " وقد صار زعيم

الإسماعيلية بعد وفاة والده سنة 532هـ/1138م ، فكان متابعا لمذهب الحسن بن الصباح وأبيه ، ويبذل قصارى جهده في إحكام قواعد المذهب ، وإن كانت خاتمة أبيه قد ختمها بقتل الخليفة المسترشد ، فإن فاتحة حكم محمد كانت قتل الراشد بالله ابن المسترشد ، الذي عقد العزم على السير من بغداد لقصد القلاع الإسماعيلية[2] في إيران والثأر لدم أبيه ، إلا أنه أصيب بمرض في الطريق ووصل إلى أصفهان وهو لا يزال على حالته من الوهن ، فدخل عليه في بلاطه جماعة من الفداوية فجأة و طعنوه بالخناجر ، ومنذ ذلك الحين عاد الخلفاء العباسيون إلى الاختفاء واحتجبوا عن الناس ، كما توفي محمد بن بزرك أميد سنة 557هـ/1164م [3].

- حسن بن محمد بزرك أميد : وقد اشتهر عهده بالفجور و الحلول وشرب الخمر وانتشار الزنا والموبقات ، بل انه جعل يوم السابع عشر من رمضان يوم عيد لهم ، وادّعى الحسن أنه من صلب الأئمة ، وأنه هو الإمام المزعوم فطعن بخنجر عام 561هـ/1166م[4].

- محمد بن حسن : حكم ستا و أربعين سنة ، وفي عصره سفكت طائفته الكثير من الدماء البريئة ، و قد سار على سياسة أبيه في إثارة الفتن وممارسة أنواع الفساد ، ونهب الأموال و قطع الطرق ، وقد أظهر غلوا كبيرا في إظهار البدعة والإلحاد ، كما كان أكثر صراحة في إظهار الإمامة وقد توفي سنة [5].

- جلال الدين بن محمد بن حسن الذي اشتهر ببنو مسلمان أي المسلم الجديد

---

[1] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 193 .

[2] أنظر الملحق رقم 05 ، ص 334 .

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 196 .

[4] نفسه ، ج3 ، ص 208-209 .

[5] نفسه ، ج3 ، ص 211 .

- علاء الدين محمد بن جلال الدين بن محمد بن حسن
- ركن الدين خورشاه بن علاء الدين وهو آخرهم الذي انتهت به الدولة الإسماعيلية

ومما تجدر الإشارة إليه بأنه على الرغم من أن هذه الفرقة الإسماعيلية تعد من أشد الفرق الإسلامية غلوّاً وتطرّفا حتى أن من الفقهاء من يخرجهم من الإسلام إلا أنّها في سنة 602هـ/1205م تظاهرت بالإسلام وإقامة شعائره والرجوع عما كانوا عليه من الفساد ، فأرسل زعيمهم جلال الدين حسن إلى الخليفة الناصر يبذل له الطاعة ويستدعي قضاة وفقهاء من عنده يفقهونهم ويقضون فيما بينهم ، ولكنّهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من الضّلال بعد وفاته[1] .

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى وجود قلاع للإسماعيلية في بلاد الشام ، التي كان لها دور كبير في المشرق الإسلامي ولعلّ أهم هذه القلاع تلك التي كانت في مصياف تحت حكم سنان أو كما كان يدعى بشيخ الجبل ، ولقد تحالفت هذه الطائفة الإسماعيلية التي كانت موجودة في الشام تارة مع الصليبيين ضدّ المسلمين ، وتارة أخرى مع المسلمين مثل صلاح الدين الأيوبي ضدّ الصليبيين ، فقتلوا قادة كل من الطرفيين ، وقد حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة فلم ينجحوا في ذلك ، فتوجه إلى محاصرة قلاعهم ، إلا أنّه عاد عنهم ليتفرغ لمواجهة الخطر الصليبي الذي كان محدّقا به .

وحينما أراد شيخ الجبل أن يبين لصلاح الدين مدى قدرة طائفته على التغول داخل قصره أرسل له رجلا برسالة منه ، وطلب هذا الرجل بأن ينفرد بصلاح الدين ليطلعه على أمر هذه الرسالة ، فوافق صلاح الدين وأخلى مجلسه باستثناء الحارسين اللّذين كانا يقفا عن رأس صلاح الدين ، فطلب الرجل منه بأن يغادرا هم كذلك ، فرفض صلاح الدين ذلك وردّ بأن هذين الحارسين هما من أوفى حراسه و يثق فيهم ثقة عمياء فقد ربّاهما منذ الصغر،

[1] أبو شامة المقدسي (عبد الرحمان ابن اسماعيل ت 665هـ) ، **الذيل على الروضتين** ، تعليق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2002 ، ج5 ، ص 125 .

وحينئذ أشار الرجل إليهما فاستلاّ السيوف ووضعاها في رقبة صلاح الدين ، فاندهش صلاح الدين من عمق التغوّل الإسماعيلي في حرسه ، ومال إلى مصالحة الإسماعيلية بعد ذلك حتى صاروا أوفياء له ونشأت بينهم تحالفات ، وبقيت العلاقات الودية بينهم في غالب فترات العهد الأيوبي [1].

[1] الذهبي ، السير ، ج 21 ، ص 190 . و برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 170 .

الفصل الثالث : الحملة المغولية الأولى على العالم الإسلامي

المبحث الأول : الدولة الخوارزمية

المبحث الثاني : نهاية الدولة الخوارزمية

المبحث الثالث : مقاومة جلال الدين منكبرتي وعلاقته بالشيعة الإسماعيلية .

المبحث الأول : الدولة الخوارزمية (نشأتها – حكامها)

كانت الدولة الخوارزمية إحدى دول الأتابكة التي كان لها شأنا عظيما قبيل الغزو المغولي ، وتنتسب إلى أنوشتكين[1] التركي الذي كان يشغل وظيفة الساقي[2] في بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه ، ثم تدرج في سلك الوظائف في عهده ، وقد أنجب أنوشتكين ولدا أسماه محمدا وكان ذا شهرة واسعة في العلوم والآداب مما أدّى إلى إعجاب السلطان بركياروق بن ملكشاه به ولذلك عيّنه حاكما على إقليم خوارزم[3] ومنحه لقب "شاه"[4]

---

[1] أنوشتكين : وفي بعض المصادر يطلق عليه اسم نوشتكين وهو مملوك أمير من السلجوقية اسمه بلكباك قد اشتراه من رجل من غرشتان– التي تقع في بلاد الغور– فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف مقدما و مرجوعا إليه . للإستزادة أنظر ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 10 و ابن واصل ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 35 .

[2] وظيفة الساقي أو (الشراب خاناه) : ومعناه بيت الشراب ، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان ، والمشروب الخاص من السكر وغير ذلك وفيها يكون السكر المخصوص بالمشروب ، وبها الأواني النفيسية من الصيني الفاخر وغيره وتكون هذه الوظيفة لأمير من أكابر الأمراء المؤتمنين وتحت يده مجموعة من الغلمان برسم الخدمة يطلق على كل منهم شراب دار . للإستزادة أنظر القلقشندي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 10

[3] خوارزم : تقع إلى الغرب من بلاد ما وراء النهر في الجانب الشمالي من نهر جيحون ، وحدها من الجنوب جبال البتم ، وماء السند الفاصل بينهما وبين السند ، ومن المشرق بلاد الخطا على خيلاط و كلكسان ، ومن الشمال مراعي باران و كجند وبعض خرسان إلى بحيرة خوارزم ، ومن الغرب بعض خراسان ، ومن بلاد هذه المملكة فرغانة و الشاش والسنجاب وأشروسنة و بلاد الختل ، وفيها طرف من السند من غزنة إلى جنوبها، ولها من الجنوب مدينة كبيرة تسمى الجرجانية ، وهي أكبر مدينة بخوارزم بعد قصبتها قيل ، وهي متجر الأتراك الغزية ومنها تخرج القوافل إلى جرجان وبلاد الخزر و خراسان ، استولى عليها المغول سنة 618هـ . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص395 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 225 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 519–520 و مؤلف مجهول ، حدود العالم ، ص 96 و ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 395 وابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ت300هـ) ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د ت ن ، ص 33 . و ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحي ت 749هـ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق : كامل سلمان الجبوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2010 ، ج3 ، ص 119.

[4] حافظ حمدي ، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص 112 .

فلهذا كان يقال لكل واحد من حكامهم بخوارزم شاه[1].

وعندما كبر محمد بن أنوشتكين تولّى خوارزم وتلقب خوارزم شاه فنشر العدل بين رعيته وقرب منه العلماء والفقهاء فازدادت سمعته حسنا وعلت مكانته عند السلجوقي سنجر[2] أخ السلطان بركياروق فأقره على خوارزم وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته ، وعظّم سنجر قدره [3] .

تلقب محمد بن أنوشتكين بقطب الدين خوارزم واستمر يحكم إقليم خوارزم ثلاثين عاما لم يخرج فيها عن طاعة السلاجقة ، وقد أمضى من الأعوام الثلاثين ستة سنوات في بلاط السلطان سنجر السلجوقي ، كما أرسل إبنه أتسز إلى بلاط سنجر حيث قضى عاما في خدمة السلطان [4].

لما توفي محمد بن أنوتشكين ولي ابنه أتسز ، الذي مد ظلال الأمن وأفاض العدل فقربه السلطان سنجر ، وعظم أمره واستصحبه معه في أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة ، فزاده ذلك علوّا وبات مقدما عنده [5].

بدأت قوة أتسز في البروز وحدثته نفسه بالإستقلال عن السلاجقة وإقامة مملكة خاصة بالخوارزميين وعندما سمع السلطان سنجر بذلك قرر المضي إلى خوارزم[6] و

---

[1] ابن واصل ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 35 .

[2] السلطان سنجر : كان السلطان سنجر واليا على خراسان ، وما وراء النهر في كل من أخويه بركياروق ومحمد وكان يسمى ملك المشرق ، وقد ظل سنجر في المشرق بعد توليه عرش السلطنة ، واستطاع توطيد نفوذه على بلاد ما وراء النهر و ترمذ و طخارستان . للإسنزادة نظر ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 32 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 10 .

[4] عفاف سيد صبرة ، **التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية** ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، 1987 ، ص 36.

[5] عصام عبد الرؤوف الفقي ، **تاريخ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق** ، دار الفكر العربي ، مصر ، 1987 ، ص 297 .

[6] ابو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 22 .

أعلن الحرب على أتسز والتقى الجيشان عند مدينة هزارسب[1] سنة 533هـ/1138م ولم يستطع أتسز وقوته الناشئة الثبات أمام قوات سنجر وكثرة جيوشه ، مما جعل هزيمة أتسز محققة ، وفعلا فرّ أكثر جنوده وقتل الباقون ، وكان ممن قتل في المعركة ابنه فحزن عليه حزنا شديدا ، ولمّا انتهت المعركة جعل السلطان سنجر ابن أخيه محمدا الملقب غياث الدين أميرا على تلك البلاد ، كما عين له وزيرا وأتابكا وحاجبا[2] ، وأقرّ أمور البلاد وقفل عائدا إلى عاصمته مرو[3].

وحينما رجع السلطان سنجر إلى بلاده استغلّ أتسز ضعف الحامية السلجوقية هناك وسخط أهالي خوارزم على جنود السلاجقة فهاجم المدينة من جديد واستعاد نفوذه فيها ، وانسحب غياث الدين مع جنوده دون مقاومة ، وبدأ أتسز ينظم أمور مملكته الجديدة ويكثر من عدد جنوده وبدأ يفكر في الانتقام من السلطان سنجر[4].

وفي سنة 536هـ /1141م أرسل إلى مملكة الخطا الوثنية وهو بما وراء النهر يحرّضهم على السلطان سنجر ويطمعهم في مملكته فحثهم على ذلك حتى ساروا إليه في ثلاثمائة ألف فارس ، وخرج إليهم سنجر في عساكره وجيوشه فالتقوا في ما وراء

---

[1] هزارسب : قلعة حصينة تقع في نواحي خوارزم للإستزادة انظر : عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 39 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 309 .

[3] مرو : وتدعى مرو الشاهجان ، وهي عاصمة إقليم خراسان و أشهر مدنه و أقدمها ، يقال أن من بناها هو ذو القرنين ، وتسمى كذلك أم خراسان ، والمرو بالفارسية المرح ، والشاه الملك ، وجان النفس فمعناه " مرح نفس الملك" ، وفيها قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس سنة 31هـ ، وهي في أرض مستديرة بعيدة عن الجبال ، وأرضها كثيرة الرمل وبناياتها من الطين ، يحدها من الشرق جيحون و من الجنوب ترمذ ، ومن الشمال خوارزم ، ومن الغرب سرخس . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص113 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 532 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 456-457 و مؤلف مجهول ، حدود العالم ، ص 94 وابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص 17-18 .

[4] أحمد حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 26 .

النهر ، واقتتلوا قتالا شديدا في معركة قطوان[1] أسفرت عن هزيمة سنجر وقواته التي قتل منها مائة ألف قتيل وأسرت زوجته وانسحب السلطان إلى ترمذ[2] ثم سار منها إلى بلخ[3] [4].

استغل أتسز فرصة انهزام سنجر أمام الخطا وغيابه عن خراسان فسارع إلى مرو ودخلها عنوة و أعمل السيف فيمن قاومه من أهلها ، و نهب خزائن السلطان سنجر بما حوته من كنوز نفيسة ، وجلس على عرش السلاجقة [5]، ثم استولى على مدينة

---

[1] قطوان : مدينة قريبة من سمرقند قامت فيها معركة سميت باسم المنطقة التي تقع شمال سمرقند وهزمت فيها قوات السلاجقة هزيمة حاسمة أمام دولة القراخطائيين ممّا يشير إلى بداية ضعف الإمبراطورية السلجوقية ونهاية مجدها . للإستزادة أنظر : عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 41 .

[2] ترمذ : مدينة مشهورة من أمهات المدن في خراسان ، تقع على الضفة الشرقية من نهر جيحون وهو يضرب سورها ولها ربض كبير يحيط بها ، ودار الإمارة في قصرها ، ولها أسواق عامرة في مدينتها ، وهي مدينة حسنة عامرة آهلة مفروشة الأزقة في الشوارع بالآجر ، ويشرب أهلها من جيحون ، وبينها وبين بلخ مرحلتان ، وبينها وبين مدينة الصغانيان خمس مراحل ، وهي أكبر من مدينة ترمذ ، ولكن ترمذ أكثر أهلا ، وفي سنة 611هـ سار خوارزم شاه بجيوشه إلى صاحب الترمذ حتى أخذه وقتله واستولى على بلاده ، ولم يبق له في تلك الجهات من ملوك الإسلام مجاور ، وصار كلما فتح مملكة ولى عليها مملوكا من مماليكه فخلت الممالك من الذخائر وعدمت تدبير الملوك ، وصار ذلك توطئة لخراب البلاد على يد المغول . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 132 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 26 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 455.

[3] بلخ : مدينة مشهورة بخراسان ، وهي من أجّل مدن خراسان و أذكرها و أكثرها خيرا وأوسعها غلة ، تحمل غلتها إلى جميع بلاد خراسان و إلى خوارزم ، وقيل أن أول من بناها هو الإسكندر وكانت تسمى قديما الإسكندرية ، وافتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر بن كريز في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهي تقع على رافد من نهر جيحون يسمى دهاس ، وفي سنة 618هـ نزل المغول بها وقد انتهت حينئذ في العمارة والجلالة ، فقاتل أهلها وصبروا حتى قتل منهم ومن المغول خلق كثير ، وقد أسر المغول من المسلمين من بلاد خراسان عددا كثيرا فأضافوهم لمن جلبوهم معهم وقدموهم أمامهم وزحفوا بهم لقتال بلخ لتقع فيهم السهام وحجارة المنجنيق ، وتكاثر المغول ، واشتد القتال وطال ، حتى دخلوها عنوة ولم يبقوا فيها عينا تطرف وتركوها تراب تعوي فيها الذئاب . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 96 وياقوت، المصدر السابق ، ج1 ، ص 480 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 332-333 .

[4] يورد ابن الاثير في هذه الرواية أن من بين القتلى الذين كانوا يقاتلون في صف السلطان سنجر و قتلوا اثنى عشر ألف صاحب عمامة ولعله يقصد بهم الشيعة فهم أصحاب العمائم في هذا الزمن والله أعلم ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 319 .

[5] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 24 .

نيسابور[1] في نفس السنة ، واستعطفه علماؤها و كبارها فلم يتعرض لأهلها بسوء لكن ذلك لم يمنعه من البحث عن أموال سنجر والاستيلاء عليها ، كما أسقط الخطبة عن السلاجقة وأمر الناس بالدعاء له على المنابر ورجع إلى خوارزم[2] .

إلا أن السلطان سنجر بدأ يلملم جيوشه من جديد و حاول إستعادة ما فقده على يد أتسز فخرج سنة 538هـ/1143م في جيش عظيم قصد به مدينة خوارزم فتحصن أتسز في مدينته لعلمه أنه لا يقدر على مواجهة كل تلك الجيوش ، فكان القتال يجري بين الفريقين من وراء الأسوار[3] ، وفجأة هاجمت قوات سنجر الجهة الشرقية للمدينة واستطاعت الدخول إلا أن الجنود الخوارزمية قاوموهم وصدوهم عن ذلك وأبعدوهم خارجا ، وعند ذلك أدرك أتسز أنه لا مجال للمقاومة نظرا لقوة سنجر مما دعاه إلى طلب الصلح والمهادنة فراسله مبديا أسفه واعتذاره عما صدر منه وقدم

---

[1] نيسابور : وسميت بذلك لأن سابور مر بها فلما نظر إليها قال : هذه تصلح لأن تكون مدينة ، وهي من بلاد خراسان ، وهو بلد واسع افتتحه عبد الله بن عامر بن كريز في خلافة عثمان بن عفان سنة 30 هـ ، وهي أرض سهلة ليس بها ماء جار إلا نهر يخرج إليهم فضله في السنة ولا يدوم ماؤه وهو فضل ماء هراة ، وهي مدينة قدرها قدر نصف مرو ، وينتمي إليها جماعة من أكابر الفضلاء كالإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب المسند الصحيح ، وليس بخراسان مدينة أصح هواء ولا أرحب فناء ولا أشد عمارة ولا أمكن تجارة ولا أكثر سابلة ولا أغزر فائدة من نيسابور ، ويرتفع منها من فاخر الثياب والقطن والقز ما يعم البلاد وتؤثره الملوك ويتنافس فيه الرؤساء ، وكانت دار الإمارة في القديم بخراسان مر وبلخ إلى أيام الطاهرية ، فإنهم نقلوها إلى نيسابور ، فعمرت وعظمت أحوالها واشتهر بالعلم رجالها ، وفي سنة 618هـ نزل المغول عليها وكانت حينئذ عروس خراسان ، ومحط التجار من سائر البلدان ، وفيها من الأئمة والعلماء والسداة والكبراء خلق لم يجتمع في سواها ، وقد طابت غلاتها ، فراموا فيها مكرا بتأمين أو خديعة ، فقال أهلها : الكلب خير من صاحب أمرهم فإنه يحفظ العهد وهو ماله عهد ولا يفي بقول ، قد غدر بأهل بخارى وأهل سمرقند وغيرهما ، فيكيف ننخدع بما سمعنا ، فاختاروا القتال ومقاومة التتار ، حتى دخلوها عليهم محلة فمحلة ، ولم يبقوا على أحد حتى أنهم قتلوا الأطفال وكثيرا من النساء ، وخربوا المدينة وتركوها موحشة وساروا إلى أختها مرو . للإستزادة ، أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 588-589 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 473-475 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 332-333.

[2] أحمد حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية و المغول ، ص 27 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 329 .

الهدايا له [1]، فقبل سنجر بشرط أن يعيد كل ما نهبه من خزائنه في مرو و نيسابور ويتنازل له عن ما ملكه في خراسان فتم الصلح بين الفريقين[2] .

والواقع أنّ السلطان سنجر كان مضطرا لقبول الصلح نظرا للخطر الذي كان يترقبه من طرف الخطا الذين أقام معهم أتسز تحالفا ومصاهرة ، في حين نجد أتسز قد قبل شروط معاهدة الصلح في تلك اللحظة الحرجة التي كان يمر بها فقط ، فلم يكن مهتما به فحينما شعر بأن قوّته صارت قادرة على مواجهة السلطان سنجر بدأ يظهر التمرد من جديد في نفس السنة التي عقدت فيها المعاهدة ، فيجمع المؤرخون أن بداية ظهور الدولة الخوارزمية هو عام 538هـ/1143م فيعتبر هذا العام الاستقلال الحقيقي للدولة الخوارزمية عن السلاجقة ومن الشائع أن رشيد الدين الوطواط [3] شاعر بلاط أتسز قد نظّم في هذه المناسبة قصيدة يعلن فيها عن قيام الدولة الخوارزمية بشكل رسمي جاء في مطلعها :

---

[1] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 24 .

[2] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 43 .

[3] رشيد الدين الوطواط : هو محمد بن عبد الجليل العمري ، وسمي بالعمري لإنتسابه إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان يشتغل بالكتابة ومن أجل ذلك ، فإنه غالبا ما يلقب بالكاتب ، وقد ألف بالإضافة إلى أشعاره طائفة من الكتب المنثورة ، أهمها حدائق السحر وهو كتاب في البلاغة الفارسية والشعر الفارسي ، و الكلمات المائة من أقوال الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقد شرحها و فسرها باللغة الفارسية ، وقد لقبوه بالوطواط لصغر حجمه و هزال جسمه ، ومع ذلك فقد كان حادّ اللسان قوي البيان ، فنتج عن ذلك أنّ أكثر أعدائه وازداد خصومه، ويروى أنّ الوطواط كان يتناقش في مجلس من المجالس في حضرة السلطان أتسز خوارزمشاه ، وقد وضعوا بالمصادفة محبرة أمامه ، فلما اشتد النقاش أعجب أتسز بما كان يقوله ، فأمر رجاله بأن يرفعوا الدواة حتى يستطيع رؤية الشخص الذي يتحدث من وراءها ، فلما سمع ذلك أسرع الوطواط بالنهوض وقال على البديهة "المرء بأصغريه قلبه ولسانه" وقد عاش الوطواط طويلا إلى سنة 578هـ/1182م أما وليّ نعمته أتسز فقد مات سنة 551هـ/1156م ورثاه فأنشد :

أيها الملك ... لقد كان الفلك يرتعد لشدة قهرك.. وكان ينقاد لك طواعية ، ويستجيب لأمرك ..

فأين واحد من أصحاب النظر ... لينظر في خبرك... وهل كان كل هذا الملك ليساوي هذه النهاية عندما غيبوك في قبرك .. للإستزادة أنظر : إدوارد براون ، **تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي** ، ترجمة : إبراهيم أمين الشواربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005 ، ج2، ص 417-418

حين إعتلى الملك أتسز عرش المملكة

انتهت دولة سلجوق و آله[1]

ورغم هذا فقد حاول سنجر أن يعيد الخوارزميين تحت مظلة السلاجقة من جديد وآثر هذه المرة إستعمال سياسة الوّد والموعظة الحسنة ، فبدل إرسال الجيوش أرسل أحد الشعراء ويسمى صابر أديب إلى أتسز قصد إقناعه بالتخلي عن فكرة الانفصال عن الدولة السلجوقية ، وأثناء تواجد هذا الشاعر بخوارزم أحس بمدى الحقد الذي يكنّه أتسز تُجاه سنجر ولعل ذلك يرجع لمقتل ولده ، وقد أدرك الشاعر بأن أتسز قام بالإيعاز إلى اثنين من أهل خوارزم إلى التوجه إلى سنجر وقتله وقد دبر هذه المكيدة مع الشيعة الإسماعيلية الباطنية ، فأرسل أديب رسالة إلى مولاه يبلغه فيها بجلية الأمر فعثر الأخير على الرجلين وقتلهما ، وعندما علم أتسز بما فعله الشاعر تخلص منه و قتله [2].

وهكذا بقي التراشق قائما بين السلاجقة والخوارزميين فقد كان أتسز صاحب طموح قوي في تأسيس دولة جديدة في حين كان سنجر يدافع عن دولة عريقة صاحبة مجد تليد ، فاستمر الصراع بين مد وجزر حتى انتهى بانتهاء حياة الزعيمين الخوارزمي سنة 551هـ/1156م و السلجوقي سنة 552هـ /1157 [3].

على أن الدولة الخوارزمية أخذت تزداد قوة ، بينما أخذت الدولة السلجوقية في الضعف و الإنحلال خاصة بعد وفاة سنجر آخر السلاطين الأقوياء ، ومدت الدولة

---

[1] أحمد كمال الدين حلمي ، **السلاجقة في التاريخ والحضارة** ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، 1975 ، ص 116 .

[2] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 44 .

[3] أحمد حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية و المغول ، ص 27 .

الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة[1] ، واستطاع السلطان ايل أرسلان الخوارزمي أن يحافظ على جميع ممالك أبيه و يستأثر بالحكم المطلق فسمل أخا له وبادر بقتل أعمامه [2] وكل الطامعين في الحكم مما أدى إلى إستقرار المملكة في خوارزم ، على خلاف ما حدث في دولة السلاجقة التي تولى السلطنة فيها بعد سنجر ابن اخت له يدعى محمود بن محمد بن بغراخان ولم تكن له سلطة أمام صاحب الأمر والنهي في دولته الذي كان يدعى " المؤيد أى أبه" ، فاستفاد ايل أرسلان من هذا و استقل استقلالا تاما عن السلاجقة الضعاف حتى أن المؤرخين يعتبرونه أول سلاطين الدولة الخوارزمية المستقلين[3].

وبوفاة سنجر انتهت سيادة السلاجقة على الدولة الخوارزمية وليس أدل من ذلك حينما أرسل ايل ارسلان رسالة تعزية إلى السلطان محمود يخبره فيها بإعلان الحداد ثلاثة أيام على سنجر لكنه يصف نفسه في رسائله ب" الصديق المخلص " بينما كان والده أتسز يصف نفسه في رسائله إلى سنجر ب "المولى"[4] وبعد ذلك راح ايل ارسلان يوسع نفوذه على حساب السلاجقة في خراسان دون أي عائق [5] .

وقد حصل بعد ذلك أن قام المؤيد بالحجر على السلطان محمود و سمل عينيه مما جعل ايل أرسلان يتخذ هذا الحدث كذريعة للهجوم على الأراضي السلجوقية وتوسيع مملكته على حسابها فاستولى على مرو ونسا[6] .

---

[1] عبد الرؤوف الفقي ، المرجع السابق ، ص 304 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 407 .

[3] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 50 .

[4] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 483 .

[5] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 29 .

[6] نسا : مدينة بخراسان ، وهي قريبة من سرخس و وبينها وبين مرو خمسة أيام ، وقيل في سبب تسميتها بهذا الإسم أن المسلمين لما وردوا خراسان قصدوها فبلغ اهلها فهربوا ولم يتخلف غير النساء فلما أتاها المسلمون لم=

ثم على بلخ و هراة[1] وسرخس[2] كما حاول الخوارزميون الاستيلاء على نيسابور التي كان المؤيد جعلها مركزا لحكمه فلم يفلحوا في ذلك واستولوا على دهستان[1] التي فر

يروا بها رجلا فقالوا : هؤلاء نساء والنساء لا يقاتلن فننسأ أمرها الآن إلى أن يعود رجالهن فتركوا ومضوا فسموا بذلك نساء ، والنسبة الصحيحة إليها نسائي ، وقيل نسوي أيضا ومنها جملة من العلماء لعل من أبرزهم أبو عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان النسائي القاضي الحافظ صاحب كتاب السنن وكان إمام عصره في علم الحديث ، وقد سكن مصر وانتشرت تصانيفه بها . وهي مدينة حصينة كثيرة المياه والبساتين ، وهي في المساحة مثل سرخس ، ويقال بأن من بناها هو فيروز بن يزدجرد أحد الأكاسرة ، وبها رباط بناه رئيسها عماد الدين حمزة النسوي ، وهو رباط عظيم خارج المدينة بين الباغات ، ليس في البلاد شيء مثله في عظم العمارة وكثرة الخير ويذكر القزويني بأن أحوالها بقيت كذلك إلى غاية ورود المغول ، ولقد سأل بعض فقهاء خراسان عنها ، فذكر أنه بقي منها بقية . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 282 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 579 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 465.

[1] هراة : مدينة عظيمة من مدن خراسان ، ما كان بخراسان مدينة أجلّ ولا أعمر ، ولا أحصن ولا أكثر خيرا منها بها بساتين كثيرة ومياه غزيرة ، بناها الإسكندر ، وافتتحها الأحنف بن قيس في خلاغة عثمان رضي الله عنه وهي مدينة عامرة لها ربض ، وفي مدينتها قصبة لها أبواب كثيرة ، ومن عجيب ما ذكر أن هراة كانت في يد سلاطين الغور بني سام ، فجاءها خوارزمشاه محمد نزل عليها يحاصرها ، وكانت العجلة تمشي على سورها لفرط عرضه ، فأمر خوارزمشاه بنصب المنجيق عليها ، وأشار بمقرعته إلى برج من أبراجها ، فكما أشار إليه انهار ذلك البرج ، فاستخلصها من ذلك الموضع وعد ذلك من عجيب آثار دولته . ولم تزل هراة من أحسن بلاد الله حتى أتاها عين الزمان عند ورود المغول عليها سنة 618هـ ، فخربوها حتى أدخلوها في خبر كان ، وحكى من كان بها أن التتر ، لمّا نزلوا عليها راسلهم أحد أعيان المدينة أن يفتح لهم بابا من أبوابها ، على شرط أن يأمن هو وأهله ، فأجابوه إليه . فلما فتح لهم بابا من أبوابها ، على شرط أن يأمن هو وأهله ، فأجابوه إليه . فلما فتح لهم دفعوا إليه رجلا ليقف على باب داره ويمنع التتر من دخولها ، وكان لصاحب الدار نسيب بعث إليه أن عجل إلى داري بأهلك فإنها مأمن ، فقال النسيب : إن حالوا بيننا وبينكم فأرسل الرجل التتري إلينا ليحملنا إليكم ، فأرسله إليهم ، فلما غاب عن باب داره نزل عليها قوم من التتر وقتلوا كلهم ، فلما جاء الرجل التتري بالنسيب وجد القوم قتلوا عن آخرهم ، فتركهم ومرّ على وجهه وقتل النسيب أيضا ، ولم ينج أحد منهم . وتدل هذه القصة على مدى كثرة القتل الذي حصل مع أهالي هراة بعد الإجتياح المغولي لها . للإستزادة أنظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 481-482 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 595.

[2] سرخس : مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور و مرو في وسط الطريق ، وبين كل واحدة منهما ست مراحل ، وهي في الإقليم الرابع ، ولما سار ابن عامر إلى فتح نيسابور ، أرسل عبد الله بن خازم إلى فتح سرخس ، وهو بلد جليل ومدينته عظيمة ، طيبة الثرى معتدلة الهواء لها رساتيق وقرى كثيرة .للإستزادة أنظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 390 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 209 والحميري ، المصدر السابق ، ص 316 .

حاكمها إلى نيسابور[2]، فأعاد ايل أرسلان هجومه عليها سنة 562هـ/1168م ، فاضطر المؤيد إلى طلب النجدة من الأتابك شمس الدين الدكز الذي كان أتابكا على بلاد اران و معظم بلاد أذربيجان وكان حينذاك بهمذان فأرسل يقول له " ان خوارزم شاه ايل أرسلان قد عزم على النزول بنيسابور واستخلاصها منه ، ومتى تم له ما يروقه من نيسابور فهو لا يقنع بها و تحدثه نفسه بقصد العراق ، ولئن لم تتحركوا له حركة تمنعه من خطر نفسه لينفجرن عليكم سيل شقاء لا تطيقون سده ويهيج بحر عناء لا يحرز مده"[3] .

وعند ذلك قدم الأتابك شمس الدين من همذان إلى الري [4]، وأرسل رسالة إلى ايل أرسلان يقول له فيها " ان هذا المؤيد هو مملوك السلطان ، وخراسان بلاد السلطان وملك آبائه و أجداده ، وكذلك خوارزم التي أنت فيها ، ومتى قصدت نيسابور كان الجواب قصدي إياك والمحاربة والملاقاة بيننا وأنت من وراء النظر لنفسك"[5].

ولاشك أن هذه الرسالة التهديدية قد أحرجت ايل ارسلان كثيرا ولم تزده إلا عنادا في غزو نيسابور فكرر هجومه عليها في نفس السنة وبقي محاصرا للمدينة شهرين لم يستطع دخولها وحينما علم بوصول الأتابك شمس الدين مع عساكر العراق رحل

---

[1] دهستان : بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان ، وقال البشاري دهستان مدينة بكرمان ودهستان ناحية بجرجان ، وقال الحميري هي مدينة على الضفة الشرقية من بحيرة طبرستان وهي من أبسكون على مائة وخمسين ميلا ، وليس في الضفة الشرقية من هذا البحر إلا دهستان . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 492 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 244 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 476 .

[3] الحسيني (أبو الحسن علي بن ناصر ت بعد 622هـ) ، **زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية** ، تحقيق : محمد نور الدين ، دار اقرا ، لبنان ، 1985 ، ص 277 .

[4] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 52 .

[5] الحسيني ، المصدر السابق ، ص 277-278 .

عنها إلى جرجان[1] ، والغريب أن المؤيد صاحب نيسابور أرسل القاضي الإمام فخر الدين الكوفي إلى خدمته رسولا ، وقال له : " قد أنفقت نفقات كثيرة وأخرجت صلات جزيلة ، ولا يجوز أن ترجع إلى خوارزم بغير مقصود الآن حيث رجعت أنا مملوكك ومفترض على نفسي طاعتك . أنا أخطب لك و أضرب السكة على الدنانير والدراهم باسمك ، وأتصرف في البلاد عن أمرك و نهيك"[2] .

ولما سمع خوارزمشاه ايل ارسلان ذلك فرح فرحا شديدا ووافق على الصلح وخلع على القاضي خلعا سنية واعطاه هدايا جليلة [3]، وأعاده إلى نيسابور رفقة رسول من عنده يحمل هدايا إلى المؤيد بتشريفات فاخرة و هدايا وافرة وخيل محلاة بالذهب والفضة ومن سائر الطرائف الموجودة في مملكته [4].

كما حاول ايل ارسلان الامتناع عن دفع الأموال التي كان والده يدفعها سنويا لمملكة الخطا ليتقي شرهم و يكف أيديهم عن بلاده ، غير أن الخطا رفضوا ذلك بشدة وهيأوا الجيوش لقتاله ، فلم يستطع الصمود في وجههم وعاد يدفع لهم ما كان مقررا على والده من قبل[5] .

---

[1] جرجان : قيل أن أول من نزلها هو جرجان بن اميم ابن لاوذ بن سام فسميت به ، وهي مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان و خراسان ، فالبعض يعدّها من طبرستان والبعض يردها إلى خراسان ، وقيل ،إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، وأما فتحها فإنه لما فرغ سويد بن مقرّن من فتح بسطام في سنة 18هـ كاتب ملك جرجان ثم سار إليها فكاتبه ملكها يبادر بالصلح على أن يؤدي الجزية ، ويكفيه حرب جرجان ، وسار سويد فدخلها وكتب لهم صلح على الجزية ، ثم غزاها سعيد بن العاص في خلافة عثمان سنة 30 هـ فصالحوه على مائتي ألف . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق، ص 161 و ياقوت ، المصدر السابق ، ص 120-121 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 348-349.

[2] الحسيني ، المصدر السابق ، ص 278 .

[3] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، 53 .

[4] الحسيني ، المصدر السابق ، ص 278 .

[5] عبد الرؤوف الفقي ، المرجع السابق ، ص 119 .

وفي سنة 567هـ/ 1173م عبر جيوش الخطا نهر جيحون لقتال الدولة الخوارزمية ، فجمع خوارزمشاه ارسلان عساكره و سار إلى لقائهم في أمرية فمرض وأقام بها وسير بعض جيشه مع قائد له فاقتتلوا مع الخطا ، وانهزم الخوارزميون و أسر قائدهم و رجع الخطا إلى بلادهم ، وعاد ايل أرسلان إلى خوارزم مريضا فلم يلبث طويلا حتى توفي سنة 568هـ/1174م [1].

ولما توفي خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز ملك بعده ولده سلطانشاه محمود ، ودبرت والدته المملكة والجيوش ، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيما في الجند التي أقطعها له والده ، فلما سمع بالخبر ساءه ذلك وطمع بالملك لنفسه ، وقصد ملك الخطا يستمده على أخيه وأطمعه في الأموال والجواهر فسير معه جيشا كبيرا ، وعندما سمع سلطانشاه وأمه بذلك توجهوا إلى المؤيد صاحب نيسابور وأغروه بأموال خوارزم وذخائرها فوافق على مساعدتهم ، وخرج في جيش كثيف والتقى الجمعان على مقربة من خوارزم ، وانهزم عسكر المؤيد ، وقتل صبرا وهرب سلطانشاه مع أمه إلى دهستان ، فلحق بهما خوارزمشاه تكش ودخل المدينة عنوة ، وهرب سلطانشاه ، لكن اخذت أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم[2] .

ولما انتهت المعركة أرسل ملك الخطا رسله إلى تكش خوارزمشاه للتحكم فيه وجلب الأموال منه فأخذته الحمية و قتل الرسل [3]، فاستغل أخوه سلطانشاه ما جرى وسارع إلى الخطا يطلب عونهم لحرب أخيه فأرسل معه جيشا كثيفا ، فلما وصلوا إلى خوارزم وحاصروها ، أمر خوارزمشاه علاء الدين بإجراء ماء جيحون عليها ، فكادوا يغرقون ، فرحلوا عنها دون أن يبلغوا مقصدهم وعنّف قائد جيش الخطا

[1] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 68 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ،ج 10 ، ص 39 .

[3] عفاف صبرة ، المرجع السابق . ص 62 .

سلطانشاه ، إلا أن هذا الأخير أقنعهم بالمجيء معه للإستيلاء على مرو ففعلوا ذلك واستولوا على مرو وسرخس وعاد الخطا إلى بلادهم [1].

اتصل سلطانشاه بعد ذلك بالسلطان غياث الدين الغوري وطلب منه أن يتنازل له عن هراة ، الأمر الذي رفضه الغوري بل طلب منه هذا الأخير أن يقيم له الخطبة في مرو وسرخس وكل البلاد التابعة له فامتعض سلطانشاه لذلك وغضب غضبا شديدا وخرج على رأس قواته لمحاربته فعسكرت قواته في الطالقان[2] بينما عسكرت عساكر غياث الدين الغوري في مرو الروذ[3] ، وظلّت الرسل تتردّد بينهما مدة شهرين حتى اتفقا على الصلح إلا أن فتنة وقعت بينهما فقامت الحرب وانهزم سلطانشاه [4].

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 40 .

[2] الطالقان : مدينة في خراسان ، من سرخس إلى الطالقان أربع مراحل ، وهي بين جبلين عظيمين ، وتقدر في كبرها مثل مرو الروذ ، ولها مياه وجباية وعمارات متصلة وبساتين قليلة ، وهواؤها صحيح ، فهي على جبل متصل بجبل الجوزجان ومرو الروذ ، وكان فتح الطالقان على يد الأحنف بن قيس حين وجهه عبد الله بن عامر في أربعة آلاف بعد صلح مرو الروذ إلى طخارستان ، وجمع أهل طخارستان والطالقان والجوزجان والفارياب فكانوا ثلاثة زجوف ، ثلاثين ألفا ، وأتى الأحنف خبرهم فواجههم في قلة من جنده لكنه انتصر عليهم وثبت الحكم الإسلامي فيها . وفي سنة 617هـ نزل المغول على الطالقان وضربوا عليها حصارا دام عشرة أشهر يئس أهلها من النصرة ، ولم يجدوا إلا الصبر ورغبوا في الشهادة ، وخرجوا يدا واحدة على عساكر المغول ، فمنهم من تعلق بالجبال فسلم ومنهم ومن مات على سيفه ، وبعدها جرى على المدينة سنة المغول في القتل والتخريب . للإستزادة انظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 402 والحميري ، المصدر السابق ، ص 380-381 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 6-7 .

[3] مرو الروذ : والروذ بالفارسية هو النهر ، فكأنه مرو النهر ، هي مدينة كبيرة عامرة ، بعيدة عن الجبال أرضها سبخة ، كثيرة الرمل وأبنيتها من الطين ولها قلعة مرتفعة ولها نهر كبير يسمى مرغاب ، يتشعب منه روافده ، وبها الحرير والقزّ الكثير والقطن ، ويعمل منها ثياب تحمل إلى الآفاق ، وهي تقع بين منطقة الغور و غزنة ، وقريبة من مرو بينهما خمسة أيام ، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص112 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 532 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 544 وابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص 39 . و ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 480 .

[4] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 65 .

وعند عودة سلطانشاه إلى مرو سمع بأن أخاه علاء الدين تكش خوارزمشاه قد كمن له في الطريق فقفل راجعا ولاذ بحماية الغوري الذي استقبله وأكرم رجاله ، وحينما سمع علاء الدين خوارزم بذلك أرسل إلى الغوري يطلب منه تسليم أخاه ويطلعه على ما كان منه إلا أنه رفض ذلك بشدة و دعاه أن يقاسمه أملاك أبيه ايل أرسلان و لما رفض ذلك خرج الغوري مع سلطانشاه لمحاربة علاء الدين ، ففر إلى مملكة الخطا تاركا خوارزم تواجه مصيرها ، إلا أن سلطانشاه مات في هذه الأثناء وكان ذلك عام 589هـ/1193م ، فعاد علاء الدين إلى مملكته واستحوذ على أملاك أخيه سلطانشاه وصاهر مغيث الدين الغوري[1].

ولما استقر الأمر لعلاء الدين تكش خوارزمشاه توجه بأنظاره إلى الغرب ليوسع نفوذه ، كما استطاع ان يجعل من دولته مسموعة الكلمة بين أمراء العراق ، الأمر الذي جعل الخليفة الناصر لدين الله العباسي يستعين به ضد آخر سلطان سلجوقي على العراق وهو طغرل ، ويعده بتوليته كل ما يملكه هذا السلجوقي إن استطاع القضاء عليه، و التقى الجيشان السلجوقي والخوارزمي في معركة فاصلة سنة 590هـ/1194م في الري [2]، انهزم فيها الجيش السلجوقي وقتل طغرل و أرسل علاء الدين خوارزمشاه رأسه إلى الخليفة الناصر في بغداد [3] ، ومن المصادفة العجيبة أن ابتداء دولة السلاجقة كانت بالسلطان طغرلبك و انتهاءها كان أيضا بطغرل ودامت

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 229 .

[2] الحسيني ، المصدر السابق ، ص 314 .

[3] أحمد حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 29 .

مدة ملكها زهاء مائة وأربعين سنة [1]. وبذلك استولى على همذان عاصمة السلاجقة في العراق بالإضافة إلى أصفان والري [2].

قضى خوارزمشاه تكش حياته يحاول توطيد نفوذه عبر أربع جبهات فاستطاع أن يقض على جبهة السلاجقة نهائيا سنة 590هـ/1194م ثم تفرغ إلى الخطا حيث استولى منهم على بخارى سنة 594هـ/1198م[3] ، ومن العجيب أن أهالي بخارى كانوا يساعدون الخطا في التصدي للخوارزميين لأنهم فضلوا أن يكونوا تحت حكم مملكة الخطا الوثنية على أن يكونوا تابعيين للدولة الخوارزمية وذلك لما رأوه من حسن سيرتهم معهم ، بل إنّ من أحد الطرائف أنّ أهالي بخارى أخذوا كلبا أعور وألبسوه قباء و قلنسوّة وساروا به في الشوارع وقالوا : هذا هو خوارزمشاه لأنه كان أعورا ، وطافوا به على السور ثم ألقوه في المنجانيق إلى العسكر وقالوا : هذا سلطانكم فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزمشاه البلد بعد أيام يسيرة عنوة إلاّ أنّه عفا عن أهالي المدينة وأحسن إليهم [4] .

أما الجبهة الثالثة فقد كانت القلاع الإسماعيلية التي اصطدم بها أثناء توسعه غربا وقد كانت القلاع الإسماعيلية على المذهب الشيعي الإسماعيلي وقامت مبادؤها على الفدائية التي استنزفت القوة الإسلامية عبر اغتيال قادتها ، وقد جهز خوارزمشاه تكش حملة عسكرية لتأديب هذه الفرقة فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى أرسلان شاه ، وانتقل إلى حصار أهم قلاعهم "ألموت" ، وتوفي في هذا الحصار رئيس الشافعية بالري صدر الدين محمد بن الوزان وكان مقدما عند خوارزمشاه ، وعند عودته

---

[1] الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد) ، **تاريخ دولة آل سلجوق** ، دار الكتب المصرية ، مصر ، 1900 ، ص 278 .

[2] عبد الرؤوف الفقي ، المرجع السابق ، ص 298 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 253 .

[4] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 391-392 و أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 118.

إلى خوارزم هجموا على وزيره نظام الملك مسعود بن علي وقتلوه ، فجهز تكش خوارزمشاه حملة بقيادة ابنه قطب الدين الذي قصد قلعة ترشيش سنة 593هـ/1196م وظل محاصرا لها حتى اضطروا إلى طلب الصلح مقابل جزية سنوية يدفعونها للخوارزميين [1].

في حين كانت الجبهة الرابعة هي الخلافة العباسية التي ما إن تخلصت من السلاجقة الذين كانوا جاثمين على صدرها حتى وجدت الخوارزميين يتطلعون إلى الجاه الذي حظي به أسلافهم من السلاجقة و البويهيون ، مما أدى إلى نشأة صراع بين الخلافة العباسية و الدولة الخوارزمية [2] .

ولقد بدأت ملامح هذا الصراع حينما أرسل الخليفة الناصر الخلع السنية والتشريفات إلى تكش خوارزمشاه بعد انتصاره على السلاجقة ، وذلك أنه أرسلها مع وزيره ابن القصاب الذي أساء السيرة مع الخوارزميين حينما نزل بهمذان ، فبعث إليه خوارزمشاه يطلبه فرفض مؤيّد الدين ، وطلب منه الحضور إليه بنفسه ليلبسه الخلعة في خيمته بحجّة أنه ممثّل الخليفة ونائب عنه ، وظلّت الرسل تتردّد بينهما حتى وصلت أخبار إلى علاء الدين تكش خوارزمشاه تفيد أن هذه ما هي إلا خدعة لكي ينفرد المؤيد به في الخيمة و يقبض عليه ، لذلك توجه خوارزمشاه حتى يقبض عليه هو فهرب الوزير إلى الجبال وامتنع بها [3]، فتوجه خوارزم إلى همذان وتملكها واستقبل الناس في بلاطه محاطا بأنواع العظمة والأبهة ، وأنعم على أئمة همذان بالجبب والعمائم ، وبهذا توسعت مملكة الخوارزميين لتضمّ العراق العجمي أو بلاد

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 263 .

[2] أحمد حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية و المغول ، ص 30 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 233 .

الجبل ، وقد أقطع خوارزمشاه هذه البلاد لمماليكه حيث أقطع أصفهان لقتلغ إينانج وهمذان لقراقز الأتابكي ، والري لإبنه يونس خان كعاصمة للمنطقة الجديدة [1].

وقد كان قتلغ إينانج و قراقز أتابكة السلاجقة من قبل إلاّ أنهما انضما لخوارزمشاه فكافأهما أن جعلهما نائبين عنه في المناطق التي استولى عليها ، وحينما شعر ابنه يونس بأنهما يريدان الإستقلال بهاته المدن تحالفا مع وزير الخليفة المؤيّد بن القصاب وكوّنوا جبهة موحدّة ضدّ يونس خان ، وانتصروا عليه وأخرجوه من الري واستولى هذا التحالف على منطقة العراق العجمي من جديد ، وهكذا بسط الخليفة الناصر نفوذه على ما كان بيد الخوارزميين من أملاك حتى في الري [2].

وما إن سمع خوارزم بالأمر حتى أرسل إلى الخليفة الناصر يطلب منه إعادة البلاد إليه ، الأمر الذي رفضه الناصر مما جعل خوارزمشاه يجهّز جيشا بقيادة قائده مياجيق يدخل به إلى الري فيملكها من جديد ثم يكمل إلى همذان لمحاربة الوزير المؤيد بن القصاب الذي يصادف أن توفي فجأة عام 592هـ ، ولم يمنع ذلك مياجيق من الدخول إلى همذان والاستيلاء عليها بل تعدى ذلك إلى نبش قبر ابن القصاب و قطع رأسه و حمله إلى خوارزمشاه مدعيا أنه قتله في المعركة [3].

ورغم ما حصل بين الخلافة العباسية و الدولة الخوارزمية من حروب إلا أن خوارزمشاه فضّل التفاهم بينه وبين الخليفة ، وتظاهر بولائه له بعد هزيمة جيوشهم على أيديهم [4]، فيروي الراوندي بأنه " لما كان خوارزمشاه في همذان قدم إليه مجير

---

[1] الراوندي (محمد بن علي ت643هـ) ، **راحة الصدور و آية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية** ، ترجمة : إبراهيم أمين الشواربي وآخرون ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر 1960 ، ص 519 .

[2] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 84 .

[3] الراوندي ، المصدر السابق ، ص 530 .

[4] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 87 .

الدين البغدادي برسالة من دار الخلافة ، فألقى خوارزمشاه عدة أثواب من قماش الأطلس تحت قدم جواده ، كما نثر أمامه طبقا من الذهب ، واحترمه احتراما كبيرا ، وقام تعظيما له . وحينما قال مجير الدين : إن أمير المؤمنين يسلم عليك ، قام خوارزمشاه ، وأظهر الخضوع ، وأبدى شرائط التعظيم والتبجيل . ثم أبلغه مجير الدين رسالة أمير المؤمنين التي يقول فيها: إن ملك أبيك وجدك كان منحة منا ، ونحن الآن نسلمه إليك . فاقنع به كما كان فيما سبق ، ولا تطمع في أكثر منه ، وإلا فأكتب الى الأمصار أنك خارج علي فينهض الناس في سائر البلاد لغزوك ، وتراق الدماء . فأجاب خوارزمشاه : الحكم لأمير المؤمنين وما أنا إلا شحنة من قبله... [1] " ، ولقد أرسل الخليفة الناصر فعلا إلى غياث الدين الغوري يشكو له ما فعله خوارزمشاه بعساكره و مطالبته بالسلطنة والخطبة له ببغداد ، فأرسل الغوري إلى خوارزمشاه يقبح فعله و يتهدده بقصد بلاده وأخذها [2].

ولم تمض الأيام ليحقّق علاء الدين تكش خوارزمشاه ما كان يصبو إليه من طموحات حتى وافته المنية سنة 596هـ/1199م إثر مرض ألمّ به وهو في طريقه إلى خراسان ، تاركا لإبنه قطب الدين محمد –الذي اتخذ لنفسه لقب أبيه وتسمّى بعلاء الدين محمد– دولة عريضة شملت إقليم خوارزم وبعض المدن في خرسان والعراق العجمي ، بالإضافة إلى أعباء شتّى وأعداء كثر حاولوا الاقتطاع من هذه الدولة الفتيّة الناشئة على غرار مملكة الخطا والدولة الغورية بالإضافة إلى الخلافة العباسية [3].

[1] الراوندي ، المصدر السابق ، ص 534 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 253 .

[3] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 33 .

سار علاء الدين محمد خوارزمشاه على سياسة والدة الرامية إلى توسيع حدود دولته[1] إلا أنه اضطر أن يستعيد ما أخذه منه الغوريين أولا حيث ما إن مات تكش حتى بدأت الدولة الغورية في الاستيلاء على الأقاليم التابعة للخوارزميين في خراسان والحقيقة أنه لما مات خوارزمشاه تكش أعلن غياث الدين الغوري الحداد ثلاثة أيام عليه ، ولم يفكر بالإستيلاء على أراضيه حتى جاءه هندوخان حفيد خوارزمشاه الذي كان هرب خوفا من عمه محمد الذي صار الحاكم الجديد للخوارزميين ، ومهما يكن من أمر فقد رحب به غياث الدين وقرر مساعدته فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يستدعيه من الهند لأخذ بلاد خوارزمشاه لما صارت عليه من الضعف والتفكك فأسرع في المسير حتى وصل إلى الطالقان ، واستولى على مرو وسلمها إلى هندوخان بن ملشكاه بن خوارزمشاه تكش ، كما سار غياث الدين إلى سرخس فأخذها صلحا ، ثم التقت عساكر غياث الدين بعساكر أخيه شهاب الدين عند أسوار نيسابور ، ودخلت الغورية البلد وملكوه عنوة [2]. ثم رحل شهاب الدين إلى ناحية قوهستان[3] فوصل إلى قرية سكانها من الشيعة الإسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة وسبي الذراري ونهب الأموال ثم سار إلى كناباد وهي من المدن الإسماعيلية فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو إليه أخاه ويذكره بالعهود التي بينهم ، فأمر الأخير أخاه بالإنصراف فعاد إلى الهند كارها واقطع البلاد إلى أتباعه [4].

---

[1] عبد الرؤوف الفقي ، المرجع السابق ، ص 298 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 272 .

[3] قوهستان : وهو تعريب كوهستان ومعناه موضع الجبال لأن كوه هو الجبل بالفارسية ، وأكثر بلاد العجم لا يخلو من موضع يقال له قوهستان ، وأما المشهورة بهذا الإسم فأحد أطرافها متصل بنواحي هراة ثم يمتد في الجبال طولا حتى يتصل بنهاوند وهمذان و بروجرد ، هذه الجبال كلها تسمى بهذا الإسم ، وهي الجبال التي بين هراة ونيسابور ، وفتحها عبد الله بن عامر بن كريز في أيام عثمان بن عفان سنة 29 هـ ، وقد استولى عليها الملاحدة من بني الحسن بن الصباح ، للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 416.

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 274 .

ولما تخلص علاء الدين محمد خوارزمشاه من بعض مشاكله التي لحقت به عقب وفاة والده ، وعلم بعودة شهاب الدين الغوري إلى الهند أرسل إلى أخيه غياث الدين حاكم أملاك الدولة الغورية في فارس كتابا يعاتبه فيه ويؤنبه وقد جاء في هذا الكتاب[1] " كنت أعتقد أن تخلف علي بعد أبي ، وتنصرني على الخطا ، وتردهم عن بلادي ، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذيني و تأخذ بلادي ، والذي أريده أن تعيد ما أخذته مني إلي ، وإلا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك ، إن عجزت عن أخذ بلادي فإنني إنما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي ، وإلا فما أنا بعاجز عنكم و عن أخذ بلادك بخراسان و غيرها"[2].

وقد حاول غياث الدين التماطل في الرد على رسالة خوارزمشاه لكي يرسل إلي أخيه يستقدمه من الهند إلا أن خوارزمشاه قد أرسل يهدد النائب الغوري بنيسابور ويأمره بالرحيل عنها فكتب الاخير إلى مولاه غياث الدين يعلمه بما جرى ، وسار خوارزمشاه إلى خراسان، وحينما علم هندوخان بمسيره هرب من مرو فدخلها خوارزمشاه ، ومنها انطلق إلى نيسابور وبقي محاصرا لها حتى استسلمت المدينة ولم يطل حاكمها بأذى ، بل أكرمه وسيّره مكرّما إلى غياث الدين الغوري وطلب منه أن يسعَ في الصلح بينهما [3].

إلا أنّ غياث الدين امتنع عن قبول الصلح وبدأ ينتظر عودة أخيه شهاب الدين من الهند ، الذي عاد سنة 599هـ وقرّر محاربة خوارزمشاه بعدما علم بما فعله في خراسان وملكه لها فتوجه إلى بلخ ثم إلى باميان[4] ثم إلى مرو عازما على حرب

---

[1] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 33 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 277 .

[3] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 101-102 .

[4] باميان : بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة ، بها قلعة حصينة ، والقصبة صغيرة والمملكة واسعة ، بينها وبين بلخ عشر مراحل و إلى غزنة ثماني مراحل ، وفي سنة 611هـ إستولى خوارزمشاه عليها .

خوارزمشاه الذي كان نازلا هناك [1]، وبعدما دخل الجيشان في معركة دامية خسر فيها الفريقان أرواحا كثيرة تراجع خوارزم شاه إلى دار ملكه وتوجه شهاب الدين إلى طوس مقررا مهاجمة خوارزمشاه في عقر داره ، إلا أن المنيّة حلّت بأخيه غياث الدين[2] ممّا اضطره للرجوع إلى هراة و ترك على مرو مولاه محمد بن جربك .

استغل محمد علاء الدين خوارزمشاه هذه الظروف التي تمر بها الدولة الغورية بوفاة غياث الدين ، وراح يستعيد مرو من محمد بن جربك الذي قتل أثناء فتح المدينة ، الأمر الذي أدى إلى إصرار شهاب الدين على غزو خوارزم نفسها ، وباءت محاولات خوارزمشاه في ثنيه عن ذلك بالفشل ، فاضطر إلى الإستنجاد بالحليف التقليدي له و هو مملكة الخطا [3].

حينما استنجد خوارزمشاه بالخطا عبروا نهر جيحون سنة 600هـ والتقوا بجيوش شهاب الدين و هزموه هزيمة فادحة حتى أشيع أنه قتل في المعركة ، وانتشر خبر مقتله في مملكته كالنار في الهشيم ، مما أدى إلى اضطراب ملكه وخروج المفسدين فانشغل بترتيب مملكته من جديد [4].

ظل شهاب الدين بعد ذلك يرتب أمور مملكته خاصة بعد وفاة أخيه غياث الدين و هزيمته الكبيرة التي تلقاها من مملكة الخطا ، وانتشار خبر موته ، الأمر الذي أدى إلى إعادة ضبط مملكته ، وكان ممن خرج عليه قوم يقال لهم بنو كوكر يسكنون بين جبال لاهاور و الملتان ، فعندما طلب شهاب الدين المال من نائبه على هاته

للإستزادة انظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج1، ص330 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 74 و القزويني ،المصدر السابق ، ص 154 و ابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص 37 .

[1] إبن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 279 .

[2] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 130.

[3] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 104 .

[4] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 131 .

المنطقة أجابه بأن أولاد كوكر قطعوا الطريق عليه مما تعذر عليه إرسال المال فجرّد شهاب الدين حملة عسكرية قتل منهم مقتلة كبيرة سنة 601هـ [1].

وبعد عودته من لاهور نزل بموضع يقال له دميك أو دمبل ، فتربصه بعض الكفار الناجين من اولاد كوكر و قتلوه في خيمته سنة 602 هـ ، ويورد ابن الأثير رواية أخرى مفادها أن الشيعة الإسماعيلية هم من قتلوه لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان ومحاصرة قلاعهم مرة أخرى [2].

ولعل هذا يوافق ما أورده النسوي مؤرخ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي فقد أورد رأيا ضمن رسالة قادمة من الإسماعيلية إلى السلطان جلال الدين بعد ربع قرن من قتل شهاب الدين الغوري ، يذكرون فيها خدماتهم الجليلة التي قدموها للخوارزميين بقولهم : " في أي زمان كنا مخالفين ، ولهذه الدولة غير موالين ولا مضافين وقد جربنا السلطان على حالتي السراء والضراء ، وتارتي الشدة والرخاء ، ألم يخدم السلطان أصحابنا بالهند وهو على أضعف أحواله بعد عبوره ماء السند ولما سمع السلطان ذلك ، اعترف بخدمتهم له في ذلك الوقت ؟ أولسنا قتلنا شهاب الدين الغوري على ولاء السلطان ومحبته ؟ "[3].

ومهما يكن من أمر فقد دب الصراع و التناحر في البيت الغوري بين غياث الدين محمود بن غياث الدين الغوري وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين ، وتدّخل مماليكهم و وزارئهم في هذا الصراع مما أدّى إلى ضعف

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 300 .

[2] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 133 و ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 303.

[3] النسوي (محمد بن أحمد ت647هـ) ، **سيرة جلال الدين منكبرتي** ، تحقيق : حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، مصر ، 1953 ، ص 341 .

الدولة الغورية واستنزافها ، وبالرغم من أنّ الصراع قد حسم أخيرا لصالح غياث الدين محمود الغوري إلّا أنّ هذا الصراع كان بداية العدّ التنازلي لنهاية الدولة الغورية [1].

وبذلك فقد انتهز محمد علاء الدين خوارزمشاه هذه الفرصة في توسعاته فبدأ بمدينة هراة التي كان عليها الحسين بن خرميل الذي بادر إلى مراسلة خوارزمشاه والدخول في طاعته [2]، وبعد أن تم له ذلك توجه إلى بلخ وحاصرها أربعين يوما واستولى عليها ، فقصد مدينة ترمذ التي حاصرها من جانب والأتراك الخطا من جانب آخر وبعد مفاوضات مع صاحب المدينة سلمها إلى خوارزمشاه الذي سلمها بدوره إلى الخطا ، لكي يضمن بقاءهم في صفه ، وقد انتزعها منهم بعد ذلك حينما ملك خراسان [3].

لما سلم خوارزمشاه ترمذ إلى الخطا ، سار عنها إلى سونج نائب غياث الدين محمود بالطالقان ، وكتب يستميله إليه فلم يجبه إلى ذلك ، وخرج لمحاربة خورازمشاه ، فالتقوا بالقرب من الطالقان ، فلما تقابل الجيشان فعل سونج أمرا في غاية الغرابة حيث أنه حمل وحده على جيش خوارزمشاه ، ثم ألقى نفسه ورمى سلاحه وطلب العفو ، فأخذ خوارزمشاه الطالقان واستناب عليها بعض أصحابه [4].

وأما الحسين بن الخرميل فإنه سار من هراة في جمع من عساكر خوارزم إلى اسفزار [5] فملكها صلحا ولم يتعرضوا لأهلها بسوء ، فلما أخذها أرسل إلى حرب بن

---

[1] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 111 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 311 .

[3] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 112 . و ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 315.

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 223-224 .

[5] اسفزار : مدينة من نواحي سجستان من جهة هراة للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج1 ، ص178 .

محمد صاحب سجستان [1] يدعوه إلى طاعة محمد خوارزمشاه والخطبة له ببلاده فأجابه إلى ذلك [2].

كان علاء الدين خوارزمشاه يعمل وفق خطة توسعية نفذها بمهارة عالية فبعد أن استعاد أملاك والده من الدولة الغورية ، اقتطع مديتني بلخ و هراة ، وهما من أملاك هذه الدولة ، وكانت سياسته في ذلك ترمي إلى الإجهاز على قلب الدولة الغورية بالإستيلاء على حاضرتها غزنة في النهاية [3].

ففي سنة 605 هـ أرسل خوارزمشاه خاله أمير ملك بجيش كبير إلى مدينة فيرزكوه وقد كان على مدينة فيرزكوه السلطان غياث الدين محمود الغوري ، وعندما حاصرت القوات الخوارزمية المدينة طلب الأمان ، ولكنه قتل بعد فتح المدينة وبذلك قتل آخر ملوك الدولة الغورية [4].

ثم أرسل خوارزمشاه إلى غزنة سنة 612هـ وكان عليها تاج الدين ايلدز الذي كان نائبا عن الغوريين فيها ثم استقل عنهم بعد صراع مع غياث الدين ، وقد أرسل خوارزمشاه إليه يدعوه إلى الدخول في طاعته و تركه في منصبه ، فاجتمع ايلدز

---

[1] سجستان : بلد جليل له من الكور مثل ما بخراسان أو أكثر ، غير أنها منقطعة متصلة ببلاد السند والهند ، وكان يضاهي خراسان ، وفي رجالهم عظم خلق وجلادة ويمشون في أسواقهم وبأيديهم السيوف وهو فرس وليس بينهم من المذاهب غير الحنفية من الفقهاء إلا قليل نادر ، وبها بلدة يقال لها كركويه كلهم خوارج ، للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 191-192 والحميري ، المصدر السابق ، ص 304-305 والقزويني ، المصدر السابق ، ص201-202 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 224 .

[3] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 34 .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 337 و أحمد كمال الدين حلمي ، المرجع السابق ، ص 121 .

بأصحابه وشاورهم في الأمر فأشار عليه كبير أحد كبار رجاله يدعى قتلغ تكين بقبول عرض الخوارزمي وبذلك أصبحت غزنة رسميا تابعة للبلاط الخوارزمي[1].

وقد انتهز قتلغ تكين وهو من مماليك غياث الدين الغوري خروج ايلدز للصيد ، فاتصل سرا بخوارزمشاه يطلبه ليسلم غزنة إليه فأسرع خوارزمشاه إليها وقام بقتل من بها من الجنود الغورية ، وعندما سمع ايلدز بما جرى هرب إلى الهند وقد كانت مكافئة قتلغ هي القتل فقد اجتمع به خوارزمشاه وأنّبه على خيانة صاحبه قائلا له: "إذا كنت لا ترعى لرفيقك ومن أحسن إليك صحبته وإحسانه ، فكيف يكون حالي أنا معك وما الذي تصنع مع ولدي إذا تركته لك "[2]. كما استطاع أن يستولِ على إقليم مازندران[3] في جنوب بحر قزوين و أن يضمه إلى دولته[4].

بعد أن فرغ محمد علاء الدين خوارزمشاه من الدولة الغورية تفرغ إلى مملكة الخطا التي أثقلت دولته بما كان يدفعه إليها من أموال منذ عهد أبيه علاء الدين تكش ، فانتهز فرصة إستنجاد سلطان سمرقند وبخارى خان خانان أي سلطان السلاطين فيورد ابن الأثير أن هذا السلطان أرسل له رسالة يقول فيها : " إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك ، من سعة الملك ، وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار ، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار ، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ، ونحمل إليك ما نحمله إليهم ، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة ، فأجابه إلى ذلك "[5] .

---

[1] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 116 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 366 .

[3] مازندران : وهو إسم محدث لولاية طبرستان للإستزادة انظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، 41 .

[4] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 147 .

[5] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 333 .

وبعد أن رتّب أمور بلاده خرج خوارزمشاه إلى بلاد ما وراء النهر في جيش كبير واجتمع بسلطان سمرقند وسمع الخطا بخروجه فحشدوا جيوشهم وساروا إليه ودارت عدة معارك بينه وبينهم فتارة تميل إليه و تارة عليه ، ثم انهزم المسلمون هزيمة منكرة فقتل منهم خلق وأسر خلق كثير ، وكان من جملة الأسرى خوارزمشاه ، الذي استطاع أن يفرّ عبر مكيدة دبرها مع أحد أمرائه [1].

ولمّا عاد خوارزمشاه إلى دار ملكه دبر أمور بلاده التي وجدها مضطربة بفعل غيابه عنها فقد ثار بعض الولاة الذين عينهم في بعض الأقاليم فلما أصلح ذلك عبر نهر جيحون مرة ثانية ، فجمع له الخطا جمعا عظيما بقيادة ملكهم تاينكو ، فالتحم الجيشان سنة 606هـ ، وجرت بينهم حروبا عظيمة ، فانهزم الخطا هزيمة عظيمة وأثخن فيهم المسلمون قتلا وأسرا وكان ممّن أسر ملكهم الذي أكرمه خوارزمشاه وأرسله إلى خوارزم ويروي ابن الأثير بأنه أغرقه في نهر جيحون ، في حين يشير الجويني بأنه أسلم وصار في صحبة السلطان [2]، ثم قصد خوارزمشاه بلاد ماوراء النهر مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أزكندة[3] ، كما استولى على مدينة أترار التي أبدى حاكمها بعض المقاومة [4]، وجعل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم رفقة سلطان

---

[1] عندما أسر خوارزمشاه لم يتمكن الجندي الذي أسره من معرفته ، وقد حصل أن أسره مع أحد أمراءه وهو ابن شهاب الدين مسعود ،فاتفق معه أن يمثل خوارزمشاه دور الخادم له فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ويعظمه و يخدمه فلما رأى ذلك الرجل الذي أسرهما ذلك إنطلت الحيلة عليه ثم أخبره ابن مسعود بأن له مالا كبيرا في خوارزم فإن شئت أن أفتدِ به نفسي أرسلت غلامي هذا إلى خوارزم فيأتيك بالمال فصدق الرجل ذلك ومضى خوارزمشاه إلى دار ملكه وعاد على رأس جيش كبير . للإستزادة انظر : ابن الأثير ، المصدر السابق، ج10 ، ص 336 .

[2] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 465 .

[3] أزكندة : هي آخر مدن فرغانة مما يلي بلاد الترك ، ولها بساتين ومياه جارية ، وليس فيما وراء النهر أكثر قرى من فرغانة وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومراعيهم . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 27 .

[4] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 513 .

سمرقند الذي زوجه من ابنته و أعاده إلى مدينته مع شحنة من الفرسان الخوارزمية . إلا أن هذه الشحنة قد أساءت معاملة أهالي سمرقند الأمر الذي أقلق سلطانها فأعمل فيهم السيف و قتلهم و علق جثثهم على أسوار سمرقند ، وأرسل إلى الخطا يطلب منهم الدخول في طاعتهم من جديد ، فلما بلغ ذلك خوارزمشاه غضب غضبا شديدا وخرج يحاصر سمرقند أياما فلما استولى عليها طلب قتل سلطانها صبرا ، واستباح جنوده المدينة ثلاث أيام فقتل حوالي مائتي ألف إنسان [1].

وخرج في هذا الوقت كوجلك خان الأمير النايماني الذي التجأ إلى دولة الخطا بعد أن غزا جنكيزخان مملكة النايمان و قتل أباه في المعركة ، فرّ كوجلك خان إلى الخطا مع بعض فلوله [2]، فلما بدأت تدب في دولة الخطا ملامح الضعف بسبب حروبهم المتكررة مع السلطان محمد خوارزمشاه استغل هذا الأمير النايماني الفرصة وخرج وأعلن التمرد واتصل بخوارزمشاه يتحالف معه ضد الكورخان[3] "ملك الخطا"

فقال له:" إن هؤلاء الخطا أعداؤك و أعداء آبائك وأعداءنا فساعدنا عليهم ، ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ، ونقنع بالمواضع التي ينزلونها ".

في حين أرسل ملك الخطا أيضا يتودد خوارزمشاه بأن يتحالف معه ضد كوجلك خان وقال له " أما ما كان منك من أخذ بلادنا و قتل رجالنا فعفونا عنه ، وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به ، وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك و تنصرنا على قتالهم ، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد و نقنع بما في أيدينا"[4] ، فأعطى

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 338-339 .

[2] ستوف ، المرجع السابق ، ص 95 .

[3] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 516 .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 340 .

خوارزمشاه الموافقة لكل منهما [1]، وحين التقت الجيوش تريث جيش الخوارزمين يشاهد المعركة عن كثب وأوهم كل من الفريقين أنه جاء لنصرته على الآخر حتى اذا ما انتصر كوجلك على جيش الخطا حمل جيشه أيضا عليهم قتلا وسلبا وبهذا زالت دولة الخطا نهائيا ، وآلت بلاد ما وراء النهر تحت مظلة الخوارزميين [2]. وحينما انتهت المعركة راسله كوجلوك خان بأن يقاسمه بلاد الخطا ، فرد عليه خوارزمشاه بأنّ البلاد له وليس بينهما إلا السيف ثم سار ليقاتله ، إلا أنه علم أن لاطاقة له به ، فجعل بينهما مفازة وأمر أهل بلاد الشاش[3] وفرغانة[4] وكوشان[5] بالجلاء إلى بخارى وسمرقند وخرب البلاد [6]، ووافقه خروج جنكيزخان على كوجلك خان فاشتغل بعضهم ببعض[7].

وكان انتصار محمد خوارزمشاه مبعث فرح وسرور بين رعاياه فزادت هيبته في قلوب الناس ، وفي الرسائل الرسمية بدأ محمد يلقب ب " الإسكندر الثاني " وإن فضل

---

[1] الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج3 ، ص 140 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 340 .

[3] الشاش : مدينة جليلة من أعمال سمرقند وقصبتها بنكث ، وله مدن كثيرة ويتصل ببلاد الشاش بلد ايلاق وهما جميعا لا فصل بينهما ، عمارتهما متصلة متكاثفة لا تنقطع ، وليس بخراسان وما وراء النهر كورة ولا إقليم على مقدارها في المساحة أكثر من منابر وقرى عامرة من هذه الناحية ، وآخر حدودها انتهى إلى وادي الشاش الذي يقع في بحيرة خوارزم ومن الشاش أبو بكر محمد بن علي الشاشي القفال الذي كان إماما وله عدة مصنفات وعنه انتشر فقه الشافعي فيما وراء النهر . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 335 .

[4] فرغانة : ناحية مشتملة على بلاد كثيرة بعد ما وراء النهر ، متاخمة لبلاد الترك ، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة على مذهب أبي حنيفة ، كانت ذات خيرات وغلات وثمرات ، وخربت في الحرب التي دارت بين محمد خوارزمشاه ضد الخطا لأنها كانت على ممّر العساكر فخربت تلك البلاد الحسنة وفارقها أهلها قبل خروج المغول إلى ما وراء النهر . للإستزادة أنظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 235-236 .

[5] كوشان : مدينة الترك ومعظم مملكتهم بين الصين وبلاد خراسان ، وأشدهم شوكة الطغزغز ، وهم أصحاب كوشان هذه وما ولاها ، وهي في جهة الشاش وفرغانة ، وفيهم كان الملك ، ومن خاقان الخواقين كان فراسياب التركي الغالب على ملك فارس . للإستزادة أنظر ، الحميري ، المصدر السابق ، ص 504.

[6] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 528 .

[7] الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج3 ، ص 141 .

هو شخصيا أن يلقب "بالسلطان سنجر" تيمنا بفترة الحكم الطويلة لذلك السلطان ، وإلى هذا العهد يرجع نقش لقب " ظل الله في الأرض" على ختم السلطان[1].

واصل محمد علاء الدين خوارزمشاه سياسة توسعاته فمد نفوذه وسلطانه على إقليم كرمان[2] و إقليم مكران[3] بما في ذلك الساحل المطل على المحيط الهندي الذي يضم ميناء هرمز التجاري ، ثم بدأ في الاستيلاء على الأقاليم الواقعة غرب نهر السند[4] حتى امتد نفوذه إلى مدينة كابل [5].

وبالتالي فقد ضمت الدولة الخوارزمية بلاد ما وراء النهر كما استولت على اقليم كرمان ومكران ، والأقاليم الواقعة غرب نهر السند وعلى ممتلكات الغور في افغانستان ، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساع لها في عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، إذ امتدت من حدود العراق العربي غربا إلى حدود الهند شرقا ،

---

[1] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 522 .

[2] كرمان : أرض كرمان متصلة بأرض فارس ومكران ، يحدها من الشرق أرض مكران و من الغرب بلاد فارس وفي الشمال مفازة خراسان وسجستان و في الجنوب بحر فارس ، بنيت الشيرجان أكبر مدينة في كرمان في أيام الرشيد وكانت بها الدواوين والأسواق العامرة وأهلها مياسير ذو أموال كثيرة وفي تجارهم حسن معاملة وانقياد للحق ولهم نزاهة عن كثير من اخلاق السوقة . وقد فتحت كرمان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 491-492 و ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 266 .

[3] مكران : بالضم ثم السكون ، وراء وآخره نون أعجمية ، من أعمال السند ذات مدن وقرى كبيرة ، فتحها سنان سنان بن سلمة الهذلي في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وكان فاضلا فأتي الثغر و فتح مكران عنوة و مصّرها و أقام بها وضبط البلاد وقيل سميت مكران نسبة إلى مكران بن فارك بن سام ابن نوح عليه السلام .للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص180 والحميري ، المصدر السابق ، ص543 و القزويني ،المصدر السابق ، ص 273 .

[4] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 34 .

[5] كابل : من ثغور خراسان ، وقيل في بلاد الترك وهي مدينة جليلة المقدار حسنة البنية وبنبت في جبالها الزعفران ويتجهز به منها إلى ما جاورها من البلاد وهي من أحسن البلاد هواء وفيها مسلمون كثيرون ، ولها ربض في اليهود ، ولا يتم لأحد من ملوكهم ملك إلا بمدينة كابل ، وإن كان الوالي على بعد فلا بدّ من المسير إليها حتى تعقد له الشاهية بالملك . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 489.

ومن شمال بحر قزوين و بحر آرال شمالا إلى الخليج الفارسي و المحيط الهندي جنوبا[1].

حينما بلغت الدولة الخوارزمية كل هذا الاتساع صار محمد علاء الدين خوارزمشاه يحس بأن الوقت قد حان لتقوم دولته المقام الذي كان للسلاجقة والبويهيين من قبل ، فكما أرسل أبوه تكش إلى الخليفة الناصر بأن يهيأ له دار السلطنة ، وقد كان يعني ذلك إبعاد الخلفاء العباسيين إلى الزاوية من جديد والتحكم فيهم ، الأمر الذي رفضه الناصر جملة و تفصيلا و ذلك بأن خرب دار السلطنة ببغداد و سواها بالأرض في جواب واضح للخوارزميين بأن عصر التحكم بالخلفاء العباسيين قد انتهى[2] ، فقد أرسل محمد علاء الدين أيضا إلى الخليفة الناصر القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي يطالبه بذلك ويلح في الأمر فأبى وأنكر كل الإنكار وترددت الرسل في ذلك مرارا فلم يجبه الخليفة بشيء [3].

وقد عاد مجير الدين برفقة رسول الخليفة الناصر الشيخ شهاب الدين السهروردي[4] محاولا إقناعه بالعدول عن رأيه فيذكر النسوي أنّه سمع من مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي أنه لما دخل الشيخ شهاب الدين السهروردي على حضرة السلطان محمد خوارزم شاه " وقف قائما في صحن الدار ، ثم أذن له بالدخول . فلما

---

[1] عبد الرؤوف الفقي ، المرجع السابق ، ص 298 .

[2] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 357 .

[3] النسوي ، المصدر السابق ، ص 49 .

[4] شهاب الدين السهروردي : نسبه من قرية سهرورج بإقليم زنجان ، إرتحل إلى بغداد وقضى فيها معظم أيام حياته وتمتع بثقة الخليفة الناصر لدين الله ، كما أنه كان من كبار الصوفية في زمانه و ألف كتابا في التصوف أسماه " عوارف المعارف ، توفي سنة 632هـ/1234 م للإستزادة أنظر : النسوي ، المصدر السابق ، ص 50 ورضا زادة شفق ، **تاريخ الأدب الفارسي** ، ترجمة : محمد موسى هنداوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1947، ص 197 .

استقر المجلس بالشيخ قال : إن من سنة الداعي للدولة القاهرة أن يقدم على أداء الرسالة حديثا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم تيمنا وتبركا ، فأذن له السلطان في ذلك ، وجلس على ركبتيه تأدبا عند سماع الحديث ، فذكر الشيخ حديثا معناه التحذير من أذية آل عباس رضي الله عنهم . فلما فرغ الشيخ من رواية الحديث، قال السلطان : أنا وإن كنت تركيا قليل المعرفة باللغة العربية ، لكنني فهمت معنى ما ذكرته من الحديث ، غير أني ما آذيت أحدا من ولد عباس و لا قصدتهم بسوء ، وقد بلغني أن في محبس أمير المؤمنين منهم خلقا مخلدين ، يناسلون بها و يتوالدون فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع ، وأجدى وأنجع"[1]. وبالتالي فشلت سفارة الشيخ السهروردي في بلوغ الهدف المنوط بها .

ومن الجدير بالذكر بأن دوافع خوارزم شاه للإستيلاء على بغداد لم تكن تقتصر على دافع المجد والجاه الذي كان للسلاجقة فقط ، بل كان حقدا على الخليفة الناصر حيث وجد الخوارزميون عند استيلائهم على غزنة حاضرة الغوريين عدة رسائل من طرفه عليها ختمه تحرض الغوريين على التحالف مع الخطا والإستيلاء على أراضي الخوارزميين ، ووقف توسعاتهم وكان ذلك في أوائل عهد محمد علاء الدين خوارزمشاه حينما هاجمه الغوريون وأخذوا أملاكه في خراسان [2]. ولعل ذلك كان صحيحا فيصف السيوطي الخليفة الناصر بأنه: "كانت له حيلا لطيفة ، ومكائد غامضة ، وخدع لا يفطن لها أحد ، يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لا يشعرون ، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفطنون"[3] .

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 51-52 .

[2] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 140 .

[3] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 352 .

ولذلك جهز محمد علاء الدين خوارزم شاه حملة كبيرة سنة 614هـ قصد بها دار الخلافة ببغداد فخرج في جيش بلغ أكثر من مائة ألف فارس ، وكان سبب خروجه مقتل أغلمش وهو عامله على بلاد العراق العجمي بيد الشيعة الإسماعيلية[1] وذلك بتحريض من الخليفة العباسي الناصر[2] . وبهذا أضفى خوارزمشاه الصبغة الشرعية على غزوه بغداد من طرف أئمة البلاد ، فقد استطاع الحصول على فتوى مقتضاها أن الخليفة الذي يقدم على مثل هذه التصرفات يسقط حقه في الخلافة ، وأنه حين يحيك المؤامرات ضد سلطان يجاهد في إعلاء راية الإسلام ، فإن من حق هذا السلطان أن يعزله ، وينصب خليفة آخر في مكانه ، واستنادا إلى ذلك فقد أسقط خوارزمشاه الخليفة الناصر من الخطبة و عين رجلا علويا هو علاء الدين الترمذي خليفة للمسلمين [3]. و يذكر ابن الأثير بأن الخطبة قطعت للخليفة الناصر في مرو وبلخ وبخارى وسرخس ، وبقيت في خوارزم وسمرقند وهراة ، ويعلّل ابن الأثير بقاءها في هذه البلاد بأنّهم " إن أحبوا خطبوا ، و إن أرادوا قطعوا "[4]

في حين يؤكد بارتولد وحافظ بأن الخليفة الجديد خطب له على منابر الدولة الخوارزمية ، وصكّ اسمه على السّكة بعد أن قطع الخطبة للخليفة الناصر في أنحاء الدولة الخوارزمية ، وقد سُرّ الشيعة في بلاد فارس أيّما سرور بهذا النصر المبين الذي أحرزوه ، وظنّوا أن الوقت قد حان لقلب الخلافة السنيّة وإقامة خلافة علوية [5].

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 371 .

[2] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 47 .

[3] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 535 .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 372 .

[5] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 48 و بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص 534 .

في حين يرى بعض المؤرخين تحول خوارزمشاه إلى المذهب الشيعي إلا أنّ هذا الرأي الذي أورده المؤرخون الفرس حول تحول السلطان محمد إلى المذهب الشيعي ، يعتبر رأيا غريبا إذ أن الخوارزميين من الأتراك ، وهم من أشدّ الناس تمسكا بالمذهب السنّي[1].

ومن الجدير بالذكر أنه حينما قتل أغلمش عامل خوارزم على العراق العجمي استغل الأتابك "سعد بن دكلا" خلوّ بلاده من حاكم وأسرع ليمتلكها فوصل إلى أصفهان فأطاعه أهلها ، وسار منها إلى الري ولم يعلم بقدوم خوارزمشاه حتى ظهرت قواته فجأة أمامه فاستسلم له ، فأكرمه واستحلفه بالطاعة وأطلقه فخطب لخوارزمشاه على بلاده ، ثم سار إلى ساوة[2] فملكها وأقطعها إلى أحد أصحابه ، ثم سار إلى قزوين وزنجان[3] وأبهر[4] ، فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ، ثم سار إلى همذان ،

---

[1] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 143 .

[2] ساوة : مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط ، بينها وبين كل منهما ثلاثون فرسخا ، وبقربها مدينة يقال لها آوة ، فساوة سنيّة شافعية ، وآوة أهلها شيعية إمامية ، وبينهما نحو فرسخين ، ولا يزال يقع بينهما عصبية ، ومازالتا معمورتين إلى سنة 617هـ فجاءها المغول فخربوها وقتلوا كل من فيها ولم يتركوا أحدا البتة ، وأحرقوا ما كان بها من دار الكتب التي لم يكن في الدنيا أعظم منها . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 179 .

[3] زنجان : في خراسان بلد كبير مشهور تقع بين الجبال و أذربيجان ، وفي قريبة من أبهر وقزوين والعجم يقولون زنكان بالكاف ، والبلدة في غاية الطيب وأهلها أحسن الناس صورة وظرافة وبذلة ، بينها وبين همذان ثلاثة فراسخ ، فتحها البراء بن عازب الذي تولى الرّي سنة 24 هـ فغزا أبهر وفتحها ثم قزوين وملكها ثم انتقل إلى زنجان فافتتحها عنوة . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 294 والقزويني ، المصدر السابق ، ص 383 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 152-153 .

[4] أبهر : بلد ما بين قزوين وزنجان ، من قزوين إليها اثنا عشر فرسخا ومنها إلى زنجان خمسة عشر فرسخا ، كثيرة المياه والأشجار وهي في غاية النزاهة من طيب الهواء وكثرة البساتين ، وأهلها أحسن الناس صورة كلّهم من أهل السنّة ، وفيهم أدباء وفضلاء ولهم إجتماع الكلمة على دفع ظلم الولاة . للإستزادة ، أنظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 287-2888 و الحميري ،المصدر السابق ، ص 7 .

فملكها وأقطع البلاد لأصحابه ، وملك أصفهان وكذلك قم[1] وقاشان ، فدانت له جميع تلك البلاد ، أما بلاد أذربيجان وأران فكان عليها أوزبك بن البهلوان ، فاتّفق معه أن يخطب له في بلاده ويدخل في طاعته [2].

ثم عزم على المسير إلى بغداد فلما سار من همذان حالت الطبيعة دون نجاح محمد هذه المرة فأبادت العواصف الثلجية معظم جيشه ، وهلكت أكثر دوابهم ، أما من بقي منهم فتخطفتهم بنو هكار من الأكراد وبنو ترجم من الأتراك ، وهكذا لم يعد إلى خوارزم إلا القليل [3].

وبالرغم من فشل حملة خوارزمشاه في الإستيلاء على بغداد إلا أنه استطاع تثبيت أركان ملكه في المدن و الأقاليم التي عبرها ، وقد آثر العودة مسرعا إلى بلاده حينما جاءته أنباء المغول ذلك الخطر الجارف القادم من الشرق وبهذا لم ينعم خوارزمشاه بالثمرة التي ظل أكثر من عشرين سنة يغرسها [4].

ومن الأهميّة بمكان الإشارة إلى أن خوارزمشاه قد قسّم ممكلته المترامية الأطراف بين أولاده قبل خروجه للعراق فكان من نصيب ولده وولي عهده أزلاغ شاه [5] الأقاليم

قم : مدينة من كور الجبل وهي مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها ، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعري ، من همذان إليها خمس مراحل ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأهل ، عيلها سور حصين ، وبها الفواكه والأشجار ومياههم من الآبار ، والغالب على أهلها التشيع الإمامي ، وأكثر أهلها من العرب . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 472 وياقوت ، المصدر السابق ، ج4 ، ص397.[1]

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 371-372 .

[3] نفسه ، ج10 ، ص 372 .

[4] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 37 .

[5] كان أزلاغ شاه ولي عهد خوارزم شاه لأن أمه من أقارب تركان خاتون أم السلطان محمد خوارزمشاه وكان يداريها فجعل ولاية العهد لولده أزلاغ شاه ، إلا أنه تراجع عن قراره أواخر حياته فيذكر النسوي أنه حينما اشتد مرضه بالجزيرة و بلغه أن والدته قد أسرت أحضر جلال الدين و أخويه و أخبرهم بأن عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد هوت قواعدها و تهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وليس يأخذ ثأري منه إلا ولدي منكبرتي ، وها أنا موليه العهد ، فعليكما بطاعته . للإستزادة أنظر : النسوي ، المصدر السابق ، ص 25 .

الشمالية خراسان وخوارزم ومازندران ، أما ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي فكان من نصيبه الأقاليم الشرقية حيث مدينة غزنة وباميان والبلاد الغربية من نهر السند [1]، في حين كان الجزء الجنوبي من مملكته الذي يضم كرمان ومكران من نصيب ولده غياث الدين شير شاه ، أما الجزء الغربي وهو العراق العجمي فكان من نصيب ولده ركن الدين غورشاه [2].

المبحث الثاني: سقوط الدولة الخوارزمية

1-أسباب الحملة المغولية على الدولة الخوارزمية :

1-1/ المعاهدة التجارية بين المغول والدولة الخوارزمية :

لما سمع جنكيز خان بخبر كوجلك ابن ملك قبيلة النايمان الذي فرّ من بلاده والتحق بخدمة مملكة الخطا ثم انقلب عليهم ، آثر أن يتبعه وينهي أمره قبل أن يتقوّى بالقبائل التركية ويحاربه إنتقاما لمقتل والده ، وبذلك أرسل في هذه المهمة قائده سبوتاي الذي تمكن من دحر قواته ، إلا أن كوجلك قد فر كعادته من المعركة فأرسلت قوة خلفه لقتله ، وكانت هذه القوة بقيادة أكبر أبناء جنكيز خان جوجي وحين نجح بالقضاء على كوجلك و إرسال رأسه بالصدفة صادف في طريقه جيش السلطان خوارزم و كان حينئذ في نواحي سمرقند يتفقد أمور ممكلته ، فيروي النسوي أنه حينما التقى المغول والخوارزميون لأول مرة ، دارت بين جوجي و خوارزمشاه عدة رسائل فأوضح جوجي لخوارزمشاه بأنه هنا في مهمة محددة و قد طلب منه والده ألا يتعرض للعساكر السلطانية بسوء وألا يقاتلهم ، فكان رد خوارزمشاه بأنه إن لم يطلب منك جنكيز خان مقاتلتي فإنّ ربي أمرني بقتالك ووعد لي على قتالك الحسنى فلا

[1] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 145 .

[2] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 37 .

فرق عندي بينك وبين كوجلك لإشتراككم في الشرك [1]، ومهما يكن من أمر فقد بدأ القتال و كان جيش الخورازميين يقدر بستين ألف أما جيش المغول فكان يبلغ عشرين ألفا فقط ، ومع ذلك فقد دكت ميمنة المغول ميسرة الخوارزميين ، و في المقابل هزمت ميمنة الخوارزميين ميسرة المغول بفضل شجاعة جلال الدين منكبرتي الذين كان قائد ميمنة الجيش [2].

وحين حل الليل ترك المغول نار خيامهم ، وعادوا أدراجهم إلى بلادهم بدون أن يحس بهم الجيش الخوارزمي الذي عاد إلى خوارزم ، و قلب خوارزمشاه قد ملئ رعبا من المغول بعد هذه المعركة ، وكان ذلك من أسباب هزيمته فيما بعد [3].

بعد أن قضى المغول على كوجلك و مملكة الخطا صارت حدودهم ملاصقة لحدود الخوارزميين ، ومع تبني جنكيزخان سياسة توسعية كان لا بد من التصادم مع الدولة الخوارزمية التي انتهجت أيضا سياسة توسعية ضد الإمارات الإسلامية وغير الإسلامية [4].

على أن جنكيز خان حاول في البداية عقد علاقات تجارية مع السلطان الخوارزمي ، فأرسل له رسالة مع ثلاثة رجال مسلمين هم محمود الخوارزمي وعلي خواجة البخاري و يوسف كشكا الأتراري ، مفادها فتح الحدود بين الدولتين لإزدهار التجارة و تأمين القوافل التجارية ، وكان أن أرسل له رسالة مكتوبة جاء فيها " ليس يخفى عليّ عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطانك ، ولقد علمت بسطة ملكك ، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض ، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات ، وأنت عندي

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 48.

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 96 .

[3] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 37 .

[4] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 145 .

مثل أعز أولادي ، وغير خاف عليك أيضا أنني ملكت الصين و ما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لي قبائلهم . وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر ، ومعادن الفضة ، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها . فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمّت المنافع و شملت الفوائد"[1]

فاستشاط غضبا حينما وصفه كأعز أولاده ، ففي ذلك تصريح ضمني من جنكيزخان على أن خوارزمشاه تابع له وأن دولته تابعة للبلاط المغولي الأمر الذي جعل خوارزمشاه ينفرد بأحد الرسل وهو محمود الخوارزمي بوصفه أحد رعايا خوارزمشاه ، إذ أنّه ولد في خوارزم ويسأله عن أحوال المغول [2]. فوعده بالخير الجزيل ومنحه جوهرة نفيسة دليلا على الوفاء بما وعده ، وطلب إليه أن يكون عينه على جنكيزخان فوافقه رغبة و رهبة ، ثم قال له : أصدقني فيما يقول جنكيزخان بأنه ملك الصين ، واستولى على مدينة طمغاج . أصادق فيما يقول أم كاذب ؟ فقال : بل صادق ، ومثل هذا الأمر المعظم ليس يخفى حاله ، وعن قريب يتحقق السلطان ذلك [3]. فقال أنت تعرف ممالكي وبسطتها ، وعساكري وكثرتها . فمن هذا اللعين حتى يخاطبني بالولد ؟ ما مقدار ما معه من العساكر ؟ فلما شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ ، وتبدل لطف الكلام بالخصام ، أعرض عن النصح و مال إلى الإسترحام ، خلاصا من تأزم الموقف الذي كان فيه ، وقال : ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل ، أو دخان في جنح ليل [4].

---

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 83 .

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 100 .

[3] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 568 .

[4] النسوي ، المصدر السابق ، ص 84-85 .

وفي الواقع كانت هذه الرسالة أول صدمة حقيقة صدمت سياسة خوارزمشاه الخارجية فبعد أن كان مسموع الكلمة ، مهيب الجناح وكان صوته يجلجل ويدوي كالرعد بين أمراء المسلمين وحكامهم ، أصبح بين يوم وليلة هدفا لأطماع هذا الخان في أقصى الشرق ، فأهانه وأمعن في ذلك [1].

ومهما يكن من أمر فقد أمضيت اتفاقيّات تجارية بين الدولة الخوارزمية والمغول تسمح للتجار بالمرور الآمن بين الدولتين وقد قدم تجار من خوارزم إلى دولة المغول وحينما سمع جنكيز خان أرسل في طلبهم ليشترِ سلعهم فأغلى عليه التاجر الأوّل فزجره ونهبه أما الآخران فقالا حينما سألهما عن الثمن بأن كل ما يملكانه طوع أمر الخان فأجزل عليهما الذهب والفضة وعفا عن صاحبهما وأكرمهم جميعا . ويورد الجويني عبارة بالغة الأهمية حيث يذكر بأن المغول كانوا ينظرون إلى المسلمين آنذاك نظرة إعزاز وإحترام ولهذا عاملوهم معاملة طيبة ، وإكراما لهم وتيمّنا بهم فقد أعطوهم خياما جديدة طاهرة من اللباد الأبيض ليقيموا بها طوال فترة إقامتهم تمييزا لهم عن غيرهم [2]، غير أن المسلمين حرموا بعد ذلك من هذا التكريم حينما تكشفت عيوبهم [3].

وسيّرهم إلى الدولة الخوارزمية برفقة قافلة تجارية مغولية و أرسل معها رسالة إلى السلطان خوارزم شاه جاء فيها : " إن التجار وصلوا إلينا ، وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين . وقد سيرنا جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف ،

[1] الصياد ، المرجع السابق ، ص 100 و حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية و المغول ، ص 82 .

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 108 .

[3] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 566 .

فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين ، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين"[1] و يضيف الجويني عبارة "وسيقضى على الفساد و ينتهي العناد "[2] .

1-2 / مقتل التجار في أترار :

استمرت العلاقات الودية بين الدولتين إلى أن وصل من بلاد المغول تجار إلى مدينة أترار على الساحل الغربي لنهر سيحون ، وهي أول بلدة تقع في مناطق نفوذ خوارزمشاه ، وتأتي أهميتها على وجه الخصوص من الناحية التجارية، ويورد النسوي بأن التجار كانوا أربعة رجال فقط هم عمر خواجة الأتراري ، والجمال المراغي ، و فخر الدين الدنزكي البخاري ، وأمين الدين الهروي ، [3]، بينما يورد ابن العبري بأن عددهم هو مائة و خمسون تاجر من مسلم و نصراني و تركي[4] في حين يذكر الجويني أنهم بلغوا أربعمائة وخمسون شخصا[5].

وكان الحاكم على أترار في ذلك الوقت هو ينال خان الذي يراه النسوي ابن خال السلطان خوارزمشاه[6] بينما يرى السيوطي[7] و الديار بكري[8] بأنه خاله ، أما الجويني الجويني فيراه أحد أقارب والدة السلطان تركان خاتون[9] . وإن كان رأي النسوي هو الأقرب إلى الصواب لمدى قربه من دهاليز الحكم في الدولة الخوارزمية .

---

[1] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 400-401 .

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 108 .

[3] النسوي ، المصدر السابق ، ص 85 .

[4] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 400

[5] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 108 .

[6] النسوي ، المصدر السابق ، ص 85 .

[7] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 367 .

[8] الديار بكري (حسين بن محمد ت 966هـ) ، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس** ، مطبعة الفقير عثمان عبد الرازق ، ، ص 411 .

[9] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 108 .

ومهما يكن من أمر فإنه لما وصلت قافلة المغول التجارية إلى أترار ، أوجس منهم واليها خيفة و طمع في أموالهم في نفس الوقت ، فقد كانت قافلة كبيرة تحمل أموالا ضخمة ، فتحفظ عليها و أرسل إلى خوارزمشاه يطلعه بأمرهم ، ويخبره بأنهم ما قدموا للتجارة بل للتجسس واستطلاع قوة الدولة الخوارزمية ، فيصف النسوي حال حاكم أترار ينال خان بأنه قد "شرهت نفسه الدنية إلى أموال أولئك ، وكاتب السلطان مكاتبة خائن يقول : إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زيّ التجار ، وليسوا بتجار بل أصحاب أخبار ، يكشفون منها ما ليس من وظائفهم ، إذا خلوا بواحد من العوام يهددونه ويقولون : إنكم لفي غفلة مما وراءكم وسيأتيكم مالا قبل لكم به"[1].

عندما سمع خوارزمشاه بذلك أُسقط الأمر في يده و لم يدرِ ما يفعل ، إلا أنه أمره بالتحفظ عليهم ، ومراقبتهم حتى يرَ فيهم رأيه ، إلا أنّ "ينال خان" قبض عليهم وقتلهم دون علمه ، فما استطاع خوارزمشاه فعل شيء وقد سالت دماؤهم وجرى الأمر بما كان ، على الأقل كانت هذه نظرة النسوي الذي يبرّئ خوارزمشاه من مذبحة أترار[2] ، أما الجويني فيرى أنّه لمّا أرسل ينال خان رسولا إلى خوارزمشاه يعلمه بأمر هؤلاء الجواسيس الذين قدموا على شكل تجار أمره بقتلهم و نهب أموالهم دون تفكير أو رويّة[3] ، في حين يذهب ابن الأثير بأن خوارزمشاه لما سمع بوصولهم بوصولهم وما معهم من كثرة الأموال أرسل إلى حاكم أترار يأمره بقتلهم وإرسال ما معهم إليه ففرقه على تجار بخارى وسمرقند ، وأخذ ثمنه منهم[4].

---

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 85-86 .

[2] نفسه ، ص 86 .

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 109 .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 401 .

3-1 / مقتل رسل جنكيز خان :

حينما سمع جنكيز خان بما جرى للتجار استشاط غضبا إلا أنه أمسك جماح غضبه وأرسل له رسلا لإيجاد حل سلمي يمنع وقوع الحرب بين المغول والدولة الخوارزمية فأرسل جنكيزخان رسوله ابن كفرج بغرا ، وكان أبوه من أمراء السلطان تكش ، برفقة إثنين من رجال المغول في رسالة إلى خوارزمشاه قال فيها " إنك قد أعطيت خطك و يدك بالأمان للتجار وأن لا تتعرض إلى أحد منهم ، فغدرت و نكثت ، والغدر قبيح ومن سلطان الإسلام أقبح . فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل ، حقنا للدماء وتسكينا للدهماء ، وإلاّ فاذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح وتتعضد معها عوامل الرماح"[1].

ويورد ابن العبري قصة طريفة وهي أنه لما سمع جنكيز خان بما جرى للتجار المغول في أترار "عظم عليه ذلك و تأثر منه إلى الغاية و هجر النوم و صار يحدث نفسه و يفكر فيما يفعله ، وقيل أنه صعد إلى رأس تل عال وكشف رأسه و تضرع إلى الباري تعالى طالب نصره على من باداه بالظلم و بقي هناك ثلاثة أيام بلياليها صائما . وفي الليلة الثالثة رأى في منامه راهبا عليه السواد وبيده عكازة وهو قائم على بابه يقول له : لا تخف افعل ما شئت فانك مؤيد . فانتبه مذعورا ذعرا مشوبا بالفزع وعاد إلى منزله وحكى لزوجته وهي ابنة أونك خان .فقالت له هذا زيّ أسقف كان يتردّد على أبي ويدعو له ، ومجيئه إليك يدّل على انتقال السعادة إليك"[2].

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 87 .

[2] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 42 . ويعلق حافظ حمدي على هذه القصة بأن على ما فيها من طرافة إنما هي في الغالب من نسج خيال ابن العبري إذ أنه كان من كبار رجال الدين المسيحيين الذي عاصروا الغزو

ومهما يكن من أمر فإنه لما أرسل جنكيز خان رسله إلى خوارزمشاه يأمره بإرسال من قتل تجار المغول أحجم عن ذلك وقتل الرسل فقطع أي أمل في الحوار ولم يبق غير طريق الحرب [1].

والحقيقة أنه لم يكن من اليسير على محمد خوارزمشاه أن يسلم حاكم أترار إلى جنكيزخان ليجازيه على فعلته ، فقد كان يعني ذلك إظهار خوارزمشاه في صورة الضعيف العاجز الذي يسلم أمرائه إلى أعدائه [2]، فضلا عما كان يتمتع به حاكم أترار ينال خان من مكانة عظيمة في الجيش بالإضافة إلى أنه من أقارب والدة السلطان تركان خاتون ، ومن ثم فإن أية محاولة من خوارزمشاه لتسليم ينال خان كانت ستبوء بالفشل ، أو ربما حتى بالثورة عليه من قبل كبار أمراء الدولة [3].

وعلى هذا فضل خوارزمشاه مجابهة العدوّ المغولي ، والإستعداد لحربه فهيأ الجيوش وحصن المدن ، ولكن كل هذه الحيطة و الحذر لم تكن لتنجيه من القدر ، وإن مقتل التجار المغول الذي إعتبرهم جواسيس بالإضافة إلى مقتل الرسل الذين أرسلهم جنكيزخان ، قد دفع المسلمون ثمنه أضعافا مضاعفة فيقول الجويني "جرت بحار كثيرة من دمائهم عوضا عن كل قطرة أريقت منهم ، وصار قصاص كل شعرة واحدة من رؤوسهم مئات الألوف من الرؤوس صرعى مبعثرة على مفارق الطرق ودفع في مقابل كل دينار قنطار"[4] ويعلق النسوي على ذلك فيقول :" فيا لها من قتلة

=المغولي ، وربما يكون غرضه من وضع هذه القصة الإيحاء بميل المغول عامة وجنكيزخان خاصة للديانة المسيحية دون سواها .

[1] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 170 .

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 88 .

[3] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 87 .

[4] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 109 .

هدرت من دماء الإسلام ، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام ، فاستوفى عن الغيظ فيضا ، وأخلى بكل شخص أرضا"[1].

2-سقوط الدولة الخوارزمية

2-1 / سقوط أترار و بخارى و سمرقند :

حينما عزم جنكيزخان على حرب خوارزمشاه كان هذا الأخير قد بدأ يصيبه التردد والجزع والندم بما فعل بأصحاب جنكيزخان فالجواسيس الذين أرسلهم إلى المغول قد عادوا بأخبار أقلقت خوارزمشاه خاصة حينما علم بأن عددهم يخرج عن الإحصاء ، وبأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون الهزيمة ، وعند ذلك أحضر الفقيه الشهاب الحيوفي ليشاوره في الأمر ، فأشار عليه بمكاتبه الأطراف وجمع العساكر وإعلان النفير العام للمسلمين ، والتوجه إلى نهر سيحون لمقابلة العدو هناك ، أما كبار أمراء الدولة فقد أشاروا بتركهم يعبرون نهر سيحون ، "فيسلكون الجبال والمضائق التي يجهلونها و نعرفها ، فنقوى حينئذ و نهلكهم فلا ينجو منهم أحد"[2].

أودع خوارزمشاه في كل مدينة من مدن ما وراء النهر مجموعة من العساكر الخوارزمية فترك في أترار عشرين ألف فارسا ، أما بخارى فكان عليها أينانج خان في ثلاثين ألف فارس ، في حين ترك في سمرقند خمسين ألف فارس[3] وفي شهركنت عشرة آلاف فارس . ويرى النسوي الخطأ الفادح الذي ارتكبه خوارزمشاه عندما فرّق

---

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 88 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 402 .

[3] النسوي ، المصدر السابق ، ص 90 .

عسكره في كل مدينة على حده [1]، الأمر الذي سهل من مهمّة المغول فبدأوا في حصار المدن وأخذها الواحدة تلو الأخرى [2].

قسم جنكيزخان جيشه إلى أربعة جيوش فالجيش الأول كان بقيادة ولده أوكداي ويبلغ سبعين ألف جندي وكانت مهمة هذا الجيش هي محاصرة مدينة أترار والاستيلاء عليها في حين كان الجيش الثاني الذي عهد به إلى جوجي الإبن الأكبر لجنكيزخان تقتصر مهمته في الإستيلاء على المدن التي تقع على ساحل نهر جيحون وبالخصوص مدينة جند إحدى الحصون الإسلامية الهامة التي تقع على هذا النهر[3]. أما الجيش الثالث فقد كان عبارة عن فرقة صغيرة مكونة من خمسة آلاف جندي مهمتهم فتح مدينة بناكت و خجند على نهر سيحون[4] أما الجيش الرابع فكان الجيش الرئيسي المكون من أغلب قوات المغول وعلى رأسه جنكيزخان مع ولده الأصغر تولوي وكان هذا الجيش يزحف إلى إقليم ما وراء النهر بداية بمدينة بخارى [5].

وبهذا فقد كانت خطة جنكيزخان تعتمد على مهاجمة المدن الخوارزمية دفعة واحدة وقطع الإمدادات والاتصالات عن بعضها البعض ، بينما توجه بنفسه إلى قلب بلاد ما وراء النهر بخارى وسمرقند لكي يمنع أي نجدة قد تصل من خوارزمشاه إلى هذه المدن .

لقد كان الهجوم المغولي على العالم الإسلامي بداية بالدولة الخوارزمية أمرا مروعا للغاية فيصف ابن الأثير ذلك بحسرة ومرارة فيقول" لقد بقيت عدة سنين

---

[1] أنظر الملحق رقم 06 ، ص 335 .

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 90 .

[3] الصياد ، المرجع السابق ، ص 112 .

[4] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 138 .

[5] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 173 .

معرضا عن ذكر هذه الحادثة إستعظاما لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلا و أؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام و المسلمين ، و من الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني و يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسيا منسيا ، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا ، فنقول هذا الفعل الذي يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يدانيها"[1].

يتضح من هذا الوصف لابن الأثير الذي عاصر تلك الأحداث وسمع ممن عاشها مدى القسوة والهمجية التي لحقت بالمسلمين الذين كانوا يعيشون في أحضان الدولة الخوارزمية، أما السيوطي فقد عبر عن هذه المأساة بقوله "هو حديث ياكل الأحاديث ، وخبر يطوي الأخبار ، وتاريخ ينسي التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض و تملؤها ما بين الطول والعرض "[2].

أ)- سقوط أترار :

كانت أترار أول المدن سقوطا في يد المغول فهي تعتبر مفتاح بلاد ما وراء النهر ، بالإضافة إلى أنها المدينة التي قتل فيها تجار جنكيزخان ، ومن ثم فمن المنطقي أن يبدأ المغول هجومهم بها ، فوصلوها في خريف سنة 616هـ ، وقد عهد جنكيزخان بحصارها لولديه اوكداي و جغتاي ،[3] وقد دام حصارها حوالي خمسة

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 399 .

[2] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 366 .

[3] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 402 .

أشهر كاملة ، ويرجع سبب صمودها إلى التحصين الجيد لها ، فيذكر الجويني بأن ينال خان قد أتم بناء الإستحكامات اللازمة للقلعة وأسوار المدينة ، وجمع الكثير من آلات الحرب و معداتها ، بينما اتخذ داخل المدينة كل الوسائل اللازمة للحرب و النزال ، وعين الجنود والخيالة على البوابات ، ثم ارتقى بنفسه أعلى السور يترقب وصول المغول [1].

بعد مرور خمسة أشهر من القتال المستمر بين المدينة المحاصرة و المغول عبر الأسوار ضاقت السبل على أهل المدينة الذين أرادوا تسليمها إلا أن ينال خان عارض فكرة الإستسلام لعلمه أن المغول لا يبقون عليه لأنه قاتل تجارهم [2].

ومهما يكن من أمر فلم يستطع ينال خان أن يمنع العساكر و أهل المدينة من التسليم للمغول ، فخرجوا إليهم خلسة على ينال خان طالبين للأمان من المغول ، وبعد ان استجوب المغول قائد الحامية العسكرية التي استسلمت ، هموا بقتله ، قائلين له : "إنك لم توف حق مخدومك مع ما له من حقوق ثابتة عليك ، لهذا فإننا لا يمكن أن نطمئن إليك في اتحادك معنا فقتلوه هو ورفاقه[3]".

وحينما فتحت المدينة أبوابها تقهقر ينال خان إلى قلعته و احتمى بها شهرا كاملا يقاوم المغول ، عبر الأسوار والنوافذ ، بالسهام والحراب و حتى الحجارة ، وبدأ بفقد رجاله وعساكره رويدا رويدا ، حتى لم يبق معه غير رجلان إثنان قتلهما المغول حينما نجحوا في دخول القلعة [4].

---

[1] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 112 .

[2] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 402 .

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 113 .

[4] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية و المغول ، ص 139 .

ومع ذلك ظل ينال خان يقاتل المغول وحده " كالأسد "[1] على حد تعبير الجويني ، فعندما نفذت سهامه صار يلقي عليهم بالحجارة ، حتى قبض عليه المغول حيا لرغبة جنكيز خان في ذلك .

وعندما قبض عليه أرسلوه إلى جنكيز خان الذي كان في ذلك الوقت يحاصر سمرقند فأمر بتعذيبه عبر سبك الفضة و قلبها في أذنيه و عينيه ، ويعلق النسوي على موته بأنه " قتل تعذيبا ، جزاء عن فعله الفظيع ، وخطبه الشنيع ، وسعيه المذموم عند الجميع "[2]

أما أهل المدينة فيروي الجوزجاني أنهم قد قتلوا جميعا[3] ، في حين يذكر الجويني أن السيوف حصدت كثير منهم أما من بقي من أهل الحرف والصنائع فقد حملوهم وتوجهوا بهم إلى سمرقند لإلحاق بعضهم بالجيش الأمامي ، والآخرين لممارسة حرفهم قصد الإستفادة منهم [4].

ب)- سقوط مدينة بخارى

تعد مدينة بخارى [5] من أهم المدن الواقعة في بلاد ما وراء النهر وقد كانت تنافس سمرقند في مكانتها و أسوارها و حدائقها ، ومن ثم فقد توجه إليها جنكيز

---

[1] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 113 .

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 91 .

[3] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 469 .

[4] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 114 .

[5] بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر و أجلّها ، بينها وبين جيحون مسيرة يومان ، وهي مدينة كثيرة البساتين متنوعة الفواكه ، خضرة نظرة ، فتحها المسلمون أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان على يد القائد الفذ قتيبة بن مسلم الباهلي ، سنة 87هـ/705 م و تعاقب عليها عدة دول إلى أن آلت إلى حكم الخوارزميين الذين إجتاحهم المغول و أخذوها منهم .للإستزادة انظر : ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 355 و النرشخي (أبوبكر محمد بن جعفر ت348)، **تاريخ بخارى** ، تحقيق ، أمين بدوي و نصرالله الطيرازي ، ط3 ، دار المعارف ، مصر ،1965، ص21 و ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 398 .

خان بنفسه سنة 616 هـ /1219 م على رأس جيش عرمرم كأمواج البلاء انثالوا على المدينة وأطبقوا عليها الحصار ، وكان خوارزمشاه قد ترك على المدينة الأمير اختيار الدين كشكي أمير آخور[1]، وأغل حاجب الملقب باينانج خان في ثلاثين ألفا من العساكر الخوارزمية [2]، أما ابن الأثير فيذكر بأنه ترك عشرين ألف فارس فقط لحمايتها[3] ، ويوافقه على ذلك الجويني و يذكر بأنهم عشرون ألف بقيادة كوك خان الذي يقولون عنه أنه كان مغوليا هرب من جنكيزخان وانضم إلى خوارزمشاه [4]، في حين يرجح بارتولد أنه من الجائز أن يكون هذا الشخص هو جاموقا Jamuqa غريم جنكيز خان المشهور الذي اتخذ في واقع الأمر لقب كور خان على الرغم من أن الرواية المغولية تذكر أنه قتل بمنغوليا [5].

ومهما يكن من أمر فإن المدينة لم تصمد في وجه المغول سوى ثلاثة أيام فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوّة [6]، فلما تحققوا من عجزهم عن مقاومة المغول خرجوا من من الحصار بعد غروب الشمس فأدركهم المحافظون من عسكر المغول على نهر جيحون فأوقعوا فيهم و قتلوهم كافة و لم يبقوا لهم أثرا . فلما فارق المقاتلون المدينة لم يبق لأهلها من حيلة إلا التسليم للمغول[7]. ويذكر النسوي بأن الجيش الخوارزمي الذي كان في بخارى قد خرج لمقاتلة المغول وقاتلوهم بشراسة ، فلما رأوا بأسهم

---

[1] أمير آخور : هو المشرف على الإسطبلات السلطانية و ما فيها من الخيل و البغال والجمال و غيرها مما هو داخل في حكم الاسطبلات ، ويكون في الغالب مقدم ألف و يسكن في اصطبل السلطان ، للإستزادة أنظر : القائمقام عبد الرحمان زكي ، السلاح في الإسلام ، دار المعارف ، مصر ، 1951 ، ص 11 .

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 90 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 403 .

[4] يذكر الجويني هذه الرواية و يعهد بها إلى الراوي دون تصديقها أو تفنيدها للإستزادة انظر: الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 128 .

[5] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 583 .

[6] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 404 .

[7] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 407 .

إنهزموا من أمامهم ، وفتحوا لهم طريق انهزامهم ، ولولا أنّهم كرّوا عليهم حملة أخرى لاستمرت الهزيمة بهم ، غير أنّهم اكتفوا بالنجاة والهرب ، فلما علم المغول ذلك ، جدّوا في طلبهم ، وقتلوا معظمهم فلم ينجوا إلا اينانج خان في شرذمة قليلة [1].

وعندما أصبحت بخارى خاوية من العساكر ضعفت نفوس أهلها وآثروا التسليم، فأرسلوا القاضي بدر الدين قاضي خان ليطلب الأمان للناس فأعطوهم الأمان ، وكان قد بقي قليل من العسكر معتصمين بالقلعة لم يتسنّ لهم الهرب ، فلما دخل المغول بخارى في ذي الحجة من سنة 616هـ طلبوا من الناس بأن يطمّوا الخندق الذي حول القلعة و يساعدوهم في اقتحامها ففعلوا ذلك ، وقد صمدت القلعة اثني عشر يوما في وجه المغول ، وقد كان فيها أربعمائة فارس كبّدوا المغول خسائر كبيرة واستبسلوا في القتال حتى قتلوا عن آخرهم [2].

وبعد ذلك دخل جنكيزخان المدينة دخول الفاتح ووقف أمام المسجد الجامع وسأل : أهذه دار السلطان ؟ فقالوا له: بل هي بيت الرحمان ، فنزل عن جواده وصعد إلى المنبر وقال : إن الصحراء خالية من العلف فليطعموا الجياد ففتحوا المخازن التي كانت موجودة بالمدينة و أخرجوا ما بها من غلات ثم أحضروا صناديق المصاحف إلى وسط صحن المسجد حيث تقاذفتها الأيدي والأقدام ، وجعلوا من صناديقها إصطبلا للخيول وأخذوا يشربون الخمر واحضروا المغنيات ورقصوا على أنغامهن في وسط المسجد ، بينما كان الأئمة والمشائخ يقومون بحراسة جيادهم ، وصارت مصاحف القران موطئا للنعال ، ويروي الجويني أن الأمير الإمام جلال الدين علي بن الحسن الرندي عندما رأى هذا المشهد أعرب عن دهشته و أسفه لركن الدين إمام

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 101 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 405 .

زاده[1] أحد علماء مدينة بخارى ، الذي قال له " إنها رياح الاستغناء عن الله التي تهب ، إننا لا قدرة لنا على الكلام [2]" غير أن ابن الأثير يذكر رواية مناقضة لهذا تماما ، فيذكر أنه لما سلمت بخارى غدر المغول بأهلها و قتل خلقا كثيرا ، وكان يوما عظيما من كثرة بكاء الرجال والنساء والولدان ، فتفرقوا سبيا وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء وارتكبوا منهم العظيم ، والناس ينظرون فمنعهم من لم يرض بذلك واختار الموت فقاتل حتى قتل ، وكان منهم الفقيه ركن الدين إمام زادة وولده فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا ، وكان إلى جانبهم أيضا القاضي صدر الدين خان . ثم ألقوا النار بالبلد فاحترقت بخارى ، وأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس [3]. ويختصر أحد الناجين من مذبحة بخارى ذلك بقوله "أتوا فخربوا ، وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا "[4]

ب)- سقوط سمرقند :

أما المدينة الثانية فقد كانت سمرقند [5] التي وصلوها في محرم سنة 617هـ/1220م، والتي جرى عليها ما جرى على أختها من قتل الرجال واغتصاب

---

[1] ركن الدين إمام زاده : محمد بن أبي بكر بن المفتي بن إبراهيم الواعظ المعروف بإمام زاده ، مفتي أهل بخارى أصله من قرية يقال لها جرغ ، إمام فاضل وفقيه واعظ وأديب شاعر ورع حسن السيرة من أهل الخير والدين للإستزادة أنظر : ابن سالم بن أبي الوفاء الحنفي (ت775هـ) ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، ط2، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، دار هجر ، الرياض ، 1993 ، ج3 ، ص 103

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 129 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 404 .

[4] Vambery Arminius , History Of Bokhara , Cornhill & paternoster row , London , 1873 , p 130 .

[5] سمرقند : مدينة مشهورة في بلاد ما وراء النهر ، لها من حسن ماءها و جمال أرضها حتى قيل أنه لا يوجد في الأرض مدينة أطيب و لا أحسن منها ، كانت تابعة للدولة الخوارزمية أيام الهجوم المغولي الأول على العالم الإسلامي ، للإستزادة انظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 536 و ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص406.

النساء وقتل الأطفال و لعل ابن الأثير يأخذنا إلى تلك المجازر بوصفه " فعلوا بها مثل ما فعلوا بأهل بخارى من النهب و القتل والسبي والفساد ، ودخلوا البلد ونهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع ، وإفتضوا الأبكار ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب وقتلوا كل من لا يصلح للسبي "[1].

ويذكر الجويني بأنه – أي جنكيزخان– لم يشف صدره الإنتقام منهم والتشفي فيهم أو إسالة دمائهم أنهارا بل لقد أدخل السرور على نفسه بالقتل و الإغارة[2] ، لكنه يناقض نفسه ويناقض الوقائع فيما بعد حين يقول بأنه لم يبالغ أو يفرط في قتلهم[3].

2-2 / سقوط باقي المدن :

لما بلغ سقوط هذه المدن الكبرى في بلاد ما وراء النهر إلى مسامع خوارزمشاه خار عزمه و وهنت قواه ، وآثر الهرب و النجاة بنفسه ، وصادف ذلك أن جنكيزخان لما استولى على مدينة سمرقند أرسل عشرين ألفا من المغول مهمتهم طلب خوارزمشاه قائلا لهم " اطلبوه أين كان ، ولو تعلق بالسماء " وسمى ابن الأثير هذه الطائفة بالمغول المغاربة أي الذين ساروا اتجاه الغرب[4]. في حين يذكر ابن العبري والنسوي بأن هذا الجيش بلغت قواه العددية ثلاثين ألفا بقيادة تشيبي وسبوتاي نوين[5].

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، مج 10 ، ص 406 .

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 122 .

[3] ربما ذكر الجويني ذلك لأنه كان يعيش تحت سلطة المغول فقد كان مستشار هولاكو خان حفيد جنكيز و بذلك قد حاول إخفاء الحقيقة خشية على نفسه أو مداهنة لأسياده .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 406 .

[5] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 408-409 و النسوي ، المصدر السابق ، ص 102 .

وأثناء هروبه عقد خوارزمشاه مجلسا من وزرائه و كبار قواده للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لمواجهة الموقف ، وقد أفضت التشاور إلى رأيين أحدها يرى بأنه لا مجال للدفاع عن بلاد ما وراء النهر و التركيز على حماية الأقاليم الواقعة غرب نهر جيحون أما الرأي الآخر فهو المسير إلى غزنة و تجميع الجيوش لدحر المغول فإذا انهزمت القوات الخوارزمية تمكنوا من الإنسحاب إلى بلاد الهند . وقد اختار خوارزمشاه الرأي الأخير ثم عدل عنه إلى المسير إلى العراق العجمي بعد أن أقنعه الوزير عماد الملك بذلك .

اتجه خوارزمشاه تلقاء نيسابور ، وبعد أن اقترب منها المغول هرب منها إلى العراق العجمي فاستولى عليها المغول ، ويجدر بالذكر أن هذه الفرقة من المغول كانت تستولي على المدن في طريقها ، فيطلبون منهم التسليم و يتوعدون من يرفض الإذعان لهم ، فإذا خضعت مدينة ما ، عين المغول عليها حاكما من قبلهم . ويلاحظ أنهم أخضعوا المدن الصغيرة التي أبت التسليم و خربوها ، أما المدن الكبيرة المحصنة التي رفضت الإستسلام فإنهم تركوها إلى حين ، إذ أن مهمتهم الأصلية كانت القبض على خوارزمشاه [1].

ومن نيسابور اجتاز خوارزمشاه الطريق إلى بسطام[2] حيث وقع اختياره على أحد خدمه المقربين الموثوق بهم يدعى تاج الدين عمر البسطامي فسلمه عشرة صناديق مملوءة بالجواهر و النفائس و أمره بحفظها في قلعة أردهن ، إلا أن هذه النفائس وقعت كلها في أيدي المغول ، ثم غادر خوارزمشاه بسطام إلى الري و منها إلى قلعة

[1] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 150 .

[2] بسطام : من عمل قومس مدينة حسنة عليها سور تراب وبها أسواق عامرة وجبايات قائمة ، للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 114 .

فرزين[1] ، وكان المغول وراء أثره و في طريقهم استولوا على الري ، وكان لسقوطها وقع أليم على نفوس الخوارزميين [2].

ثم توجه خوارزمشاه إلى إحدى قرى مازندران فلما وصلها المغول ملكوها فركب البحر إلى إحدى الجزر الواقعة في بحر قزوين ، وقد بلغ من شدة حرص المغول على القبض عليه أن ألقى العديد منهم أنفسهم في البحر يريدون اللحاق به فلقوا حتفهم غرقا ، ويصف النسوي الحالة التي وصل إليها خوارزمشاه على لسان أحد مماليكه الذي كانوا معه في المركب "كنا نسوق المركب و بالسلطان من علة ذات الجنب ما آيسه من الحياة وهو يظهر الاكتئاب ضجرا و يقول : لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر . فما الدنيا لساكنها بدار ، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار ما هي إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب فاعتبروا يا أولي الألباب"[3] .

3-2 / أسباب سقوط الخوارزميين ووفاة خوارزم شاه :

وترجع أسباب هذا السقوط السريع للدولة الخوازرمية إلى خلو البلاد من مانع فيذكر ابن الأثير بأن " خوارزمشاه كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها ، وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها"[4] فلما هزمه المغول لم يبق في البلاد من يمنعهم ، ويؤيد هذا القول السيوطي أيضا فقد روى عن سبط ابن الجوزي قوله :

---

[1] فرزين: من نواحي خراسان بين همذان و أصبهان ، للإستزادة أنظر: ياقوت ، المصدر السابق،ج4،ص 249.

[2] الصياد ، المرجع السابق ، ص 120-121 .

[3] النسوي ، المصدر السابق ، ص 106-107 .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 401 .

"وكان خوارزم شاه قد أباد الملوك من مدن خراسان ، فلم تجد التتار أحدا في وجههم ، فطاروا في البلاد قتلا و سبيا"[1]

ويؤكد الديار بكري ذلك فيروي أن والدة خوارزمشاه تركان خاتون حينما همت بمغادرة خوارزم عمدت إلى من كان محبوسا بها من الملوك وكانوا عشرين ملكا ممن قد أخذ خوارزمشاه بلادهم و أسرهم ، فأمرت بقتلهم [2].

ويذكر النسوي أنهم كانوا زهاء اثنى عشر نفس مثل "ابني السلطان طغرل السلجوقي ، وعماد الدين صاحب بلخ ، وابنه الملك بهرام شاه صاحب ترمذ ، وعلاء الدين صاحب باميان ، جمال الدين عمر صاحب وخش ، وابني صاحب سقتاق من بلاد الترك ، وبرهان الدين محمد صدر جهان ، وأخيه افتخار جهان ، وابنيه ملك الإسلام و عزيز الإسلام و غيرهم" [3].

وقد أنكر النسوي هذا الفعل بشدة بالرغم من أنه قد بدر من فعل أم خوارزمشاه ، وعلّق على ذلك بقوله " وقدمت عند خروجها من نقيض البر ، ما أرخ الزمان بسوء الذكر ، وترك سبة خالدة على وجه الدهر"[4].

أما الجوزجاني فيرى بأن السبب الرئيسي في هزيمة خوارزمشاه يتمثل في الفسيفساء التي تكون منها جيشه فكان منهم التركي والغوري والخراساني وحتى من الخطا الذين حاولوا التآمر عليه و قتله وتسليم رأسه لجنكيزخان فيكون هذا الغدر سببا في خلاصهم ، وقد علم أحد مقربيه بالأمر ، فأخرجه من خيمته ليلا ، وفعلا أتى بعض الجنود وأمطروا الخيمة بالسهام ، ثم اشتبك الجيش كله ، وفرّ خوارزمشاه

[1] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 368 .
[2] الديار بكري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 411 .
[3] النسوي ، المصدر السابق ، ص 94 .
[4] نفسه ، ص 94 .

مهزوما إلى نيسابور ، وعمت الفتنة في جميع ممالكه ، وعندما لحقه المغول بنيسابور ، هرب إلى مازندران ثم ركب بحر الخزر ، وتوفي في جزيرة في وسطه إلا أن ولده جلال الدين حمله إلى خوارزم و دفنه بجوار قبر أبيه تكش [1].

أما النسوي فيروي بأنه لما وصل خوارزمشاه إلى الجزيرة أحس بالأمان وتنفس الصعداء وقد سر بذلك سرورا تاما ، بالرغم من أنه "أقام بها طريدا شريدا ، لا يملك طارفا ولا تليدا"[2] والمرض يزداد عليه ، فلم يلبث فيها طويلا حتى توفي بها ، وحينما دفن لم يجد حتى كفنا ، فكفنه أحد مقربيه ويدعى شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش بقميصه ودفن بالجزيرة سنة 617هـ – وهو الأصح لأن النسوي كان مرافقا لجلال الدين منكبرتي وكاتب سيرته – ، بالإضافة إلى ان النسوي قد رثاه بأبيات من الشعر جاء فيها :

أذل الملوك وصاد القروم وصير كل عزيز ذليلا

وحف الملوك به خاضعين وزفوا إليه رعيلا رعيلا

فلما تمكن من أمره وصارت له الأرض إلا قليلا

وأوهمه العز أن الزمان إذا رامه ارتد عنه كليلا

أتته المنية مغتاظة وسلت عليه حساما صقيلا

فلم تغن عنه حماة الرجال ولم يجد قيل عليه فتيلا

كذلك يفعل بالشامتين ويفنيهم الدهر جيلا فجيلا[3] .

---

[1] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 470–471 .

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 107 .

[3] نفسه ، ص 108 .

المبحث الثالث : مقاومة جلال الدين منكبرتي وعلاقته بالشيعة الإسماعيلية

1-مقاومة جلال الدين منكبرتي :

ورث جلال الدين منكبرتي عن والده مملكة مثقلة بالمشاكل داخليا وخارجيا ، فمن الداخل كانت ممالك أبيه شبه مفكّكة تقريبا ، فكل أمير صار يأتمر بنفسه ويتماشى مع مصلحته الخاصة التي يستطيع بها درءَ المغول عن مدينته ، بل تعدّى التفكك والتناحر بين الأمراء إلى داخل البيت الخوارزمي نفسه ، فقد حرض أخوال أزلاغ شاه ضد أخيه وأخبروه بأنه الأحق بالحكم منه ، وأنكروا عليه رضاه بالخلع وكفره بالنعمة ، فقد كان أخوال هذا الأخير من أسرة جدته تركان خاتون ، وكان جل أمراء الدولة الخوارزمية من نسل هذه القبيلة مثلما هو الحال بالنسبة إلى ينال خان حاكم مدينة أترار ، ولذلك نجحوا في التآمر على جلال الدين في خوارزم ، الأمر الذي أدّى إلى خروجه من هذه المدينة رفقة أتباعه المخلصين والتوجه صوب خراسان [1] .

أما على الصعيد الخارجي فقد كانت سياسة أبيه عدائية ضد جيرانه نظرا لأنها كانت سياسة تقوم على التوسع و بسط النفوذ وبالتالي لم يجد حلفاء يقدمون له المساعدة و الدعم في المصيبة التي ألمت بها عشية الغزو المغولي [2].

لما علم جنكيز خان بعودة أبناء محمد خوارزمشاه إلى خوارزم أرسل ولديه اوكداي وجغتاي في جيش كبير من المغول للإستيلاء على المدينة ، وحين وصل إليها كان أولاد خوارزمشاه قد خرجوا منها جميعا ، لكن المغول حاصروها ولم يغادروا حتى

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 122 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 410 .

استولوا عليها عنوة و أمعنوا في القتل والنهب والسلب على عادتهم[1] ، بل أشد من ذلك لأن أهل مدينة خوارزم قاوموا المغول مقاومة شديدة أعيت الجيش الذي كان على رأسه أوكداي و جغتاي ، فأرسلوا يطلبون المدد، من جنكيزخان ، فأمر الجيش الذي كان يقوده جوجي بالمسير إليهما ، فلما وصل إليها تعززت قواتهما فاستولوا على جانب من المدينة فاجتمع أهل البلد على قتالهم لكن ذلك استعصى عليهم فملك المغول المدينة بعد جهد كبير ثم فتحوا ماء جيحون عليها انتقاما من أهلها ، فأصبحت كما وصفها ابن الأثير " خرابا يبابا"[2]

أما أولاد خوارزمشاه فقد أخذوا يتبعون أثر أخيهم جلال الدين الذي حينما توجه إلى خراسان ، وبالضبط إلى ضواحي مدينة نسا وجد فيها حامية صغيرة من المغول فنشب القتال بينهم وبينه حتى انجلت المعركة عن انهزام المغول الذين قتلوا عن آخرهم "فكان أول سيف في الإسلام خضب بدمائهم"[3]. إلا أن المغول قتلوا أخويه أزلاغ شاه وآق شاه في أستوا[4] بلد خوشان ، وكان يحاولان اللحاق بأخيهما للانتصار به على المغول ، وحينما قتلا حرز رأسيهما و حملا على أسنة الرماح وأخذ المغول يدورون بهما في البلاد [5].

على أن جلال الدين منكبرتي لما وصل إلى نيسابور أخذ يكاتب الأمراء و أصحاب الأطراف والمتغلبين من الحكام في الأقاليم ، يدعوهم إلى النصرة والجهاد ، ويعدهم إن لبو نداءه بتقريرهم في مناصبهم والزيادة لهم ، فوافقه أكثرهم ورغبوا إليه ،

---

[1] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 150-151 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 422 .

[3] النسوي ، المصدر السابق ، ص 127 .

[4] أستوا : كورة من نواحي نيسابور تشتمل على العديد من القرى ، وحدودها متصلة بحدود نسا ، خرج منها العديد من العلماء والفقهاء والأدباء . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 175 .

[5] النسوي ، المصدر السابق ، ص 130 .

وقد لبث في نيسابور شهرا كاملا ، فلما سمع المغول بخبره ، أسرعوا إليه ، فتركها و يمم تلقاء القلعة القاهرة ، وهي التي بناها مؤيد الدين صاحب كرمان بزوزن[1] ، إلا أن أحد أصحابه نهاه عن التحصن في القلاع ، فتوجه إلى غزنة و اجتمع حوله ستون ألف جندي [2].

ولما سمع المغول بذلك توجهوا إليه بجيوشهم وكانوا قد فرغوا من الاستيلاء على خراسان ، فلما وصلوا إلى نواحي غزنة خرج إليهم جلال الدين منكبرتي في عساكره والتقوا في موضع يقال له بلق ، فاقتتلوا مدة ثلاثة أيام ، حتى نصره الله ، وانهزم المغول من أمامه وعادوا إلى ملكهم بالطالقان ، وحينما شعر جلال الدين بأنه يقوى على هزيمة جيوش المغول ، أرسل رسولا إلى جنكيزخان يطلب منه تحديد مكان الحرب بينهما ، فجهز جنكيزخان جيوشا كثيرة يرأسها أولاده وسيّرهم إليه فوصل جيش المغول إلى كابل ، فأقبل إليه جيش جلال الدين منكبرتي ، فجرى قتال عظيم انهزم فيه المغول للمرة الثانية ، فقتل منهم خلق كثير ، وغنم المسلمون غنائم عظيمة إلا أن هذه الغنائم تسببت في اختلاف المسلمين و تفرقهم بعد ذلك فضعفت شوكة جلال الدين منكبرتي[3].

استغل جنكيزخان هذه الفرصة ، وأرسل جيوش المغول تطلب جلال الدين فقاوهم في البداية إلا أنهم انتصروا عليه لتفرق جنده عنه بسبب الاختلاف الذي قام حول الغنائم سابقا ، وفرّ جلال الدين إلى الهند واستولى المغول على عاصمته غزنة

[1] زوزن : كورة واسعة بين نيسابور وهراة وتعد امتداد لإقليم نيسابور ، وكانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة ما أخرجت من الفضلاء وأهل العلم . للإستزادة أنظر : ياقوت المصدر السابق ، ج3 ، ص 158 .

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 133-134 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 423 .

فأعملوا فيها السيف فقتلوا و سبوا و أحرقوا حتى صارت غزنة عاصمة الغوريين قبل ذلك كأنها لم تغنَ بالأمس[1] .

ومع أن بلاد الهند أصبحت الآن هي المأوى لجلال الدين ورجاله ، إلا أن الخوارزميين لم يراعوا حرمة البلاد ، وصارت هناك خلافات بينهم و بين كثير من أمراء المنطقة الهندية ، فقرر جلال الدين خوارزمشاه ضرورة ترك بلاد الهند بما بها من مشاكل والتوجه إلى العراق العجمي لاستعادتها من أخيه غياث الدين بيرشاه، وترك جهان بهلوان أزبك الملقب بوفاء الملك نائبا عنه في بلاد الهند [2].

اتجه جلال الدين خوارزمشاه سنة 621هـ/1224م إلى كرمان وكان عليها براق الحاجب ينوب عن أخيه غياث الدين بيرشاه ، فرحب به واستقبله في كرمان ، وأظهر الطاعة ، فلبث عنده شهرا كاملا ، ثم انتقل إلى شيراز[3] ، فورد عليه الأتابك علاء الدولة صاحب يزد[4] مذعنا له بالطاعة ، فأقرّه عليها[5] .

وكان الأتابك سعد صاحب فارس قد استوحش من غياث الدين ، فاستغل جلال الدين ما وقع بينها ، وأراد استصلاحه لنفسه فأرسل خاطبا ابنته ، فأجابه إلى طلبه وقويت أواصر الصداقة بينهما ، فاستظهر جلال الدين بمصاهرته ، ثم تقدم من

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 423 .

[2] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 215-217 .

[3] شيراز : مدينة بأرض فارس ، وهي مدينتها العظمى ودار مملكتها ، وينزلها الولاة والعمال و بها الديوان والمجبى بناها محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج ، ومعنى شيراز هو جوف الأسد ، سميت بذلك لأن الميرة تجلب إليها ولا تخرج منها ، ولما وصل عسكر الإسلام إلى فارس عرّس العسكر بمكانها وأقاموا به حتى افتتحت اصطخر وجميع كورها ، فتبرك المسلمون بذلك وبنوا شيراز بذلك المكان . للإستزادة انظر : الحميري، المصدر السابق ، ص 351 .

[4] يزد : مدينة في أرض فارس تتوسط نيسابور و شيراز و أصبهان وهي معدودة من كور إصطخر . للإستزادة أنظر ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 435 .

[5] النسوي ، المصدر السابق ، ص 176 .

شيراز إلى اصفهان فخرج إليه القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد ورحّب به وفرح الناس بمقدمه وقويت شوكته بهم [1].

وعندما تنامت أخبار جلال الدين إلى أخيه غياث الدين خرج إليه في ثلاثين ألف فارس إلا أنّ جلال الدين أرسل إليه رسالة يستعطفه بها ، فرجع عنه إلى الري واستغل جلال الدين هذه الفرصة في تأليب الأمراء على أخيه ووعده أجزل العطاء فتفرقوا عنه واستطاع جلال الدين استعادة لقبه وإرث أبيه في بعض مدن خراسان والعراق العجمي ومانزدران ، وعفا عن أخيه و التحق بخدمته [2].

وبهذا نظم جلال الدين منكبرتي ما تبقى من مملكة أبيه وضبط أمورها من جديد بداية من سنة 622هـ/1225م[3] ويعلق النسوي على ذلك بقوله "فأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب ، وأطفأت من نيران الفتن ما التهب ، وتفرقت الوزراء العمال في الأطراف بالتواقيع السلطانية فضبطوها "[4].

ومن الجدير بالذكر أن المغول قد استقروا في الجانب الشرقي من الدولة الخوارزمية أي بلاد ما وراء النهر ولم يركزوا كثيرا على الجانب الغربي كخرسان بالرغم من أنّهم استولوا على عدة مدن أثناء تعقبهم للسلطان محمد خوارزمشاه . إلا أنّهم تركوا بها حاميات صغيرة لم تستطع ان تصمد طويلا أمام فلول الخوارزميين [5].

.[5]

---

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 176 .

[2] نفسه ، ص 177 –178.

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 443 .

[4] السنوي ، المصدر السابق ، ص 179 .

[5] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 197 .

ولما رحل جنكيزخان إلى منغوليا ترك أقاليم الدولة الخوارزمية خاوية على عروشها ثم انشغل المغول بتثبيت حكمهم في الصين الجنوبية حيث امبراطورية سونج ، فضلا عن انشغال جنكيزخان بتأديب قبائل التانجوت التي خرجت عن طاعته ، وفي سنة 624هـ/1227م حدث أمر جلل هز كيان المغول وهو وفاة قائدهم الأعظم جنكيزخان ، فاضطر كل القواد إلى التوجه إلى عاصمتهم قراقورم لحضور مجلس القوريلتاي و انتخاب خان جديد لهم[1] ، وعليه ساعدت هذه الظروف أشلاء الخوارزميين على إعادة النفس من جديد و محاولة لملمة ما تبقى من كيانهم في خراسان و مازندان و العراق العجمي .

حينما قويت شوكة جلال الدين منكبرتي من جديد بدأ يراوده حلم أجداده في الاستيلاء على الخلافة العباسية ، إلا أن محاولته هذه أيضا باءت بالفشل ، فلما تأكد عجزه عن ذلك أقام علاقات طيبة مع خلفاء بني العباس [2].

ومع ذلك فقد حاول التوسع على حساب الأيوبيين فتحالف مع المعظم عيسى صاحب دمشق منتهزا فرصة قيام الشقاق بينه وبين أخويه وحاصر مدينة أخلاط التابعة لأحد إخوته ، واستولى عليها سنة 623هـ/1226م إلا أنّ الخوازميين أعملوا فيها السلب والنهب والقتل حتى غضب الأهالي منهم ماجعلهم يخسرونها ثانية ، وخسروا معها كلّ حليف لهم بالمنطقة حتّى سلاجقة الروم [3].

تعتبر دولة سلاجقة الروم آخر ما تبقى من أملاك السلاجقة في العالم الإسلامي وقد أرسل ملكها علاء الدين كيقاذ رسولا محملا بالهدايا إلى جلال الدين منكبرتي ، إلا أن هذا الأخير قلل من قيمة هذه الهدايا وأرجع الرسول منكصا على عقبيه الأمر

[1] الصياد ، المرجع السابق ، ص 138 .

[2] حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية و المغول ، ص 217 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 467 .

الذي أساء لعلاء الدين كيقباذ ، ولذلك فإنّه لم يتوانَ في الإنضمام إلى الحلف الذي أقامه الأيوبيون ضدّ جلال الدين منكبرتي سنة 628هـ/1231م فتمت هزيمته بذلك وقتل معظم عساكره [1].

ومما لا شك فيه أن الفترة التي كان يمكن لجلال الدين أن يكون حلفاء له ينصرونه عند عودة المغول إلى بلاده قد قضاها في استجلاب مزيد من الأعداء له ، فيصفه ابن الأثير بقوله " وكان جلال الدين سيء السيرة ، قبيح التدبير لملكه ، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه ، ونازعه الملك ، وأساء مجاورته "[2].

ومن ثم فقد تمكن منه المغول بعد تنصيب أوكداي خاقان للمغول و بدأ في الاستيلاء على ما تبقى من أملاك الخوارزميين في مازندارن و العراق العجمي . وبهذا فقد هزمت قوات جلال الدين الوحيدة والمنبوذة من طرف أمراء العالم الإسلامي آنذاك في مدينة آمد[3] وتم مقتله على يد أحد الأكراد بعد ذلك وانتهت بموته الدولة الخوارزمية [4].

---

[1] ابن الوردي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 150 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 490 .

[3] آمد : مدينة حصينة مبنية بالحجارة من بلاد الجزيرة ، ونهر دجلة محيط بها من جوانبها إلا من جهة واحد على شكل الهلال ، وفي وسطها عيون وآبار عمقها ذراعان ، وهي كثيرة الأشجار والبساتين والثمار والزروع ، ولما انهزم جلال الدين منكبرتي أمام المغول سنة 627هـ فرّ إليها فجاءه من أخبره بأن المغول خلفك قريب منك فقال : إن هذا المخبر من عند صاحب آمد يريد إبعادنا عن أرضه ، فما أصبح إلا والمغول محيط بهم ، فانصبّوا إلى آمد هاربين من المغول فقتلهم أهل آمد من السور ، وفي تلك الوقعة قتل جلال الدين ، فلما رجع المغول جاء الملك الكامل بعساكره وحاصرها ، وأخذها من صاحبها ، وزال ملك صاحبها بشؤم ما عمل بالفارين من المغول اللآئذين به . للإستزادة أنظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 492 .

[4] النسوي ، المصدر السابق ، ص 381 . ولقد رثاه النسوي فأنشد :

يا من أسال رقاب الكاشحين دما .... من بعد فقدك أبكيت العيون دما

لئن أباح صروف الدهر ساحته .... فانظر إلى الملك والإسلام لا جرما

فالدين منثلم ، والملك منهدم .... وظل حبل العلى والمجد منجذما

2-علاقته بالشيعة الإسماعيلية :

أمّا عن العلاقات التي كانت تربط بين الدولة الخوارزمية والشيعة الإسماعيلية فقد كان تشوبها الإضطراب والتوتر بداية من عهد محمد خوارزمشاه الذي هاجم قلاعهم واستولى على قلعة أرسلان شاه القريبة من بحر قزوين ، لكنه فشل في الاستيلاء على الألموت .

ولذلك نجد الشيعة الإسماعيلية تدافع عن نفسها و ترد بقتل صدر الدين محمد رئيس الشافعية بالري ، ومما يجدر ذكره أن هذا الأخير قد اشترك في حصار قلاعهم ، بالإضافة إلى قتل وزير محمد خوارزمشاه نظام الملك مسعود [1].

ولما أتت الرياح المغولية على الأراضي الخوارزمية ، استغل طائفة الشيعة الإسماعيلة تلك الرياح لمصلحة سفنها فهيمنوا على بعض المدن و القلاع التي كانت تابعة للخوارزميين قبل ذلك فاستولوا على دامغان[2] وغيرها فيذكر ابن الأثير أنه "قد عظم شرهم وازداد ضررهم وطمعوا مذ خرج التتر إلى بلد الإسلام "[3] .

ولمّا ذهب ركن الدين غورشاه ولد محمد خوارزم شاه إلى الريّ وجد بها داعيين للإسماعيلية يدعون الناس لمذهبهم ، ومما يؤكد بأن الشيعة الإسماعيلية كانوا فعلا قد حاولوا طمس معالم الدولة الخوارزمية ومذهبها السنّي ما يذكره النسوي وامتد ركن

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 263 .

دامغان : ويسمى أيضا قومس بلد كبير في خراسان يقع بين الري ونيسابور كثير الفواكه والمياه والأشجار وهي أول مدن خراسان فتحها عبد الله بن عامر بن كريز في خلافة عثمان بن عفان سنة 30 هـ . للإستزادة أنظر :

[2] القزويني ، المصدر السابق ، ص 365 والحميري ، المصدر السابق ، ص 231 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 473 .

الدين نحو الري فوجد بها طائفة من دعاة الإسماعيلية يدعون أهل الري إلى طاعتهم ويزينون لهم أن سلامتهم في مشايعتهم فعلم ركن الدين بهم فقتلهم "[1].

وبذلك ورث جلال الدين منكبرتي ذلك الصراع الذي أصبح أكثر حدة بينه و بين الشيعة الإسماعيلية ، فقد بلغت خناجرهم في عهده نائبه على بلاد خراسان[2] أورخان حيث وثب عليه ثلاثة من الفدائية وقتلوه .

كان أورخان نائبا عن جلال الدين منكبرتي في مدينة كنجة[3] و أعمالها ، وكان مقدما عنده ، ومن الإنصاف القول بأن هذا النائب كان يتعرض إلى ما يتاخمها من بلاد الإسماعيلية مثل ، تون[4] وقاين[5] وقهستان بالنهب ولقتل ، فورد من بلاد الإسماعيلية شخص يلقب بالكمال رسولا إلى جلال الدين منكبرتي يشكو نواب أورخان وتطاولهم على تخوم أراضيهم ، إلا أن "الرسول عاد بظلامة ما أنصفت وحاجة ما أسعفت "[6].

فلما قتلته الشيعة الإسماعيلية عظم ذلك على جلال الدين و اشتد عليه ، فسار في عساكره إلى بلادهم من حدود ألموت إلى كردكوه بخراسان ، فحارب معظم قلاعهم وقتل أهلها ونهب أموالهم وسبى حريمهم واسترقّ الأولاد وقتل الرجال، وبذلك انتقم

---

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 141 .

[2] في الواقع لم تكن خراسان بعد الغزو المغولي لها هي نفسها خراسان قبلها ، فقد دمرت أغلب مدنها حتى النسوي يصف هذا النائب بأنه نائب على ما تبقى من أرماق خراسان للإستزادة انظر : النسوي المصدر السابق ، ص 228 .

[3] كنجة : مدينة عظيمة وهي قصبة بلاد أرّان ، وأهل الأدب يسمونها جنزة ، وهي في نواحي لورستان بين خوزستان وأصبهان .للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 482 .

[4] تون : مدينة من ناحية قوهستان قرب قاين ، للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 62 .

[5] قاين : قصبة صغيرة في قوهستان ضيقة غير طيبة ، معاشهم قليل إلا أن عليهم حصنا منيعا وبينها وبين نيسابور تسع مراحل ومنها إلى هراة نحو ثماني مراحل ومن قاين إلى زوزن نحو ثلاث مراحل . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 301 .

[6] النسوي ، المصدر السابق ، ص 229 .

منهم أشد انتقام ، ويعلق ابن الأثير على ما فعله جلال الدين بقوله" فكف عاديتهم و قمعهم ، ولقاهم الله ما عملوا بالمسلمين" [1] .

ومن الجدير بالذكر أن قوّة الشيعة الإسماعيلية لا ترجع إلى عدد جنودها بل إلى فكرة الفدائية التي أقضّت مضاجع الملوك والأمراء ، فالشيعة الإسماعيلية كانت تستخدم هذا السلاح الفتّاك في نشر الرعب بين أعداءها وهو سلاح الإغتيال ، حتى أنهم كانوا يخترقون الجيوش ويقتلون قادتها ، وقد أفشى مبعوث ملكهم علاء الدين إلى وزير جلال الدين منكبرتي شرف الدين الخوارزمي أثناء تواجده معه بخبر تواجد مجموعة من الفدائيين في جيش الخوارزميين ، وفعلا التقى بهم شرف الدين و تذلل إليهم مما أثار حفيظة السلطان منكبرتي فأمره بحرقهم ، إلا أنه دفع عن كل واحد دية مقدارها عشرة آلاف دينار [2].

ولقد بدأت العلاقات بين الخوارزميين و الشيعة الإسماعيلة تتجه إلى الأحسن ففي سنة 625هـ/1228م حصل خلاف بين جلال الدين وأخيه غياث الدين ، مما اضطر هذا الأخير إلى قصد بلاد الإسماعيلية واللجوء إليهم ، فلما سمع جلال الدين بذلك أرسل في طلب أخيه منهم ، فرد عليه مقدم الإسماعيلية بقوله "إن اخاك قصدنا وهو سلطان ابن سلطان ، ولا يجوز لنا أن نسلمه ، لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه ان يقصد شيئا من بلادك ، ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ما تكره في بلادك ، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار" فوقع الرد في نفسه موقع الحسن فأجابهم إلى ذلك[3] .

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 473

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 231 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 476

ونجد المزيد ممن غادروا جلال الدين توجهوا إلى القلاع الإسماعيلية فعلى سبيل المثال توجه الملك خاموش[1] وكان ملكا على كنجة فلما استولى عليها جلال الدين و جعل لها نائبا له ، مكث خاموش عنده إلا أنه لم يحظ بعنايته واهتمامه فرحل عنه إلى الألموت [2].

ورغم هذا التقارب بين الجانبين إلا أن التوتر السياسي ما لبث أن دب بينهما في فارس حينما علم السلطان جلال الدين بأن هناك جماعة من المغول قد توجهوا إلى بلاد الشام رفقة تجار الإسماعيلية ، ولذلك فقد قتل كل الذين كانوا على متن هذه القافلة في طريق عودتها [3].

ولقد غضب مقدم الإسماعيلة لما سمع بذلك وعاتب عليه جلال الدين ، فأمر برد جميع ما سلب من القتلى الإسماعيلية ، ويلاحظ في هذا الوقت مدى التنازل الواضح عن كبرياء الشيعة الإسماعيلية أمام قوّة جلال الدين منكبرتي ، ويعلل المؤرخون ذلك بأن طائفة الإسماعيلية في هذا الوقت قد فقدت الكثير من سلطانها التليد في أقاليم الشرق الإسلامي ، فلم يعد لها تلك الهيبة التي كانت تتمتع بها من قبل ويرجع ذلك إلى إزدياد نفوذ جلال الدين منكبرتي ، وضعف تلك العلاقة التي كانت أشبه ما

[1] خاموش : هو خاموش بن الأتابك أزبك صاحب أذربيجان ت628هـ ولد هذا أصمّ أبكم ، فكان يفهمه ويفهم عنه رجل رباه ، ولما استولى جلال الدين خوارزمشاه على بلاده جاء خاموش إلى خدمته بكنجة خاضعا ، فقدم تحفا ثمينة وجواهر فاخرة للسلطان جلال الدين ، و أقام الملك خاموش مدّة قليلة في الخدمة ، فلم يحظ بعناية إلى أن رقّت حاله ، ففارق خوارزمشاه ودخل إلى حصن الألموت ، فأدركه الموت بعد شهر . للإستزادة أنظر : الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج13 ، ص 360 .

[2] النسوي ، المصدر السابق ، ص 224 .

[3] نفسه ، ص 266 .

تكون بين التحالف بين الإسماعيلية والمغول ، نظرا لإنشغال المغول بأمورهم الداخلية [1].

ومما لاشك فيه أن زعماء الإسماعيلية راسلوا المغول في عهد محمد خوارزمشاه فقد راسل جلال الدين حسن زعيم الإسماعيلية جنكيزخان بقصد التقرب إليه ، وحثّه على القضاء على الدولة الخوارزمية ، كما استمروا في مراسلتهم واطلاعهم على ما يجري ما في البلاد في عهد ولده جلال الدين منكبرتي ، ولما احتج على ذلك اعترفوا بالأمر، وبرروا فعلهم هذا بأنه كان بقصد مداراة المغول الذين أصبحوا يجاورون أملاك الإسماعيلية جنوب بحر قزوين [2].

وبعد أن بدأ الضعف يدبّ في جيش جلال الدين منكبرتي بفعل سياسة العداء التي شنها على جيرانه من الأمراء المسلمين وغير المسلمين واطلاع الشيعة الإسماعيلية على ذلك راحوا ينقلون أخبار ضعفه إلى المغول ويؤكد ابن الأثير ذلك فيقول "وفي سنة سبع وعشرين أي 627هـ أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحدة إلى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه ، ويحثهم على قصده ، عقيب الضعف ، و يضمن لهم الظفر به ، للوهن الذي صاروا إليه "[3].

وبهذا فقد أدّت الحملة المغولية على الدولة الخوارزمية إلى تصاعد الروح العدائية للشيعة الإسماعيلية في فارس ضد الخوارزميين الذين كانوا يئنّون تحت ضربات المغول ، وهذا لا يعني أن العداء لم يكن قبل مجيء المغول ، فقد رأينا كيف أن السلطان محمد خوارزمشاه يحاصر القلاع ويشنّ عليهم الهجمات ، فسكنت الدهماء بينهم حينما قويت الخوارزمية وأدركت الشيعة الإسماعيلية ضعفها في حين

---

[1] عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص 238-239 .

[2] حافظ إبراهيم ، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص 86-87 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 490 .

نجد أنه حينما جاء المغول وعملوا على إضعاف الخوارزميين قويت بذلك شوكة الإسماعليين فهاجموا نواب الدولة الخوارزمية من جديد كما فعلوا بأورخان ، وعندما قويت شوكة جلال الدين منكبرتي انكمشت الشيعة الإسماعيلية في قلاعهم[1] وآثروا الإستكانة ومهادنته حتى إذا ضعف من جديد راسلوا المغول وأطمعوهم فيه وعملوا على القضاء عليه.

ويرجع ابن الأثير سبب العداء المستحكم بين جلال الدين منكبرتي وطائفة الشيعة الإسماعيلية بأنه فضلا على أنه نهب بلادهم وقتل رجالهم " أكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة "[2].

[1] حافظ إبراهيم ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 218 .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 490 .

الفصل الرابع : الحملة المغولية الثانية على العالم الإسلامي

المبحث الأول : القضاء على الإسماعيلية

المبحث الثاني : سقوط الخلافة العباسية

المبحث الثالث : سقوط بلاد الشام ومقاومة المماليك

المبحث الأول : القضاء على الإسماعيلية

1-أسباب العداء بين الإسماعيلية و المغول :

لمّا إعتلَ منكوخان عرش المغول ، أرسل أخويه لإستكمال مشروع المغول في التوسع والإستيلاء على العالم ، فأرسل أخاه هولاكو ناحية الغرب للإستيلاء على الخلافة العباسية والقضاء على بلاد الإسماعيلية والمشرق الإسلامي على العموم ، بينما سيّر أخاه قوبيلاي لإستكمال فتح بلاد الشرق [1].

ويؤكد الجويني بأنه لما دخلت جيوش المغول بقيادة جنكيزخان إلى بلاد الإسلام كان أول شخص من الملوك أرسل الرسل في هذه الناحية من جيحون لإظهار الولاء وقبول الخضوع هو جلال الدين زعيم الإسماعيلية [2].

لم يسر جلال الدين هذا على منهج أسلافه فقد أظهر الإسلام بعد أن تولى الحكم مباشرة ، وقام بزجر قومه عما كانوا يفعلونه في عهد أبيه و أجداده ، بل حملهم على التزام الإسلام ، واتّباع رسوم الشرع [3]، وأرسل الرسل إلى خليفة بغداد وإلى السلطان محمد خوارزمشاه ، وملوك وأمراء العراق والأطراف الأخرى لإبلاغهم بهذه التغييرات فأرسلت دار الخلافة الحكم بإسلامه ، وتعاطفوا معه ، وفتحت طريق المكاتبات والمراسلات معه وكتبوا له الألقاب بالحرمة ، وبذلك فقد أفتى الأئمة من جميع البلاد الإسلامية بإسلامه هو وقومه وأجازوا الزواج معهم واشتهر ذكره بجلال الدين نومسلمان (أي المسلم الجديد) كما سمي أتباعه في عهده أيضا بنو مسلمان [4].

---

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 220 .

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 216 .

[3] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 27 .

[4] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 212

ولقد أرسل أمه إلى الحج في سنة 608هـ فأكرمت في بغداد إكراما عظيما وكذلك في طريق مكة ، وهذا يدل على المكانة التي حظي بها جلال الدين في هذا عند الخليفة الناصر الذي كان لا يرفض له طلبا [1]، فحينما التمس جلال الدين خطبة النساء من أمراء جيلان[2] ، أبدوا تقاعدا و فتورا و لم يقبلوا بغير إذن يصدر من دار الخلافة ، فأرسل جلال الدين رسولا إلى بغداد ، فأجابه الخليفة الناصر إلى ملتمسه ، وأجاز بأن يقوم أمراء جيلان بمواصلته بحكم الإسلام ، وبمقتضى هذا تزوج جلال الدين منهم [3].

وقد أقام جلال الدين علاقات طيبة مع جيرانه وأحدث قطيعة كبرى مع أسلافه الذين حكموا القلاع الإسماعيلية قبله ، فأقام الدين الإسلامي في قلاعه من جديد ، وأعلن براءته من العقائد الإسماعيلية الفاسدة ، وممّا يؤكد هذا القول أنّه أمر بعمارة المساجد في ولايته ، وطلب الفقهاء من أطراف خراسان والعراق ، ليتولوا شؤون القضاء والخطابة وأمثال هذه الأمور الدينية في ملكه ، فأعزّهم وأكرمهم [4].

ولا ندري هل تخلى جلال الدين وأتباعه عن المذهب الإسماعيلي جملة وتفصيلا وتحوّل إلى المذهب السنّي ، أم أنّه قد ألغى الإباحة والفساد والفتن والمنكرات والعقائد الفاسدة التي انتهجت أيام أبيه وجدّه وبقي تحت مظلة التشيع الإسماعيلي ، ولعل تعاطف الخليفة الناصر معه حتى أن رسله كانت تقدم على سائر رسل الممالك

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 357 .

[2] جيلان : اسم لبلاد تقع في طبرستان ، على بحر الخزر ، وقيل جيلان وموقان ابنا كاشج بن يافث بن نوح علي السلام ، وليس في جيلان مدينة كبيرة إنما هي قرى في مروج بين جبال ، ولقد نزل المغول عليها سنة 616هـ واستولوا عليها قتلا ونهبا وتخريبا وفعلوا العظائم على عادتهم ، للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 201 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 385 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 353

[3] برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 122-123

[4] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 212.

الأخرى [1] مرده إلى أنه ألغى المذهب الإسماعيلي جملة وتفصيلا ، وينبغي التنويه إلى أمر من الأهمية بمكان أنه بعد التغيرات التي طرأت على دولة القلاع ، نرى أنّ سياسة القتل والاغتيال التي كانت رائدة أيام آبائه وأجداده قد توقفت في عهده وبخصوص الفرضية التي تقول بتبني جلال الدين نومسلمان المذهب السني وترك المعتقدات الإسماعيلية ، أنه من غير المعقول أن يقدم الخليفة الناصر أميرا شيعيا على سائر الأمراء المسلمين ، بل جعل سبيله[2] في طريق الحج مقدما على غيره[3] ، بالإضافة إلى أن جلال الدين أرسل في استقدام العلماء والفقهاء من خراسان والعراق لتولي منصب القضاء والخطابة ، ولو كانت سمة القاضي شيعيّا إسماعيليّا لمّا احتاج إلى القضاة من أطراف خراسان والعراق ، ومن ثمّ فإنّ الأقرب إلى المنطق أنّ القضاة كانوا من السنّة ، وعلى إثر ذلك فمن المرجّح عودة جلال الدين ومن معه من الإسماعلية إلى المظلة السنيّة حتى أن ابن الأثير قد يذكر بأنه قد أظهر شريعة الإسلام من الأذان والصلاة في بلاده [4] .

هذا بالإضافة إلى أن أهالي قزوين المجاورين للقلاع الإسماعيلية في إيران قد أبوا في البداية تصديقهم ، فعمل جلال الدين على استرضائهم وإكرام علماءهم وفقهائهم ، وطلب إفادة جماعة من أهل قزوين إلى ألموت لكي ينظروا في مكتبة الحسن بن

---

[1] النسوي ، المصدر السابق ، ص 51 .

[2] السبيل هو القافلة من الحج التي تصحب أحد الأعلام ، وأمير الحاج و فيها كل ما يحتاج إليه الحجاج ، ويعطى في سبيل الله بلا مقابل ، ومن ذلك الدواب الطعام والشراب ، فيورد ابن الأثير في حوادث سنة 614هـ " وكان سبيله إذا ورد بغداد يقدم غيره عليه "أما النسوي فيقول في المورد نفسه " وانضاف إلى ذلك استهانتهم (يعني خليفة بغداد) بالسبيل الذي كان للسلطان في طريق مكة حرسها الله تعالى حتى بلغه تقديم صاحب الإسماعيلية جلال الدين على سبيله ". ومن ثم فالسبيل معناها المؤن و ما يحتاج إليه الحاج . للإستزادة أنظر الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 213 حاشية رقم 1 .

[3] النسوي ، المصدر السابق ، ص 51 .

[4] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 429 .

الصباح ، ففصلوا الكثير من الكتب التي تتضمن تقرير مذهبهم وتخالف عقائد المسلمين ، فأمر جلال الدين بإحراقه بحضور وفد قزوين ، وقال جلال الدين بطعن ولعن آبائه وأسلافه والممهدين لتلك الدعوة ، ويروي الجويني بأنه رأى ورقة في أيدي أعيان قزوين كان قد كتبها جلال الدين بخط يده كتب فيها بأنه يتبرأ من ذلك المذهب [1].

أما على الصعيد السياسي فقد أقام جلال الدين تحالفات طيبة مع الأتابك مظهر الدين أوزبك ، ملك أران وأذربيجان ومع الخوارزميين رغم ما تخلل هذه العلاقة من توترات أدت في مرحلة ما إلى نشوب مناوشات بين الطرفين إلى أنها لم تكن كما كانت في العصر الذي سبقه [2].

ومجمل القول أن عصر جلال الدين نومسلمان كان عصر سلام بالنسبة إلى دولة القلاع في إيران ، إلا أن تلك المعتقدات الفاسدة التي رسّخها الحسن بن الصبّاح وخلفائه من بعده كانت أكبر من أن تُمحَ من عقول رعيّته ، فما إن توفي جلال الدين سنة 618هـ/1221م وخلفه ولده علاء الدين حتى عادت القلاع إلى إسماعيليتها من جديد [3].

كان علاء الدين هذا على النقيض من أبيه ، فلم يكن له صبره أو علمه أو حلمه وبذلك فقد كان عهده مؤشرا على بداية سقوط الدولة الإسماعيلية في ايران ، خاصة إذا ما علمنا بأن أحد الأطباء قد فصده دون أن يكون مريضا فأدى هذا إلى

---

[1] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 213

[2] نفسه ، ج3 ، ص 214 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 429 .

إصابته المزمنة بمرض الماليخوليا[1] ، فصار يتهيأ له أمور لم تحدث وبذلك فقد عذب أتباعه ومريديه قبل أعدائه ومبغضيه ، وقد عانى المسلمون الذي كانوا يعيشون بالقرب من قلاعه في قزوين من شدّة بطشه ، وسفكه لدمائهم والتعدّي على حرمهم ، الأمر الذي جعلهم يفضّلون المغول على الشيعة الإسماعيلية النزارية من وجهة نظر الجوزجاني والهمذاني والجويني [2] .

فيذكر الجوزجاني بأن القاضي شمس الدين القزويني[3] قد سافر إلى قراقورم وقابل منكوخان وعرض شرور الملاحدة وفسادهم في بلاد الإسلام ، وقيل إنه تفوّه في حضور منكوقاآن بكلمات عنيفة بسبب قوة حميته للإسلام والدين ، بحيث استولى الغضب على منكوقاآن ، لأن القاضي وصف قوة ملكه وسيطرته بلفظ العجز والضعف ، فقال منكوقاآن :"أي عجز قد شاهده القاضي في بلادنا ، حتى يتفوه بمثل هذه الكلمات الجافة" ؟ فقال القاضي شمس الدين : "ماذا يكون الحال وقد بنى

---

[1] الماليخوليا : هو مرض مرتبط بتصورات واستحواذ أفكار ووساوس ، يظن المريض أنها حقيقة ، فتصيبه بالتوجس والريب والغربة التي تنتج الخوف والفزع ، فيؤثر ذلك على وظائفه الجسمية والنفسية والمعرفية ، وفي تعريفها يقول اسحاق ابن عمران " إن اسم الماليخوليا لم يقع بالحقيقة على معنى الداء انما وقع سببه الأدنى ، وهو المرّة السوداء . فأما نفس الداء فإنما تعرف معنويته بالصفة والنعت ، وذلك لأنه مرض يحل بالجسم ، وتحلق أعراضه وأضراره للنفس ، وهو ظن ما من السوداء والتوحش متصور في النفس ، لأن ما يظنون أنه حق وليس بحق ..فهو خوف ووساويس على النفس يحدث لها الفزع والخوف . للإستزادة أنظر : بن أحمد قويدر ، **من تراث الطب الإسلامي –اسحاق بن عمران ومقالة في الماليخوليا انموذجا** – ، إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية ، العدد 04 ، 2013 ، ص 10 .

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 218 و الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 196 و الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 233 .

[3] ولعل هذه القصة التي أوردها الجوزجاني و نقلها عنه الهمذاني تجانب الصواب فهي تبين لنا أن مسلمي السنة في قزوين قد استعانوا بالمغول على دولة القلاع الاسماعيلية التي كانت أغلب قلاعهم في جبال قزوين ، و هذا ينافي الوقائع التاريخية ، ففضلا أنه من غير المقبول ولا المعقول أن يستنجد أهالي قزوين السنة بعدّو =أكثر فتكا من عدوهم التقليدي المتمثل في القلاع الإسماعيلية للإستزادة انظر : سعد بن محمد حذيفة الغامدي ، **سقوط الدولة العباسية و دور الشيعة بين الحقيقة و الاتهام** ، ط2 ، دار ابن حذيفة ، المملكة العربية السعودية ، 1983 ، ص 248 .

جماعة من الملاحدة عدة قلاع ، ودينهم خلاف الدين المسيحي ومغاير للدين الإسلامي والمغولي ، وهم يغرونكم بأموالهم ، ويترقبون فرصة أقل وهن في دولتكم ، لتخرج تلك الجماعة من بين الجبال والقلاع ، وتقضي على بقية أهل الإسلام ، بحيث لا يتركون من الإسلام أثرا "[1] .

ويؤكد الهمذاني قدوم جماعة من المتظلمين في بلاد الملاحدة ومثلوا بين يدي منكوقاآن ، كما يذكر بأن القاضي ظهر للقآن مرتديا الزرد ، وأخبره أنه يلبسه تحت ثيابه خشية من غدر الملاحدة ، كما سرد له طرفا من إعتداءاتهم وغاراتهم ، فسيّر منكوقاآن أخاه الأصغر هولاكو للقضاء عليهم [2] .

ولعل هذه الرواية تبرر للمغول هجومهم على العالم الإسلامي أكثر مما تطعن في أعمال الحشاشين في إيران ، وقد يفهم ذلك من الهمذاني الذي كان وزيرا في بلاط الدولة الإيلخانية ، أما الجوزجاني البعيد كل البعد عن المغول ، فهذا يدعو للتساؤل فبهذه الرواية قد تم تصوير المغول أنهم إنما قدموا إلى المشرق الإسلامي لإنقاذ المسلمين السّنة من الشيعة الإسماعيلية وأعمالهم التخريبية ، وهذا يتنافى مع الهدف الحقيقي للمشروع المغولي في السيطرة على العالم فلم يكن المغول بحاجة إلى أسباب بل ذرائع واهية يستطيعون من خلالها شق طريقهم بين إختلافات الشعوب إلى السيطرة عليهم ورفع رايتهم فوق الجميع .

وكان من بين الأسباب الذي جعلت منكوخان يشدد على أخيه هولاكو بأمر القضاء عليهم ، أنّ المغول لم يريدوا أن تبق القلاع الإسماعيلية شوكة في ظهورهم وحجرة عثرة بينهم وبين الإمدادات القادمة من بلاد ما وراء النهر، خاصة إذا ما علمنا أن

[1] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 196-197 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 233 .

هدف الحملة لم تكن قلاع الإسماعيلية بل كل المشرق الإسلامي ، ويتضح ذلك في قول منكوقآان لهولاكو " إنك الآن على رأس جيش كبير ، وقوات لا حصر لها ، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران ... وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه ، في الكليات والجزئيات ، وخصّ كلّ من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك ، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة و المهانة مع نسائه و أبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به"[1].

وقد كان لصيت الإسماعيلية في قتل الأمراء والوزراء ذكر كبير بين المغول، ففضلّوا القضاء التام على هذه الفرقة وعدم المجازفة بأرواح أمرائهم[2]. بالرغم من عدم وقوفي على أيّ محاولة من الإسماعيلية لقتل أمير من أمراء المغول .

وعلى هذا فقد أمر منكوقآان أخاه هولاكو بأن يبدأ حملته بالقضاء على القلاع الإسماعيلية ويورد الهمذاني هذا فيقول " فابدأ بإقليم قهستان في خراسان ، فخرب القلاع والحصون ، ثم أنشد يقول :

اجعل كردكوه وقلعة لنبه سر

بحيث يكون رأسهما إلى أسفل و جسدهما إلى أعلى

ولا تبق في الدنيا قلعة قط

ولا كومة واحدة من التراب [3].

---

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 236 .

[2] سعد الغامدي ، المرجع السابق ، ص 263 .

[3] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 237 .

2-سقوط القلاع الإسماعيلية في إيران :

حينما وصل هولاكو إلى إقليم ايران أرسل إلى حكام تلك الأقاليم رسالة يدعوهم فيها للإنضمام إليه و قد جاء فيها ما يلي : " بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل عذركم ، ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم"[1].

وقد لبّ الأمراء والملوك نداء هولاكو فتوجهوا إليه لتقديم فروض الطاعة ، فأقبل من سلاجقة الروم السلطانان عز الدين كيكاوس[2] وركن الدين قلج أرسلان [3] ومن

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 240 .

[2] عز الدين كيكاوس : ولد سنة 636هـ وهو ابن السلطان كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود ، إقتسم ممالك الروم مع أخيه ركن الدين بعد موت أبيهما مناصفة ، وقد كانوا تابعين للمغول منذ سنة 641هـ/1243م، ثم إن ركن الدين قوي عليه ، واستولى على بلاده سنة 659هـ ، فهرب عز الدين بجماعة من خواصه وأهله وأخذ ماله وذخائره وقصد القسطنطينية ، فلما حل بها خافه ملكها فقبض عليه وحبسه ، فلم يزل محبوسا بها إلى أن جهز بركة خان جيشا إلى صاحب القسطنطينية سنة 660هـ ، فأغاروا عليها من سائر نواحيها فراسلهم صاحبها في طلب الهدنة ، فأجابوه على أن يسلم لهم السلطان عز الدين وما أخذ معه ، فسلمه إليهم ، فقدم على بركة فتلقاه وأكرمه ، وجعله من أمراءه ، وظل مقدما في عهد خلفه منكوتمر حتى توفي سنة 672هـ. للإستزادة أنظر : الذهبي ، السير ، ج 15 ، ص 365 و اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج3 ، ص 66

[3] ركن الدين: كان كريما جوادا شجاعا ، لكنه كان مقهورا تحت أوامر التتار ، خنقه المغول بوتر ، لأن وزيره البرواناه عمل عليه وأوحى إلى المغول بأنه يكاتب الظاهر بيبرس ، وبعد موته سنة 668هـ أجلس على العرش ولده غياث الدين كيخسرو وله عشر سنين ، فصار البرواناه المتحكم الفعلي في مملكة سلاجقة الروم . للإستزادة أنظر : الصفدي(صلاح الدين خليل ابن ايبك ت764هـ) ، **الوافي بالوفيات** ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 2000 ،ج24 ، ص 288.

فارس سعد بن الأتابك مظفر الدين[1] ، ومن العراق وخراسان وأذربيجان وأران وشروان وجورجيا، الملوك والصدور والأعيان ، وكانوا جميعا يحملون الهدايا إليه [2].

ومن الجدير بالذكر أنه لما وصل هولاكو إلى إيران سنة 653هـ/1255م وقد كان عليها الأمير أرغون من قبل المغول ، انضمّ إليه المؤرخ الكبير عطا ملك الجويني ، وسار معه في حملته على القلاع الإسماعيلية ، وغزو بغداد .

وقد كان في بلاد الملاحدة حوالي مائة وخمسين من الحصون والقلاع ، وسبعون قلعة في بلاد قهستان ، وخمس وثلاثون قلعة في جبال العراق العجمي تسمى ألموت [3].

ومن الملاحظ الوقت الطويل الذي قضاه هولاكو في طريقه من قراقورم إلى توران ، ومن توران إلى إيران ، فقد خرج في خريف سنة إحدى وخمسين وعبر نهر جيحون في شتاء سنة ثلاث وخمسين وهذا يعكس مدى ضخامة الجيش الذي كان على رأسه هولاكو[4] .

بالإضافة إلى تبنيه خطة استراتيجية تهدف إلى ترك طلائع جيشه تتقدم لتضعف من قوّة القلاع الإسماعيلية وتفتّ من عضدهم ، حتى إذا ما رأوا جيوش هولاكو تنثال عليهم من كل حدب وصوب خارت عزيمتهم وأيقنوا الهلاك فيفضّلون الإستسلام على مواصلة القتال .

---

[1] سعد بن الأتابك مظفر الدين : كان من خيار السلاطين ونجباء الملوك ، رحيم القلب محبّا للعلماء ، إلاّ أنّه رضخ للمغول وحكم باسمهم ولم يقاوم تقدّمهم بل قد أرسل فرقا من جيشه للإنضمام لهولاكو أثناء زحفه على بغداد . للإستزادة أنظر : ابن الفوطي ، **مجمع الآداب في معجم الألقاب** ، تحقيق : محمد الكاظم ، مؤسسة الطباعة والنشر ، طهران ، 1416هـ، ج5 ، ص 265 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 240 .

[3] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 201 .

[4] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 240 .

فقد وصلت طلائع المغول بقيادة القائد المغولي الكبير كتبوغا في أوائل سنة 651هـ إلى القلاع الإسماعيلية وفرضت حصارا على أمهات قلاعهم مثل كردكوه ، وترك القائد بوري هناك وتوجه إلى قلعة مهرين وحاصرها ، ودخل مدينة شاه ، وأعمل فيها السيف . وأرسل جزءا من جيشه لمحاصرة رودبار وطارم وأحدث فيهم التخريب ، وقد نجح كتبوغا في الإستيلاء على القلاع الصغيرة ، فاستولى على تون وترشيز[1] ومهرين و كمالي [2].

دخلت جيوش هولاكو واتخذت لها موقعا حول القلاع الإسماعيلية وأشرف الخان بنفسه على حصار قلعة ميمون دز[3]، ثم أرسل إلى ركن الدين زعيم الإسماعيليين يستدعيه فأرسل إليه صبيا عمره سبع سنين زعم أنه إبنه وإعتذر عن الحضور فأنعم عليه وأعاده ، ثم أرسل أخاه في ثلاثمائة فارس فأمر بهم هولاكو فقتلوا جميعا[4] وسار إلى القلعة ونصب حولها المنجانيق ، فاشتغل الإسماعيلية بالقتال عن ركن الدين فنزل ومعه ولده وحضر بين يدي هولاكو ، فلما عرف أصحابه ذلك سألوا الأمان فأُجيبوا إليه فسلموا القلعة و فارقوها ثم فتحوا قلعة الألموت وما يجاورها من القلاع [5].

---

[1] ترشيز : وذكرها ياقوت بترشيش ، بالضم ثم السكون وكسر الشين الأولى ، وهي ناحية من أعمال نيسابور في يد الملاحدة ، وتدعى كذلك طرثيث . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 22 . وابن خلكان، المصدر السابق ، ج4 ، ص 224 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 389 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 243-244.

[3] رحاب عكاوي ، **الحشاشون حكام ألموت نشأتهم و تاريخهم** ، دار الحرف العربي ودار المناهل ، بيروت ، 1994 ، ص 182 .

[4] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 224 .

[5] Marshall.G.S.Hodgsan , the venture of islam conscience and history in an world civiization , the expansion of islam in the middle periods , vol 2 , the university of chicago press , 1974 , p 291.

ويذكر المؤرخون أن الإسماعليين إختلفوا بين القتال والإستسلام فمال ركن الدين إلى رأي الإستسلام الذي شجعه عليه أحد العلماء الذين كانوا في قلعته وهو نصير الدين الطوسي ، بل لقد ذهب الطوسي في سفارة ركن الدين الأخيرة إلى معسكر هولاكو للتفاوض على أمور الإستسلام [1] .

ولما وصلوا إلى معسكر هولاكو في يوم الجمعة السابع والعشرين من شوال سنة 654هـ/1256 م ، أنزلوهم متفرقين ودخلوا على هولاكو فرادى ، وأكرمهم وأرجعهم إلى خورشاه ليعلموه بأنه لا يرضى منه إلا الطاعة والتسليم [2] .

وفي يوم الأحد نزل ركن الدين خورشاه من القلعة و توجه صوب معسكر هولاكو في صحبة النصير الطوسي و أكابر أعيان دولته مودعا بذلك حصن آبائه الذي ظلت أسرته تتخذه مقراً لها زهاء قرنين من الزمان ، ثم جاء فقبل الأرض بين يدي هولاكو[3]

وقد أنشد نصير الدين الطوسي في تاريخ هذه الحادثة بيتين من الشعر:

عندما صارت السنة الهجرية أربعا و خمسين وستمائة

وفي صباح يوم الأحد الموافق غرة ذي القعدة

قام خورشاه ملك الإسماعيلية من على عرشة

ووقف بين يدي هولاكـــــــو [4] [5] .

---

[1] رحاب عكاوي ، المرجع السابق ، ص 182 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 254 .

[3] محمد مدرس تقي رضوي ، المرجع السابق ، ص 20 .

[4] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 255 .

[5] لعل شعر الطوسي يدل على الرضا الكامل لما آل إليه مصير مضيفه صاحب القلعة .

وحينما مثل صاحب القلعة ركن الدّين خورشاه أكرمه هولاكو وزوّجه من فتاة مغولية ثم أرسله إلى أخيه منكوخان في قراقورم ، إلاّ أنّ هذا الأخير قتله مع جـــميع أهل بيتــه [1].

وحدث أثناء حصار المغول لقلعة كردكوه ظهور وباء في القلعة الأمر الذي تسبّب في وفاة أكثر المحاربين حتى كادت القلعة توشك على السقوط فأسرع علاء الدين بإرسال رجلين هما "مبارز الدين علي توران " و"شجاع الدين حسن السراباني" على رأس قوة عددها عشرة ومائة من المجاهدين المعروفين لمساعدة أهالي القلعة وقد نجح هؤلاء المجاهدون في اختراق صفوف المغول ومرّوا دون أن يصاب أحدهم بأذى ، ودخلوا القلعة فصارت كردكوه محكمة من جديد [2].

ومن الغريب وصف الهمذاني لهؤلاء – الذين كان ينعتهم قبل قليل الملاحدة – بالمجاهدين ، ولفظ الجهاد مصطلح إسلامي أصيل يطلق على المسلمين الذين يقاتلون أعداءهم للدفاع عن أراضيهم ، ولعلّ الهمذاني رأى فيهم طائفة من المسلمين على الرغم ما لها من مآخذ وانحرافات تجاهد غازيا أجنبيا عنها ، فضلا عن شدّة إعجابه بهم جعلته يطلق عليهم هذا الوصف ، بالإضافة إلى التعاطف الواضح في سرده لهذه القصة مع الشيعة الإسماعيلية الذي دأب على وصفهم بالملاحدة [3].

---

[1] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 239 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 244-245 .

[3] نفسه ، مج 2 ، ج1 ، ص 245.

ومما يثير الدهشة والإعجاب أنّه بالرغم من سقوط جميع القلاع الإسماعيلية في ايران[1] بقيت قلعة كردكوه تقاوم الحصار وأبلت بلاء حسنا في مقاومة الغزو المغولي فلقد ظلت تقاوم الحصار عشرين سنة كاملة [2].

ومهما يكن من أمر فقد كان من نتائج حملة هولاكو إبادة الشيعة الإسماعيلية في إيران إبادة تامة لم تُبق لهم أيّ كيان سياسي يمثّلهم بعد ذلك . بالإضافة إلى تلاشي قوّتهم في بلاد الشام من طرف المماليك .

ولقد قتل معظم الشيعة الإسماعيلية في إيران بناء على أمر منكوخان الذي يقضي "بإراقة دماء تلك الطائفة"[3] ، أمّا من قدّر لهم النجاة فقد هاموا على وجوههم في أنحاء الهند وتركستان وإقليم السند (باكستان حاليا) لكنّهم ظلّوا أقليّة قليلة في تلك المناطق ، ولم يقم لهم أيّ كيان سياسي بعد ذلك . وبهذا فقد خلت إيران من المذهب الإسماعيلي بعد الغزو المغولي.

[1] **أنظر الملحق رقم 07 ، ص 336.**

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 255.

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 239 .

المبحث الثاني : سقوط الخلافة العباسية

1-الإرهاصات الأولى للهجمات المغولية على أراضي الخلافة العباسية :

كانت سنة 618هـ/1221م أول محطة للمغول في أراضي الخلافة العباسية حينما كانوا يطاردون محمد خوارزمشاه ، فلمّا انتقل إلى مسامعهم أنّه اتّجه إلى همذان ذهبوا إلى تلك الجهة ، وأخذوا في الإستيلاء على المدن التّي لم تكن محصّنة بما يكفي فبعدما استولوا على مدينة مراغة[1] ، اتّجهوا إلى إربل[2] التي كان عليها مظفر الدين كوكبري [3]، فأرسل يستنجد ببدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[4] ، الذي سيّر له عددا

---

[1] مراغة : مدينة كبيرة مشهورة من بلاد أذربيجان ، كثيرة الأهل عظيمة القدر غزيرة الأنهار كثيرة الأشجار وبها آثار قديمة للمجوس ومدارس وخانقاهات حسنة ، وقد نزل عليها المغول سنة 618هـ فحاصروها أياما وقتلوا أهلها ، وفتحوها عنوة ووضعوا السيف في أهلها ، فقتلوا منهم ما يخرج عن الإحصاء ، وسبوا وحرقوا وفعلوا المنكرات ، للإستزادة أنظر : القزويني ، المصدر السابق ، ص 562 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 535 .

[2] إربل : مدينة كبيرة بالعراق قام بعمارتها وبناء سورها وعمارة أسواقها الأمير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك علي ، فأقام بها ، وقامت بمقامه بها حتى صارت مصرا كبيرا من الأمصار ولها قلعة حصينة لم يظفر بها المغول ، وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ،ج1، ص 138 و العمري ، المصدر السابق ، ج3 ، ص197 ، و القزويني ، المصدر السابق ، ص 290 و كي لسترنج ، المرجع السابق ، ص 121 .

[3] مظفر الدين كوكبري : كان من الملوك والأمراء الأكابر ، لما مات والده زين الدين علي كوجك جعل ولده الأكبر زين الدين يوسف مكانه في إربل وتوفي سنة 586هـ ، وكان مظفر الدين كوكبري من أصحاب صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان إقطاعه حران و الرها فنزل عنهما وأخذ عوضا عنهما إربل وشهرزور ، وقد طال عمره و دام ملكه ، وكان شجاعا مقداما له الأمر النافذ والفتوحات المحمودة وقد خلع عليه الخليفة المستنصر وتوفي سنة 630 هـ . للإستزادة أنظر : ابن الفوطي ، مجمع الآداب ، ج5 ، ص 291-292 و الصفدي ، المصدر السابق ، ج24 ، ص 283.

[4] الموصل : تقع على الجانب الغربي من دجلة ، وسميت بهذا الإسم لأنها وصلت بين الفرات ودجلة ، وقيل لأنها وصلت بين العراق والجزيرة ، وشرب أهلها من دجلة ، وهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان ، ولها ضياعها ممتدة ورساتيق عظيمة وكور كثيرة ، وهي مدينة عتيقة ضخمة عليها سوران وثيقان وباطن الداخل منهما بيوت بعضها على بعض مستديرة بالجدار المطيّف بالبلد كله ، قد أمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه ، فللمقاتلة في هذه البيوت خرز ووقاية ، وهي من المرافق الحربية ، وفي أعلى البلد قلعة=

من العساكر ترابط على جبال إربل الوعرة ، ثم أرسل الخليفة إليهم بأن يجتمعوا في دقوقا[1] لملاقات المغول وأرسل أكبر قائد له آنذاك وهو جمال الدين قشتمر[2] في نحو ثمانمائة فارس وكان المقدم على الجميع مظفّر الدين ، فلما رأى قلّتهم لم يجرؤ على مهاجمة المغول ويورد ابن الأثير ما قاله مظفّر الدين بشأن هذا الأمر "لما أرسل إليّ الخليفة قلت له : إنّ العدوّ قويّ وليس لي من العسكر ما ألقاه به ، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد ، فأمرني بالمسير وواعدني بوصول العسكر ، فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي ، فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين "[3]

ويشير الذهبي بأن المغول قاربوا بغداد ، الأمر الذّي أزعج الخليفة الناصر فأمر الناس بالقنوت وبدأ الدعاء ، كما حصّن أسوار بغداد [4] ، وبذل الأموال للجند [5].

عظيمة قد رصّ بناؤها رصاً ، وهي إحدى قواعد بلاد الإسلام فتحت في عهد عمر الخطاب سنة 20هـ . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 564 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 461 وياقوت ،المصدر السابق ، ج5 ، ص 223 .

[1] دقوقا : مدينة بين إربل وبغداد ، وفي سنة 622هـ قصدها جلال الدين منكبرتي بالخوارزمية فقاتل أهلها قتالا شديدا إلى أن فتحها جلال الدين بالسيف ، وقتلوا كثيرا من أهلها ، فأرسل إليه مظفر الدين صاحب إربل من المال والتحف ما ملأ عينيه ، وأشار عليه أن يترك بلاد الخليفة ويرسل إليه رسولا بالطاعة لتقوم بذلك حرمته عند سلاطين البلاد . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 459 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 244

[2] جمال الدين قشمتر : الناصري ، المستنصري ، كان من أكابر الدولة المستنصرية ، ويقول عنه الذهبي بأنه مقدّم الجيوش الإمامية ، كما يصفه بأنه كان أميرا جليل القدر ، مهيبا وقورا كثير الصدقات والمعروف ، توفي سنة 637 هـ وكان يوما مشهودا حيث غسله الإمام نجم الدين عبد الله الباذرائي الشافعي ودفن بتربته. للإستزادة أنظر: الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج46 ، ص 339 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 413 .

[4] الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج44 ، ص 55 و ابو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص 194 .

[5] الديار بكري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 412

وبعدما انفضت قوات المسلمين عادت عساكر المغول إلى همذان التي كان رئيسها شريفا علويا ، وكانوا قبل ذلك يعطونهم الأموال قصد مداراتهم ، فلما نفذت الأموال لم يجدوا بدا من القتال ، فحوصرت المدينة وقاتل أهلها المغول قتال الأبطال إلا أنها سقطت في أيديهم فأعملوا فيها السيف و النهب ثم أحرقوها [1].

ومن الملاحظ أن الخلافة العباسية لم ترسل أي دعم لنجدة المسلمين في همذان مما يدل على أن الخليفة لم يكن يعنيه سوى الأراضي التي كانت تحت سيطرته الفعلية[2].

وفي سنة 628هـ/1231م هزم المغول جلال الدين الخوارزمي في آمد ، واتخذوا من أذربيجان قاعدة لهم ، وشرعوا بالهجوم على المدن الواقعة على نهر الفرات وفي طريقهم دخلوا القرى المجاورة لمدينة إربل فأعملوا فيها القتل و النهب ، ثم مضوا إلى نصيبين على نهر الفرات فنهبوها وقتلوا من فيها [3] ، ويروي ابن الأثير بأن هجمات المغول على نصيبين[4] والخابور[5] واربل و دقوقا لم تكن بغرض النهب إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردّهم أم لا ، فلما عادوا أخبروا ملكهم من خلوّ

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 414 .

[2] سعد الغامدي ، المرجع السابق ، ص 287.

[3] ابن واصل ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 327 .

[4] نصيبين : مدينة في ديار ربيعة العظمى وهي من بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات ، وهي قديمة عظيمة كثيرة الأنهار والجنات والبساتين ، ولها نهر عظيم يقال له الهرماس عليه قناطر حجارة ، وأهلها قوم من ربيعة بن تغلب ، افتتحها عياض بن غنم الفهري في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة 18هـ ، وكانت تابعة للروم ، فلما افتتحها أسكن المسلمين للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ،ص 288 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 467 و الحميري ، المصدر السابق ، ص577 و ابن الوردي ، خريدة العجائب ، ص 111.

[5] الخابور : نهر يمر بديار ربيعة حتى يصب في الفرات بعد مروره على وسط مدينة قرقيسيا ويسمى الهرماس والخابور أيضا اسم لمدينة على شاطئ الفرات لها بساتين وحدائق . للإستزادة أنظر ، ياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 335 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 211 .

البلاد من مانع أو مدافع وأن البلاد خالية من العساكر فقوي طمعهم فيها [1]. أما ابن الفوطي فيشير إلى أن الخليفة المستنصر بالله قد أرسل جيشا بقيادة جمال الدين قشتمر الناصري إلى نجدة مظفر الدين صاحب اربل واتفقوا إلى المسير إلى شهركرد لملاقات المغول هناك ، فلبثوا شهرين بلا طائل ، فلما يئسوا من قدوم المغول تفرقوا عنها [2].

وفي سنة 633هـ/1235م قصد المغول الموصل عن طريق مدينة إربل فحاربهم عساكرها ، إلاّ أنّ المغول انفصلوا عنهم قاصدين أعمال الموصل ، وما إن وصلوا حتى بدأوا في قتل الناس وأسرهم ونهب أموالهم ، و حينما سمع الخليفة المستنصر بذلك استنفر الأعراب من البوادي والعامة من الناس وفرق عليهم الأموال والسلاح وأسند قيادتهم إلى جمال الدين قشتمر ، فلما خرج عسكر الخليفة المستنصر ووصلوا إلى دربند بلغهم أن المغول قد عادوا أدراجهم [3].

ويذكر ابن العبري أن المغول هاجموا بغداد سنة 634 هـ /1236م مرتين الأولى وصلوا إلى تخوم بغداد وإلى مدينة سرّى من رأى فخرج إليهم مجاهد الدين الدويدار وشرف الدين إقبال الشرابي في عساكرهما فلقوا المغول وهزموهم ، وخافوا من عودتهم فنصبوا المنجنيقات على سور بغداد وفي آخر هذه السنة أعادوا الكرة ووصلوا بجيوشهم إلى خانقين[4] فهزموا جيوش بغداد وغنموا غنائم عظيمة وعادوا أدراجهم[1] .

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 494-495 .

[2] ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 41 .

[3] الغساني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 470 . و ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 80 .

[4] خانقين : هي من أعمال الجبل بقرب شهرزور في طريق همذان من بغداد ، سمي الموضع بذلك لأن النعمان حبس عدي بن زيد وخنقه فيه حتى مات وهناك حبس النعمان حتى مات ، وبخانقين نهر كبير قد بنيت عليه

وفي سنة 635هـ/1237م عاد المغول بغتة إلى إربل في جيش كبير ، فخرجت إليهم العساكر واستعدوا للقتال ، فعدل المغول عنها و قصدوا دقوقا فوصل الخبر إلى الخليفة المستنصر فبعث إليهم شرف الدين اقبال الشرابي ، وحينما تواجه الجيشان ومضى اليوم الأول انسحب المغول وعادوا أدراجهم [2].

وفي سنة 642هـ/1244م قصد المغول ميافارقين[3] فلمّا بلغ صاحبها شهاب الدين غازي قُربهم منها فارقها فعاثوا في ديار بكر[4] أشدّ العيث ، وأخذوا حران[5] والرها[6] ، وملكوا ماردين[1] صلحا [2] .

=قنطرة عظيمة للإستزادة أنظر : الحميري ، الصدر السابق ، ص 210 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 340 .

[1] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 348-349. .

[2] الغساني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 479-480 .

[3] ميافارقين : مدينة مشهور بديار بكر ، بنيت من طرف الفرس ، ثم سقطت بيد الروم ، وفتحت على أيدي المسلمين سنة 18 هـ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أنفذ لها عياض بن غنم ، وقيل إن خالد بن الوليد هو الذي فتحها صلحا . وتقع ميافارقين بين حدود الجزيرة و حدود أرمينية ، وبينها وبين آمد خمسة فراسخ ، وهي منيعة مسورة حصينة وليست بالكبيرة ، ولكنها مأهولة بالناس . ابن الوردي ، خريدة العجائب ، ص 110 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 567 وياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 238 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 565 و كي لسترنج ، المرجع السابق ، ص 143 .

[4] ديار بكر : هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل وحدها ما غرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين من دجلة ، ومنه إلى حصن كيفا وآمد ميافارقين ، وتعد ناحية كبيرة ذات قرى و مدن كثيرة بين الشام والعراق قصبتها الموصل وحرّان وبها دجلة والفرات . للإستزادة انظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ،ص 393 والقزويني ، المصدر السابق ، ص 368 .

[5] حران : مدينة من ديار مضر قديمة عتيقة ، لها قرى متصلة بها ، وعمارات واسعة وتضم خلقا كثيرا ، فتحها عياض بن غنم صلحا في عهد عمر بن الخطاب . وينسب إليها كثير من أهل العلم لعل من ابرزهم الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحرّاني . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، 191-192 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 235-236 و كي لسترنج ، المرجع السابق ، ص 134 .

[6] الرها : مدينة من أرض الجزيرة متصلة بحران ، وهي مدينة ذات عيون كثيرة تجري من منها الأنهار ، وقد فتحها عياض بن غنم صلحا في عهد عمر بن الخطاب سنة 19هـ مثل سائر بلاد الجزيرة ، وقد استولى عليها=

ولما توفي المستنصر بالله في سنة 640هـ/1242م اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدويدار والشرابي على تقليد الخلافة إلى ولده عبد الله ولقبوه بالمستعصم بالله وهو الخليفة السابع والثلاثين و الأخير ، فيصفه المؤرخون بأنه كان صاحب لهو ولعب بالطيور كما إستولت عليه النساء[3] بالإضافة إلى أنه كان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول[4] فاستبد كبراء دولته بالأمر وحسنوا له قطع الأجناد وجمع المال ، وكان إذا نُبه على ما ينبغي فعله في أمر المغول أظهر المداراة والدخول في طاعتهم وتوخّي مرضاتهم ، أو تجييش العساكر وملاقاتهم بخراسان قبل تمكّنهم واستيلائهم على العراق فكان يقول : أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها عليّ إذا نزلت لهم عن باقي البلاد[5].

ويصفه ابن طباطبا بأنّه :" كان رجلا متديّنا ليّن الجانب سهل العريكة عفيف اللّسان حامل لكتاب الله تعالى ، وكتب خطّا مليحا ، وكان سهل الأخلاق ، وكان خفيف الوطأة إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلّع على حقائق الأمور . وكان

=الصليبيون وأسسوا فيها أول إمارة صليبية سنة 491هـ إلا أن حرّرها عماد الدين زنكي سنة 539هـ.للإستزادة أنظر : ابن الوردي ، خريدة العجائب ، ص 112 و الحميري ، المصدر السابق ، ص273 .

[1] ماردين : مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل ، وبينها وبين مدينة دارا نصف مرحلة ، وهي في سفح جبل في قنته قلعة كبيرة وهي من قلاع الدنيا الشهيرة ، وتعد من أحسن وأحكم وأعظم القلاع . وهي مشرفة على دنيسر ودارا و نصيبين وذلك والفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وقد تم فتحها في سنة 19 هـ في أيام عمر بن الخطاب . للإستزادة انظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 518 و ياقوت، المصدر السابق ، ج5 ، ص 39 و القزويني ، المصدر السابق ، ص259 .

[2] ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 151 .

[3] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 223 .

[4] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 276 .

[5] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 446 .

زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني والسّمر، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مُستولين عليه " [1].

وغزا المغول بغداد في عهده مرتين أمّا المرّة الأولى فكانت سنة 643هـ/1245م حيث قصدوا بغداد فخرجت عساكر المستعصم إليهم فلم يكن للمغول بهم طاقة فولّوا منهزمين على أعقابهم تحت جنح الظّلام [2] ، ولعلّ ذلك يرجع لصغر حامية المغول التي أغارت على بغداد فلم تتمكّن من منازلتها [3].

والمرّة الثانية كانت في سنة 647هـ/1249م حيث وصلت طائفة من المغول إلى خانقين وما يجاورها فقتلوا مقتلة عظيمة من الناس ونهبوا غنائم كثيرة ، واقتربوا من ضواحي بغداد ، فخاف النّاس وانزعجوا ، فتقدّم الديوان إلى الأمراء والعساكر بالخروج إليهم وتقدم كافة أهل البلد برمي النشاب والإستعداد و تعليق السلاح في الأسواق والدكاكين ، واستعدت العامة لقتال المغول ، إلا أنّهم عادوا ، ودخلوا الدربند بعد أن قتلوا في دقوقا كثيرا من الناس ، فدخلت العساكر واطمأن الناس [4].

2-حملة هولاكو على بغداد :

2-1/ الرسائل بين هولاكو و المستعصم :

لما انتهى هولاكو من أمر الإسماعيلية في إيران ، سار إلى همذان وأرسل إلى الخليفة المستعصم رسالة يستنكر فيها عدم إرساله جيوش الخلافة لمساعدة المغول في حربهم على القلاع الإسماعيلية ثم طلب منه إن أراد الصفح عما فعل أن يهدم

[1] ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص 333 .

[2] أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 279 .

[3] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 446 .

[4] ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 188 .

الحصون و الحضور إليه بنفسه أو ليرسل إليه الوزير ابن العلقمي أو الدويدار الصغير أو سليمان شاه ، وكانت هذه هي الرسالة الأولىالتي يرسلها هولاكو للخليفة المستعصم[1].

ولما وصل الرسل إلى بغداد وسلّموا الرّسالة للمستعصم شاور وزيره ابن العلقمي فيما يجب فعله ، فأشار عليه ببذل الأموال وحملها إليها مع التحف الكثيرة والأعلاق النفيسة ، فلما شرع في ذلك ثناه الدويدار وغيره ، واتهموا الوزير ابن العلقمي بأن غرضه تدبير مكانه لدى هولاكو فوافقهم الخليفة على ذلك[2] ، وأنفذ لهولاكو شيئا يسيرا مع ابن الجوزي[3] و بدر الدين محمد درنكي النخجواني في صحبة الرسل ، وحمل إليه رسالة شفهية يقول له فيها : أيها الفتى اليافع ، المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطا و متغلبا على جميع العالم المغتر بيومين من الإقبال ، وذكّره الخليفة بأنه القائد الأعلى للمسلمين الذي سيلبون نداءه إذا ما دعاهم للقتال ، وأوصاه بالعودة والإكتفاء بخراسان. وقد كانت هذه الرسالة تحمل بين طياتها التهديد لهولاكو خاصة أنها ختمت بأبيات من الشعر جاء فيها :

فلا تتوان لحظة ولا تعتذر

إذا استقر رأيك على الحرب

إن لي ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة

وهم متأهبون للقتال [4]

---

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 267 .

[2] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 228 .

[3] ابن الجوزي : الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج3 ، ص 285 .

[4] البناكتي ، المصدر السابق ، ص 449 .

وعند ذلك غضب هولاكو من رسالة الخليفة وقال : "إنّ إرادة الله مع هؤلاء القوم أمر آخر ، إذ ألقى في روعهم مثل هذه الأوهام " وردّ عليه هولاكو برسالة مليئة بالتهديد والوعيد يبلغه فيها بأنّ المغول سيحكمون وجه الأرض من الشرق إلى الغرب فمن قبل بالطاعة حفظ دمه ومن خالفهم فهو مهدور الدم ، كما عاتب الخليفة على افتتانه بالمال والجاه والإنحراف عن طريق آبائه وأجداده ، وأخبره بأنه متوجّه إليه بجيش كالنمل والجراد.[1]

لما وصلت الرسالة إلى الخليفة المستعصم اشتدّ ذعره من المغول ولكنّه لم يرد أن يطّلع المغول على خوفه وضعفه فأراد أن يظهر رباطة الجأش لعلّ هولاكو ينسحب ويثني عزمه عن غزو بغداد فأرسل له هدايا صغيرة مع بدر الدين دريكي[2] قاضي بندينجان[3] ورسالة يقول له فيها :"لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال ، إذ أن كل ملك –حتى هذا العهد – قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد ، كانت عاقبته وخيمة ، ومهما قصدهم ذوو السلطة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فإنّ بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى إلى يوم القيامة"[4]. ولقد عدّد الخليفة الغزاة الذين حاولوا غزو الخلافة العباسية وإسقاطها من البساسيري إلى محمد خوارزم شاه الذي كان إلى عهد قريب بهولاكو والذي يعلم

---

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 271 .

[2] بدر الدين دريكي : أحد قضاة الدولة العباسية خلال عهد المستعصم ، للإستزادة أنظر : رشيد الخيون ، **لاإسلام بلا مذاهب** ، دار مدرك للنشر ، المملكة العربية السعودية ، 2018 ، ص 357

[3] بندينجان: بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد وهي تدعى اليوم مندلي . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج1 ، ص499 .

[4] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 275 .

جيدا ما حل به وبأسرته خلال الحملة المغولية الأولى على العالم الإسلامي ، ولذلك فقد سقط الأمر في رأس هولاكو وبلغ منه مبلغا عظيما[1] .

ولعل هذا الرسالة قد أقلقت هولاكو فعلا – الذي كان مولعا بعلم التنجيم – فجعل يستشير منجميه عما سيكون إن هو قصد بغداد بجيشه .

ولقد كان في صحبته بعض المنجمين من بينهم حسام الدين المنجم و نصير الدين الطوسي ، كان الأول مسلما سنيا ، والآخر مسلما شيعيا ، ولما سأل هولاكو حسام الدين أشار عليه بالعدول عن غزو بغداد قائلا له : إنه ليس ميمونا قصد أسرة الخلافة ، والزحف بالجيش إلى بغداد ، إذ أن كل ملك – حتى زماننا هذا – قصد بغداد و العباسيين ، لم يستمتع بالملك و العمر . وإذا لم يصغ الملك إلى كلامي وذهب إلى هناك ، فستظهر ستة أنواع من الفساد :

أولها : أن تنفق الخيول كلها ، ويمرض الجنود

ثانيا : أن الشمس لا تطلع

ثالثا : أن المطر لا ينزل

رابعا : تهب ريح صرصر وينهار العالم بالزلزال

خامسا : لا ينبت النبات في الأرض

سادسا : أن الملك الأعظم يموت في تلك السنة [2].

---

[1] **أنظر الملحق رقم 08 ، ص 337.**

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 279 .

ولمّا كان هولاكو راغبا ومترددا في آن واحد في أمر مهاجمة بغداد فقد إستدعى نصير الدين الطوسي ، واستشاره في الأمر ، فقال له الطوسي " لن تقع أية واقعة من هذه الأحداث ، فقال هولاكو " إذن ماذا يكون ، فقال الطوسي بأن هولاكو خان سيحل محل الخليفة ، ويبرّر الهمذاني فعل الطوسي هذا بأنه خاف من هولاكو[1] ، وظن الأمر على سبيل الإختبار[2] ثم يناقض الهمذاني نفسه حين يذكر بأن هولاكو أحضر حسام الدين ليتباحث مع الطوسي في الأمر فدافع الطوسي عن رأيه قائلا بأن كثير من الصحابة قد استشهدوا باتفاق آراء الجمهور وأهل الاسلام ، ولم يحدث فساد قط ، ولو قيل أن للعباسيين مكرمة خاصة بهم ، فإن طاهراً جاء من خرسان بأمر المأمون وقتل أخاه الأمين ، وقتل المتوكل إبنه بالإتفاق مع الأمراء ، كذلك قتل الأمراء والغلمان المنتصر والمعتز ، وقتل عدد من الخلفاء على يد جملة أشخاص فلم تختل الأمور ومن ثم فإن جواب الطوسي لم يكن بداعي الخوف على الإطلاق.

وعلق الهمذاني على مدى إعجاب هولاكو بتشجيع الطوسي على غزو بغداد بقوله :

فأضاء قلب الملك من قول العالم

كأنه زهرة العلل في الربيع الباكر[3] .

وحينما زحف هولاكو بجيوشه إلى أسوار بغداد أرسل رسالة إلى الخليفة المستعصم يأمره فيها بأن يخرج إليه إن أراد الطاعة أو أن يرسل إليه الوزير ابن العلقمي

---

[1] وهذا ليس مبرّرا على الإطلاق فهل دخل الهمذاني قلب الطوسي فلاحظ ارتفاع نبضاته ليستشعر خوفه ، ولو كان ذلك صحيحا و تملكه الخوف حقا كما إدعى هل هذا يبرر له النتائج الوخيمة لقوله الذي قتلت به مئات الآلاف من المسلمين ، فهل يحفظ نفسه و يضحي بنفوس الآخرين ، بالإضافة أنه قد كان على علم بما قاله المنجم حسام الدين لهولاكو ، وقد كان بإمكانه تأييد رأي حسام الدين أو على الأقل التحفظ في الجواب .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج 1 ، ص 279 .

[3] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 280 .

وسليمانشاه والديودار . فأرسل الخليفة المستعصم رسالته النهائية بعد هزيمة جيوشه أمام جحافل المغول مع وزيره ابن العلقمي برفقة الجاثليق يقول فيها " إن الملك قد أمر أن أبعث إليه الوزير ، ها أنذا قد لبّيت طلبه فينبغي أن يكون الملك عند كلمته" فكان جواب هولاكو على الخليفة بأن هذا الشرط قد طلبه حينما كان في همذان ، وليس الآن وهو عند باب بغداد ، وقد ثار باب الإضطراب والفتنة ، وأخبره بأنه لا يقنع بواحد فقط ، بل يريد الثلاثة معا [1].

2-2/ كيفية حصار بغداد

لمّا عزم هولاكو على غزو بغداد أرسل قائده بايجو نويان على رأس جيش كبير وأمره أن يسير إلى إربل والموصل ليعبر نهر دجلة فيصل إلى بغداد من الجانب الغربي فيحاصرها من الجهة الغربية [2]، وقائده كتبوغا نويان لقيادة الميمنة عن طريق خوزستان بينما هولاكو توجّه في قلب الجيش وبدأ محاصرة بغداد من الجهة الشرقية، ولقد خرجت القوات العباسية بقيادة الدويدار الصغير وسليمانشاه ، وحالوا دون وصولهم إلى بغداد والتقوا قرب جسر دجلة ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الذي ساعدهم على بناء هذا الجسر لعبور الجيوش المغولية هو حاكم الموصل السنّي بدر الدين لؤلؤ [3].

على أية حال فقد ناوشت جيوش بغداد القليلة العدد والعدة جيش المغول واستطاع دحره في بداية الأمر ، لكن سرعان ما تمكن المغول من الإنتصار عليه ، وتفرّق

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 287 .

[2] ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 231 .

[3] الجويني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 206 .

معظمهم بين قتيل وغريق ، بينما فرّ الديويدار الصغير في قلة من جنوده إلى بغداد وتحصنوا بها وهرب البعض الآخر إلى الحلة و الكوفة [1].

وليس بالغريب فشل المواجهة العسكرية بين جيوش بغداد والمغول فقد كان زحف هولاكو إلى أسوار بغداد بجيش يملأ الأرض كالنمل والجراد فكان يقرب من مائتي ألف مقاتل مدرّبين على أقسى أنواع الحروب كما كان يضمّ بين صفوفه وحدات حصار من أمهر المهندسين الصينيين وكانت خطة هولاكو تقتضي حصار بغداد من جميع النواحي وذلك لسدّ جميع المنافذ المؤدّية إليها، بالإضافة إلى الطبيعة البدوية للفرد المغولي مقارنة بحياة الحضر التي كان يعيشها جند بغداد [2].

وقد حاول هولاكو استمالة جنود الخليفة من الأتراك إلى صفّه لكنه فشل في ذلك وظلّوا على إخلاصهم وولائهم للخليفة العباسي وقاوموا المغول إلى النهاية .

عندما أيقن الخليفة المستعصم بالهزيمة أرسل إلى هولاكو يجدّد دعوة السلّم ويوافقه على شروطه مقابل الحفاظ على حياته وحياة رعيته، فأرسل المستعصم الوزير ابن العلقمي رسولا إلى هولاكو ، لكي يفاوضه بشأن الإستسلام ففشل في ذلك ، وفي اليوم التالي خرج الوزير مرة أخرى برفقة رئيس الديوان ، وجمع من الأشراف وأعيان بغداد لكنه هولاكو أعادهم [3].

وفي هذه الأثناء كان المغول يقاتلون من أجل إقتحام أسوار بغداد بالمنجنيقات وبالمقابل كانت البقية من جنود الخليفة والأهالي يقاومون من أجل الدفاع عن مدينتهم ، وكان الوزير ابن العلقمي ومن يرى الصلح يخبرونهم بعدم جدوى القتال

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 286 .
[2] عبد السلام فهمي ، المرجع السابق ، ص 119 .
[3] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 287 .

وبأن الصلح سيقع ، فبرد القتال من الداخل وحمي من الخارج ، ففي الوقت الذي كانت المفاوضات جارية على قدم وساق ، كان جنود المغول قد استولوا على السور العجمي من أسوار بغداد [1].

2-3/ مقتل المستعصم و سقوط الخلافة العباسية

وحين عاد الوزير ابن العلقمي إلى الخليفة أقنعه بالخروج إلى هولاكو مستسلما له فخرج ولده الأكبر فعامله هولاكو بما يليق من الإحترام والإجلال ، وحينما علم الخليفة المستعصم بذلك اقتنع بفكرة الخروج له ، فخرج إليه يوم الرابع من صفر من سنة 656هـ/1258م في أربعمائة من الأمراء وشيوخ البلد وكبار الدولة ، فأمر هولاكو بتفريقهم ، وعزل الخليفة عنهم ، ثم أمر بقتله رفسا بالأقدام دون أن يهرق دمه في يوم الرابع عشر من صفر من سنة 656هـ/1258م [2].

بعد قتل الخليفة ألحق به كبار الدولة و أعيان البلد ، وشيخ الشيوخ و أكابر العلماء وقتل من أولاده ولده الأكبر أبو العباس أحمد والعامة تسميه أبا بكر والأوسط أبو الفضل عبد الرحمان ، أما ولده الأصغر مبارك وبنات الخليفة فإنه لم يقتلوا بل تم أسرهم ، وانتهت الخلافة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون [3].

دخل هولاكو بغداد ، واستباحها أياما طوالا ، أعمل فيها جند المغول قتلا و نهبا وسبيا وحرقا لمدة أربعين يوما حتى "صار الدم في أزقتها كأكباد الإبل" ، ودمرت المكتبات والحضارة التي أدهشت العالم [4].

---

[1] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 233 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 286

[3] ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص 333 .

[4] ابن الساعي ، المصدر السابق ، ص 126 -127.

والواقع أن الخلافة العباسية كانت تحتضر منذ زمن بعيد ، وكانت تنتظر من يجهز عليها منذ دهر ، فلم يكن هولاكو سوى قدرها الأخير الذي رسم موتها بصورة بشعة بقيت خالدة في بطون كتب المؤرخين ويصف الصياد الحالة التي كانت عليها الدولة بقوله :" وهكذا عاشت الدولة العباسية لتشهد انسلاخ الأطراف عنها واحدا بعد الآخر ، حتى إذا اقتربت نهايتها ، لم يبق لها غير القلب الذي صار ينبض في جسد عليل لا يكاد يتجاوز إقليم العراق وخوزستان ، وهذا القلب قد اختلت دقاته ، وانقطع نظامه ، بحالة لا يمكن أن يقف معها لمواجهة اليد الباطشة القوية التي امتدت إليه من الشرق "[1] .

3-دور الشيعة في سقوط بغداد

3-1/ موقعة الكرخ :

تعتبر موقعة الكرخ سنة 654هـ/1256م محطة من أهم المحطات التاريخية في تاريخ العلاقات السنية الشيعية في بغداد ذلك أن جميع المؤرخين يذكرون هذه الحادثة بأنها كانت السبب في خيانة الوزير الشيعي ابن العلقمي للخليفة العباسي المستعصم ذلك أن هذه الوقعة قد كانت بين السنة والشيعة فانحاز عساكر الخليفة بقيادة مجاهد الدين الديويدار وأبي بكر ابن الخليفة إلى المعسكر السني و داهموا حي الكرخ الشيعي فقتلوا الرجال وسبوا النساء ، فحقد الوزير على ما أصاب قومه من القتل والسبي وكاتب المغول لأجل ذلك ، فيذكر الجوزجاني هذه الحادثة قائلا: "وكان ابن أمير المؤمنين قد أغار عليهم وقتل البعض منهم"[2] ، ويورد ابن الفوطي بأنّ سبب هذه الفتنة هي مقتل رجل من قطفتا على يد رجل من أهل الكرخ فاستغاث

[1] الصياد ، المرجع السابق ، ص 250-251 .

[2] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 206 .

أهله بالجند فعملوا على زجرهم وردعهم وتبعهم العوام إلى الكرخ فخرجت الأمور عن السيطرة حتى سبيت النّساء العلويّات وسفكت الدماء ، وعظمت الفتنة ، فخوطب الخليفة في أمرهم فأمر بالكف ونودي بالأمان ، وأمر الخليفة بإرجاع كل السلب والسبي إلى أصحابهم ففعلوا ، ثم جيء بالقاتل و صلب بباب الكرخ [1].

3-2/ دور ابن العلقمي :

هو محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب البغدادي يصفه الغساني بأنه كان "عالما فاضلا أديبا حسن المحاضرة دمث الأخلاق ، خير النفس كارها للظلم خبيرا بتدبير الملك ، لم يباشر قلع بيت ولا استئصال مال"[2] في حين يصفه الذهبي "بأنه كان ذا حقد و غلّ على أهل السنّة "[3].

يعتبر الجوزجاني أول مؤرخ ينسب إلى ابن العلقمي تهمة الخيانة ويردّ سبب ذلك إلى موقعة الكرخ فيقول "وكان لأمير المؤمنين المستعصم بالله وزيرا فاسد الدين ورافضي اسمه أحمد بن العلقمي وقد وقعت بينه وبين الابن الأكبر لأمير المؤمنين خصومة بسبب الغارة على الروافض الذين كانوا يسكنون الكرخ ومشهد موسى بن جعفر رضي الله عنهما ، وانتقاما لذلك كتب رسائل في السر والخفاء لهولاكو، وتواطأ معه واستدعى الكفار، وأرسل جيوش العراق المحتشدة من بغداد إلى الأطراف بموافقة

[1] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 225-226 و الغساني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 621 . و ذكر ابن طباطبا ذلك في حديثه عن الخليفة المستعصم بقوله " ولم يجري في أيام المستعصم شيء يؤثر سوى نهب الكرخ و بئس الأثر ذلك " ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص 334 .

[2] الغساني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 640 .

[3] الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج3 ، ص 284 .

الخليفة ، وأظهر لأمير المؤمنين أنه قد أظهر صلحا مع الكفار، ولا حاجة للجيش فخلت بغداد من الجنود وفجأة وصل جنود كفار المغول إلى أنحاء بغداد ".[1]

أما الهمذاني فيبرئ ساحة ابن العلقمي تماما و يتحامل على مجاهد الدين الدويدار الصغير الذي يصوره قائدا يحتضن مجموعة من اللصوص والرعاع الذين كانوا تحت يده ويقومون بالسلب و النهب بين العامة في بغداد ، بل ذهب الهمذاني إلى أبعد من ذلك حين يقول بأنه " لما لمس في نفسه القوة ، ورأى الخليفة المستعصم عاجزا لا رأي له ولا تدبير و ساذجا ، اتفق مع طائفة من الأعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين مكانه " . ولعلّ هذا الكلام أبعد ما يكون من الحقيقة ، بل ربّما قال الهمذاني هذا الكلام ليظهر ابن العلقمي في هيئة الوزير المخلص لسيده فيذكر بأن الوزير حينما أبلغ الخليفة بما جرى استدعى الديويدار على الفور ، وأطلعه على ما قاله الوزير في شأنه فأنكر ذلك وسأل العفو والغفران ، بل واتّهم الوزير ابن العلقمي بالتزوير والخداع و التجسس لصالح هولاكو . ثم يعرّج الهمذاني بأنّ الأهالي قد ملّوا العباسيين وكرهوا حكمهم ، وبهذا تتضّح الظروف التي كتب فيها الهمذاني كتابه فقد كان بين أحضان المغول يكتب على لسانهم ، ومن ثم فما رواه بشأن هذه الحادثة يجانب الصواب في كثير من الأمور [2].

على أنّه حينما تأكّد الخليفة المستعصم من الهلاك سأل الوزير ابن العلقمي "ما حيلتنا" فردّ عليه الوزير بأنّ " لحيتنا طويلة " وكان يعني بذلك بأنه لما أشار ببذل الأموال الكثيرة ومهادنة هولاكو عارضه الدويدار الصغير بقوله " إن لحية الوزير طويلة " فرجع الخليفة عن رأي الوزير ومال إلى رأي مجاهد الدين الدويدار [3] ويدافع

---

[1] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 206.

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 262-263 .

[3] ميرخواند ، تاريخ روضة الصفا ، كتا بفروشيهاى خيام ، تهران ، 1339هـ ، جلدسوم 5 ، ص 341 .

الغامدي عن الوزير ابن العلقمي باستماتة شديدة وينفي جميع ما كتبه المؤرخون الذين أدانوا ابن العلقمي بتهمة الخيانة بقوله "فإن تلك الأقاويل والاتهامات ،اختلاق قام به الدويدار كما قال الخليفة عنه ، فكانت منه اتهامات مضادّة وجّهها ضدّ الوزير ، فرُوّج لها ، ونادى بها المسلمون الآخرون من أهل السنّة –لغرض التشنيع– ودُوّنت في مصادرهم وبمرور السنين ، أصبحت كأنّها حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل"[1].

ويستطرد الغامدي في تحليلاته حول هذا الأمر ويعلق بأنه من المستحيل أن يذهب الوزير إلى كل هذا التطرف ويدعو المغول ويحثهم على القدوم إلى العراق لوضع حد للأسرة العباسية ، فلا دليل على رسل بين هولاكو وابن العلقمي[2]، بالإضافة أن العلاقة بين الخليفة ووزيره كانت وطيدة ، فضلا على أن الإتهامات جاءت من الجوزجاني[3] وهو مؤرخ يعيش في دهلي و الآخر أبو شامة و كان يعيش في دمشق [4]، وهما بعيدان كل البعد عن بغداد وما يجري فيها من أحداث ، ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن حملة هولاكو على المشرق الإسلامي قد تم تقريرها قبل أن يبدأ العداء بين الوزير والدويدار ، فقد تقررت في سنة 651هـ /1253م وحينها كان شرف الدين إقبال الشرابي ما يزال حيا ، وكان يعتبر الرجل الأقوى في البلاط العباسي [5].

ويضيف الغامدي بأن المجازر التي ارتكبها المغول في بغداد لم تفرق بين مسلم سنّي وآخر شيعي ، فذاق الجميع من نفس الكأس دون تمييز ، كما كان رأي الوزير ابن العلقمي في نصحه للخليفة ببذل الأموال الكثيرة وذكر هولاكو في السكة مثلما

[1] سعد الغامدي ، المرجع السابق ، ص 343 .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 490–491 .

[3] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 206 .

[4] أبو شامة ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 304 .

[5] سعد الغامدي ، المرجع السابق ، ص 343 –344.

كان الحال أيام البويهيين والسلاجقة مرده بمعرفته بعدم جدوى المقاومة . ولقد رأى الخليفة هذا الرأي فعلا إلا أنّ الدويدار قد رفضه جملة وتفصيلا ، بل هدّد بنهب تلك الأموال والهدايا والتحف التي ستذهب إلى هولاكو ، فقرر الخليفة إرسال شيء يسير فقط رفقة الرسل [1].

وكانت لتصحّ هذه الافتراضات والتحليلات التي ذكرها الغامدي بشأن الروايات التاريخية التي كتبها أهل السنّة لاتّهام ابن العلقمي بالخيانة العظمى للخليفة المستعصم بالله العباسي ، فهو يرى ذلك من منظور أنّ جميع المؤرخين قد نقلوا هذه الرّواية التي تدين ابن العلقمي من كتاب الجوزجاني وأبى شامة اللّذين كانا بعيدين عن بغداد ، لولا وجود مؤرخ بغدادي لا يعرف ما إذا كان سنيّا أم شيعيّا ، فيذكره محسن الأمين بين صفوف أعيان الشيعة[2] بينما يذكره ابن قاضي شهبة الدمشقي بأنّه شافعيّ المذهب [3].

لم يكن هذا المؤرخ سوى ابن الساعي[4] الذي ولد ونشأ في بغداد وكان مقربا من دواليب الحكم في البلاط العباسي وتوفي سنة 674 هـ ، وكان ممن نجوا من واقعة بغداد ، وقد كتب هذا المؤرخ متهما ابن العلقمي مايلي " وسببه أن وزير الخليفة مؤيد

---

[1] نفسه ، ص 345 .

[2] محسن الأمين ، **أعيان الشيعة** ، تحقيق : حسن الأمين ، دار التعارف ، بيروت ، 1983 ، مج8 ، ص 176 .

[3] ابن قاضي شهبة الدمشقي (أبي بكر بن أحمد ت 851هـ) ، **طبقات الشافعية** ، تحقيق : عبد العليم خان ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، 1979، ج2 ، ص 179.

[4] ابن الساعي : هو علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله بن عبد الرحمان بن عبد الرحيم ، المؤرخ الكبير تاج الدين أبوطالب البغدادي المعروف بابن الساعي ، ولد سنة 593هـ وقرأ القراءات على أبي البقاء العكبري ، وسمع الحديث من جماعة ، كان فقيها قارئا بالسبع محدثا ، مؤرخا ، شاعرا كريما ، له عدة مصنفات كثيرة في التفسير والحديث والفقه والتاريخ منها ولم يصلنا منها إلا القليل وتوفي ببغداد سنة 674هـ وهذا يعني أن الرجل كان شاهد عيان في دخول المغول إلى بغداد . للإستزادة أنظر : ابن قاضي شهبة الدمشقي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 179 -180

الدين بن العلقمي كان رافضيّا وكان من أهل الكرخ ، وكان أهل الكرخ كلهم روافض فجرت فتنة بين السّنة والشيعة ببغداد على العادة ، فأمر الخليفة العسكر فنهبوا الكرخ وركبوا من النساء الفواحش ، فعظم ذلك على ابن العلقمي و كاتب التتار وأطمعهم في البلاد ، فيقال أن هولاكو لما وصلت إليه مكاتبة الوزير تنكر ودخل بغداد في زي تاجر واجتمع بالوزير وبأكابر الدولة وقرر القواعد معهم ورجع إلى بلاده فتجهّز وسار إلى بغداد في جموع عظيمة من المغول ونزلوا على الجانب الشرقي في سنة ستّ وخمسين وستمائة وخرج إليهم الوزير فاستوثقوه على أهله ونفسه ثم رجع إلى الخليفة وقال أنّ هذا جاء ليزوج ابنته بإبنك ، ولم يبرح حتى أخرجه إليه فأنزلوه في خيمة وجعل الوزير يخرج إليهم أكابر بغداد طائفة بعد طائفة حتى إكتملوا عند التتار فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم "[1].

وعلى ما في هذه الرواية من الغرابة خاصة فيما يتعلق بدخول هولاكو في زيّ التجار بالإضافة إلى مكاتبة الوزير للمغول وإطماعهم في البلاد ، فالمغول قبل كل شيء لم يكونوا في حاجة إلى من يكاتبهم في التوجّه والإستيلاء على بغداد ، أما أنّ سبب مكاتبهم أن الوزير كان حاقدا على الخلافة العباسية نظرا لما ارتكبه جند الخلافة من قتل وسبي لحي الكرخ الشيعي ، فإن هذا قد حصل سنة 654هـ/1256م أي بعد تقرير الحملة المغولية الثانية على العالم الإسلامي بحوالي ثلاث سنين ، ومن ثمّ فمن غير المنطق أن تكون مكاتبة الوزير ابن العلقمي هي السبب في قدوم المغول لبغداد ، ولعل أصحاب هذا الرأي يريدون مداراة ضعف السلطة السياسية التي كان

[1] ابن الساعي ، المصدر السابق ، ص 126 .

على رأسها خليفة ضعيف لم يقدّر عواقب التقدّم المغولي جيدا ، وبالتالي تجنيبه المسؤولية الرئيسيّة في سقوط بغداد وتحميلها للوزير ابن العلقمي فقط [1].

ومن خلال ما سبق لا ننفي خيانة ابن العلقمي للخليفة العباسي المستعصم ، كما لا نقبل بهذه الروايات التي تجعله السبب الرئيسي في سقوط بغداد . ولعلّ تلك التّهم التّي وجّهها الدويدار لابن العلقمي كانت مجرد اتهامات باطلة راجت بين الناس حتى أخذت بعد ذلك على أنها حقيقة دامغة ، كما أنّه من المرجح أنّ خيانة ابن العلقمي للمستعصم قد بدأت بعد أن ذهب إلى هولاكو رسولا من الخليفة ، فحين تأكّد من عزم هولاكو على استباحة بغداد ورأى الخليفة غير مبال لنصائحه آثر النجاة بنفسه والوقوف إلى جانب المنتصر فإن حصلت الخيانة فعلا فهي لم تكن بسبب المذهب بل كان السبب فيها اليأس من استمرار حاكم ضعيف على سدّة الحكم بعد وصول جحافل المغول ، ويروي ابن الفوطي بيتا من الشعر أنشده ابن العلقمي جاء فيه :

كيف يرجى الصّلاح من أمر قوم ضيّعوا الحزم فيه أيّ ضياعِ

فـــــــمُطاعِ الكلام غير سديد وســـــديد المقال غير مطاعِ [2].

وأما ابن كثير الذي يقول : "كان الوزير ابن العلقمي يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط أسمائهم من الديوان ، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبا من مائة ألف مقاتل .. فلم يزل يجتهد في تقليلهم ، حيث لم يبق منهم سوى عشرة آلاف"[3] فيعزى هذا التصرف إلى الأسباب الإقتصاديّة البحته ، فقد كانت خزينة بيت مال المسلمين تعاني من صرف مرتّبات هؤلاء الجند بدون أيّة حروب قائمة أو تهديد

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 514 .

[2] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، 230.

[3] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج13 ، ص 202 .

موشك ، رأى الوزير أنّه من الأجدى صرف هذه الأموال في وجوه أخرى ، الأمر الذي وافقه عليها الخليفة ولم يعارضه رجال الدولة الأقوياء ، وهذا إن صحّ ما نُسب إليه من تقليل العساكر .

3-3/ دور نصير الدين الطوسي :

اعتبر المؤرخون نصير الدين الطوسي شريكا لابن العلقمي في التآمر مع المغول ضد الخلافة العباسية ، وهو محمد بن محمد بن الحسن الطوسي[1] ، مولده بطوس[2] يوم السبت حادي عشر من شهر جمادى الأولى[3] سنة 597 هـ / فبراير 1201 م[4]، وقيل أن أصله من جهرود ، وولد في طوس فاشتهر بها[5]، ويكنى بأبي جعفر ، بينما يطلق عليه الذهبي[6] وابن كثير كنية أبي عبد الله .

---

[1] الكتبي (محمد بن شاكر ت 764هـ) ، **فوات الوفيات والذيل عليها** ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د ت ن ، مج 3 ، ص 246 .

[2] طوس : مدينة في خرسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ هي كبيرة حسنة المباني كثيرة الأسواق شاملة الأرزاق عامرة الأمكنة ، فتحت في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، بها قبر هارون الرشيد و علي بن موسى الرضا . للإستزادة أنظر : ياقوت الحموي ، **المصدر السابق** ، ج 4 ، ص 49 و الإدريسي ، **نزهة المشتاق في إختراق الآفاق** ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 2002 ، مج2 ، ص 692 .

[3] محمد تقي مدرس رضوي ، **العلامة الخواجة نصير الدين الطوسي حياته و اثاره** ، ترجمة : علي هاشم الأسدي : مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة ، إيران ، 1998 ، ص 11 .

[4] عباس سليمان ، **نصير الدين الطوسي كاتب قلعة ألموت** ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1995 ، ص 16 .

[5] محمد بن علي الأردبيلي ، **المصدر السابق** ، ج 2 ، ص 188 .

[6] الذهبي (محمد بن أحمد ت 748هـ) ، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام** ، تح : عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، 1999 ، ج 50 ، ص 114 .

ولقد تعددت ألقاب الطوسي ، فيذكره ابن كثير بـــ " المولى نصير الدين "[1] ، بينما يصفه الكتبي[2] بـــ"الفيلسوف" ، في حين ينعته الذهبي[3] بـــ "الخواجة نصير الدين الطوسي" . هذا بالنسبة لبعض كتب أهل السنة .

أما كتب الشيعة فلقد غلبت على سطورها عبارات المدح و الثناء وحملت في طياتها آيات الإجلال والتعظيم لنصير الدين الطوسي ، فيصفه الخوانساري[4] بـــ بـــ "سلطان المحققين ، وبرهان الموحدين مولانا الخواجة نصير الملة والدين" وعباس القمي [5] بـــ " أفضل الحكماء و المتكلمين ، سلطان العلماء والمحققين والمحققين علامة البشر والعقل الحادي عشر " والأردبيلي[6] بـــ " قدوة المحققين و سلطان الحكماء والمتكلمين " .

وعلى غرار ابن العلقمي فقد اختلف المؤرخون أيضا فيما إذا كان للنصير الطوسي نصيب من الخيانة و دور في سقوط بغداد وقد تباينت مواقف المؤرخين بإختلاف مشاربهم ومذاهبهم فاختلفوا ما بين مؤكد مفند ومتحفظ .

أ)- الروايات المؤكدة :

يعتبر ابن تيمية وابن القيم الجوزية من أشد القادحين على النصير الطوسي بسبب دوره في سقوط بغداد حيث يرى ابن تيمية أن الروافض قد أعانوا المغول على قتل

---

[1] ابن كثير المصدر السابق، ج 17 ، ص 514 .

[2] الكتبي ، المصدر السابق ، مج 3 ، ص 246 .

[3] الذهبي ، المصدر السابق ، ج50 ، ص 114 .

[4] محمد باقر الخوانساري ، **روضات الجنات في أحوال العلماء السادات** ، تح : أسد الله إسماعيليان ، الدار الإسلامية ، لبنان ، 1991 ، ج 6 ، ص 278 .

[5] عباس القمي : **الفوائد الرضوية في أحوال علماء المذاهب الجعفرية** ، تح : ناصر باقري ، مؤسسة البستان ، ، إيران ، 1965 ، ج2 ، ص 933 .

[6] الأردبيلي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 188 .

المسلمين كالوزير ابن العلقمي و المنجم نصير الدين الطوسي [1] ، كما يرى في موضع آخر أنهم من أعظم الأسباب في دخول المغول إلى بلاد المسلمين [2] .

ويعلق على دور الطوسي قائلا :" إنّ هذا الرجل – يقصد الطوسي– أُشتهر عند الخاص والعام أنّه كان وزير الملاحدة بالألموت ، ثم لمّا قدم الترك المشركون إلى بلاد المسلمين وجاءوا إلى بغداد ، كان هذا منجما مشيرا لملك الترك المشركين هولاكو ، وأشار عليه بقتل الخليفة ، وقتل أهل العلم والدين واستبقاء أهل الصناعات والتجارة الذين ينفعونه في الدنيا [3]

ويوافقه تلميذه الشهير ابن القيم الجوزية في ذلك ويضيف عليه بقوله " ولماّ إنتهت النوبة إلى نصير الشرك و الكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفا إخوانه من الملاحدة وإشتفى هو فقتل الخليفة و القضاة والفقهاء والمحدثين واستبقى الفلاسفة والمنجمين والسحرة " [4] .

أما ابن كثير فقد أكّد على دور الطوسي في مقتل الخليفة حين تطرق إلى غزو بغداد من قبل المغول في حوادث سنة 656هـ ، ثم نفى ذلك عنه عندما تطرق للحديث عن وفاته في حوادث سنة 672هـ ، فارتأيت ذكر الرأيين معا ، وقد ذكر مؤكدا دوره بأنه لما قدم هولاكو بغداد و أشار ابن العلقمي على الخليفة بالخروج والمثول بين يديه لتقع المصالحة بينهما على أن يؤدي الخليفة لهولاكو نصف خراج

---

[1] ابن تيمية (أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني ت728هـ) ، **منهاج السنة النبوية** ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، د د ن ، السعودية ، 1986 ، ج5 ، ص 155 .

[2] نفسه ، ج 7 ، ص 414 .

[3] ابن تيمية ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 447 .

[4] ابن القيم الجوزية (ت751هـ) ، **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان** ، تحقيق : علي الحلبي ، دار ابن الجوزي ، الأردن ، د ت ن ، ج2 ، ص 1014 .

بغداد ، فأقنع الخليفة بذلك وخرج مع أكابر دولته إلى هولاكو فقتلوا عن آخرهم وقد حرّض ابن العلقمي هولاكو على قتل الخليفة وعدم مصالحته ويذكر ابن كثير بأن الذي أشار عليه بقتله الوزير ابن العلقمي والنصير الطوسي ، بل يزيد ابن كثير من دور هذين الرجلين بأنه لمّا تهيّب هولاكو من قتل الخليفة هوّن عليه الوزيران ذلك فقتلوه رفسا لئلا يقع على الأرض شيء من دمه [1].

كما يذكر ابن العماد الحنبلي و يتهم الطوسي في تحريضه واشتراكه مع هولاكو في قتل الخليفة العباسي وتعريض المسلمين للسيف كما ينقل ذلك عن ابن القيم الجوزية بشيء من الإيجاز [2] .

وإن كان البعض من المؤرخين يرى لهذه الروايات الآنفة الذكر سببا يدعو للطعن لما فيها من التحامل المذهبي التي تفوح من بعضها خاصة الرواية الأولى لابن تيمية[3] ، فإنّ الروايات التالية لا تقبل مجالا للطعن بحجّة الميل المذهبي على الأقل فهي مستمدة من بعض المؤرخين الشيعة أنفسهم ، وعلى رأسهم القاضي نور الله الششتري الشيعي المرعشي المتوفى سنة 1019هـ الذي إعترف صراحة في كتابه مجالس المؤمنين بالدور الذي لعبه ابن العلقمي والنّصير الطوسي فقال " إنه كاتب

---

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 17 ، ص 358-359 .

[2] ابن العماد الحنبلي (ت1089هـ) ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، لبنان ، 1991 ، مج 7 ، ص 592 .

[3] ويقصد بها رواية ابن تيمية التي يبدو فيها متحاملا على الشيعة عموما أو الروافض كما يسميهم ، ويضعهم جميعهم على صعيد واعد هو إعانة الترك أو المغول على قتل المسلمين ، و لا تخفى درجة المبالغة في هذا الحكم نظرا لما فيه من تعميم .

هولاكو والخواجة نصير الدين الطوسي ، وحرّضهما على تسخير بغداد للإنتقام من العباسيين بسبب جفائهم لعترة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم وآله " [1] .

في حين يتفاخر الخوانساري ، بما فعله الطوسي ويعد ذلك من مناقبه فيذكر أن الطوسي رغّب هولاكو في تسخير عراق العرب فعزم على فتحها ، فسخّر البلاد والنواحي وإستأصل الخليفة المستعصم [2] [3] .

ويضيف الخوانساري مؤكدا على دور الطوسي بقوله " ومن جملة أمره المشهور حكاية إستوزاره للسلطان المحتشم في محروسة إيران هولاكو بن تولوي بن جنكيزخان من عظماء سلاطين التترية وأتراك المغول ، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الإستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد [4] وقطع دابر سلسلة البغي والفساد وإخماد ثائرة الجور والألباس بأبداد دائرة ملك بني العباس ، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطّغام ، إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار فانهار بها في ماء دجلة ومنها إلى نار جهنم دار البوار ومحل الأشقياء والأشرار "[5].

---

[1] محمد علي البار ، **كيف أسلم المغول** ، دار الفتح للدراسات و النشر ، الأردن ، 2008 ، ص 112 . نقلا عن نور الله الششتري ، مجالس المؤمنين ، ص 400 .

[2] الخوانساري ، المرجع السابق ، ج6 ، ص 293 .

[3] ولا تخفى مبالغة الخوانساري في دور الطوسي و إعطاءه أكثر من حجمه الطبيعي في البلاط المغولي فلا يعدو كونه مشجع و محرّض على غزو بغداد و ليس مخطط و مدبّر لغزوها .

[4] يتحدث الخوانساري عن هذه المجزرة ، و كأن الطوسي جاء رفقة المغول فاتحين لهذه الديار الوثنية و أضاؤوها بأنوارهم الروحانية ، وقد نسي هذا الغافل ما أحدثه المغول الوثنيون في أهل دينه من المسلمين في بغداد من قتل و سبي و دمار و إحراق حتى تحول ماء دجلة إلى لون المداد .

[5] الخوانساري ، المرجع السابق ، ج6 ، ص 289 .

ب)- الروايات المفنّدة :

من الروايات التي تفند أي دور للطوسي في سقوط بغداد روايتان الأولى شيعية و الأخرى سنيّة ، أما الرواية الأولى الشيعية فهي لإبن طباطبا الذي يبرئ الشيعة عموما و يصف الوزير ابن العلقمي بالرجل العاقل المكفوف اليد المترفع عن الأموال وفي رأيه أنّ لا يد له أيضا في سقوط بغداد بل على العكس تماما كان ابن العلقمي هو النّاصح الأمين الذي يشير على الخليفة بالحيطة والاستعداد للمغول ، وابن طباطبا وإن كان يدافع عن ابن العلقمي بشكل خاص فإنه يدافع عن الشيعة بشكل عام ، الشيعة الذين ينتمي إليهم النصير الطوسي [1] ، أما الغريب في الأمر فهو في الرواية الثانية إذ أن صاحبها سنّي بل من عمدة أهل السنة الحافظ ابن كثير الذي يدافع عن الطوسي بقوة و لكنه لا يؤكد شيئا مما يقول فيذكر أن من الناس من يزعم أنه أشار على هولاكو بأن يقتل الخليفة فالله أعلم ، وعندي أن هذا لا يصدر من فاضل ولا عاقل ، وقد ذكره بعض أهل بغداد فأثنى عليه وقال : كان فاضلا كريم الأخلاق [2] . ومن هذا يلاحظ أن العامل المذهبي للمؤرخين لا يؤثر على الكتابة التاريخية في كل الأحيان .

ج)- الروايات المتحفظة :

يتحفظ عدة مؤرخين عن ذكر أي دور للنصير الطوسي في سقوط بغداد ومن بينهم ابن الساعي (ت 674هـ/1275م)[3] و ابن الفوطي (ت723هـ/1323م)[4] و الذهبي

---

[1] ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص 333-335 .

[2] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 514 .

[3] ابن الساعي (علي بن أنجب ت 674 هـ) ، **مختصر أخبار الخلفاء** ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر ، 1891م ، ص 126 .

[4] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 233 .

(ت748هـ/1347م)[1] و ابن الوردي (ت749هـ/1348م)[2] و ابن خلدون (808هـ/1405م)[3] والقلقشندي (ت820هـ/1417)[4] والسيوطي(911هـ/1505م)[5] عن ذكر أي دور للنصير الطوسي في سقوط بغداد ، ولكنهم يتفقون على جملة من الأمور في :

- الفتنة بين حي أهل الكرخ الشيعي و حي باب البصرة السنّي ببغداد .
- مهاجمة عسكر الخليفة لحي الكرخ و وقتل الرجال و سبي النساء .
- خيانة الوزير ابن العلقمي لخليفته و مكاتبته للمغول من أجل الإنتقام.
- إشارة الوزير على الخليفة بتقليص عدد الجند من مائة ألف إلى أقل من عشرين ألف.
- خروج مجاهد الدين الدويدار إلى عسكر المغول و هزيمته ورجوعه إلى بغداد
- إقناع الوزير ابن العلقمي الخليفة المستعصم بالإستسلام والخروج إلى هولاكو
- إشارة الوزير ابن العلقمي على هولاكو بقتل الخليفة المستعصم .

- 4)- رؤية في سقوط بغداد

يبدأ جل المؤرخين في الحديث عن سقوط بغداد بالفتنة التي جرت فيها بين أهل السنة والشيعة ، والتي أمر الخليفة فيها عسكره بنهب حي الكرخ الشيعي فنهبوه

---

[1] الذهبي ، **دول الإسلام** ، تحقيق : حسن إسماعيل مروة ، دار صادر ، بيروت ، 1999 ، ج2 ، ص 171-172 .

[2] ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر ت749هـ) ، **تاريخ ابن الوردي** ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1996 ، ج2 ، ص 189 .

[3] ابن خلدون ، المصدر السابق، ج3 ، ص 662-663 .

[4] القلقشندي (ت820هـ) ، **مآثر الأنافة في معالم الخلافة** ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، بيروت ، د ت ن ، ج2 ، ص 89-90 .

[5] السيوطي ، المصدر السابق ، ص 366 .

وركبوا من النساء الفواحش[1] فعظم ذلك على وزيره ابن العلقمي وأراد الإنتقام لهذه الإهانة التي حلت به وبطائفته ، فلم يجد حرجا من مكاتبة المغول وإطماعهم في البلاد وكان يهدف بذلك إلى غسل الإهانة وإقامة خليفة علوي[2] ولم يكن لإبن العلقمي أن يفكر بهذه الخيانة العظمى لولا ظلم الخليفة لرعيته من الشيعة التي ينتمي إليها هذا الوزير ، فالخليفة بهذا التصرف لم يكن عادلا على الإطلاق فضلا على أنّه وصف كما يذكر القلقشندي[3] و السيوطي [4] من أنه كان ضعيف الرأي ، قليل التدبير وعلى هذا إستمع إلى رأي وزيره إبن العلقمي بتسريح أكثر جنوده[5] ، وسرعان ما كاتب ابن العلقمي المغول الذي لم يكونوا ينتظرون رسائله حتى يهاجموا بغداد ، فقد كانت من مخطاطاتهم منذ وقت طويل ومما يدل على ذلك تلك الغارات الإستطلاعية التي كانوا يكتشفون بها أعمال بغداد كما تقدم ذكره ، وعلى هذا فلم يكون المغول بحاجة إلى كتابة إبن العلقمي لإطماعهم فيها أو تشجيع الطوسي لهولاكو على غزوها بل كان أمرا محتوما ساعدت عليها بعض الظروف والعوامل التي من أبرزها خيانة هذين الرجلين للأمة الإسلامية بكل طوائفها ، وجلوس خليفة ضعيف على كرسي الحكم وحوله أمراء يكيدون لبعضهم البعض ، فلم يخلصوا لسيّدهم النصيحة فكان ما جرى من إنتهاء دولتهم و أفول نجمهم .

- ومما يؤخذ على الطوسي هو بقاءه إلى جانب الطاغية الوثني المغولي هولاكو بل و تأييده على مواصلة زحفه إلى بلاد الشام ، ولعل خير دليل على ذلك كتابته لرسالة صاحب حلب كما سيأتي ذكره .

---

[1] ابن الساعي ، المصدر السابق ، ص 126 .

[2] ابن الوردي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 189 .

[3] القلقشندي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 89 .

[4] السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 366.

[5] القلقشندي ، مآثر الخلافة ، ج2 ، ص 89 .

- وإن كان بعض المؤرخين من الشيعة قد برّروا له ذلك بإنقاذ التراث الإسلامي وحياة المسلمين من المغول فإن الحقائق التاريخية تثبت عكس ذلك ، فلقد دمرت بغداد و قتل فيها ما يزيد عن الألف ألف من الضحايا الأبرياء فأين هو دور الطوسي في إنقاذ المسلمين و التراث الإسلامي ، وهل يكون ذلك بنقل حفنة من الكتب إلى مراغة ؟

- لقد كان العصر الأخير من الخلافة العباسية عصر إنحطاط للمسلمين وحكامهم الذين لم يكونوا يأبهون للخطر القادم من الشرق ، وكان كلّ همّهم البقاء على سدّة الحكم ، وإشترك الجميع سنّة وشيعة في هذا الإنحطاط وعمّت البلوى على الجميع ، فإذا كان ابن العلقمي قد كاتب المغول سراً لغزو بغداد وشجعهم النصير الطوسي على ذلك ، فإن هناك من يذكر بأنّ الخليفة الناصر قد كاتبهم جهرا وحرّضهم على القضاء على الدولة الخوارزمية قبل ذلك ، حيث يذكر إبن الأثير[1] "وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك ، فهو الطامة الكبرى" ويذكر المقريزي[2] أنّ في خلافته "خرّب التتر بلاد المشرق ، وكان هو السبب في ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد" ، وممّا سبق يلاحظ بأنه كان عصرا مليئا بالخيانات فلا عجب إذن أن لا يتأسف أو يتحسر الطوسي على سقوط بغداد[3] أو قتل خليفتها بل نجده يكتب رسالة في فتح المغول لبغداد من وجهة نظر مراقب في الجانب المغولي[4] .

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 361 .

[2] المقريزي ، السلوك في معرفة الدول و الملوك ، ج1 ، ص 218 .

[3] **انظر الملحق رقم 09 ص 338-342.**

[4] نصير الدين الطوسي ، **واقعة بغداد أو ذيل تاريخ جهانكشاي** ، ترجمة : محمد ألتونجي ، دار الملاح للطباعة والنشر ، د م ن ، 1985 ، ص 363-371.

يعتبر الكثير من المؤرخين بأنّ الشّيعة كانوا سببا في سقوط بغداد في أيدي المغول ويربط هؤلاء المؤرخون ما فعله الوزير ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي ، من تآمر وخيانة بالوقوف في صفّ المغول ضدّ المسلمين ، ويتناسون ما فعله الأمير السنّي بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل مع الأتابك أبو بكر ملك فارس اللذان كانا في جيش هولاكو المتوجّه نحو بغداد فيذكر الجويني بأنّهما "قد قبلا الإستسلام ودفعا الخراج ، وجاء الإثنان من ولايتيها لمساعدة جيش الكفار"[1]، فضلا عما أبداه الخليفة المستعصم من سوء تسيير للأمور وإهمال خطر المغول واللعب بالحمام وغفلته عن أمور الدولة وما يحيط بها من أخطار .

ولذلك فلا يمكن بالقبول بأن ما فعله ابن العلقمي والنصير الطوسي يمثل كل شيعة بغداد فيروي الجوزجاني الذي يعتبر أول من أشار إلى خيانة ابن العلقمي بأنّ المغول لما عبروا نهر دجلة أسرعوا إلى ناحية الكوفة والكرخ وقتلوا المسلمين [2].

وحينما خرج جيش بغداد لمحاربتهم واستطاع أن يحرز بعض الانتصارات غير الحاسمة على طلائع الجيوش المغولية في اليوم الأول ، لكنّه تقهقر في اليوم الثاني بسبب وصول القوات الرئيسية التي فتحت نهر دجلة فكثر الوحل الذي أرهق جيش بغداد فتفرّق بين قتيل وغريق وفرّ الباقون إلى بغداد ، في حين عاد البعض الآخر إلى الكوفة والحلة [3].

ولا يخفى على أحد أنّ هذين المدينتين كانتا مقرا للتشيّع في ذلك الوقت بل حتى وقتنا الحالي ، ومن ثمّ فقد كان في جيش بغداد الذي حارب المغول جنودا من الشيعة كانوا يجاهدون المغول جنبا إلى جنب مع إخوانهم من أهل السّنة ، ولعلّ

[1] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 206 .

[2] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 209 .

[3] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 286

البعض يعزو ذلك إلى أنّ هذا الجيش كان نظاميا خاليا من الإنتماء الطائفي ، ومن ثمّ فإنّه كان لا بدّ للجنود من القتال حتى ولو كانوا غير راغبين في ذلك ، فعامّة الشّيعة كانوا فرحين بما سيلحق الخلافة العباسية السنيّة من دمار.

والحقيقة أنّ هذا الأمر يجانب الصواب فيشير الجوزجاني المؤرخ السنّي إلى أن مجاهد الدين رئيس الديوان والملك عزّ الدين بن فتح الدين كرد طلبا من جماعة سكان الكرخ والقصاب الأخرى المساعدة فعبروا دجلة بعشرين ألف وحاربوا جيش المغول [1].

على أن الهمذاني يشير إلى قدوم بعض العلويين والفقهاء من الحلة على هولاكو يلتمسون منه تعيين شحنة عليهم ، فأرسل هذا الأخير رجلا يدعى بوكله و الأمير يجلى النخجواني ، وأوفد في أثرهما بوقاتيمور لجس نبض الأهالي ، فاستقبل أهل الحلة الجند ، وأقاموا جسرا على الفرات ، وأقاموا الأفراح ابتهاجا بقدومهم [2].كما يذكر البناكتي أنه في أثناء فتح بغداد أرسل مجد الدين محمد بن الحسن بن طاوس الحلي[3] وسديد الدين يوسف بن المطهر الحلي[4] رسالة إلى هولاكو يقران بالطاعة ، فأمر

---

[1] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 209 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 296

[3] مجد الدين بن طاووس : هو محمد بن الحسن بن سعد الدين موسى بن جعفر بن طاوس الحسني العلوي ، خرج إلى هولاكو و سأله أن يحقن دماء أهل الحلة والمشهدين ، ففعل ورد إليه النقابة بالبلاد الفراتية فحكم في ذلك قليلا وتوفي سنة 656هـ/1258م . للإستزادة انظر : الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 237.

[4] يوسف بن مطهر الحلي : وهو الشيخ سديد الدين أبو يعقوب ويقال أبو المظفر يوسف بن زين الدين علي بن المطهر الحلي (كان حيا سنة 665هـ) وهو والد العلامة الحلي المشهور ، قال فيه الحرّ العاملي" عالم فاضل فقيه متبحر ، نقل ولده أقواله في كتبه" وذكره الخوانساري بالقول " والد إمامنا العلامة على الإطلاق وأستاذه الأقدم في الفقه والأدب والأصول والأخلاق" كان له دور سياسي عندما زحف المغول وقصدوا بغداد ، وبعد أن شعر أهل الحلة بالخطر المغولي ، قام وجهاءها وكان من بينهم يوسف بن مطهر الحلي و مجد الدين بن طاووس بمراسلة قوات المغول وأرسلوا وفدا لمقابلة هولاكو الذي أعطاهم الأمان . للإستزادة أنظر : العاملي (محمد

هولاكو بإحضارهما و أنعم عليهما ، ويخالف البناكتي الهمذاني في اسم الرجل الذي أرسله هولاكو الذي يسميه بعلاء الدين العجمي ليكون الشحنة هناك .

وهذا لا يعني على الإطلاق تواطؤ عامة أهل الحلة مع المغول أثناء غزوهم بغداد إنما كان شأنهم في ذلك مداراة الخطر المغولي الداهم و الإنحناء للعاصفة الهوجاء التي اقتلعت عاصمة العباسيين ، حتى أن البانكتي الذي ذكر الحادثة يعلق في نهايتها بأنه "ولهذا السبب لبس أهل الحلة حلة السلامة"[1] ، فشأنهم في ذلك شأن مدينة البصرة –التي كانت غالبية أهلها من السنة– التي دخلت في طاعة المغول دون قتال [2].

أما مدينة واسط التي كان يعيش فيها السنة و الشيعة معا فقد قاومت الزحف المغولي الذي كان بقيادة بوقاتيمور الذي وصلها في اليوم السابع عشر من صفر ، فضرب الحصار عليها ثم استولى على المدينة ، وشرع في القتل والنهب فقتل ما يقرب من أربعين ألف شخص [3].

ومن خلال ما سبق نجد أن السّنة والشيعة قد حاربوا المغول في الجيوش النظامية للخلافة العباسية وأيضا كمتطوعين في الجيش من عامة الناس خاصة إذا ما علمنا بأن حي الكرخ هو أكثر الأحياء الآهلة بالشيعة في بغداد و مدينة واسط هي المدينة

بن الحسن ت 1004هـ) ، أمل الآمل في علماء جبل عامل ، تحقيق : أحمد الحسيني ، مطبعة دار الكتاب الإسلامي ، إيران ، 1962 ، ج2 ، ص 350 و الخوانساري ، المصدر السابق ، ج8 ، ص200.

[1] البناكتي ، المصدر السابق ، ص 452 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 296

[3] نفسه ، ص 296

التي كان أكبر تجمع شيعي فيها بالعراق بعد الكوفة و بغداد . فضلا على أنه قُتل تحت سيوف المغول السنة والشيعة معا [1].

المبحث الثالث : سقوط بلاد الشام ومقاومة المماليك

1- حكام بلاد الشام و حلب والجزيرة :

كانت الحالة السياسية في بلاد الشام تتسم بالضعف والتدهور والإنحلال كما كانت منقسمة بين سلطة الفرنج والإمارات الأيوبية المتفرقة ، فقد انقسمت الدولة الأيوبية إلى إمارات متنازعة ومتناحرة فيما بينها ، فالبيت القوي الذي قضى صلاح الدين الأيوبي حياته في إنشائه و تقويته لم يلبث إلى أن أصابه الصدأ بعد وفاته ، ولعلّ أهمّ الإمارات التّي كانت قائمة أيام الزّحف المغولي تتمثل في إمارة دمشق التي كانت تحت حكم الناصر يوسف الأيوبي وحلب التي كان عليها المعظّم توران شاه بن صلاح الدين الأيوبي نائبا عن ابن أخيه الناصر يوسف ، وميافارقين التي كان عليها الملك الكامل محمد الأيوبي وماردين التي كان عليها الملك السعيد[2] .

ويوري ابن العبري بأن صاحب ميافارقين تفطن إلى خطر المغول و أرسل إلى الملك الناصر يدعوه للوحدة والتكتل لصد هذا الزحف فيذكر أنه في سنة 656هـ/1258م " توجه الأشرف بن الملك الغازي بن الملك العادل صاحب ميافارقين إلى الملك الناصر صاحب حلب يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول إلى الشام . فاستخف برأيه ولم يسمع مشورته بل سوّفه بكلام وسرّحه من عنده بالأمان "[3].

---

[1] الغساني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 640 .

[2] ابن الوردي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 197 .

[3] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 290 .

2-سقوط بلاد الشام والجزيرة :

في الوقت الذي كان هولاكو يحاصر قلعة بغداد أرسل فرقة من جيشه بقيادة أرقيو نويان للإستيلاء على قلعة إربل ، وكانت قلعة حصينة شيدت على مرتفع وقد بادر أهلها إلى مقاومة المغول والتصدي لهم ، بالرغم من تقديم صاحبها تاج الدين بن الصلايا الأربلي[1] فروض الطاعة للمغول إلا أن حشود الأكراد في القلعة لم يسمحوا بدخول المغول إليها ، وخسروا خسارة فادحة في الجند إلا أن المغول قد استعانوا بحاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ ، الذي أرسل عددا من جنده ، وبعد حصار طويل دام عدة أشهر سقطت القلعة و سلمها أرقيو نويان إلى بدر الدين لؤلؤ الذي هدم أسوارها [2]، وقد كان سقوط إربل بمثابة فتح الطريق للجيوش المغولية للتوجه نحو بلاد الشام [3].

حينما أتم هولاكو الإستيلاء على بغداد رحل عنها إلى تبريز نظرا لعفونة الهواء الذي لحق بها جراء الجثث المتناثرة في شوارعها ، ثم استأنف خطته في الإستيلاء على بلاد الشام والمدن العراقية المجاورة ، وعلى جري عادتهم في إرهاب الحكام وبعث الرعب في نفوسهم أرسلوا برسالة إلى حاكم حلب على لسان هولاكو وبقلم الخواجة نصير الدين الطوسي الذي كتب الرسالة بالعربية و جاء فيها " أما بعد فقد

---

[1] تاج الدين بن الصلايا الأربلي : محمد بن نصر بن الصلايا بن يحيى الصاحب تاج الدّين أبو المكارم ابن صلايا الهاشمي العلوي نائب إربل الشيعي كان نائب الخليفة بإربل وكان من رجالات العالم رأيا وعقلا وحزما وصرامة وكان سمحا جوادا كانت صدقاته وهباته تبلغ في السّنة ثلاثين ألف دينار وكان بينه وبين بدر الدين لؤلؤ صاحب الْموصل منافسة فلما أحضرهما هولاكو قال بدر الدين لؤلؤ هذا شريف ونفسه تحدثه بالخلافة ولو قام تبع النَّاس أمره فقتله هولاكو بقرب توريز سنة 656هـ وكان عنده أدب وله نظم وكان يشدد العقوبة على شارب الخمر بأن يقلع أضراسه وكان قد دارى المغول حتى انهم دخلوا إربل ألقوا الخمور التي معهم رعاية له .
للإستزادة انظر : الصفدي ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 87-88 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 298 – 299 .

[3] الصياد ، المرجع السابق ، ص 289 .

نزلنا بغداد سنة ست وخمسين و ستمائة فساء صباح المنذرين ، فدعونا مالكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذا وبيلا . وقد دعوناك إلى طاعتنا فإن أتيت فروح وريحان ، وإن أبيت فخزي وخسران . فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفّه فتكون من الأخسرين أعمالا الذين ظل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فما ذلك على الله بعزيز والسلام على من اتبع الهدى"[1]. في حين يورد ابن العبري رسالة أخرى مختلفة عن هذه إلا أن فيها من التهديد والوعيد ما يشبه هذه و إن كانت أطول منها نثرا وأكثر سجعا.[2]

وعلى أية حال فقد إرتعب صاحب حلب من هذه الرسالة ولم يدر ما يفعل أمام هذا الخطب ثم أرسل هولاكو إلى الناصر يوسف يستدعيه ، فلم يحضر إليه بنفسه وإنّما أرسل إليه ولده الملقب بالملك العزيز وأصحبه بالتحف والهدايا ، فأنعم عليه وأعاده وقال له : نحن طلبنا أباك وحيث لم يحضر إلينا سنسير إليه ، فلما بلغه ذلك ، أسرع بالهرب من حلب –التي ترك عليها المعظم تورانشاه – إلى دمشق ثم فر بأهله إلى الكرك [3] ، تاركا إياها لقمة سائغة في أيدي المغول الذين دخلوها في منتصف صفر من سنة 658هـ/ 1260م ، لما صالحهم أهلها وقرروا عدم المقاومة حينما سمعوا بما حل بأهالي مدينة حلب الذين قاوموا المغول بقيادة المعظم توران شاه ، إلا أنهم انهزموا أمام سنابك خيل المغول ، فاستباحوها وأعملوا فيها القتل و السلب[4]

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج 1 ، ص 296 – 297 .

[2] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 484–485 .

[3] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 243–244.

[4] ابن الوردي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 197 .

وبذلك جنب أهالي دمشق مذبحة أخرى قد تلحق بهم من المغول كما استسلمت أيضا حمص و حماه ودخلت في طاعة المغول [1] .

وفي الأثناء التي كان هولاكو قد استولى فيها على حران[2] والرها وسروج [3]غيرها من المدن كان قد أرسل جيشا بقيادة ولده يشمت وسنتاي ومعهما ايلكا نويان قصد الإستيلاء على إمارة ميافارقين ، ولما اقتربوا من حدودها أرسلوا إلى ملكها الكامل يدعونه إلى الخضوع والطاعة ، فرفض دعوتهم وردّ عليهم برسالة جاء فيها: "ينبغي ألا يضرب الأمير في حديد بارد ، ولا يتوقع الشيء المستحيل إذ لا يوثق بوعدكم . وإنّني لن أنخدع بكلامكم المعسول ، ولن أخش جيش المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حيا ، إذ كيف أثق بابن رجل نكث العهد والميثاق مع خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وتاج الدين أربل ، وقد جاء الملك الناصر الدين خصيصا بأمانكم فرأى في نهاية الأمر ما رأى وسوف أرى أنا أيضا ما سبق أن رأوه"[4].

ويصف الجوزجاني مدينة ميافارقين بالمدينة الحصينة فيوجد في شمالها جبل شديد الإرتفاع تتكاثر فيه أشجار السفرجل ، وفي المدينة مجرى ماء ، وفي جنوبها الحدائق الرائعة [5]. ولعل التحصين القوي للمدينة شجع الملك الكامل على مقاومة

---

[1] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 487

[2] ويورد ابن الفوطي بأن هولاكو لمّا كان بحران وقف له جمع من الفقراء القلندرية فقال لنصير الدين الطوسي : ما هؤلاء ؟ قال : فضلة في العالم ، فأمر بقتلهم فقتلوا ، و سأله عن معنى قوله فقال : "الناس أربع طبقات ، بين إمارة و تجارة و صناعة و زراعة ، فمن لم يكن منهم كان كلّا عليهم " . للإستزادة انظر : ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 246 .

[3] سروج : بلد من أرض الجزيرة و بمقربة من ملطية وقريبة أيضا من حرّان من ديار مضر وهي رستاق كثير القرى والكروم وقد فتحها عياض بن غنم بعد صلح الرها سنة 19هـ ، وهي كثيرة الفواكه والبساتين للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص315-316 وياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 216 .

[4] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 319 .

[5] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 217 .

حصار المغول والتصدي لهم فراح يقوي من عزيمة رعيته و يعدهم بالنصر فطيب قلوب أهل مدينته بقوله : "سوف لا أبخل عليكم بالذهب والفضة و الغلال الموجودة في المخازن ، وسأوثر بها كل المحتاجين ، فإنّي بحمد الله لست كالمستعصم عبدا للدينار والدرهم الذي طوّح برأسه وبملك بغداد بسبب بخله وشحّه" [1].

وحينما أتى جيش المغول على أبواب المدينة خرج الملك الكامل برفقة جيشه الصغير واخذوا يحملون على جيش المغول فيقتلون منه العشرات ويرجعون إلى أسوار المدينة للإحتماء بها ، ويذكر الجوزجاني بأنّ المدينة ظلّت تقاوم المغول مدة ثلاثة أشهر[2] في حين يذكر الهمذاني بأنّ مقاوتهم استمرت لحوالي عام كامل [3]، وقد أدّى نفاد الأقوات في المدينة إلى انتشار المجاعة فأكل الناس الكلاب والقطط والفئران والميتة وفي هذه الظروف القاسية ضعفت المقاومة ودخل المغول المدينة وقتلوا من بقي من أهلها وأرسل الملك الكامل إلى هولاكو فقتله قتلة شنيعة .

بعد أن فرغ الأمير يشمت ومن معه أمراء المغول من أمر ميافارقين ، أمرهم هولاكو بالتوجه نحو ماردين التي كان عليها الملك السعيد ، وقد كانت هذه المدينة أكثر حصنا من ميافارقين ، وكان ملكها أكثر تعنتا من الملك الكامل ، فأبى إلا أن يقاوم المغول مقاومة تامة خرج فيها بجيشه لمحاربتهم في الأيام الأولى للحصار وحينما تعسر عليه ذلك نظرا للفرق الهائل بين عدد الجيشان ، عاد واحتمى بمدينته الحصينة وتقاتلا الفريقان من خلف الأسوار بالسهام والمنجانيقات ، وطالت مدة الحصار نحوا من ثمانية أشهر . وحينما ظهر القحط و الوباء والغلاء في المدينة أشار عليه ولده بالتسليم للمغول أمام استحالة المقاومة فرفض الملك السعيد ، فأقدم

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 319-320 .
[2] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 217 .
[3] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 320 .

الولد على قتل أبيه وأرسل إلى جيش المغول يطلب بتوقف القتال ، وتسليم المدينة لهم ، فتوقف القتال بين الفريقان وعفا هولاكو عنه بل عينه حاكما على المدينة باسم المغول[1]، بينما يورد ابن العبري رأيا آخر تماما وهو أنّه لما وصل هولاكو بجيشه إلى أساور ماردين أرسل الملك السعيد ولده مظفر الدين فلم يرض هولاكو بغير خروج الملك السعيد إليه ، ولما أراد الولد إقناع أبيه بذلك رفض الأمر بل أمر بزجّه في السجن ، فأقام المغول الحصار على المدينة ولمّا انتشر الوباء وعدمت الأقوات ومات السلطان دخل المغول إلى المدينة ، ولما علم هولاكو بما جرى لمظفر الدين عفا عنه وعينه حاكما على المدينة[2] ، في حين يزعم ابن الفوطي بأن هولاكو طلب من مظفر الدين أن يحسن لأبيه الطاعة محذرا إياه من عاقبة العصيان فلما عاد إليه وأبلغه ذلك اعتقله خوفا من أن يقبض عليه ، وحين وقع الوباء بماردين ومات صاحبها نزل مظفر الدين إلى هولاكو فعفا عنه وعينه حاكما عليها [3]. ومن الغرابة أن يروي ابن الفوطي مثل هذا الأمر الذي يعدّ تناقضا ، فكيف يريد هولاكو أن يستول على ماردين التي رفض الملك السعيد تسليمها ويطلب من ولده طاعة والده .

وعلى أية حال فإن المغول استولوا على معظم بلاد الشام الواقعة تحت حكم الأيوبيين ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى التحالف المغولي الصليبي ساعد المغول كثيرا في الإستيلاء على بلاد الشام ، ومن ثم فقد صارت الطريق مفتوحة للمغول لضم الديار المصرية التي كانت تحت حكم المماليك البحرية .

---

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 325-326 .

[2] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 488 – 489 .

[3] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 246 .

3-مقاومة المماليك

3-1/ الحالة السياسية لمصر قبيل الغزو المغولي :

كانت الديار المصرية تحت الحكم الأيوبي ، فعند وفاة صلاح الدين تنازع أفراد بيته واقتسموا المملكة الموحدة إلى مجموعة من الممالك والإمارات الصغيرة المتناحرة فيما بينها ، وقد كانت مصر من نصيب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد علي الذي يقول فيه المقريزي : "كان ملكا شجاعا حازما مهيبا ، لشدة سطوته ، مع عزة النفس وعلو الهمة ، وكثرة الحياء والعفة "[1].

أكثر الملك الصالح من استجلاب المماليك ، فقد كان جيشه بحاجة إلى العدد خاصة بعد أن تمرد عليه الجند الخوارزمية الذين كانت لهم أهمية بالغة في الجيش وسرعان ما توفي الملك الصالح وهو يدافع عن دمياط التي اجتاحتها جيوش الصليبين ، فأخفى القادة المماليك خبر موته كيلا لا تنخفض الروح المعنوية بين صفوف الجند الذين خاضوا معركة المنصورة سنة 647هـ/1249م وانتصروا فيها ، وأرسلوا إلى ولده المعظّم توران شاه الذي كان يحكم "كافا" الواقعة في ديار بكر، وحينما عاد تسلم ملك أبيه إلا أنه فرغ إلى حياة المجون واللهو ، كما جحد للمماليك حقهم و قدّم عليهم غيرهم ، مما جعلهم يحنقون عليه ويقتلونه ، وبموته تولّت السلطنة شجر الدر[2] .

كانت شجر الدر زوجة الملك الصالح وأقربهم إليه ، بالإضافة إلى أنها كانت صاحبة عقل راجح و ذكاء وفطنة وسياسة ، إلا أنّ المسلمين لم يألفوا أن تقودهم

[1] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 402 .

[2] ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 336 – 337 .

امرأة ولو توفرّت فيها كل تلك الخصال ، فتزوجت من أحد قادة المماليك وهو أيبك التركماني ، وجعلته سلطانا [1].

وبذلك أضحت مصر قبيل الغزو المغولي تحت حكم المماليك الذين كانوا يجلبون كعبيد من بلاد التركستان و بلاد ما وراء النهر وجنوبي بحر قزوين ، ويربون تربية إسلامية خالصة ، بالإضافة إلى تعلمهم اللغة العربية وقد زادت مكانتهم وكثر عددهم في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب [2].

اختلف قادة المماليك بعد ذلك خاصة بعد أن قرب السلطان أيبك قطز بتدبير من شجر الدر ، وأبعد فارس الدين أقطاي قائد الجند وركن الدين بيبرس ، الأمر الذي أحدث هوة و شرخا بين المماليك ، أدت إلى مقتل فارس الدين أقطاي وهروب ركن الدين بيبرس إلى بلاد الشام رفقة عدد من أتباعه المخلصين [3].

وحين سقطت بغداد ومدن الشام الواحدة تلو الأخرى عاد بيبرس وبقية المماليك إلى مصر بدعوة من سلطانها الجديد مظفر الدين قطز وانضموا تحت لواءه متناسين ما كان بينهم من خلافات ، وتوحدوا تحت جبهة واحدة بقيادة قطز فكانت بذلك مصر آخر أمل يمكن أن يوقف الزحف المغولي ، ولكي يظهر السلطان قطز حسن نواياه لركن الدين بيبرس أقطعه مدينة قليوب و أعمالها[4].

ومن الأهمية بمكان الإشارة أنه في السنة التي أراد المغول فيها غزو المماليك في مصر توفي مانكوقآن الخان الأعظم في قراقورم ، مما اضطر هولاكو إلى العودة و المشاركة في اختيار القآن الجديد ، حيث تنازع اخوة هولاكو على العرش مما أدى

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 464 .

[2] الباز العريني ، **المماليك** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ت ن ، ص 53-55

[3] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 483 .

[4] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 399 .

إلى قيام حرب أهلية بينهم ، حيث وقف هولاكو إلى جانب أخيه قوبيلاي ضد أريق بوقا [1].

ترك هولاكو أعظم قائد له في بلاد الشام كتبوغا ، وأسند له مهمة الإستيلاء على مصر فأرسل هذا الأخير رسالة إلى السلطان قطز جاء فيها " إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيز خان وأسرته ، ومنحنا ممالك الأرض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ، ويعصي أمرنا ، يقضى عليه مع نسائه و أبنائه و أقاربه و المتصلين به ، وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك أسماع الجميع . أما صيت جيشنا الذي لا حصر له ، فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار . فإذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا فأرسل إلينا الجزية وأقدم بنفسك واطلب الشحنة، وإلا فكن مستعدا للقتال"[2]. في حين يورد المقريزي والقلقشندي[3]رسالة أكثر بلاغة من تلك التي أوردها الهمذاني ، على أنهما تشتركان في التهديد والوعيد[4] .

حينما وصلت رسل المغول إلى السلطان قطز استشار أمرائه حول الرد على المغول فانقسمت الآراء بين الدفاع والمقاومة وبين الاستسلام والمهادنة ، وقد أشار عليه أحدهم بأن بالمهادنة ثم تركوا الأمر إليه ، فمال إلى رأي الجهاد ومحاربة المغول وقتل رسل المغول وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، في عدم ترك أي فرصة للتراجع[5].

---

[1] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 247 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 310 .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 514 والقلقشندي ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 63 .

[4] **أنظر الملحق رقم 10 ص 343.**

[5] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 515

والواقع أن السلطان قطز كان قد استفاد من التجارب التي حدثت مع من سبقه من أمراء المسلمين الذين تراخوا في مجابهة المغول وحرصوا على مهادنتهم فلم يراعوا فيهم العهود والمواثيق ، الأمر الذي جعل يقينه يزداد بأن لا سلام قد يكون مع المغول الذين كانت فلسفتهم السياسية قائمة على أنه لا يوجد إلا ربّ واحد في السماء ولا يوجد غير حاكم واحد على هذه الأرض هو الخان الأعظم .

وعلى أية حال فقد كانت خطة السلطان قطز تقتضي عدم مواجهة المغول في مصر وإنما الخروج إليهم على أرض محايدة ، فوقع اختياره على سهل عين جالوت وكان خروجه يستلزم عبوره على أراضي واقعة تحت حكم الصليبيين ، فعقد هدنة مع ملك بيت المقدس سمح له فيها بالولوج إلى أرضه و العبور منها نحو غزة وبالتحديد إلى سهل عين جالوت [1].

3-2/ معركة عين جالوت[2]

حينما وصل جيش المماليك إلى عين جالوت أرسل السلطان قطز حامية صغيرة فيها أبرع الفرسان من جيشه بقيادة ركن الدين بيبرس كرّت بشكل مفاجئ على جيش المغول الذي كان بقيادة كتبوغا وأعمل فيه خسائر فادحة ثم فرّ هاربا ، وظن كتبوغا أن هذه الحامية الصغيرة هي كل جيش المماليك ، فلحق بهم بكل جيشه ودخل إلى كمين المماليك وقاتلت الحامية التي كان يقودها بيبرس بكل شجاعة وفجأة خرجت قوات المماليك بقيادة قطز من كل جانب وحاصرت جيش المغول وأعملت في رقابهم

[1] ابن الفوطي ، المصدر السابق ، ص 247 .

[2] **أنظر الملحق رقم 11 ، ص 344 .**

السيف وتفاجأ كتبوغا بما رآه وأيقن هزيمته مما جعل أتباعه يدعونه إلى الهرب إلا أنه رفض ذلك [1].

ويسجل الهمذاني شجاعة هذا الرجل وثباته في الميدان وتفضيله الموت على الحياة مكللا بالهزيمة والعار أمام قائده هولاكو فقا "لا مفر من الموت هنا ، فالموت مع العزة و الشرف خير من الهرب مع الذل والهوان ، وسيصل رجل واحد ، صغيرا أو كبيرا ، من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلا : إن كيتبوقا لم يشأ أن يتراجع و قد كلله الخجل فضحّى بحياته الغالية في سبيل واجبه. ينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاما واحدا ، وأنّ جياد قطعانه لم تلد المهور ، فليدم إقبال الملك وما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة ، فإنها تكون عوضا لكل مفقود ، إذ أنّ وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير"[2] .

بعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت ثار المسلمون على حاميات المغول الصغيرة التي كانت متواجدة في بلاد الشام ، مما سهّل مهمّة المماليك في استرجاع بلاد الشام من المغول وتثبيت حكم المماليك فيها ما عدا ماردين التي بقي ولاؤها لسلطة المغول وبعض المدن الأخرى [3].

كان انتصار المماليك في معركة عين جالوت من أهم الانتصارات التي حققها المسلمون في تلك الفترة ، فكانت منعرج تاريخي هام كسب المماليك من خلاله الشرعية الدينية والسياسية في حكم مصر وبلاد الشام .

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 516 .

[2] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 314 .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 518 و الهمذاني ، المصدر السابق ، مج 2 ، ج1 ، ص 326 .

لما هزم السلطان قطز جيش المغول كان قد وعد ركن الدين بيبرس بإمارة حلب ولكنه عدل عن ذلك وولاّها ابن صاحب الموصل ، ممّا أدى إلى وقوع الوحشة بين بيبرس وقطز، وانتهى هذا الأمر بمقتل قطز، واعتلاء بيبرس سلطنة المماليك وتسمّى بالملك الظاهر [1].

في هذه الأثناء سمع هولاكو بما جرى لجيشه من هزيمة منكرة على أيدي المماليك ، إلا أنه كان منشغلا بترتيب بيته الداخلي ، فأرسل جيشا آخر بقيادة إيلكا نوين لمحاربة المماليك على بلاد الشام ، لكنه فشل في إحراز أي نصر، وبلغ من شدة غضب هولاكو أن أمر بقتل الملك الناصر يوسف وأخيه وأصحابهم الذين كانوا عنده[2]. ولم يخلص منهم غير محي الدين المغربي بسبب أنه كان يقول أنّني رجل أعرف بعلم السماء والكواكب والتنجيم ، فأخذوه إلى هولاكو الذي سلّمه إلى نصير الدين الطوسي [3].

راح الظاهر بيبرس بعد ذلك يشكل تحالفا مع بركة خان الحاكم السني لقبيلة المغول الذهبية ، وفي نفس الوقت عمل على إضعاف القلاع الإسماعيلية حتى تمكن من السيطرة على قلاعهم في بلاد الشام سنة 1266.

وبعدما أحرزه هولاكو من انتصارات في بلاد فارس و العراق تشكلت دولة جديدة عرفت بالدولة الإيلخانية أي التابعة للقآن الأعظم في قراقورم ، كما ضمت دولة المماليك بلاد الشام ومصر .

---

[1] ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 247 .

[2] نفسه ، ص 247 .

[3] ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 489 .

الفصل الخامس :العلاقات بين السنة و الشيعة بعد معركة عين جالوت إلى نهاية القرن 13م/7هـ

المبحث الأول : انتشار الإسلام بين المغول

المبحث الثاني : العلاقات بين المماليك السّنة وطائفة الإسماعيلية

المبحث الثالث : العلاقات بين المماليك و المغول

المبحث الأول: انتشار الإسلام بين المغول

1-دور السّنة في إسلام المغول:

1-1 / دور السّنة في إسلام القبيلة الذهبية :

تعدّ القبيلة الذهبية أوّل القبائل المغوليّة التي دخلت في الإسلام وعلى الرغم من أنّ المسلمين كانوا قد خدموا المغول منذ وقت مبكّر في عهد جنكيزخان إلا أنّ نفوذهم آنذاك لم يكن قويّا لدرجة الدّعوة إلى الإسلام فضلا على أنّ المغول لم يكونوا قد توجهوا بعد إلى غزو العالم الإسلامي ، وبداية حكمهم فيه إلا في أواخر عهد جنكيزخان[1].

وقبل البداية في سرد الأحداث حول انتشار الإسلام بين صفوف المغول يذكر أبو الحسن الندوي أنّه "...وقبل أن ينجرف العالم الإسلامي مع هذا السيل الجارف العنيد، ويطمس معالمه وملامحه، كما كان المشهد الملموس عند ذوي البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين في ذلك الحين، بدأت دعوة الإسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب، ويتحقق على أيدي دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنّة والرّماح، وبطش السلاطين والملوك، وبدأ الإسلام يتسرّب في نفوس أعدائه، ويأخذ بمجامع قلوبهم، إنّ خضوع هذا الشعب الذي قهر المسلمين أمام الإسلام من أغرب الوقائع والأحداث في التاريخ، فإنّ هجوم التتر على العالم الإسلامي كالجراد المنتشر، وإخضاع العالم الإسلامي كله، ليس من الغريب المدهش كما يبدو في الظاهر، فإنّ عالم الإسلام

---

[1] النويري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 244 و الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 397 و المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 486 . و القلقشندي ، المصدر السابق ، ج4 ،ص 473-474 . و العمري ، المصدر السابق ، ج3 ،ص 143-144 .

في القرن السابع كان بدوره مصابًا بتلك الأمراض والأسقام، التي تلحق الأمم عامة في أوج حضارتها وشوكتها، وبالعكس من التّتر، ذلك الشعب القوى الأبي الذي نشأ على حياة البداوة، والهمجية والضراوة، ولكن الغريب المدهش أن هذا الشعب خضع للمسلمين. المفتوحين المقهورين، واعتنق دينهم في أوج قوته، وذروة سلطانه، ذلك الدّين الذي فقد كثيرًا من سلطانه السياسي والمادي آنذاك،" وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار في نظر التتار"[1].

كما أبدى المستشرقون استغرابهم الشديد في هذا الصدد وعلى رأسهم توماس أرنولد حيث قال: "... ولكن لم يكن بدّ من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده الخالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين الهمجيين ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصّعاب أشدّها لمناهضة منافسين أقوياء، كانوا يحاولون إحراز قصب السبق في ذلك المضمار، وليس هناك في تاريخ العالم نظيرا لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم..."[2].

والواقع أنه كان من الصعب منافسة الدّين الإسلامي لغيره من الديانات الأخرى كالبوذية و المسيحية في بداية الحكم المغولي ، فقد عانى المسلمون أكثر من غيرهم

---

[1] أبو الحسن الندوي ، **غارة التتار على العالم الإسلامي وظهور معجزة الإسلام** ، ط2 ، المختار للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1979 ، ص 32 – 33 .

[2] توماس أرنولد ، **الدعوة إلى الإسلام – بحث في نشر العقيدة الإسلامية** – ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن و آخرون ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1971 ، ص 250 .

من بطش حملات المغول وغاراتهم الشعواء التي حوّلت مدنهم الزاهرة إلى مجرد أطلال تذروها الرياح ، حتى أن الفقهاء و العلماء و أئمة الدين لم يستثنوا من القتل و الأسر والتعذيب .

وبالرغم من السياسة العامّة التي انتهجها حكّام المغول في تسامحهم مع الأديان كافّة إلا أنّهم ضيّقوا الخناق على المسلمين بشكل ملحوظ ويتجلّى ذلك في أوامر جنكيزخان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الإسلام ، ولمّا آل الأمر إلى ولده أوكداي أقر ذلك و عمل به بل زاد من حدّة ذلك أنه عيّن مكافأة لكل من يبلغ على من يذبح بهذه الطريقة الأمر الذي جعل كثيرا من المعدمين يستغلون هذه الفرصة في جمع الأموال ، كما اتّهم العبيد مواليهم بهذه التهمة بغية نيل حريتهم ، وزاد الأمر سوء في عهد خلفه كيوك الذي امتلأ بلاطه بالرهبان المسيحيين الذين استغلوا مناصبهم وقربهم من دواليب الحكم في التنكيل بالمسلمين ومجمل القول فإنّ المسلمين قد عانوا ويلات البطش والتنكيل في بداية الحكم المغولي ، فكيف تمّ ترويض هؤلاء الغزاة من قتلة سفاحين إلى مدافعين و منافحين عن الدين الإسلامي؟[1]

في الواقع أن المصادر التاريخية تذكر معلومات شحيحة و متفرقة هنا و هناك حول هؤلاء الرجال الذين كان لهم الدور البارز في إسلام المغول ومع أن بعض أفراد المسلمين قد دخلوا في طاعة المغول وخدموا في بلاطهم كوزراء ومستشارين منذ وقت مبكر جدا إلاّ أنه لم يسلم أحد من أولاد جنكيزخان .

[1] توماس أرنولد ، المرجع السابق ، ص 251.

ويكاد يجمع المؤرخون بأن أول رجل من عائلة جنكيزخان دخل الإسلام هو بركة خان[1] الذي يشيد الرمزي بحسن إسلامه وبأن الله قد جعله سببا في بقاء رمق الإسلام وانتعاشه بعد أن شارف على الإنعدام[2] وقد تحولت بإسلامه القبيلة الذهبية التي كان خانا عليها [3].

تختلف الروايات حول سبب دخول بركة خان في الإسلام فبعض الروايات تقول بأنه أسلم لما رآه من حسن المعاملة والسلوك من بعض التجار المسلمين القادمين من بخارى [4] وبعض الروايات ترد الفضل في إسلامه إلى الشيخ نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي[5] ، الذي أجابه عن كل تساؤلاته حول الإسلام و قدّم له الحجج والبراهين على صدق هذا الدين ونبل دعوته ، حتى أنه كتب له رسالة في ذلك أسماها بالرسالة الناصرية التي يقول فيها الشيخ " لما انتشر في المعمورة أنوار العدل والفضل والإحسان ، وأشرق عالم الطاعة والعبودية بأشعة الإيمان ، ونشرت فيه ألوية الإسلام بعد انطوائها ، وأعيدت إلى أشباح الفضل والديانة أنوار جبونها بعد انطفاءها ، بميمون همة أعظم سلاطين الإسلام ، وأعظم خواقين الأنام، بركة خان المخصوص بعناية الرحمان ، الذي رفع بإسلامه أعلام الملّة الحنيفيّة بعد خفوقها وردّ إلى المعارف الإسلامية مفروض حقوقها ، وأحيا معالم الدين المائتة ، وأظهر

---

[1] النويري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 244 .

[2] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 397 .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 486 . و القلقشندي ، المصدر السابق ، ج4 ،ص 473-474 . و العمري، المصدر السابق ، ج3 ،ص 143-144 .

[4] بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص 195 .

[5] نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي : لا تعرف سنة مولده هو مختار بن محمود بن محمد ، أبو الرجا ، نجم الدين الزاهدي الغزميني نسبة إلى غزمين و هي إحدى قرى خوارزم ، فقيه من أكابر الحنفية ، رحل إلى بغداد و بلاد الروم له عدة كتب من بينها الحاوي في الفتاوي و الناصرية و هي عبارة عن رسالة صنفها لبركة خان في النبوة و المعجزات ، و زاد الأئمة توفي سنة 658هـ/1260م ، للإستزادة أنظر : الرزكلي ، المرجع السابق ، ج7 ، ص 193 .

شعائر الحق الفائتة ، ونصر الإسلام على اليهودية و النصرانية وقدّم الحق الأبلج والسبيل الأوضح الأبهج على الرهبانية ، أردت أن أكتب الرسالة باسمه المبارك الميمون ، وأذكر فيها كل حجج الملة الحنيفية ، وجواب كل سؤال يرد عليها جليّ أو مكنون ، ليبقَ ذكره ما بقي الدين ، ودعاؤه وشكره على ألسنة المسلمين ..."[1]. إلاّ أن هذا الرأي في نظري يعدو الصواب ، لأنّ بركة خان قد أسلم قبل كتابة هذه الرسالة التي انتهى منها صاحبها في سنة 658هـ/1260م ، فيقول الزاهدي في خاتمة هذه الرسالة "وفضائل هذا الدين أكثر من أن تعدّ وتحص ، وأجلّ من أن تحدّ وتستقص وطوبى لعبد آثر هذا الدين المبين ، واختار الوسيلة إلى السعادة العظمى بالشرع المتين ، وانتظم في سلك خير الأمم ، وفاق بإسلامه الحقيقي كافة العرب والعجم ، مثل السلطان بركة خان ثبّت الله قواعد مملكته في الدارين، بالظفر والعدل والإحسان ورزقه في العقبى أعلى الفراديس والجنان "[2].

والمرجح في إسلامه كما يرى بعض المؤرخين أن إسلام بركة خان كان على يد الشيخ سيف الدين الباخرزي[3] فيروي الذهبي والقلقشندي وابن خلدون بأن بركة خان

---

[1] الزاهدي(نجم الدين مختار بن محمود ت 658هـ/1260م) ، **الرسالة الناصرية** ، تحقيق : محمد المصري ، مركز المخطوطات والتراث والوثائق ، الكويت ، 1994 ، ص 27.

[2] الزاهدي ، المصدر السابق ، ص 75 .

[3] الباخرزي (الإمام القدوة شيخ خراسان سيف الدين أبو المعالي سعيد بن المطهر بن سعيد بن علي القائدي الباخرزي نزيل بخارى. كان إماما ، محدثا ، ورعا زاهدا ، تقيا ، أثريا ، منقطع القرين ، بعيد الصيت ، له وقع في القلوب ومهابة في النفوس ولد بباخرز ، وهي ولاية بين نيسابور وهراة قصبتها مالين ، وصحب نجم الكبرى ، وبهاء الدين السلامهي ، وتاج الدين محمودا الأشنهي ، وسعد الدين الصرام الهروي ، ومختارا الهروي ، وحج في صباه . ثم دخل بغداد ثانيا ، وقرأ على السهروردي ، وبخراسان على المؤيد الطوسي ، وفضل الله بن محمد بن أحمد النوقاني ، وقرأ على الخطيب جلال الدين بن الشيخ شيخ الإسلام برهان الدين المرغيناني كتاب " الهداية " في الفقه . ثم قدم خوارزم ، وقرأ ببخارى على المحبوبي ، والكردي ، وأبي رشيد الأصبهاني . ولما خرب التتار بخارى وغيرها أمر نجم الدين الكبرى أصحابه بالخروج من خوارزم إلى خراسان وكان من بينهم الباخرزي ، وقال للباخرزي : اذهب إلى ما وراء النهر . وفي تلك الأيام هرب خوارزم شاه ، فقدم سيف الدين بخارى وقد احترقت وما بها موضع ينزل به ، فتكلم بها ، وتجمع إليه الناس

بعث إلى الشيخ الباخرزي رسولا ليأخذ له العهد بالإسلام وكان بركة خان آنذاك تحت حكم أخيه باتو الذي استأذنه في زيارة الشيخ فأذن له ، فسار من بلغار إلى جند ثم إلى أترار ، ثم أتى بخارى ، فدخل على الشيخ ، وأسلم جماعة من أمرائه ، وأخذ الشيخ عليهم العهد ، وكتب له الأوراد والدعوات فلم تطب نفسه ، فقال : إنك قصدتنا ومعك خلق كثير ، وما يعجبني أن تأمرهم بالانصراف ، لأنّي أشتهي أن تكون في سلطانك . وكان عنده ستون زوجة فأمره باتخاذ أربع وفراق الباقيات ففعل ورجع وأظهر شعار الملة ، وأسلم معه جماعة ، وأخذوا في تعليم شرائع الإسلام ، وارتحل إليه الأئمة ، وكانت خيراته متواصلة إلى أكثر العلماء [1].

ومهما يكن من أمر فقد دخل بركة خان الإسلام على المذهب السنّي ويختلف المؤرخون حول ما إذا كان نجم الدين كبرى السبب في إسلامه أو تلميذه شمس الدين الباخرزي أو الشيخ الزاهدي أو التجار المسلمون الذين كانوا يجوبون تلك الديار ، إلا أنهم يتفقون على أن هؤلاء كلهم كانوا من المسلمين السنّة ، وقد كان إسلامه فاتحة خير على المسلمين ، فقد حسن إسلامه ، فأقام منار الدين ، وأشهر شعائر المسلمين وأكرم الفقهاء وقربهم منه ، و ابتنى المساجد و المدارس ، وبإسلامه أسلم

. ما جاء محمود يلواج= بخارى ليضع القلان وهو أن يعد الناس ويأخذ من الرأس دينارا والعشر من التجارة ، فدخل على سيف الدين فرأى وجهه يشرق كالقمر ، وكان الشيخ جميلا بحيث إن نجم الدين الكبرى أمره لما أتاه أن يتنقب لئلا يفتتن به الناس، فأحب يلواج الشيخ ووضع بين يديه ألف دينار ، فما التفت إليها وعرف الشيخ بين التتار بألغ شيخ ، يعني الشيخ الكبير ، وبذلك كان يعرفه هولاكو ، وقد بعث إليه بركة خان من سقسين رسولا ليأخذ له العهد بالإسلام ، وكان أخوه باتوا كافرا قد استولى على بلاد سقسين وبلغار وصقلاب وقفجاق إلى الدربند ، وكان باتوا مع كفره يحب الشيخ ، فلما عرف أن أخاه بركة خان قد صار مريدا للشيخ فرح فاستأذنه في زيارة الشيخ فأذن له ، فسار من بلغار إلى جند ثم إلى أترار ، ثم أتى بخارى ، وزار الشيخ و دان على يديه بالإسلام . للإستزادة : انظر : الذهبي ، السير ، ج 23 ، ص 263-267 .

[1] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج23 ، ص 366 . و القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج4 ،ص 473 . و ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 603 .

أكثر قومه و أسلمت زوجته ججك خاتون ، واتخذت لها مسجدا من الخيام تسافر به[1].

1-2/ دور السّنة في إسلام مغول التركستان (الجغطائية) :

كانت بلاد تركستان من نصيب جغطاي الذي كان من أشد المتعصبين لتطبيق دستور المغول الياسا ومن أكثر العارفين بها والمتحمسين إليها ، وبالتالي فإن وجود أي دين يتقاطع مع سياسة الياسا كان عدوه الأول ، الأمر الذي حدث مع الإسلام الذي لا يجيز أكل لحوم الماشية التي لم يتم ذبحها وفق الطريقة الإسلامية بالإضافة إلى أن كثير من المسلمين كانوا يتوضؤون من المياه الطاهرة على ضفاف الأنهار ، مما يتنافى مع مبادئ الياسا التي تحرم على الناس ذلك[2].

وعلى هذا الأساس ما انفك جغطاي يحرّض أخاه القاآن أوكداي على المسلمين ولكن أوكداي لم يستجب لأخيه لأنّه كان يدرك مدى أهمية المسلمين في تنظيم شؤون إمبراطوريته المترامية الأطراف ، فيروي الجوزجاني أن أوكداي كان ملكا نبيلا كريما طيب المعاملة للمسلمين في حين كان أخوه جغطاي لا يكف عن إيذاء المسلمين و إلحاق الأذى بهم فقد أرسل ذات مرة أحد الكهان البوذيين إلى بلاط أوكداي يخبره فيه قائلا : " رأيت جنكيزخان في المنام ، وحملني أمرا أبلغك إياه ، ولا يليق بك أنت أوكداي ابنه وخليفته أن تهمل أمره بأيّ وجه من الوجوه ، أو أن تعدل عن هذا الدستور –الياسا– ، ويجب عليك أن تدرك رضاء جنكيزخان وتفوز به وهذا الأمر هو: أن جنكيزخان قال : لقد كثر المسلمون ، وسيكون سقوط ملك المغول في النهاية على أيديهم ، فيجب عليك أن تقتل الآن المسلمين كافة في كل ممالكنا من

[1] النويري ، المصدر السابق ، ج27 ، ص 244 و المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 486 .

[2] الجويني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص272 .

بلاد الصين وطمغاج وتنكت وتركستان حتى بلاد إيران والعجم، وألا تترك منهم إسما ولا أثرا ! والآن وقد أبلغتك أمر جنكيزخان وأبرأت ذمتي من هذه الأمانة ، فعليك الإمتثال وتنفيذ الأمر ولا تهمل طوائف المسلمين ، حتى لا يزول الملك "[1] وحينما أنهى الكاهن كلامه فطن أوكداي بفراسته بأنّ ذلك محض افتراء وحينها سأل الكاهن : أتعرف المغولية أم التركية أم كلاهما معا ؟ فأجاب الكاهن بأنه يعرف التركية فقط ، ثم قال له أوكداي : إن جنكيزخان كان لا يتكلم غير اللغة المغولية فإذا أخبرك بما قلت بالمغولية فكيف استطعت فهمه ؟ و إن حدّثك بالتركية فكيف أبلغك الأمر وهو لم يكن يعرف اللغة التركية ؟ فاعترف الكاهن بكذبه وعفا أوكداي عنه من أجل أخيه وقال له : لن أعاقبك إحتراما لأخي ، فعد إلى مكانك وقل لجغطاي وأتباعه أن يكفّوا أيديهم عن إيذاء المسلمين والتعدي عليهم لأنّهم إخوتنا وأصدقاؤنا ، وقد ظهرت قوّة دولتنا بهم ، وخضع أهل العالم لنا بمساعدتهم"[2].

وعلى الرغم من عداوة جغطاي للمسلمين إلاّ أنه عيّذن في بلاطه وزيرا مسلما يدعى قطب الدين حبش[3] ، ومع أن هذا الوزير الأتراري الأصل كان مسلما إلا أنّه لم تكن له أي يد بيضاء في مساعدة المسلمين والذبّ عنهم ، الأمر الذي جعل الشيخ سيف الدين الباخرزي يرسل إليه برسالة جاء فيها "بما أن ربّ العزة قد أوكل إليك في هذه الدولة أن تنصر الحق فماذا سيكون عذرك يوم الحشر إذا أنت لم تقم بذلك ؟ و في ملتنا الإسلامية (نصرها الباري إلى يوم الدين) شروط الرئاسة ثلاثة هي العلم والسنّ والإسلام. فإذا أراد شاب لا خبرة له أن يتولّ الرئاسة فإنّه في نظر العقلاء لا يعيب المسنّين أن يحرموا منها. وحيث يصبح الهدهد ملكا فإنه لا عار

[1] الجوزجاني ، المصدر السابق ، ج2 ،ص 168-169 .

[2] نفسه ، ج2 ، ص 171 .

[3] قطب الدين حبش : كان وزيرا مسلما لجغطاي أصله من أترار ، للإستزادة أنظر : الجويني ، المصدر السابق ،ج1 ، ص 273 ، و الهمذاني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 158 .

على البازي في أيام دولته أن يكون بغير تاج. ومن الأفضل للعقلاء أن ينأوا بأنفسهم إذا ما تولى السفهاء الرئاسة : ذلك أن القصر عندما يصبح منبرا فإنّه من الخير البقاء بلا منبر"[1] .

وكان من الوزراء المسلمين الذين تولوا حكم أراضي تركستان الوزير المسلم محمود بن يلواج المعيّن من طرف القآن أوكداي على بلاد التركستان ثم على بلاد الصين فلم يكن بعد ذلك على شاكلة حبش عميد ، فقد أعان المسلمين وغير المسلمين ، وخفف من وطأة المغول عليهم ، وأعاد بناء ما خرّبه المغول من مدن وأحيا فيها رونق الحياة من جديد . كما أعاد ضبط الممالك و أحكم الأمور الإدارية والمالية فيها[2] .

وبهذا فقد بدأ الإسلام يدّب شيئا فشئيا في أوصال الدولة الجغطائية حيث تولّى منصب الوزارة فيها وزراء مسلمون أمثال أسرة يلواج وبهاء الدين المرغياني ، والسيد الأجلّ البخاري الذي تولّى منصب الوزارة بعد محمود يلواج سنة 658هـ/1260م ، بالإضافة إلى الطرق الصوفية التي لعبت دورا مهمّا في نشر الإسلام بين صفوف مغول تركستان خاصة الطريقة النقشبندية التّي أسسها الشيخ بهاء الدين الباخرزي .

1-3/ دور السّنة في إسلام مغول إيران و العراق (الدولة الإيلخانية) :

كانت دولة المغول الإيلخانية التي يسميها غالب المؤرخين بمملكة إيران[3]، تضمّ جميع البلاد الواقعة في إيران والعراق وجزء من أراضي الأناضول ، وتضم عدة أقاليم من بينها إقليم خراسان وعاصمته نيسابور ، وأذربيجان وعاصمتها تبريز

---

[1] بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص 662-663 .

[2] ابن الفوطي ، **مجمع الآداب في معجم الألقاب** ، ج3 ، ص 197-198 و ابن العبري ، المصدر السابق ، ص 459 .

[3] القلقشندي ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 313 .

وعراق العجم وعاصمته أصفهان ، وعراق العرب وعاصمته بغداد ، بالإضافة إلى خوزستان وعاصمته ششر ، وفارس وعاصمتها شيراز ، وديار بكر وعاصمتها الموصل وبلاد سلاجقة الروم وعاصمتها قونية [1].

اعتلى تيكودار عرش الدولة الإيلخانية بعد وفاة أخيه أباقا خان ، فقد كان تيكودار بن هولاكو الأكبر بين إخوته فتمّ انتخابه بعد عقد مجلس القوريلتاي على حسب ما تنص به شريعة جنكيزخان الياسا ، ومع أنّ أرغون بن أباقا قد بايع عمّه مرغما إلاّ أنّه أضمر في نفسه التمرد والعصيان وكان في نهاية المطاف مصرع تيكودار وتولية أرغون العرش الإيلخاني[2] .

ولد تيكودار وثنيّا ثم ما لبث أن تحوّل إلى المسيحيّة وتسمّى بنيقولا [3]، ولكنّه سرعان ما اعتنق الإسلام ويقال أنه أسلم في حياة والده هولاكو[4]، إلا أنّه أعلن إسلامه بعد فترة قليلة من توليه عرش الإيلخانية[5]، وأرسل رسالة إلى أهل بغداد يبشرهم فيها بإعلان إسلامه وإظهار شعائره، وإعلاء كلمة الدين ، وبنى الجوامع والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار ، وضرب عليهم الجزية.

كان أحمد تيكودار أوّل حاكم أسلم من نسل هولاكو ، وراح يشجّع أمراءه على اعتناق الإسلام ، ولكنه لم يلبث طويلا في الحكم فقد انقلب عليه أرغون الذي راح يضطهد

---

[1] رجب محمد عبد الحليم ، **انتشار الإسلام بين المغول** ، دار النهضة العربية ، مصر ، د ت ن ، ص 176.

[2] النويري ، المصدر السابق ، ج27 ، ص 273 .

[3] Sykes Sir Percy , **A history of Persia** , London , 1915 ,v2 , p185 .

[4] ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 7 ، ص 310 .

[5] ابن حبيب (الحسن بن عمر ت 779هـ/1377م) ، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه** ، تحقيق : محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، 1976 ، ج1 ، ص 72 .

المسلمين ، كما صرفهم عن كافة المناصب التي شغلوها خاصة في القضاء ، وبعد وفاته حكم ابنه غازان الذي تلقب بمحمود غازان وأعلن الإسلام دينا رسميّا للدولة[1].

ويعود الفضل في إسلام غازان إلى قائد جيشه نوروز الذي أقنعه باعتناق الدين الإسلامي وتعلّم منه القرآن والصلاة[2] ، كما يؤكد ذلك ابن حجر العسقلاني "وكان يوم إسلامه يوما عظيما دخل الحمّام فاغتسل وجمع مجلسا وشهد شهادة الحق في الملأ العام وذلك سنة 694هـ ولقّنه نوروز شيئا من القرآن وعلمه الصلاة وصام رمضان كل السنة "[3].

ويرى البعض من المؤرخين أنّ إسلام غازان فيه دخن وذلك لأنه استعان في حربه ضدّ المماليك إخوانه في الدين وخصومه السياسيين بالنصارى من الأرمن والكرج بل حاول أيضا الإستعانة بالصليبيين في أوربا، وأرسل الوفود لهم أكثر من مرة ليقفوا معه ضد المماليك ممنيّا إياهم ببيت المقدس [4].

ومن ثمّ فيرى بعض المؤرخين بأنّ إسلام غازان لم يكن إلا بدافع المصلحة السياسية التي اقتضتها دولته التي كان معظم رعاياها من المسلمين ، وذلك لمّا أراد الارتداد عن الإسلام لما سمع بتحريم الزواج من زوجة الأب ، إلاّ أنّ أحد العلماء

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 377

[2] كاظم أمير زاده قاسمي ، **الصراع المملوكي الإيلخاني على بلاد الشام 654-735هـ/1255-1335م** ، أطروحة دكتوراه ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة دمشق ، 2017 ، ص 252 .

[3] ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي ت852هـ) **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، 1349هـ ، ج3 ، ص 212-213

[4] ابن أيبك الدويداري ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 28-29 و رجب عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص 190

أجاز له ذلك ، حينما علّل زواج أبيه أرغون منها بالباطل لأنه لم يكن قرانا إسلاميا وهذا إن دلّ على شيء فيدل على هشاشة تشرّبه للدّين الإسلامي [1].

فضلا عن ما ذكره أخوه أولجايتو خدابندة الذي تولّى الحكم من بعده إذ يقول "إن أخي غازان ما كان له عقل في خراب البلاد ، وكان مسلم الظاهر كافر الباطن"[2].

بينما يرى بعض المؤرخين الآخرين بصحة إسلام غازان ، فقد أصدر مرسوما أمر فيه المغول باعتناق الإسلام ، وزاد من عدد المساجد وأصبح قادة الجيوش والقضاة من المسلمين ، كما حارب الخمر والرّبا والبغاء ، وخصص إعتمادات ماليّة كبيرة للحج وأرسل كساءا للكعبة، كما أصدر عملة إسلامية نقش عليها شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، كما أنّه ألغى تبعيّته للخان الأعظم في الصين سنة 694هـ/ 1295م ، واستقلّ بدولته عنه وتلقب بالخان بدل الإيلخان ، فلم يرد أن يكون تابعا لملك وثني[3]. وصارت إيلخانية إيران منذ هذا التاريخ مستقلة على الإمبراطورية المغولية .

بل إنّه حين حضره الموت سنة 703هـ/1304م أوصى الحاضرين بالتمسك بأهداب الدين الإسلامي[4].

2-/ دور الشيعة في إسلام المغول :

بالرغم من أنّ أولجايتو قد تعمّد بالمسيحية بواسطة أمه أوروك خاتون التي كانت مسيحيّة نسطوريّة وحمل اسم نيكولا احتراما لنيكولا الرابع ، إلا أنّه دخل في الإسلام

---

[1] فايد عاشور ، المرجع السابق ، ص 162.

[2] ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ، ج3 ، ص 585 و ابن أيبك الدويداري ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 127 .

[3] رجب عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص 196-197 .

[4] كاظم أمير زادة ، المرجع السابق ، ص 266 .

بسبب تأثير إحدى زوجاته فعندما قدم تبريز للجلوس على عرش الخانية كان مسلما حنفيّا ، واتّخذ لنفسه اسم "محمد أولجايتو خان" الذي يعني الملك العظيم المبارك [1].

إلا أنّه تحول من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي أوّلا ، ثم تحوّل من مذاهب أهل السنّة والجماعة إلى المذهب الشيعي في سنة 709هـ/1310م ، فلقّبه الشيعة بلقب "خدابندة" أي عبد الله بسبب تعلقه بمذهبهم ، إلا أنّ أهل السنّة قد حرّفوا هذا الإسم إلى " خربندة " أي المكار [2].

وتختلف الروايات في سبب تحول أولجايتو من التسنّن إلى التشيّع فيروي المجلسي والخوانساري بأن أولجايتو قد طلق زوجته ثلاث مرات ، وحاول أن يعيدها فأشار كل علماء السنّة بضرورة المحلّل ، وهو أمر لم يقبله السلطان أولجايتو حتى أشار عليه بعض خواصه على أنّ هناك مذهبا إسلاميا آخر قد يجد تخريجا شرعيّا لما هو فيه فطلب أكبر عالم شيعي آنذاك وهو الشيخ حسن بن يوسف ابن مطهر الحلي ، الذي أفتى له ببطلان طلاقه لعدم توفر شاهدين عدلين على ذلك ، وكانت هذه الحادثة بداية اهتمام اولجايتو بالمذهب الشيعي ، فبدأ في تنظيم المناظرات بين ابن مطهر الحلي وباقي العلماء من المذاهب السنيّة ، فكانت الغلبة وقوة الحجة والبرهان – على ما ذكرته الرواية – لابن مطهر ، وبذلك فقد أعجب اولجايتو بآرائه وقرّر اتخاذ المذهب شيعي مذهبا رسميا للدولة [3].

---

[1] نفسه ، ص 276 .

[2] عباس إقبال ، تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص 476 .

[3] محمد تقي المجلسي ، **روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه** ، تحقيق : حسين الموسوي و علي بناه الاشتهاردي ، قم ، إيران ، 1397هـ ، ج9 ، ص 31–32 و الخوانساري ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 279–280 .

وتعدّ هذه الرواية الأشهر على الإطلاق لما فيها من تراجيديا تبين كيف أن المذهب الشيعي بأحكامه المرنة قد لملم أسرة السلطان ، أو تدعو إلى السخرية لتغيير السلطان مذهبه من أجل امرأة ، إلا أنّ هذه الرواية لا تصمد أمام الحقيقة التاريخية فقد خلت من أي سند تاريخي ، بالإضافة إلى عدم ذكرها بين سطور الأخبار في كتب المؤرخين المعاصرين لأولجايتو ، فضلا عن المصادر المتأخرة ، وانفرد بها المجلسي (ت1070هـ/1660م) والخوانساري (1313هـ/1895م) والمرجح بأنّ الخوانساري قد نقلها من المجلسي ، بل لا يوجد لها ذكر حتّى في مصنفات ابن مطهر الحلي نفسه .

بينما يروي ابن بطوطة بأنّ الخان خدابندة قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمّى ابن مطهر الحلي ، فلمّا أسلم السلطان وأسلمت بإسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزيّن له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة ، وقرّر لديه أنّ أبا بكر وعمر وزيرين لرسول الله وأنّ عليّا ابن عمّه وصهره فهو وارث الخلافة ومثّل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذي بيده إنما هو إرث عن أجداده وأقاربه مع حداثة عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين [1].

وصار العلامة الحلّي مقربا من الخان أولجايتو ، فزين له المذهب وحبّبه له حتى اعتنقه وحمل الناس عليه ، بل ما زاد الطينة بلّة أنّه أمر الخطباء في يوم الجمعة أن يخطبوا على الطريقة الشيعيّة في سبّ الصحابة رضوان الله عليهم [2].

[1] ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج2 ، 37-38 .

[2] ابن أيبك الدويداري ، المصدر السابق ، ج9 ،ص206 .

ويمكن القول أن اهتمام خانات المغول بالمذهب الشيعي قد بدأ من عهد غازان الذي كان متسامحا جدّا مع الشيعة بل كان كثيرا ما يؤيّد نشاط المؤسسات الشيعية ويزور عتبات كربلاء[1].

ولعلّ جعفر المهاجر يجانب الصواب حينما يدّعي بأنّ غازان قد أعلن تشيعه يوم اعتلائه عرش خانية المغول ، بل يزيد على ذلك بأنه قد أصدر نقودا ذهبية كبيرة نقش عليها أسماء الأئمة الإثنا عشر . فلا يوجد ما يؤكد هذا الرأي في مرويات المؤرخين المعاصرين لحكم غازان ، كالهمذاني وابن الفوطي وغيرهم من المؤرخين[2].

فالمؤكّد على أنّ أول من تشيّع من حكام مغول فارس كان أولجايتو الذي حاول في البداية فرض هذا المذهب وحمل الناس عليه ، وكتب بذلك إلى العراقين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان ، وبعث رسله في ذلك ، فكان أوّل بلاد وصل إليها ذلك بغداد وشيراز وأصفهان ، فامتنع أهل بغداد وخاصة أهل باب الأزج[3] منهم وأكثرهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وقالوا: لا سمع ولا طاعة ، وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة وبه رسول الخان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا إليه ، وهم نحو اثنا عشر ألفا في سلاحهم ، فحلفوا له إن هو غيّر الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو أنقص منها فإنّهم قاتلوه وقاتلوا رسول الخان.

---

[1] بارتولد شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص 73 .

[2] جعفر المهاجر ، **الهجرة العاملية إلى إيران** ، دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1989 ، ص 93 .

[3] باب الأزج : من محال بغداد الجنوبية ، أنظر : ابن الكارزوني ، المصدر السابق ، ص 226 .

وكان الخان محمد أولجايتو قد أمر بإسقاط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يُذكر إلا عليّ ومن تبعه كعمار بن ياسر رضي الله عنه ، فخاف الخطيب من القتل ، وخطب الخطبة المعتادة ، وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد[1].

[1] ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 38 .

المبحث الثاني : العلاقات بين المماليك السنة و طائفة الإسماعيلية

1-نشأة الإسماعيلية في بلاد الشام :

تعود نشأة الإسماعيلية في بلاد الشام إلى حركة التوسع التي عمل عليها الحسن بن الصباح ، فمنذ بداية تأسيسه للطائفة الإسماعلية النزارية في قلعة الألموت ببلاد فارس حرص على تمديد حركته قرب مصر التي كانت حاضنة المذهب الإسماعيلي آنذاك ، وبما أن بروز أي حركة في مصر تؤيد نزار على المستعلي كان مآلها الإضطهاد و القتل ، فقد وجد في بلاد الشام موضع قدم للدعوة الجديدة ، خاصة وأن بلاد الشام كانت قريبة نسبيا من مصر ، كما كان أقدم مكان اتخذه دعاة الإسماعيلية في دور الستر كان في مدينة سلمية[1] قرب حمص ببلاد الشام ، فضلا عن وجود مناطق كانت تضاريسها ملائمة بما تحتويه من جبال وأنهار يصعب على أي جيش اقتحامها[2].

ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر الحركة الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام مستغلة الصراع الذي كان بين الأمراء السلاجقة رضوان حاكم حلب وأخيه دقاق حاكم دمشق ، وصهره – زوج ابنته– جناح الدولة الذي كان حاكما لمدينة حمص ، وكانوا جميعا

---

[1] سلمية : هي بلدة صغيرة في ناحية البرية من أعمال حماه بينهما مسيرة يومين ، وكانت تعد من أعمال حمص نزلها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس واتخذها منزلا وبنى هو وولده فيها الأبنية ونزلوها ، ويقال عن سبب تسميتها بسلمية بأنه لما نزل العذاب بأهل المؤتفكة رحم الله مائة نفس منهم ونجاهم فانتزحوا إلى سلمية فعمورها وسكنوها فسميت سلم مائة ثم حرّف الناس اسمها فقالوا سلمية . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 240 و الحميري ، المصدر السابق ، ص 320 .

[2] محمد كامل حسين ، **طائفة الإسماعيلية تاريخها نظمها عقائدها** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1959 ، ص 91 و برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 145 .

ولاة من قبل السلاجقة [1]، وقد استطاع دعاة الإسماعيلية النزارية استمالة رضوان حاكم حلب إلى صفّهم الأمر الذي ساعدهم على تأسيس عدة قلاع وحصون لهم كان من أبرزها حصن القدموس وحصن الكهف و العليقة وقلعة مصياف[2] التي كان يقيم فيها الداعي العام للإسماعيلية النزارية في بلاد الشام .

وعلى الرغم من تحالف الإسماعيلية النزارية مع رضوان حاكم حلب في صراعه ضد أخيه دقاق حاكم دمشق ، إلا أن هذا الأخير انتصر عليه بتحالفه مع صهره جناح الدولة حاكم حمص ثم نكل بالإسماعيلية أشد التنكيل ، وأخرجوا من حلب و قاموا على إثرها باغتيال جناح الدولة سنة 496 هـ/1103م حاكم حمص في المسجد الجامع بالمدينة أثناء صلاة الجمعة من طرف رجلين من الإسماعيلية كانا متنكّرين في زيّ الصوفية[3] فكان أول ضحية للفدائيين الإسماعيلية في بلاد الشام [4]. وهكذا بقي حال الإسماعيلية في بلاد الشام بين كرّ وفرّ إلى غاية ظهور الداعي راشد الدين سنان[5] .

---

[1] مصطفى الشكعة ، **إسلام بلا مذاهب** ، ط11، الدار المصرية اللبنانية ، مصر ، 1996 ، ص 246 .

[2] قلعة مصياف : حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس ، وبعضهم يقول مصياب . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج5 ، ص144 .

[3] برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 149 .

[4] محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 94 .

[5] سنان : هو سنان بن سليمان بن محمد يكنى براشد الدين و أبي الحسن ولد في عقر السودان وهي قرية قرب مدينة البصرة على الطريق إلى واسط سنة 528 هـ وأخذ علوم المذهب ثم وفد إلى العراق فاستقر بالبصرة حتى سنة 558هـ ثم أرسله الإمام حسن لإدارة شؤون الإسماعيلية في حلب فأصلح أمورهم وأقام في قلعة الكهف ثم انتقل إلى قلعة مصياف التي اتخذها عاصمة لحكمه الذي استمر أكثر من ثلاثين سنة أثبت فيها جدارته في مقارعة خصومه حتى اعتبره بعض المؤرخين الإسماعيلين أكبر عقلية حربية في التاريخ الإسماعيلي . للإستزادة انظر : ابراهيم غالب ، **تاريخ الدعوة الإسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر** ، دار اليقضة العربية، دمشق ، 1953 ، ص 210 . وعارف تامر ، **سنان راشد الدين** ، مجلة الأديب ، العدد 5 ، لبنان ، 1953 ، ص 43 – 45 . و الذهبي ، السير ، ج21 ، ص 190 .

مما لا شك فيه أن الطائفة الإسماعلية النزارية قد بلغت العصر الذهبي لها في بلاد الشام خلال حكم راشد الدين سنان الذي أرسله الحسن بن محمد إلى بلاد الشام للدعوة و نشر المذهب وتقوية الوجود الإسماعيلي ، وقد بلغ سنان من الذكاء والفطنة ما جعله يرسخ أقدام الإسماعيلية في الشام ، بالإضافة إلى علمه الغزير و إلمامه بكافة علوم المذهب ، فضلا على تقيده الشديد بأصول المذهب الاسماعيلي الذي جعله محل احترام جميع رجال الإسماعيلية ، الذين التفوا حوله واستطاع أن يجعل منهم قوة متحدة لهم نفوذ و سلطان ، حتى بلغت منزلته في قلوبهم رتبة الحسن بن الصباح نفسه بل ذهب بعضهم لوصفه إماما من أئمتهم بدل حجة الإمام [1]. كما استقل سنان بنفوذ الاسماعيلية في بلاد الشام عن بلاد فارس[2].

وممّا يدل على استقلال سنان عن حكام الألموت حينما جاء مرسوم القيامة من طرف الإمام في الألموت إلى إسماعيلية الشام بترك العبادات ، حيث يورد ابن العديم بأنه " أظهر أهل جبل السماق[3] الفسق والفجور ، وتسموا بالصفاة ، واختلط النساء والرجال في مجالس الشرب ، ولا يمتنع أحدهم من أخته ولا ابنته ، ولبس النّساء ثياب الرجال ، وأعلن بعضهم بأن سنانا ربّه ، فسير الملك الصالح إليهم عسكر حلب ، فهربوا من الجبل ، وتحصنوا في رؤوس الجبال ، فأرسل سنان وسأل

[1] عارف تامر ، سنان راشد الدين ، مجلة الأديب ، العدد 5 ، لبنان ، 1953 ، ص 43 – 45 .

[2] الذهبي ، السير ، ج 21 ، ص 190 .

[3] جبل السماق : هو جبل عظيم بأعمال حلب الغربية ، يشتمل على عدة مدن وقرى وقلاع ، عامتها للإسماعيلية وأكثرهم في طاعة صاحب حلب ، وفيه بساتين ومزارع ، وتقل فيه العيون المياه الجارية ولذلك تنبت فيه أشجار الفواكه والقطن والسمسم وغير ذلك ، وقيل إنه سميّ بذلك لكثرة ما ينبت فيه من السماق وهو نوع من البهارات . للإستزادة أنظر : ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 102 .

فيهم ، وأنكر حالتهم ، وكانوا قد نسبوا ذلك إليه ، وأنهم فعلوا ذلك بأمره ، فأشار سعد الدين بقبول شفاعته فيهم ، وعاد العسكر عنهم"[1].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى العلاقة التي كانت تربط راشد الدين سنان بالسلطان صلاح الدين الأيوبي كانت علاقة عداء شديد في أول الأمر ويتجلى ذلك في الرسائل التي كان يرسلها إلى صلاح الدين [2] ، فقد حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة ، إلا أنهم أخفقوا في ذلك ، ما جعل صلاح الدين يجرد حملة واسعة للقضاء عليهم و توجه إلى كبرى قلاعهم مصياف وشنّ عليها حصارا شديدا ، حتى أقنعه بعض أتباعه و كان من أبرزهم خاله صاحب حماه شهاب الدين الحارمي ، بالتصالح مع الإسماعيلية و التفرغ لقتال الصليبيين [3]، ومن ثم فقد أقام صلاح الدين علاقة تحالف يشير إليها بعض المؤرخين الإسماعيلين وغير الإسماعيلين أنها تحولت إلى صداقة بينه و بين شيخ الجبل سنان [4].

ولعل ذلك يتجلى في المساعدة التي قدمها شيخ الجبل لصلاح الدين حينما اغتال ملك بيت المقدس المركيز كونراد المنفرتي Conrad of Montfettat سنة 588هـ/ 1192 م بينما كان في صور[5] ، وتتفق معظم المصادر على أن مغتاليه

---

[1] ابن العديم (كمال الدين أبي القاسم الحلبي الحنفي ت660هـ) ، **زبدة الحلب من تاريخ حلب** ، تحقيق : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1996 ، ص 373 .

[2] الرسائل و الأشعار التي كان يرسلها سنان لصلاح الدين ، للإستزادة انظر محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 101-103 . و ابراهيم غالب ، المرجع السابق ، ص 212 .

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 81 و ابن العديم ، المصدر السابق ، ص 373 .

[4] ابراهيم غالب ، المرجع السابق ، ص 210 . و محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 104 و مصطفى الشكعة ، المرجع السابق ، ص 247 .

[5] صور : مدينة مشهورة تقع على الساحل الشامي ، وهي حصينة جدا افتتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب ، وهي قريبة من عكا و بها دار الصنعة ومنها تخرج مراكب السلطان . للإستزادة أنظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص 369 و ياقوت ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 433 و القزويني ، المصدر السابق ، ص 217.

تخفوا في زي رهبان مسيحيين وشقوا طريقهم إلى خلوة الأسقف والمركيز ، وعندما سنحت لهم الفرصة طعنوه حتى الموت[1] ، وقد كان في حالة عداء مع صلاح الدين الأيوبي[2] ، الأمر الذي حفظه صلاح الدين للإسماعيلية حينما أدخل ضمن شروط الصلح مع الصليبيين عدم التعرض للقلاع الإسماعيلية و أملاكهم [3].

وبوفاة سنان سنة 588 هـ/ 1192م خلفه على حكم الطائفة جماعة من الدعاة لم يكونوا على شاكلة ذكائه و دهائه وقوة شخصيته ، ولذلك تطلع إسماعيلية الشام مرة أخرى إلى أئمة ألموت ، ولكن من الواضح أن كونوا لهم استقلالا ذاتيا عنهم ويتضح ذلك حينما غزا هولاكو إسماعيلية فارس واستسلم ركن الدين خورشاه [4]، وأرسل إلى داعيته بالشام أبا المعالي رضي الدين يدعوه إلى تسليم قلاع الشام للمغول ، رفض الداعي أن يأتمر بأمر إمامه وأراد مقاومة المغول ، ولكنه أمام انتصارات المغول في الشام اضطر إلى تسليم بعض القلاع لهم سنة 658هـ/1260م الذي سرعان ما استعادها بعد انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت[5].

2-العلاقات بين المماليك والإسماعيلية:

شكّل عهد الظاهر بيبرس عهدا جديدا في تاريخ العلاقات بين المماليك السنة والشيعة الإسماعيلية فقد تهاوت قوة القلاع الإسماعيلية في بلاد الشام خاصة بعدما سقطت نظيرتها في بلاد فارس تحت حملة المغول ، وبذلك فقد آثروا السكينة

[1] برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 171 .
[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج10 ، ص 213 .
[3] محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 104 .
[4] الجويني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 232 .
[5] محمد حسين كامل ، المرجع السابق ، ص 107 .

ومهادنة المماليك في مصر[1] بعدما ما حققوه من نصر حاسم في معركة عين جالوت.

ويختلف المؤرخون حول اتصال جرى بين الظاهر بيبرس وقلاع الإسماعيلية ففي حين يورد كاتب سيرة الملك الظاهر في حوادث سنة 660هـ/1261م بأنه "وصلت رسل دار الدعوة ، ومعهم الهدايا ، ووصل ولدا الصاحبين ، مقدمي الدعوة ، فأحسن السلطان إليهما ، وتوجها"[2] مثل سائر أمراء الشام ، يروي ابن كثير و ابن العسال والدواداري بأن رسل الإسماعيلية جاءوا إلى بيبرس سنة 659هـ/1260م ، "أرسل رضي الدين أبى العلا ونجم الدين بن الشعراني المستوليان على قلاع الإسماعيلية هدية إلى السلطان الملك الظاهر ورسالة ضمنها تهديد ووعيد ، وطلبوا ما كان لهم من الإقطاعات في دولة الناصر ، فأجابهما السلطان الظاهر إلى ذلك . فلما عزم الرسل على العودة ، قال لهم السلطان : بلغني أن الرضي مات ، وولّى أحد الرسل مكانه ، وكتب له بذلك منشورا ، فتوجه ، فوجد الرضي حياّ في عافية ، فكتم أمره عشرة أيام ، ثم أنّ الرضي مرض أياما قلائل ومات فتولى مكانه ، فلم يرضَ به الإسماعيلية فقتلوه"[3]. ولعل هذه الرواية هي الأكثر شيوعا بين جموع المؤرخين، إلاّ أنها لا تعكس مدى الضعف الذي كان عليه الإسماعيلية في هذا الوقت لمطالبة بيبرس بما كان لهم من إقطاعات ، ومن ثم فالمرجح أن الإسماعيلية جاءوا إلى بيبرس بعد تنصيبه سلطانا على المماليك لتهنئته .

---

[1] ابراهيم غالب ، المرجع السابق ، ص 224 .

[2] ابن عبد الظاهر(محي الدين ت 692هـ) ، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر ، د دن ، الرياض ، 1976 ، ص157

[3] ابن العسال (مفضل بن أبي الفضائل) ، **النهج السديد و الدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد** ، تحقيق : محمد كمال الدين علي السيد ، دار سعد الدين للطباعة و النشر ، سوريا ، 2017 ، ج1 ، ص 102 و الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك) ، **كنز الدرر وجامع الغرر** ، تحقيق : أولرخ هارمان ، المعهد الألماني للآثار ، القاهرة ، 1971، ج8 ، ص 84-85 . و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 17 ، ص 431

وعلى الرغم من أن طائفة الإسماعيلية استغلت انهزام المغول فاستعادوا مواقعهم وانتهز الداعي أبو المعالي هذه الفرصة بجمع رجاله الذين أظهروا بلاء حسنا في مجابهة المغول ، واسترد بهم قلاع الإسماعيلية ، وبذلك استرجعوا شيئا من قوتهم غير أنهم لم يكونوا قادرين على الوقوف في وجه جيوش المماليك بقيادة الظاهر بيبرس الذي هاجمهم سنة 664 هـ/1265م ، وكانوا برئاسة الداعي نجم الدين الذي قبل بدفع الجزية للمماليك واضطروا إلى أن يطلبوا من بيبرس أن يكونوا من رجاله[1].

ولعل السبب في مهاجمة السلطان بيبرس لقلاع الإسماعيلية كان بسبب الموقف المتباين إزاء الحروب التي كانت بين بيبرس و الصليبيين في بلاد الشام ، كما يروي صاحب سيرته أنه لما وصلت رسل الإسماعيلية قال لهم السلطان : " بلغني أنه لما غارت العساكر على بلاد طرابلس حميتم مواشي الفرنج ، واستودعتم أموالهم وكتبكم كانت ترد بالشكوى من مجاورة الفرنج ، وتقولون ما نعطيهم القطيعة إلاّ لأنّ عساكر السلطان بعيدة ، وإلا لو قربت العساكر منّا روينا سكاكيننا من دمائهم . فلما وصلت عساكري إلى أبوابكم لدفع الضيم عنكم حسنتم وجوهكم معهم باستيداع مواشيهم"[2].

والملاحظ أنه لما منح السلطان الظاهر بيبرس هدنة مع فرقة الإسبتارية الصليبية عام 1266م كان من بين شروطها الإمتناع عن أخذ أي جزية من مختلف بلدان المسلمين وأقاليمهم بما فيها القلاع الإسماعيلية التي كانت تؤدي جزية سنوية لفرقة الإسبتارية وكانت بالمقابل تأخذ جزية من ملك الروم فيورد الحموي في حوادث سنة 622هـ بوصول رسول الإمبراطور إلى الإسماعيلية بالحصون الشامية بجواب

---

[1] محمد أحمد الخطيب ، **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها و حكم الإسلام فيها** ، مكتبة الأقصى، الأردن ، 1984 ، ص 81 .

[2] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 255-256 .

رسالتهم إليه وعلى يده هدية يقارب ثمنها الثمانين ألف دينار فقال لهم مجد الدين متولي الحصون آنذاك بأن "الطريق إلى ألموت وجلال الدين غير طيبة من الخوارزمي وغيره ونخاف عليكم فتوقفوا إلى حين صلاح الطريق واتركوا ما معكم عندنا وديعة لكم ، والغرض حفظ نفسه وأمانه منا ، وهذا أماننا له " وأقسم لهم على ذلك بل زاد على إعطائهم قميصه كدليل صدقه . وحينما علمت فرقة الإسبتارية بذلك سيّروا إلى الحشاشين من يطلبون الجزية منهم فقالوا لهم: "ملككم الإمبراطور يعطينا وأنتم تأخذون منا !"، ومنعوهم فأغاروا عليهم وسبوا منهم كثيرا من الغنائم حتى قبلوا بدفع الجزية لهم [1].

ولعلّ ذلك مردّه من أن فرقة الإسبتارية لم يكن على رأسها ملك أو أمير يخشى على حياته ، بل كانت فرقة عسكرية دينية قد تجد أي قائد من رجالها يستطيع أن يخلف سيدهم إذا ما تم اغتياله وهو الأمر الذي أدركه حاكم القلاع الإسماعيلية فلم يشأ أن يضيع رجاله بلا مقابل [2].

ومهما يكن من أمر فقد وافقت فرقة الإسبتارية على شروط الظاهر بيبرس وكان الإسماعيلية من الحكمة بحيث أرسلوا مبعوثين إلى بيبرس يعرضون عليه الجزية التي كانوا يدفعونها من قبل إلى الإسبتارية [3]. وبهذا لم يكن أمام الحشاشين سوى الدخول في طاعة المماليك وسلطانهم الظاهر بيبرس الذي أصبح يعين على القلاع

---

[1] الحموي (أبي الفضائل محمد بن علي) ، **التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان** ، تحقيق : أبو العيد دودو ، مطبعة الحجاز ، دمشق ، 1981 ، ص 151 .

[2] برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 176 .

[3] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 283 .

الإسماعيلية من يشاء منهم ويخلع من يشاء في حين استأثر بحكم قلعة مصياف لنفسه[1] .

وهذا لا يعني استسلام طائفة الإسماعيلية الكامل للظاهر بيبرس فسرعان ما ثاروا عليه و على حكمه ، وذلك حينما عزل السلطان بيبرس الداعي نجم الدين وولّى بدلا عنه الداعي صارم الدين – الذي شفع فيه صاحب حماه –[2] على قلعة القدموس وقلعة الرصافة ، فقد شاء صارم الدين أن يتملص من حكم بيبرس فهاجم مصياف واستولى عليها وأمر باقي قلاع الإسماعيلية بالثورة على حكم المماليك [3]، إلا أن هذه الثورة باءت بالفشل فقد استعاد المماليك حكمهم على القلاع واستسلم صارم الدين لبيبرس فحبسه سنة 670هـ /1271م ، وحضر الداعي نجم الدين إلى بيبرس يلتمس الصفح وكان عمره تسعون سنة فعفا عنه لأجل حضوره إلى بابه و ولاّه النيابة شريكا لولد الرضي[4].

وبالرغم من هذه الثورة فلم يقض السلطان بيبرس على قلاع الإسماعيلية أو يستأصل شأفتهم كما فعل هولاكو بإسماعيلية فارس ، بل أبقاهم تحت سلطانه لكي يستفيد من خدماتهم ضدّ أعدائه [5].

كما اتبع معهم سياسة تهدف إلى إضعافهم شيئا فشيئا ، فاستولى على بلادهم[1] بداية من قلعة مصياف التي كانت مقر حكمهم و قاعدة ملكهم سنة 662 هـ ، ثم استولى

---

[1] مصطفى الشكعة ، المرجع السابق ، ص 247 .

[2] يذكرنا هذا الأمر كيف شفع صاحب حماه خال صلاح الدين الأيوبي في الإسماعيلية قبل حوالي قرن من الزمان حينما أراد صلاح الدين حصار القلاع الإسماعيلية ، ويتجدد الأمر مع الظاهر بيبرس إذ أن هذه المرة أيضا كان صاحب حماه هو الذي يشفع لهم .

[3] الدواداري ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 143

[4] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 365-366 . .

[5] محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 108.

عام 669هـ/1271م على قلعتي العليقة[2] و الرصافة [3]، وسقطت قلعة الخوابي في العام نفسه لتسقط بقية القلاع عام 671هـ/1273 وتنتهي بذلك دولة الإسماعيلية في بلاد الشام سياسيا .

والمؤكد أنّ الظاهر بيبرس الذّي كان هدف حياته تطهير الساحل الشامي من الصليبيين و بلاد الشام من المغول لم يكن ليُبقِ في بلاد الشام جيبا مستقلا تحت حكم طائفة خطيرة كالشيعة الإسماعيلية ، وبذلك فقد قضى على كيانهم السياسي واستغل بقايا تلك الطائفة لخدمة دولته الناشئة[4] .

كما اتبع سياسة بيبرس اتجاه طائفة الإسماعيلية النزارية كل السلاطين الذين جاءوا بعده وما يدل على عدم قضاء المماليك على الطائفة الإسماعيلية في بلاد الشام ما نقله ابن بطوطة في رحلته واصفا الحصون التي يعيش فيها الإسماعيلية ويقال لهم الفداوية بأن لا أحد يدخل عليهم من غيرهم "وهم سهام الملك الناصر يصيب بهم من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتّبات " ، وإذا أراد

---

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 431 .

[2] يعلق ابن عبد الظاهر بأن هذا الحصن كان من أمنع حصون الجبل ، وكان مختصا بالرضي وولده ، فجرت أحوال من ولده أوجبت اعتقاله في مصر ، وكان السلطان قبل ذلك يحسن لهم ويستميلهم ، فلم يجد ذلك نفعا= وسيّر إلى عبد الظاهر النائب بها ، وإلى جماعة من أهلها بالترغيب و الترهيب ، فأجابوا ، و سيّروا واستحلفوا السلطان على ما وعد به ، فتسلمها نواب السلطان و استخدم بها الرجالة . للإستزادة انظر: ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 390 .

[3] ابن شداد (عز الدين محمد بن علي ت 684هـ) ، **تاريخ الملك الظاهر** ، تحقيق : أحمد حطيط ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، بيروت ، 1983 ، ص 37 .

[4] يروي كاتب سيرة الملك الظاهر بيبرس ذكر هجوم فدواية السلطان على الملك إدوارد بن هنري الثالث ملك انجلترا ، فحين انتظم صلح المماليك و الصليبيين لم يعجبه ذلك و لم يدخل في الصلح ، فرسم لابن شاور والي الرملة بعمل حيلة في أمره ، فسيّر إليه فداوية أقاموا عنده ، و سير ابن شاور يتقرب إليه ، ويوهمه أنه يطالعه بالأخبار ، وهداه وهادى زوجته وكل من حوله على يد أحد الفداوية ثم إن الفداوي دخل إليه ليخبره بشيء من أخبار السلطان ، ولم يكن عنده غير الترجمان ففزّ عليه الفداوي ضربة في خمسة مواضع ، وقتل الفداوي . للإستزادة انظر ، ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 401 .

السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوّ ما ، أعطاه ديته فإن سلم بعد آداء مهمته فهي له ، وإن أصيب فهي لولده. وبذلك فقد أدى سقوط القلاع الإسماعيلية في فارس على يد هولاكو إلى انضمام القلاع الإسماعيلية في بلاد الشام تحت لواء المماليك لتجنب المصير نفسه على يد المغول[1] .

وعلى هذا الأساس فقد بقيت الشيعة الإسماعيلية في سوريا على شكل جماعات قليلة تسكن القدموس والقليعة ومصياف وسلمية و الكهف إلى وقتنا المعاصر[2].

[1] ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 286 .

[2] برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص 177 . و محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 109 و محمد أحمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص 81 و مصطفى الشكعة ، المرجع السابق ، ص 247 .

المبحث الثالث : العلاقات بين المماليك و المغول

1-العلاقات بين المماليك و مغول القفجاق

حينما تواترت الأخبار بإسلام بركة خان ملك مغول القفجاق إلى المماليك والسلطان الظاهر بيبرس عمل على عقد تحالف إسلامي سنّي يربط الدولتين وذلك لفك الحصار الذي كان يحيط بدولة المماليك فقد كان الصليبيون من الشرق والمغول من جهة الغرب ، فضلا على أن بيبرس كان يتوقع انتقام هولاكو للهزيمة التي مني بها جيشه في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م .

أرسل السلطان بيبرس رسله إلى بركة خان سنة 659هـ/1261م بكتاب يغريه بهولاكو ، ويستحثه على محاربته ، ويقيم الدليل على أنه يجب جهاد المغول الذين استباحوا دماء المسلمين إخوانه في الدين [1].

وكان من ثمار هذه الرسالة أن دعا بركة خان كل جنوده الذين كانوا في جيش هولاكو بالإنسحاب منه والتوجه نحو مصر[2] حيث يروي مؤرخ سيرة الظاهر " وصل كتاب الحاج علاء الدين بأن الكشافة وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركة ، وكانوا نجدة عند هولاكو ، فلما وقع بينهما كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه ، وان لم يقدروا على ذلك يتجاوزون إلى عسكر الديار المصرية ، ويذكرون أن العداوة قد استحكمت بينهما ، وأن ولد هولاكو قتل في المصاف ، وأنهم فوق المائتي فارس ، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم ، والإقامة بهم ، وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم ، وأحسن إلى

[1] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 88-89 .

[2] الدواداري ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 91 .

مقدميهم الأربعة ، وسيّر الإقامات من مصر من الأغنام والسكر والشعير ...وخرج السلطان للقائهم ...ولم يبق أحد من أهل القاهرة ومصر حتى خرج وكان يوما عظيما ، ورأوا من كثرة العساكر ، وكثرة الناس شيئا بهر عقولهم . وكان السلطان قد رسم بعمارة آدر مساكن لهم"[1] .

كما أرسل بركة خان رسالة إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة 661هـ/1263م عن طريق رسولين هما جلال الدين قاضي و الشيخ علي التركماني ، وكان مضمون الرسالة كما ذكرها اليونيني هو" أنت تعلم أني محبّ لهذا الدين وأن هذا العدو يعني هولاكو قد تعدى على المسلمين واستولى على بلادهم ، وقد رأيت أن تقصده من جهتك وأقصده من جهتي ونصدمه صدمة واحدة فنقتله أو نطرده عن البلاد ومتى كانت واحدة من هاتين أعطيتك ما كان في يده من البلاد التي استولى عليها"[2].

ويجدر الإشارة إلى أن الطريق الذي سلكه الرسل القادمين من سراي إلى القاهرة كان عبر البحر إلى القسطنطينية أو- كما تسميها المصادر المملوكية ببلاد الأشكري- ثم إلى بلاد القفجاق [3] .

كانت مبالغة السلطان الظاهر بيبرس في إكرام الوافدين من المغول على مصر أثرا عظيما على بقية عناصر المغول التي كانت متردّدة في الانضمام إلى المماليك فحينما تسامعوا بأن السلطان قد عمل لهم دعوة عظيمة ، وحملت لهم الخلع ، وفرقت فيهم الأموال بل حتى أنهم لعبوا الكرة مع السلطان ، وأمّر كبراءهم بمائة فارس

[1] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 137 .

[2] اليونيني (قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد ت 726هـ) ، **ذيل مرآة الزمان** ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، 1954 ، مج1 ، ص 534 .

[3] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 139 و اليونيني ، المصدر السابق ، مج1، ص 535.

وحسن إسلام جميعهم ، توافد المغول جماعة بعد جماعة إلى السلطان بيبرس الذي أحسن إليهم غاية الإحسان [1].

ويشير الكتبي بأن هذه السنّة أي 661هـ هي السنة التي وقعت فيها الحرب بين هولاكو و بركة خان وفيها كانت الدائرة على هولاكو الذي قُتل كثيرٌ من أصحابه فلم ينجُ إلاَّ مع شرذمة قليلة منهم [2]. في حين يورد ابن أيبك الدواداري ذلك في حوادث سنة 660هـ[3].

وقد رأى السلطان الظاهر بيبرس بعد ذلك إنفاذ رسله إلى بركة خان سنة 661هـ/1263م وكان على رأسهم الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كشربك رفقة إثنين من المغول الوافدين إليه ، وعندما كان من المتعذر ذهاب الرسل عن طريق الدولة الإيلخانية فقد أرسلهم عن طريق القسطنطينية فقد عقد السلطان الظاهر بيبرس مع الإمبراطور البيزنطي معاهدة أعطت للسلطان حرية تنقل المماليك عبر الأراضي البيزنطية [4].

وقد كانت الرسالة تصف أوضاع الدولة المملوكية ووصف العساكر الإسلامية وكثرتهم وعدة أجناسهم ، ومن فيها من جند و تركمان وعشائر أكراد وقبائل أعراب ، ومن أطاعها من الملوك الإسلامية والفرنجية ومن خالفها ووافقها وهداها وتستحث بركة خان على ضرورة جهاد المغول الوثنيين[5].

---

[1] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 138 .

[2] الكتبي ، عيون الأخبار ، ج20 ، ص 290 .

[3] الدواداري ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 87 .

[4] أحمد عبد الكريم سليمان ، **المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس** ، دار النهضة العربية ، مصر، 1984 ، ص 80 .

[5] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص 139 .

كما ذكر المقريزي بأن السلطان " جهز هدية جليلة للملك بركة ، وكتب جواب كتابه في قطع النصف في سبعين ورقة بغدادية بخط محي الدين بن عبد الظاهر ، وهو الذي قرأه على السلطان بحضور الأمراء. وسلمت الهدية للأمير فارس الدين أقوش المسعودي ، والشريف عماد الدين الهاشمي ، فسارا في يده طريدة فيها عدّة رماة وجرخية وزراقين ، وأشحنت الأزودة وخرجت النجابة إلى مكة والمدينة بأن يُدعَ للملك بركة ويُعتمر عنه ، وأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر بمكة والمدينة والقدس وبمصر والقاهرة ، بعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر"[1].

ويشير الدواداري بأنه من الأسباب التي جعلت بركة خان يتحالف مع الظاهر بيبرس كانت الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين أبناء البيت الجنكيزي حول خلافة منكوخان فحين مات أعلن أريق بوقا نفسه خانا أعظم للمغول ، الأمر الذي رفضه أخوه قوبيلاي الذي كان يرى نفسه أحق بهذا المنصب [2]. وفي حين أيد هولاكو أخاه قوبيلاي ، فقد دعّم بركة خان أريق بوقا ، ودارت معارك طاحنة بين المغول ، الأمر الذي جعل للمماليك فسحة في تنظيم صفوفهم و تقوية جيوشهم ، مما جعل بركة خان يبادر إلى التحالف مع الظاهر بيبرس [3].

كما ذكر ابن خلدون بأن سبب الخلاف أن الأمير بركة خان عندما دخل في نزاع مع قوبيلاي خان انتزع بركة الخاقانية من أعمال قوبيلاي وولّى عليها سرخاد ابن أخيه باتو وكان على دين النصرانية ، فأخذ هولاكو في تحريضه على عمه بركة مقابل أن يجعله مكانه بأمر من الخان قوبيلاي ، وعندما شعر بركة خان بما يدبره سرخاد

[1] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 559 .

[2] اليونيني ، المصدر السابق ، مج1 ، ص 487 .

[3] الدواداري ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 91 .

وهولاكو وأن سرخاد يحاول قتله بالسم ، سارع بركة إلى قتله ، وولى أخاه بدلا مكانه ، وأقام هولاكو طالبا بثأر سرخاد ووقعت الحرب بينهما سنة 660هـ على نهر آمد [1].

كما كان للسلطان بيبرس دورا مهما في تشجيع الأمير بركة خان على قتال هولاكو ولاسيما بعد أن وصلت الأخبار إليه باعتناقه الإسلام ولهذا سعى إلى تقوية أواصر الصداقة معه فكان يبعث إليه الرسائل يغريه لقتال هولاكو[2].

ولم تقتصر العلاقة بين الملك الظاهر بيبرس وبركة خان بعد هذه المراسلات التي تبادلت بينهما ، والتي كان من أثرها قدوم الكثير من مغول القبيلة الذهبية إلى الإقامة بها واعتناق الدين الإسلامي ، بل اقترنت بزواج الملك الظاهر بابنة بركة خان ، وبذلك ارتبطت دولة مغول القبيلة الذهبية بدولة المماليك برباط المصاهرة وتوثقت العلاقة بينهما للوقوف بوجه العدو المشترك لهما المتمثل في مغول بلاد فارس وزعيمهم هولاكو ، وظلت الحال على ذلك حتى بعد وفاة بركة خان سنة 665هـ/1267م[3].

وفي سنة 672هـ/1274م وصلت رسل من طرف منكوتمر بن طغان بن سرطق بن باتو خان القبيلة الذهبية إلى السلطان الظاهر بيبرس وكان حينئذ في دمشق برسالة مضمونها طلب النجدة والإعانة على حرب أباقا خان واستئصال شأفة مغول الإيلخانية [4].

---

[1] ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 604 .

[2] سعاد هادي الطائي ، **العلاقات السياسية بين الأمير بركة خان وهولاكو والسلطان الظاهر بيبرس ونتائجها (649-665هـ/1251-1266م)** ، مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 2015، العدد 26 ، ص 6 .

[3] محمد جمال الدين سرور ، **الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره** ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1938 ، ص 113 .

[4] ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 35-36 .

وهكذا ظلت العلاقة ودية بين المماليك ومغول القبيلة الذهبية على عكس العداء الذي كان قائما بين المماليك و مغول إيران ، خاصة بعد أن استحكم هذا العداء نتيجة الهزيمة المنكرة التي تلقاها مغول فارس على يد الظاهر بيبرس سنة 1277هـ [1]. ولم تكن هناك جريمة أشد في نظر مغول فارس من أن يروا رجلا منهم في علاقة حسنة مع المماليك[2].

[1] ادوارد براون ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 34 .

[2] جمال الدين سرور ، الظاهر بيبرس ، ص 114 .

2-العلاقات بين المماليك ومغول الدولة الإيلخانية

2-1/ في عهد الظاهر بيبرس (حمص الأولى ومعركة الأبلستين)

قامت العلاقات بين المماليك ومغول الدولة الإيلخانية على أساس العداء منذ معركة عين جالوت التي انتصر فيها المماليك بقيادة السلطان المظفر قطز، وبعد أن رتب السلطان قطز أمور الشام قفل راجعا إلى مصر وفي طريقه توقف في منطقة القصير[1] للصيد وفي أثناء ذلك تظافر بيبرس مع جماعة من المماليك على اغتياله وبعدها تولى بيبرس قيادة المماليك[2].

أ)- معركة حمص الأولى 659هـ/1260م :

حين تسامع المغول بخبر مقتل قطز ، ظنوا بأن الفرقة والإنقسام قد دبوا بين المماليك حول خلافة قطز ، خاصة وأن صاحب دمشق سنجر الحلبي الذي جعله قطز نائبا عنه في إمارة دمشق قد جمع الناس حوله ونادى بالسلطنة لنفسه وضرب السكة باسمه[3] ولقب نفسه بالملك المجاهد[4] ، ومن ثم استغلوا هذه الفرصة للإنتقام من هزيمتهم في معركة عين جالوت ، فحشد المغول قواتهم تحت قيادة بيدرا ، ودخلوا إلى حلب التي لم يستطع مقدم جيوشها حسام الدين لاجين الجوكندار[5] مواجهة الجيش المغولي الذي كان يبلغ حوالي ستة آلاف و فضّل الإنسحاب خاصة

---

[1] القصير : مدينة وميناء على البحر الأحمر للاستزادة انظر : ياقوت ، المعجم ، ج4 ، ص 367 ، و الموسوعة العربية الميسرة ، ص1385 .

[2] النويري ، المصدر السابق ، ص 29 ، ص 305 .

[3] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 265 و اليونيني ، ذيل مراة الزمان ، مج1 ، ص 434 و

[4] الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج3 ، 288 .

[5] حسام الدين لاجين الجوكندار : من كبار أمراء دمشق ، كان فارسا شجاعا له في الحروب آثار جميلة خصوصا في واقعة حمص الأولى ، وكان محبا للفقراء كثير البر لهم توفي سنة 662 هـ للإستزادة أنظر: الصفدي ، المصدر السابق ، ج24 ، ص 294.

وأن أمير حلب علاء الدين الملقب بالملك السعيد قد أرسل جماعة من عساكر حلب لنجدة البيرة فهزمت نظرا لقلة العدد مقارنة بجيش المغول [1].

وعلى هذا فقد دخل المغول إلى حلب وأعملوا فيها القتل والنهب انتقاما من مقتل قائدهم كتبغا وما لحقهم من هزيمة ساحقة في معركة عين جالوت ، في حين تجمع ما بقي من عساكر حلب تحت قيادة حسام الدين لاجين وساروا باتجاه حماه التي كان عليها الملك المنصور، فلمّا أدركهم المغول في حماه ، سار لاجين والملك المنصور إلى حمص ، وحينما وصل جيش المغول إلى حماه أغلقت المدينة أبوابها ولمداراة المغول قدم أهلها شيئا من الطعام والمؤن للمغول الذين تركوا المدينة وفضلوا مطاردة الجيش الإسلامي المنسحب نحو حمص[2] .

كان الأشرف موسى شيركوه صاحب حمص عازما على مجابهة المغول خاصة بعد انضمام الملك المنصور صاحب حماه وحسام الدين لاجين مقدم جيش حلب ، وقد حرض الأشرف موسى حسام الدين لاجين على مواجهة المغول والتصدي لهم الذي رأى الانسحاب إلى دمشق "وقال له : مايقال عنا في البلاد ، وبأي وجه نلقى صاحب مصر"[3] – يقصد الظاهر بيبرس – حتى اقتنع برأيه ، وبهذا فقد تشكل اتحاد الجيوش الإسلامية في بلاد الشام لمواجهة المغول إلا أنه من الغرابة بمكان

---

[1] فايد حامد عاشور ، **العلاقات السياسية بين المماليك و المغول في الدولة المملوكية الأولى** ، دار المعارف ، مصر ، 1974 ، ص 68 .

[2] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 265 .

[3] اليونيني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 115

أن المصادر الإسلامية تكاد تجمع على أن عدد الجيش الإسلامي بتحالفات القادة والجنود من حلب و حمص وحماه قد بلغ ألف و أربعمائة فارس فقط [1].

وصلت عساكر المغول يوم الجمعة الخامس من محرم سنة 659هـ/ديسمبر 1260م ، والتقى الجيشان في حمص قرب الرستن[2] عند مكان بالقرب من قبر الصحابي خالد بن الوليد ، ويصف الذهبي المعركة بقوله " حمل المسلمون حملة صادقة ، وكان النصر ووضعوا السيف في الكفار قتلا ، حتى أبادوا أكثرهم هرب مقدمهم بيدرا بأسوأ حال "[3] .

و يلاحظ أنه مع تفوق جيش المغول العددي الذي بلغ ستة آلاف إلاّ أن النصر كان حليف الجيش الإسلامي الذي انتصر على المغول هزيمة مدوية أعادت الروح المعنوية للمسلمين من جديد و كسرت القاعدة التي كانت سائدة آنذاك من أن المغول قوم لا يهزمون [4].

وحينما وصل خبر النصر إلى أهل حماه سارعوا إلى عقاب جماعة من الناس كانوا يميلون إلى مد العون للمغول وذلك عن طريق فتح ثقب كبير في سور المدينة ليدخل المغول إليه[5] ، فثار أهل حماه عليهم وقتلوا بعضهم[1] ، وما إن وصل الملك المنصور

---

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 422 و المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 525 و الذهبي ، العبر، ج3 ، ص 293 و اليونيني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 434 .

[2] الرستن : بفتح أوله و سكون ثانيه وتاء مثناة من فوق وآخره نون ، بليدة قديمة كانت على نهر العاصي الذي يمر قدّام حماه والرستن بين حماه وحمص في نصف الطريق . للإستزادة انظر ياقوت ،المصدر السابق ، ج3 ، ص 43.

[3] الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج3 ، 293 .

[4] فايد عاشور ، المرجع السابق ، ص 69 .

[5] جليلة حسن محمد أحمد ، **العلاقات بين المماليك وايلخانات مغول فارس وأثرها على مصر وبلاد الشام 648-741هـ/1250-1341م** ، أطروحة دكتوراه ، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة شندي ، السودان ، 2018 ، ص 150 .

إلى حماه حتى رجع المغول المنهزمين إليها ، إلا أنّ قوتهم كانت قد ضعفت وانهارت فتركوها وساروا إلى افامية[2] .

ولما وصل المغول إلى أفامية وجدوا فرقة من جيش الملك المنصور سبقتهم إليها ، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة ما اضطرهم إلى تركها و التوجه صوب حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة أربعة أشهر[3] .

وحينما تمكن الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر سارع إلى القضاء على تمرد الملك المجاهد سنجر صاحب دمشق وذلك بإرسال الأمير جمال الدين المحمدي ومعه الأموال ليستميل الناس إليه ويؤلبهم ضدّ سنجر الذي قاوم في بداية الأمر لكنه سرعان ما استسلم والتجأ إلى قلعة دمشق ثم هرب منها إلى بعلبك بعد أن تخلَّ الأمراء عنه ، لكنه قبض عليه وأرسل مقيدا إلى مصر[4] فعاتبه الظاهر بيبرس ثم عفا عنه وأكرمه وكان قد أرسل إلى دمشق الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري نائبا عنه فيها [5].

وبذلك وطدّ الظاهر بيبرس حكمه في بلاد الشام و مصر ثم بعث جيشا إلى حلب لطرد المغول منها بقيادة الأمير فخر الدين الحمصي والأمير حسام الدين لاجين ، والأمير حسان الدين العينتابي فلما وصل هذا الجيش إلى غزة ، أرسل الفرنج

---

[1] اليونيني ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 115

[2] افامية : مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص ، للإستزادة : أنظر ياقوت ، المصدر السابق، ج 1 ، ص 227 .

[3] فايد عاشور ، المرجع السابق ، ص 69 و جليلة حسن محمد أحمد ، المرجع السابق ، ص 151.

[4] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 526 .

[5] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، 423 .

يخبرون التتار بقدوم الجيش المملوكي ، فرحلوا عن حلب و تم تطهير بلاد الشام من الوجود المغولي [1].

ويجدر الإشارة بأنّ السلطان الظاهر بيبرس بعد أن وحّد مصر وبلاد الشام تحت حكمه قصده أحد النّاجين من العائلة العباسية في بغداد وهو أبي نصر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس وهو عمّ المستعصم وقد كان معتقلا ببغداد ثم أطلق سراحه ، فكان مع جماعة الأعراب بالعراق ، فقدم مصر صحبة جماعة من أمرائهم على رأسهم الأمير شرف الدين مهنا[2] ، فاستقبلهم الملك الظاهر مع وزرائه وأمرائه و جنده وعامة الناس و كان يوما مشهودا وبعد ثبوت نسبه تمّت بيعته وتلقب بالمستنصر وضرب السكة باسمه و الدعاء له على المنابر مع اسم الظاهر بيبرس[3] ، وبذلك أحيا الظاهر بيبرس الخلافة العباسية في مصر ومع أنّها كانت شكلية فقط إلا أنّها أعطت المماليك سلطة روحية مكنّتها من شرعيّة الحكم في ديار مصر وبلاد الشام ، خاصة بعدما قرّر الظاهر بيبرس عقد اجتماع يتلى فيه تفويض الخليفة العباسي له بالسلطة [4]، وقد أورد هذا التفويض كل من النويري والمقريزي وأبو المحاسن[5] .

وفي سنة 663هـ/1265م جاءت الأخبار إلى السلطان الظاهر بهجوم المغول على البيرة ومحاصرتها بالمجانيق فأرسل من فوره الأمير عز الدين يوغان الملقّب

---

[1] فايد عاشور ، المرجع السابق ، ص 69.

[2] ناصر الدين مهنا : هو شرف الدين عيسى ابن مهنا بن مانع بن حذيفة فوضه الملك الظاهر بيبرس إمرة العرب بعد وفاة ابن عمه علي بن حذيفة ، فكان رجلا دينا خيرا أصلح الله به ما كان قد فسد من أمر العرب ، وصلحت سيرتهم وقلّ فسادهم بسبب لينه وحسن سياسته وانتفع الإسلام به في مواطن كثيرة ولم يزل على ذلك إلى أن توفي سنة 683هـ/1284م للإستزادة أنظر : ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص 379.

[3] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 425-426.

[4] انظر الملحق رقم 12 ، ص 345-349.

[5] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص531-532 .

"سم الموت" بمقدمة العساكر ، وشرع السلطان في تحضير باقي الجيوش وحينما وصل إلى غزة بلغه انسحاب المغول أمام طلائع عز الدين يوغان فاستبشر وثنى العنان قاصدا ممالك الصليبيين ففتح قيسارية و أرسوف [1].

كما أمر السلطان الظاهر بعمارة ما خرب من البيرة وحمل آلات القتال والأسلحة إليها من مصر والشام وأن يجمع فيها كل مايحتاج أهلها في الحصار لمدة عشر سنين ، وكتب للأمراء وصاحب حماه بالإقامة عليها حتى يفرغ الخندق من الحجارة التي ردمها في المغول ، فكانت الأمراء تنقل الحجارة على أكتافها مدة ، وأرسلوا إلى السلطان يخبرونه بمشقة ذلك وكان واقفا آنذاك بنفسه على سور قيسارية ليهدمه، فكتب جوابهم "إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة .ماهنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار ، وقد تساوينا في هذه الأمور وما ثمّ ما تضيق به الصدور"[2].

وهكذا ظلّ المغول يناوشون المماليك حتى وفاة هولاكو سنة 663هـ/1265م ، وخلفه ابنه أباقا الذي سار على سياسة أبيه في مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين ، حتى وصل الأمر بينهم إلى حد المصاهرة فقد تزوج من ابنة إمبراطور القسطنطينية ميخائيل [3]« Michael Palaeologus » .

وعلى الرغم من أنّ العداء كان محكما بين المغول والمماليك إلا أنّ أباقا رأى عقد صلح مع الظاهر بيبرس بسبب الحروب التي استنزفته مع بركة خان ملك القبيلة الذهبية ، ومن ثم فقد توسط صاحب سيس هذه المبادرة وذلك بأن أرسل للظاهر

---

[1] بيبرس المنصوري (ت725هـ) ، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة** ، تحقيق : دونالد س.ريتشارز ، مطبعة حسيب ضرغام وأولاده ، بيروت ، 1998، ص 95-96 .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 18 .

[3] محمد جمال الدين سرور ، المرجع السابق ، ص 103 .

بيبرس كتابا يبلغه فيه بمقدم رسول أباقا ، فبعث السلطان رسولا من حلب ليحضره وكان آنذاك في أرسوف فرحل عنها إلى دمشق وهناك وفد عليه رسول المغول بكتاب جاء فيه "إنّ الملك أباقا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل .فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا "[1]. فكان ردّ الظاهر بيبرس بأن قال للرسل : "اعلموه بأني وراءه بالمطالبة ، ولا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض" [2]. كما اختلفت المصادر الإسلامية حول المراسلات بين أباقا والملك الظاهر [3].

وهكذا فقد بقي المغول يُغيرون على بلاد الشام بين الفينة والأخرى في عهد الظاهر بيبرس إلا أن حملاتهم لم تعدوا عن كونها حملات قتل ونهب حتى ما إذا ما سمعوا بخروج الجيش المملوكي سارعوا بالانسحاب ومن ثم فلم تكن هناك مواجهة حاسمة إلى غاية سنة 675هـ/1277م .

ب)- معركة الأبلستين " البستان الأحمر" 675هـ/1277م[4] :

كانت منطقة سلاجقة الروم الواقعة في آسيا الصغرى تحت نفوذ الدولة الإيلخانية ، وكان على رأسها السلطان غياث الدين كيخاوس إلا أنّه لم يكن له من الأمر شيئا بوجود معين الدين سليمان برواناه الذي كان المتحكم الحقيقي في تلك الديار ، وقد ذاق الأمراء السلاجقة ذرعا بمعاملة المغول لهم ، فضلا على أنهم كانوا مغاضبين

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 55-56 .

[2] العيني (بدر الدين محمود ت 755هـ) ، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** ، تحقيق : محمد محمد أمين ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، 2010 ، ج2 ، ص 43 .

[3] العيني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 41-43 .

[4] **انظر الملحق رقم 13 ، ص 350 .**

للبرواناه ، فأرسلوا إلى السلطان الظاهر بيبرس يحرضونه إلى القدوم إليهم وتخليصهم من المغول ، فقدم عليه الأمير حسام الدين بينجار الرومي ، وولده بهادر وأحمد بن بهادر، زيادة على اثناعشر من أمراء الروم بأولادهم ونسائهم ، من جملتهم قرمشي وسكتاي ابنا قراجين بن جيفان نوين ، فأحسن السلطان إليهم وأرسل نساءهم إلى القاهرة ، وأجرى عليهم النفقات ، كما قدم الأمير مبارز الدين سوار بن الجاشنكير وسيف الدين جندربك صاحب الأبلستين [1].

كتب السلطان الظاهر إلى أمرائه في مصر يستشيرهم في إرسال الجيوش إلى بلاد الروم ، وأن يقدم الأمير بيسرى والأمير أقش بما يتفق الرأي عليه ، فقدما عليه مع سنقر الأشقر بالموافقة على الخروج ، فقرّر الظاهر العودة إلى مصر وتحضير الجيوش ، ثم ركب منها إلى دمشق في شهر شوال 675هـ/1277م ، ثم سار إلى حلب وأمر نائبه بها بأن يقيم بعسكره على جانب الفرات ليأمن هجوم المغول على بلاد الشام [2].

كانت طلائع الجيوش المملوكية تحت قيادة سنقر الأشقر الذي التقى في طريقه نحو ثلاثة آلاف من جند المغول فكرّ عليهم وهزمهم هزيمة منكرة ، ثم وصل الجيش على جبال تشرف على صحراء الأبلستين ، وكان جيش المغول حوالي أحد عشر ألف مقاتل بالإضافة إلى جيش الروم الذي عزلوه عنهم خوفا من الغدر بهم، وانثالت الخيول المملوكية من الجبل كالسيل الجارف وحملوا عليهم حملة رجل واحد وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وبادر البارواناه ومن معه من جند الروم بالهزيمة وأخذ معه

[1] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 97 و ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، ج8 ،ص 188 ، و ابن عبد الظاهر، المصدر السابق ، ص 453 و ابن شداد ، المصدر السابق ، ث 169 و ابن كثير ، المصدر السابق، ج17 ،ص 524 و اليونيني ، المصدر السابق ، ج3،ص 164 و الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 328 و بيبرس المنصوري ، التحفة المملوكية ، ص 84 .

[2] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 524 و ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 171 .

السلطان غياث الدين ، وانجلت المعركة عن هزيمة المغول والروم هزيمة ساحقة وفر البروناه وأصحابه الأدبار[1] . ويقدر مجموع القتلى من جانب المغول حوالي ستة آلاف وسبعمائة وسبعين [2]

ثم توجه الظاهر بيبرس صوب قيسارية بعد أن أرسل كتابه إليهم بالأمان ، ودخلها و خطب له على جوامعها السبعة و ضربت السكة باسمه [3]، و عفا عن ابن معين الدين البروناه بعد أن فرق أمواله على جنده ، و أثناء عودته إلى بلاد الشام أمر جنوده بدفن قتلى المسلمين الذين استشهدوا في المعركة وترك منهم القليل بغير دفن وقصد بذلك نكاية المغول في إظهار كثرة من قتل منهم وقلة من قتل من عسكر المماليك[4].

ولما بلغ خبر المعركة أباقا خان غضب لذلك غضبا شديدا وسار من دار ملكه تبريز متجها نحو بلاد الروم في شهر صفر 676هـ/1277م[5] ، فلما بلغ الأبلستين ورأى قتلى المغول مكدسة أجسادهم بكى عليهم وحزن على قائديه توقو و توداون حزنا شديدا ولم يشاهد في القتلى أحدا من المسلمين فازداد حنقا[6]، وبدافع الغضب قتل طائفة من التركمان و أعيان الروم ، وأمر جنوده بالقتل والنهب في بلاد الروم ، ثم دخل قيسارية و قتل من العلماء والفقهاء وأعيان المدينة وعامتهم خلقا كثيرا

---

[1] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 154 .

[2] ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص470 .

[3] العيني ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 161 و ابن ايبك الدويداري ، المصدر السابق ، ص 202

[4] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 101 .

[5] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج2 ، ص 63.

[6] بيبرس المنصوري ، التحفة المملوكية ، ص 85 .

فيقدرهم بعض المؤرخين بمائتي ألف قتيل[1] بينما ذهب آخرون نحوا من خمسمائة ألف[2].

وقد عزم أباقا خان على غزو بلاد الشام انتقاما لما جرى وكان ذلك في أشد أيام الصيف ، غير أن الهمذاني يبرر عدم مسيره للشام بأن أمراء أباقا أشاروا عليه بتأجيل الحملة إلى الخريف [3] . في حين يروي كل من الدويداري و ابن مفضل بأن الذي حال أباقا خان دون المسير من فوره إلى بلاد الشام و الانتقام لجنده هو قلة العساكر التي كانت معه فحينما عاين عدد الجند المماليك الذين كانوا في مكان المعركة قال :"ما هذا عسكر يكفيهم الثلاثون ألفا الذين معي" وكان قد أمر عساكره أن يتقدموا نحو بلاد الشام فسيّر من ردهم [4].

ومهما يكن من أمر فقد اكتفى أباقا بإرسال رسالة تهديد إلى الظاهر بيبرس جاء فيها :"إنكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم ، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص .فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا ، فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام :

تعال لكي ترى سناني ، وتنظر إلى التواء عناني ، فإن كنت جبلا فستنهار من أساسك ، وإن كنت حجرا فلن تستقر في مكانك ، فأين شاهدت المقاتلين ، يا من يسمع عواء الثعالب . وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طليعة الشتاء ،

---

[1] الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 329

[2] ابن العسال مفضل بن أبي الفضائل ، **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد** ، تحقيق : محمد كمال الدين عز الدين علي السيد ، دار سعد الدين للنشر والطباعة والتوزيع ، دمشق ، 2017 ، ج1 ، ص 228 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص526 و المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 101 و ابن أيبك الدويدار ، المصدر السابق ،ج8، ص206 .

[3] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج2 ، ص 63

[4] الدويداري ، المصدر السابق ،ج8، ص 205 و ابن مفضل ، المصدر السابق ،ج1، ص 227 .

وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام ، فإنها بلا ريب سوف تأتي على كل مالكم من أخضر ويابس ، لأن الله الأزلي قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم ، وأدخل السراة المتمردين في ربقة طاعتنا ، وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلا على الإدبار "[1] .

وقد استشار أباقا خان أصحابه في مصير معين الدين برواناه فانقسمت الآراء بين مؤيد لقتله و آخرون رأوا إطلاق سراحه ليخدم مصالحهم في بلاد الروم في إدارة البلاد و إرسال الخراج ، فمال أباقا خان إلى الرأي الثاني ، غير أن نسوة الأمراء المغول الذين قتلت أزواجهم في المعركة ألحوا على أباقا بقتله فأمر بإعدامه [2].

ولعل التساؤل عن عدم عودة الظاهر بيبرس إلى بلاد الروم لمواجهة اباقا خان تكمن فيما حاق بجيوشه من ضعف أعجزه عن الرجوع و الدفاع عن قيسارية خاصة مع قلة العدد والعدة ، و هلاك المواشي و قلة الأقوات وعدم العلف لكثرة ما لاقى الجيش في هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك[3]، كما أنه لم يلبث طويلا حتى عاجلته المنية بدمشق فتوفي بها سنة 676هـ/1278م [4].

2-2/ في عهد المنصور قلاوون

أ) معركة حمص الثانية 680هـ/1281م :

تعتبر الفترة التي تلت وفاة الظاهر بيبرس إلى غاية تولّي المنصور قلاوون الألفي فترة مليئة بالإضطرابات ، حافلة بالقلاقل والفتن في مصر والشام وذلك على الرغم من أن ولاية العهد كانت للملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس إلا أنه أساء السيرة

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج2 ، ص 63-64 .

[2] اليونيني ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 172

[3] محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس ، ص 109

[4] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 104 .

مع كبار الأمراء المماليك ما أدى إلى عزله و نفيه إلى الكرك ، وتولى بعده أخوه الملك العادل سلامش إلا أنه كان صبيا صغيرا لا يقدر على الحكم و لذلك تم عزله فتولى المنصور قلاوون حكم المماليك في مصر وبلاد الشام بشكل فعلي حينما هزم الأمير سنقر الأشقر في دمشق سنة 679هـ/1280م [1] وصفح على كل الأمراء الذين تعاونوا معه [2]. فهرب سنقر الأشقر مع جماعة معه إلى جهة الساحل فملك صهيون و اللآذقية وبكاس وشيزر وبقي متمردا على المنصور قلاوون وبذلك تهيأت الظروف للمغول لإعادة الهجوم للإستيلاء على بلاد الشام والإنتقام لمعركة الأبلستين[3] ، بعدما سمعوا بالإنقسامات الداخلية التي تمر بها الدولة المملوكية فدخلوا إلى حلب وقتلوا بها خلقا كثيرا ، وظنّوا بأن الأشقر يكون معهم ضد قلاوون ، فوجدوا الأمر خلاف ذلك ، فقد كتب المنصور قلاوون إلى سنقر الأشقر :" إن التتار قد أقبلوا إلى المسلمين ، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم ، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحدا"[4].فمازال السلطان قلاوون يستميله عن سوء رأيه ويقبح عليه ما ظهر من غدره حتى كتب إليه سنقر بالسمع والطاعة [5]، ووقع الصلح بينهما سنة 680هـ/1281م بعدما منحه السلطان قلاوون كفر طاب وأنطاكية وشغر وبكاس[6] .

كان السلطان الظاهر بيبرس قد عقد مع الصليبيين في عكا هدنة سنة 1271م لمدة عشر سنوات ، وعقد السلطان قلاوون سنة 1281م هدنة مع بوهيمند أمير طرابلس

---

[1] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 298 .

[2] الذهبي ، العبر ، ج 3 ، ص 340 .

[3] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 298 .

[4] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 566 .

[5] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 185 .

[6] الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 342 .

وبذلك فقد أمن من انضمام الصليبيين للمغول في هذه المعركة ، باستثناء فرقة الإسبتارية بالمرقب الذين لم يعتبروا أنفسهم معنيين بهذه الهدنة فانضمت جماعة منهم إلى ملك أرمينية [1].

انقسم جيش المغول إلى قسمين كبيرين الأول ظل مع أباقا خان برفقة صاحب ماردين يحاصر به الرحبة والمناطق المحيطة بنهر الفرات والقسم الآخر مع أخيه منكوتمر في نحو خمسين ألف عبر بلاد الشام من جهة بلاد الروم وانضم إليه ملك أرمينيا ليو الثالث يرافقه جنود الإسبتارية مع ملك الكرج ديمتريوس الثاني وقدر عددهم بنحو ثلاثين ألفا. في حين يرى بعض المؤرخين بأن عدد جيوشهم مجتمعة فاقت المائة ألف مقاتل ، بينما يقدر عدد جيوش المماليك بنصف ذلك أو أكثر بقليل[2].

وفي الرابع عشر من شهر رجب سنة 680هـ/29 أكتوبر 1281م نزل جيش المغول بقيادة منكوتمر بن هولاكو بضواحي حمص قرب قبر الصحابي خالد بن الوليد، وهناك دارت رحى معركة كبرى بين المغول والمماليك أسفرت عن انتصار ساحق للمماليك. [3]

كانت على ميمنة جيش المماليك المنصور صاحب حماه و الأمير بدر الدين بيسرى والأمير حسام الدين لاجين وجند الأعراب من الشام بقيادة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مرة ، أمّا الميسرة فضمت الأمير سنقر الأشقر ومعه

---

[1] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 299 .

[2] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 574 و ابن العسال ، المصدر السابق ، ص 267 .

[3] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج2 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 573 و المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 146 و بيبرس المنصوري ، التحفة المملوكية ، ص 98 و ابن العسال ، المصدر السابق ، ص 266 و ابن أيبك الديوداري، المصدر السابق ،ج8، ص 241 و الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 342 و بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 194 .

المماليك الظاهرية والأمير علم الدين سنجر الحلبي والأمير بدر الدين بكتوت العلائي وغيرهم من قبائل التركمان وعسكر حصن الأكراد أما القلب فقد كان بقيادة السلطان قلاوون ونائبه الأمير حسام الدين طرنطاي[1]. وكان منكوتمر يقود قلب الجيش المغولي، وعلى ميسرته أمراء من المغول ، أما الميمنة فتألفت من جيوش الكرج وجنود الإسبتارية وعساكر الأرمن بقيادة الملك ليو الثالث[2].

ولمّا اشتد وطيس المعركة كسرت ميمنة المغول ميسرة المسلمين وفرّ سنجر الأشقر ومن معه ، و لحقت بهم جنود الأرمن و من معه من جند المغول إلى تخوم حمص، وقتلوا من المسلمين مقتلة عظيمة وهرب الكثيرون منهم إلى دمشق ، أما ميمنة المسلمين فقد دكت ميسرة المغول ، وتحولت الهزيمة إلى نصر بعد ثبات السلطان قلاوون و قيام الأمير عز الدين الحاج[3] أزدمر الجمدار[4] بالحمل على منكوتمر وجرحه حتى سقط من جواده فظنّ المغول أنه قتل ، وحمل المسلمون عليهم حملة واحدة فاستحرّ القتل فيهم حتى ولوّا الأدبار[5]، أما ميمنة المغول فحينما عادت إلى أرض المعركة صدمت أعينهم من هول المشهد وكثرة قتلاهم وكان قلاوون مختبئ

---

[1] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 196-197 .

[2] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 300 .

[3] الحاج : من ألقاب مقدمي الدولة و مهتارية البيوت ومن في معناهم وإن لم يكن قد حجّ و إن كان موضوع الحاج في العرف العام إنما هو لمن حجّ البيت ، وإنما اصطلح لهم على ذلك حتى صار كالعلم لديهم للإستزادة أنظر ، القلقشندي ، المصدر السابق ،ج6 ، ص 11. وأزدمر الحاج هو الذي ولي نيابة السلطنة بدمشق لسنقر الأشقر ، كان عنده معرفة وفضيلة ، وله مكارم كثيرة ، استشهد في هذه المعركة مقبلا غير مدبرا .للإستزادة انظر الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 343 .

[4] الجمدار هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه و أصله جاما دار فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالا وقيل جَمَدَار . للإستزادة أنظر ، القلقشندي ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 459.

[5] ابن العسال ، المصدر السابق ، ص 268 و الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 342 .

في نحو ألف من جنده ، حتّى إذا اطمئنوا ظهر لهم وأعمل فيهم السيف قتلا وأسرا مما جعل ليو الثالث يفر نحو الشمال الأمر الذي كلفه خسائر فادحة [1].

وفي اليوم الثاني كانت عساكر المسلمين تطارد جند المغول الهاربين إلى النهر الأسود فيروي ابن أيبك الدويدار أن أباه كان بين صفوف المسلمين وقد روى عنه" كنت فيمن جرد مع الايدمري خلف التتار ، فسقنا خلفهم إلى النهر الأسود ، وقتلنا منهم خلقا كثيرا ، وأسرنا ما يزيد عن خمسمائة نفر ، وإنّ التتار قتلوا بعضهم بعضا. ولولا عرب خفاجة[2] أخذوا كبارهم ودلوا بهم على الطريق والمخايض لكنا أخذناهم عن آخرهم"[1].

---

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 575 و المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 147 .

[2] خفاجة : يرجع نسب هذه القبيلة إلى خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فهي تعتبر أحد أكبر القبائل العربية في العراق وتنتمي لقبائل بني عامر بن صعصعة ، وتعد قبيلة خفاجة أحد القبائل البدوية التي عاشت في بادية العراق والشام ومصر . وينقل القلقشندي عن المؤيد صاحب حماه بأنهم" أمراء العراق من قديم الزمان ، وإلى الآن وقد ذكر الحمداني منهم طائفة ببلاد البحيرة من الديار المصرية" ولقد بلغت قبيلة خفاجة بالعراق قمة مجدها في عهد الأمير أبى طريف بن عليان العقيلي الخفاجي حينما قلده الخليفة العباسي سنة 374هـ حماية الكوفة وأعمالها وحدث في سنة 402هـ أن تعرضت قبيلة خفاجة إلى الحجاج فمنعوهم الماء ثم قاتلوهم ، فأكثروا القتل وأخذوا الأموال ولم يسلم من الحاج إلا اليسير ، فبلغ الخبر فخر الملك الوزير ببغداد ، فسير العساكر في أثرهم ، فلحقهم وقد قاربوا البصرة فأوقع بهم قتلا وأسرا . وفي القرن السادس 556هـ إجتمعت خفاجة إلى الحلة والكوفة وطالبوا برسومخم من الطعام والتمر ، وكانتا تحت حكم مماليك الخليفة العباسي المستنجد بالله ، فمنعوهما ، فعاثت خفاجة فخرجوا في أثرهم العساكر العباسية فانهزمت أمامهم ثم تصالحوا بعد ذلك . ويروي ابن طاووس ت 693هـ بأن عمران بن شاهين الذي كان من أمراء قبيلة خفاجة بالعراق أنه "تمرد على عضد الدولة البويهي ، فطلبه حثيثا فهرب منه إلى المشهد متخفيا ، فرأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في منامه وهو يقول أن في غد يأتي فناخسرو إلى هاهنا فيخرجون من كان في هذا المقام فتقف أنت هاهنا وأشار إلى زاوية في القبة فإنهم لا يرونك ، فسيدخل ويزور ويصلي ويبتهل بالدعاء أن يظفر بك فادن منه وقل : أيها الملك من هذا الذي ألححت بالقسم بمحمد وآله أن يضفرك الله به فسيقول رجل شق عصاي ونازعني في ملكي وسلطاني فقل له : ما لمن يظفرك به ، فيقول إن حتم علي بالعفو عنه عفوت عنه ، فأعلمه بنفسك فانك تجد منه ما تريد فكان كما قال له " و بغض النظر عن الرواية التي هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع إلاّ أنها توحي بتشيع عمران بن شاهين الخفاجي . وخفاجيو العراق من السنّة والشيعة وقد ذكر ابن جبير قبائل خفاجة في رحلته أثناء وصفه لمدينة الكوفة التي استولى الخراب على أكثرها ،=

وحينما بلغ خبر الهزيمة إلى اباقا خان ثار غضبه واشتد حزنه ورجع إلى بغداد وصب جام غضبه على أخيه منكوتمر قائلا له : " لما لا متّ أنت والجيش ولا انهزمت "[2]، وقرر أباقا الانتقام من المماليك إلا أن المنية عاجلته بعد مدة قصيرة من

ويعود ذلك إلى قبيلة خفاجة المجاورة لها فهي لا تزال تضربها ، وذكرها أيضا أثناء رحلته من بغداد إلى الموصل في صحبة خاتون بنت سعود وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل وكان في هذه القافلة حجاج الشام والموصل وبلاد فارس فأرسل الخليفة جندا لحراسة القافلة خوفا من العرب الخفاجيين بمدينة بغداد . ويؤكد ابن بطوطة بأن الخراب قد استولى على الكوفة بسبب فساد عرب خفاجة الذي يقطعون الطريق . ولكن عند زيارته لمدينة البصرة ذكر بأنه "وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك الديار ولهم شوكة عظيمة ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار إلا في صحبتهم" . وفي سنة 662هـ وفدت على الظاهر بيبرس جماعة من أمراء خفاجة فأحسن إليهم وجهّزهم إلى بلادهم . وقد ساعدت قبائل خفاجة المغول ضدّ المماليك خاصة في معرفة المسالك والطرق . ومن المفارقات التاريخية أن إيران قد استغلت هذه القبائل بعد الغزو الأمريكي للعراق فانضمت العديد من عشائر خفاجة الشيعية منها إلى جانب التنظيمات الموالية لإيران وفي عام 2012 انشق أوس الخفاجي –أحد شيوخ القبيلة – عن زعيم التيار الصدري وأنشأ "قوات أبي الفضل العباس" التي استخدمها في تجنيد مقاتلين لمساندة النظام السوري .

للإستزادة أنظر : ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي ت 456هـ) ، **جمهرة أنساب العرب** ، ط5، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر ، 1962 ، ص 469 و القلقشندي ، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب** ، ط2، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1980 ، ص 247 و عبد الكريم ابن طاووس (ت693هـ) ، **فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النجف** ، ط2 ، منشورات المطبعة الحيدرية ، العراق ، 1963، ص 147. القلقشندي ، صبح الأعشا ، ج10 ، ص 262. ابن جبير، المصدر السابق ، ص 211 –213 . بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 88. محمد عبد المنعم خفاجي ، **الخفاجيون في التاريخ** ، دار الطباعة المحمدية في الأزهر ، القاهرة ، 1971 ، ص 64.وابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج2 ، ص ص 54،7. ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج3 ، ص646 . ابن الأثير ، الكامل ، ج8 ، ص73 و عباس عزاوي ، موسوعة عشائر العراق ، الدار العربية للموسوعات ، لبنان ، 2005 ، ج3 ، ص 109 .

Philip Smyth , **Iran Is Losing Iraq's Tribes**, The Washington Institute for near Easr Policy ,2019. 03/2021-19.30.

[1] ابن أيبك الدويدار ، المصدر السابق ،ج8، ص 244 .

[2] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 150 . و ابن أيبك الديودار ، المصدر السابق،ج8 ، ص 248.

هذه المعركة وتولى بعده أخوه تكودار الذي تسمى بأحمد وأعلن إسلامه وحاول إقامة علاقات ودية مع دولة المماليك[1] .

ب)- التقارب بين المماليك والدولة الإيلخانية في عهد المنصور قلاوون وأحمد تكودار :

على الرغم من العلاقات العدائية التي كانت بين المماليك والمغول إلا أن أحمد تيكودار بادر بإرسال الشيخ قطب الدين الشيرازي[2] يحمل رسالة مودة إلى المنصور قلاوون[3] ، يبلغه فيها بإسلامه ويدعوه فيها إلى الصلح و نبذ الفرقة والعنف ، ويبرهن له على صحة خبره وصفاء نيته بأنه ألقى القبض على أحد الجواسيس الذي أرسلهم المنصور قلاوون –وفي الغالب تقتل الجواسيس – لكنه أطلق سراحه وأعاده إلى مصر سالما [4].

---

[1] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج2 ، ص 89 .

[2] قطب الدين الشيرازي : واسمه محمود بن مسعود بن مصلح ويلقب العلامة ذو الفنون قطب الدين ، وكنيته أبو الثناء الفارسي الشيرازي الشافعي ، ولد بشيراز سنة 634هـ ، وكان أبوه طبيبا فقرأ عليه وعلى الشمس الكتبي وعمل طبيبا في البيمارستان من صغره ، ثم سافر إلى النصير الطوسي ولازمه وبحث عليه شرح الإشارات ، وقرأ عليه الهيئة والرياضي وبرع فيهما ، والتقى هولاكو وولده اباقا الذي قال له : أنت أفضل تلامذة النصير ، وقد كبر ، فاجتهد لا يفوتك شيء من علمه ، فقال له : قد فعلت ، وما بقي لي به حاجة . ثم دخل بلاد الروم فأكرمه البرواناه ، و ولاه قضاء سواس وملطيّة ، وقدم الشام رسولا من الخان أحمد ، فلما قتل أحمد أكرمه أخوه أرغون ، ثم سكن تبريز مدة و سمع شرح السنة من القاضي محي الدين ، وكان محمود غازان يعظمه و يعطيه ، كما كان كثير الشفاعات عنده وقد ظل مقدما عند خانات المغول حتى وفاته سنة 717هـ . للإستزادة أنظر : الصفدي ، المصدر السابق ، ج25 ، ص 201-202 .

[3] الهمذاني ،المصدر السابق ، مج2،ج2 ، ص 97 و القلقشندي ، المصدر السابق ، ج8،ص 65 و المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 157-158 و بيبرس المنصوري ، التحفة المملوكية ، ص 107 و ابن العسال ، المصدر السابق ، ص 274 و ابن أيبك الديودار ، المصدر السابق ،ج8، ص 248-249 و ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 585 و الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 352 و ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 310 .

[4] انظر الملحق رقم 14 ، ص351-354.

استقبل السلطان قلاوون رسل الخان أحمد استقبالا وديا يحيط به ألف وخمسمائة من مماليكه[1] ، كما أرسل له كتابا يفيض صداقة ومودة ردّاً على ما وصله منه[2].

وجه أحمد كل اهتمامه لنشر الإسلام بين صفوف المغول إلا أن قدامى النساطرة والوثنيين منهم احتجوا على ذلك والتفوا حول أرغون الذي كان يسعى لملك أبيه ، ولم تلبث الحرب الأهلية أن نشبت وعلى الرغم من انتصار أحمد في معركة قرب قزوين سنة 1284م ، إلا أن كبار قادته دبروا فتنة بالقصر أطاحت به ، وأدّت إلى مصرعه ، وتولى أرغون العرش [3].

ومهما يكن من أمر فقد كانت الخسائر الكبيرة التي مني بها المغول في معركة حمص الثانية و سياسة المهادنة التي اتبعها أحمد تيكودار مع المماليك ، ثم الحرب الأهلية بين أحمد و أرغون قد أضعفت الجبهة المغولية التي لم ترسل أي حملة جدية اتجاه بلاد الشام إلى غاية وصول غازان إلى الحكم الذي تزامن عهده بالناصر بن قلاوون .

2-3/ في عهد الناصر بن قلاوون :

أ) - معركة واد الخازندار 699هـ/1299م: تعتبر معركة واد الخازندار أو كما يسميها بعض المؤرخين بمعركة حمص الثالثة أحد أهم المعارك بين المغول

[1] ابن عبد الظاهر ، **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور** ، تحقيق مراد كمال ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الجمهورية العربية المتحدة ، 1961 ، ص45 .

[2] انظر نص الرسالة في الملحق رقم 15 ، ص 355-359.

[3] الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 303-304 .

والمماليك ، ولعلها المرة الأولى التي استطاع المغول تحقيق هزيمة كبيرة ضد المماليك في بلاد الشام [1].

تميزت هذه المعركة بكون المغول قد أسلموا بإسلام ملكهم غازان الذي تلقب باسم "محمود غازان" واتخذ من الإسلام دينا رسميا للدولة ، ويجدر بالذكر أنه اعتنق الإسلام وفق المذهب السنّي ، فيذكر شبولر: " عندما أصبح غازان مسلما كان عليه أن يختار إما أن يكون من أهل السنة أو من الشيعة ، فاختار أهل السنة ، وهو المذهب الذي اعتنقه جميع أفراد الشعب تقريبا ، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بالتسامح واتبع ذلك الموقف المغولي القديم وهو عش ودع الآخرين يعيشون ، ولكن الحقيقة أننا لا نعدو جادة الصواب إذا قلنا أن غازان كان في داخله يضمر الصداقة والحب للشيعة رغم إعلان نفسه من أهل السنّة ، فقد كان يؤيد نشاط كثيرا من المؤسسات الشيعية ويزور عتبات كربلاء المقدسة "[2].

ومهما يكن من أمر فقد كانت مبررات غازان لشنّ الحرب على المماليك هو اعتداؤهم على رعاياه القاطنين في حدود مملكته كماردين وديار بكر، ومن ثم فقد أعلن ردّ هذا العدوان بصفته حامي المسلمين[3]. كما كانت من بين الأسباب التي أدّت إلى عداء

---

[1] ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص 338 . و بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 331 و النويري ، المصدر السابق، ج31 ، ص 241 و ابن أيبك الدواداري ، المصدر السابق ، ج9 ، ص21 و ابن كثير ، ج17 ، ص 718 وبيبرس المنصوري ، التحفة المملوكية ، ص 156 و ابن حبيب ، المصدر السابق ، ج1 ،ص 220.

[2] وبحسب ما ذكره شبولر فإن غازان كان يميل إلى التشيع إلا أنه اختار مذهب أهل السنة ، ولعل هذا الرأي يجانب الصواب فلو شاء غازان اعتناق المذهب الشيعي لما تردد في ذلك خاصة بأنه كان قوي الجانب مرهوب الجناح من كل أمراءه . للإستزادة أنظر بارتولد شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص 72-73 .

[3] الهمذاني ، جامع التواريخ – تاريخ غازان خان- ، ص 159 .

غازان للمماليك هو تأييدهم القائد المغولي سلامش الذي كان نائبا للمغول عن سلاجقة الروم وانشق عن غازان ودعمهم له بالرجال والسلاح[1].

بالإضافة لقدوم بعض الأمراء المماليك على رأسهم سيف الدين قفجاق الذي كان واليا على دمشق إلى غازان يطلعه فيها بالأوضاع الداخلية للدولة المملوكية التي كان فيها الصراع قائما بين أمرائها على أشدّه[2] ، ومن ثمّ فقد رأى غازان في ذلك فرصة لا تعوّض للإستيلاء على بلاد الشام [3].

أرسل غازان خان رسالة إلى الناصر قلاوون بشأن الإعتداءات المتكررة من طرف دولته وأمراء مملكته على الحدود الإيلخانية المملوكية ، فردّ عليه الناصر بأن تلك الإعتداءات حدثت دون أمره ، بالإضافة إلى غياب أي معاهدة اتفاق أو هدنة بين الطرفين تمنع حدوث ذلك ، وعلى الرغم من هذا فإن الردّ من الجانب المغولي لا يكون باكتساح شامل لبلاد الشام فضلا عن ترويع السكان الآمنين ، وإنما يقتضي ذلك بالإقتصاص من الأطراف التي شنت الهجوم على ماردين و ضواحيها ، ومن ثم فإن ردّ الناصر كان مفاده أن الحرب واقعة بين الطرفين لا محالة [4].

خرجت جيوش المماليك من مصر باتجاه غزة ثم دمشق إلى حمص أين تقابلت أمام جحافل المغول الذي قادها غازان بنفسه ، في يوم السابع والعشرين من شهر ربيع

---

[1] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 355.

[2] يلاحظ أنه بعد إسلام المغول اتجه العديد من الأمراء المنشقين عن المماليك إلى دولة المغول ، كما أقبل كذلك عدة من أمراء المغول إلى دولة المماليك ، وبذلك فقد أصبح الأمر يكاد يكون مألوفا ، حتى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون حينما خلعه بيبرس الذي تلقب بالملك المظفر ونفاه إلى الكرك وظل يضيق عليه الخناق ، قال الناصر لمماليكه :"أنتم مماليك أبي وربيتموني ،فإما أن تردوه عني و إلا أسير إلى بلاد التتار". للإستزادة أنظر : المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 432 .

[3] فايد عاشور ، المرجع السابق ، ص 142 و جليلة حسن أحمد ، المرجع السابق ، ص260

[4] كاظم أمير زاده قاسمي ، المرجع السابق ، ص 252 . .

الأول سنة 699هـ/23 ديسمبر 1299م ، وهناك دارت رحى معركة كبرى ، إنهزمت فيها ميمنة المماليك أمام ميسرة المغول التي راحت تطوق القلب ، وحينما رأى الناصر بن قلاوون ذلك فضّل الإنسحاب على تكبد خسائر فادحة بين صفوف جيشه ولم يشأ غازان تتبع جيوش المماليك الهاربة خشية من وجود خدعة أو مكيدة كما حصل في عين جالوت ، وبعد هروب بقية جيش المماليك إلى مصر ، استحوذ غازان على بلاد الشام ، ودعي له على منابر دمشق ، وانقطعت الخطبة للسلطان الناصر بن قلاوون مدة مئة يوم [1].

والملاحظ في غزوة المغول هذه المرة بأنهم لم يستبيحوا المدن الشامية كما فعلوا في السابق أيام هولاكو وأباقا ، بل إن غازان قد منع أي أحد من جنده أن يدخل إلى دمشق إلا بتصريح خاص من الديوان [2]، و اكتفوا بتحصيل الأموال من أهلها إشارة إلى التبعية للدولة المغولية ومع ذلك فقد حدثت بعض الإعتداءات على أطراف المدن كالصالحية في نواحي دمشق حيث قام عساكر الأرمن والكرج بالقتل والنهب والسبي، بالإضافة إلى نهب رباط الحنابلة في دمشق و سبيت بنات المشايخ[3]، ويرى مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني تلك الجرائم التي ارتكبها المغول أثناء غزوهم لبلاد الشام على أنها أحداث شاذة قام بها أفراد من جيش المغول تمت معاقبتهم من طرف غازان الذي غضب إزاء تصرفاتهم فتم إعدام القادة الذين تسببوا في ذلك ، وأطق سراح الأسرى من المسلمين، ومن ثم فهي تكن سياسة عامة للجيش المغولي[4].

---

[1] ابن كثير، المصدر السابق ، ج17 ، ص 727 .

[2] الهمذاني ، جامع التواريخ – تاريخ غازان – ، ص 164 .

[3] ابن كثير، المصدر السابق ، ج17 ، ص 722 .

[4] الهمذاني ، جامع التواريخ –تاريخ غازان خان – ، ص 164–165 .

ولعل رأي الهمذاني أقرب إلى الصحة على الرغم من كونه يميل إلى جهة المغول، فلقد كتب غازان فرمان الأمان[1] لأهل دمشق ، قبيل وصول علمائها الذي خرجوا إلى معسكره يسألون الأمان لعامة الناس ، وكان على رأسهم الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحراني ، وعندما اجتمع علماء دمشق بالخان غازان في معسكره بالنبك[2] قال لهم : "الذي حضرتم بسببه من الأمان قد أرسلناه قبل وصولكم"[3] ، كما كتب فرمانا آخر لبقية الأمراء في بلاد الشام[4] ،

عيّن غازان كل من سيف الدين قفجاق على امارة دمشق ،والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار على حلب وحمص وحماه وكتب لكل منهما فرمانا بذلك[5] ، كما جعل القيادة العليا في بلاد الشام لقائد جيشه قطولشاه أو قتلغ شاه ، ورجع هو إلى دار ملكه في تبريز[6].

كان السلطان الناصر في هذه الأثناء يعد العدّة إلى إسترجاع بلاد الشام ، فأخذ يجمع الجيوش ، ويفرق الأموال على الجند ، ويوزع السلاح ، ثم خرج سنة 700هـ/1300م إلى بلاد الشام ، وأرسل إلى سيف الدين قفجاق يعرض عليه الرجوع إلى صف المماليك مقابل الإبقاء على حياته ، وقبل ذلك فخرج قفجاق وفي بعض المصادر قفجق ، فعفا عنه السلطان الناصر ، وحينما علم قطولشاه بقدوم الجيوش المصرية بقيادة الناصر وتصالحه مع سيف الدين قفجاق ، إنسحب مع

---

[1] انظر الملحق رقم 16، ص 360-362 .

[2] النبك : قرية بين حمص ودمشق ، للإستزادة أنظر ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،

[3] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 243 .

[4] انظر الملحق رقم 17 ، ص 363-367

[5] **انظر الملحق رقم 18 ص368-372 .**

[6] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 333.

قواته وعبر الفرات إلى داخل الدولة الإيلخانية وعاد إلى غازان يطلعه جليّة الأمر فأرسل رسالة إلى الملك الناصر يهدّده ويتوعده بالحرب [1].

وحينما علم غازان قام بتجهيز جيشه وأعطى أوامره إلى قواد جيشه وعلى رأسهم قطولشاه و بولاي و جوبان بالسير إلى الشام فخرجوا سنة 701هـ/1302 ، فلما سمع الناصر بن قلاوون ذلك خرج من مصر قاصدا قتال المغول ، إلا أنه سمع بانسحابهم نظرا للأمطار الغزيرة التي سقطت تلك الأثناء مما أدّى إلى عرقلة مسير الجيش نظرا إلى شدة الوحل الذي كان في الطريق ، الأمر الذي اضطر الجيوش المغولية للعودة والقدوم في العام المقبل [2].

ب) – معركة شقحب : 702هـ/1303م[3]

قدمت الأخبار من حلب إلى القاهرة في شهر رجب سنة 702هـ/1303م تنذر بأن جيش غازان على وشك التحرك صوب بلاد الشام ، فخرجت طليعة جيش المماليك بقيادة بيبرس الجاشنكير والأستادار حسام الدين لاجين مع عدة من الأمراء من بينهم الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار في نحو ثلاثة آلاف جندي يكونوا مددا للجيش الشامي فوصلوا إلى دمشق في شهر شعبان ، فرأوا الناس قد ولوا الأدبار هاربين من حلب وحماه وحمص إلى دمشق فرارا من المغول ، فأرسل بيبرس الجاشنكير يستعجل الناصر محمد بن قلاوون إلى القدوم لبلاد الشام ، وقد وجل أهل دمشق كثيرا لتأخر العساكر المصرية ، وقلق الناس قلقا عظيما ، وهمّ بعضهم بالهروب من دمشق إلى مصر ، إلا أن الأمراء والعلماء أثنوهم على الفرار ، وكان على رأسهم شيخ الإسلام

---

[1] **أنظر الملحق رقم 19 ، ص 373–375.**

[2] ابن أيبك الدويدار ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 45 .

[3] الهمذاني ، جامع التواريخ –تاريخ غازان– ، ص 184–185 و بيبرس المنصوري ، التحفة التركية ، ص 163 و النويري ، المصدر السابق ، ج32 ، ص 17 و ابن حبيب ، المصدر السابق ،ج1 ، ص246.

تقي الدين ابن تيمية الحراني الذي كان يدعو الناس إلى الثبات ويحرّضهم على القتال ، و يبشرهم بالنصر [1].

وحينما تكلم الناس في كيفية قتال المغول وهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه ، فقال الشيخ ابن تيمية: "هؤلاء من جنس الخوارج الذي خرجوا على علي ومعاوية ، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة" ، ففطن العلماء وعامة الناس لذلك [2].

وكان يقول للناس : " إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني"[3]، وبذلك قويت همم الناس وتشجعوا للقاء المغول .

فلما علم غازان بتأخر خروج الناصر قلاوون من مصر ، أرسل حثيثا قائده قطلوشاه إلى دمشق على رأس جيش كثيف يقدّر ما بين ثمانين ألف إلى مائة وعشرين ألف، وكان يضمّ الأرمن والكرج كالعادة ، ومن بين القادة بولاي و جوبان وطوغان وغيرهم من أمراء المغول ، وحينما سمع الناصر بذلك خرج من مصر مع الخليفة المستكفي بجيش مصر ، وسار يطوي الفيافي حتى وصل إلى شقحب تحت جبل غباغب ، قبل المعركة الحاسمة "فقوى جأش الجيش وسكن ما خامره من الطيش"[4]

[1] بيبرس المنصوري ، التحفة التركية ، ص 163

[2] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج18 ، ص 23-24 .

[3] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج18 ، ص 24 .

[4] بيبرس المنصوري ، التحفة التركية ، ص 165 .

كان على ميمنة جيش المماليك كل من حسام الدين لاجين الرومي والأمير سيف الدين قبجق[1] وعساكر حماه ، أمّا الميسرة فقد كان عليها أمير السلاح قراسنقر وعساكر حلب ، وأما القلب فكان يقوده السلطان الناصر محمد بن قلاوون بنفسه وإلى جانبه الخليفة المستكفي ، مع عدة أمراء من بينهم نائب سلطنته ابن السلار وبيبرس الجاشنكير وأيبك الخازندار وبكتمر وغيرهم من الأمراء[2].

ويروي النويري الذي كان شهد هذه المعركة عن كيفية مقدم المغول قائلا:"...وكنت قد رافقت الأمير علاء الدين مغلطاي البيسري أحد أمراء الطبلخانات[3] بدمشق ، لصحبة كانت بيني وبينه ، فلم نزلْ على ذلك وأعنّة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر فصلينا وركبنا ، واصطفّت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع النهار في يوم السبت المذكور ، ثم أرسل الله مطرا شديدا نحو ساعتين ثم ظهرت الشمس ولم نزلْ على خيولنا إلى وقت الزوال ، وأقبل التتار كقطع الليل المظلم ، وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية في ساعة واحدة."[4]

وتجدر الإشارة إلى أن جماعة علماء دمشق قد اشتركوا في قتال المغول وعلى رأسهم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ، الذي كان يقوي همم الجند ويحفزهم ويبشرهم بالنصر ويحلف على ذلك فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله، فيقول " إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا" ، كما طلب منه السلطان الناصر أن يقاتل إلى جانبه

---

[1] سيف الدين قبجق : من فرسان الإسلام المشاهير كان يجيد الكلام والخط باللغة المغولية ، وكان مقدما في البيت المنصوري ورأسا من رؤوس المماليك السلطانية ثم نائبا للسلطان الناصر في دمشق ، توفي سنة 717هـ . للإستزادة أنظر : الصفدي ، المصدر السابق ، ج 24 ، ص 136-139.

[2] ثاير نومان مسير ، **وقعة شقحب ودورها في صد العدوان المغولي** ، مجلة ديالى ، العدد 58 ، ص 12 .

[3] الطبلخانة : طبول متعددة معها أبواق تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص ، تدق كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة في الأسفار والحروب ، للإستزادة أنظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج4 ، ص 8 .

[4] النويري ، المصدر السابق ، ج32 ، ص 17-18 .

فاعتذر بأدب وقال له :" السنّة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم".[1]

هاجمت ميسرة المغول ميمنة المماليك بقوة وكادت أن تدحرها لولا تدارك السلطان الناصر بفرقتين من الخلف ساعدت الميمنة على الصمود ، واستشهد العديد من الأمراء في هذه الجولة مما يدل على أنهم كانوا ضمن الصفوف الأولى في مواجهة المغول ، وقد انحرف قطلوشاه بالقلب يساند الميسرة ، فظلت ميمنة المغول منعزلة ووحيدة مما أعطى الفرصة لجيش المماليك بالهجوم عليها ، وقتل معظم العساكر المغولية ، وهرب بولاي ومعه عشرون ألفا من المغول[2]، أما قطلوشاه فقد صعد بجنوده إلى جبل صغير ليرى المعركة من الأعلى فلما صعد و رأى كثرة المسلمين أدرك أنه يقاتل الجيشين الشامي والمصري معا وكان يعتقد قبل المعركة أنّ الجيش المصري لم يصل بعد ، فأحبطت معنوياته ولم يرَ بدّا من الانسحاب ، إلا أن جيش المماليك كان قد طوّق الجبل من جميع الجهات ، وبات الجيشان متمترسين على خيولهم تلك الليلة ، حتى إذا انبلج ضوء الفجر ، فتح المماليك طريقا ليتسنّ للمغول الهروب منه ثم لاحقوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ودارت الدائرة على المغول، فانهزموا وقتل معظم جندهم ومن لم يمت بسيوف المماليك مات غرقا في نهر الفرات بسبب هروبهم في الظلام[3].

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج18 ، ص 27-28.

[2] النويري ، المصدر السابق ، ج32 ، ص 19 .

[3] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج18 ،ص 29 .

وبانتصار المماليك الساحق في موقعة شقحب توقفت طموحات غازان في ضمّ بلاد الشام للدولة الإيلخانية ، فلم يلبث غازان أن توفي بعد هذه الوقعة بشهور قليلة وتولّى بعده أخوه أولجايتو الذي لقب نفسه محمد خدابنده [1].

ج)- الخان أولجايتو والسلطان الناصر محمد بن قلاوون:

اتصفت العلاقات بين المماليك ومغول فارس بعد المرحلة التي أعقبت وفاة غازان بالسلمية في أغلب الأحيان ، فلم تكن هناك أي مواجهات عسكرية كبرى بين الدولتين ما عدا بعض المناوشات والمعارك الصغيرة ، رغم التوترات التي كانت تحدث بين الحين والآخر .

تولّى أولجايتو عرش الدولة المغولية بعد وفاة أخيه محمود غازان ، وأرسل الرسل إلى بلاط السلطان الناصر في مصر يدعوه إلى الصلح والمودة ، وإخماد نار الفتنة، ورغبته في إقامة علاقات حسنة مع المماليك ، وعدم الرّضا عن أفعال غازان فاستقبل الناصر رسله وأكرمهم وأرسل إليه الرسل [2].

وفي سنة 704هـ/1304م أفرج أولجايتو عن سفراء السلطان الناصر وكان قد احتجزهم غازان عقب وقعة شقحب ، وفعل ذلك كحسن نيّة منه بل زاد في إكرامهم وخلع عليهم وأنعم عليهم ثم سيّرهم إلى مصر مع أحد رسل المغول في طلب الصلح لإعمار البلاد ، ويعزو ابن أيبك ذلك إلى أنّهم علموا بهجوم القبيلة الذهبية عليهم فأرادوا أن يتفرغوا لها و يغلقوا جبهة المماليك ولو إلى حين[3].

[1] ابن ايبك الدويدار ، المصدر السابق ،ج9 ، ص 126

[2] المقريزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 373 .

[3] ابن ايبك الدويدار ، المصدر السابق ،ج9 ، ص 126-127 .

وعلى الرغم من أنّ هذه المرحلة قد اتصفت بالودّ والهدوء ، إلا أنّه قد تخلّلتها بعض الخروقات من الجانبين أدّت إلى سوء العلاقات بين المماليك السنّة والمغول حينما أعلن أولجايتو عن تشيّعه، وإن كانت قد بدأت في التوتر قبل ذلك ، فحينما هرب الأمير المغولي حاكم ديار بكر جنكلي بن البايا إلى القاهرة آواه السلطان الناصر ولم يسلمه للمغول ، وردّ أولجايتو ذلك في سنة 705هـ/1305م بأن ساعد الأرمن في الهجوم على القوات المملوكية التي توجهت إلى أرمينيا لمطالبتها بدفع الجزية وقد قامت هذه القوات بأسر بعض العساكر المملوكية التي رفض أولجايتو إطلاق سراحهم عندما طلب منه السلطان الناصر ذلك[1] .

في حين أن أولجايتو أرسل عدة سفارات إلى أوربا أعرب فيها عن استعداده للتحالف معهم ضد دولة المماليك ، فأرسل سفارة سنة 704هـ/1304م إلى كل من ملك فرنسا فيليب الرابع وملك إنجلترا إدوارد الثاني ، كما أرسل سفارة ثانية عام 705هـ/1305م للبابا كليمنت الخامس يحرضهم على التحالف ضد المماليك ، إلا أن هذه السفارات كلها باءت بالفشل نظرا للأوضاع الداخلية التي كان تعيشها أوربا في ذلك الوقت[2].

والملاحظ أن أولجايتو لم يفكر بجدية في غزو بلاد الشام مثل أخيه بداية سنوات حكمه ، إلا بعدما وفد إليه سنة 711هـ/1312م عدد من أمراء المماليك على رأسهم الأمير قراسنقر نائب دمشق و الأمير جمال الدين الأفرم نائب طرابلس ، فأحسن

[1] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 390 .

[2] كاظم أمير زادة ، المرجع السابق ، ص 277 .

إستقبالهم و أكرمهم وأقطعهم الإقطاعات [1]. فأقطع مراغة للأمير قراسنقر وظلّ بها حتى توفي سنة 728هـ/1327م[2] وهمذان للأفرم [3].

وكان السبب في لجوئهم إليه هو الخلافات التي وقعت بينهم وبين السلطان الناصر وعلى أي حال فقد راح هؤلاء الأمراء يحسّنون له غزو بلاد الشام فاستيقظت فيه أطماع أجداده في ضمّها إلى ملكه خاصة بعد أن أقنعه قراسنقر بأن صاحب الرحبة سيسلمها دون قتال ، الأمر الذي شجّعه على تسيير الجيش نحوها ، وضرب عليها حصارا ، ولكن حينما سمع بخروج الناصر من مصر ، اضطّر للإنسحاب بعد حصار دام قرابة الشهر فرجع السلطان الناصر لتأدية الحج [4].

تجدد الصلح بين المماليك والمغول سنة 712 هـ/1314 م إلا أنه لم يدم طويلا، فحدث في سنة 715هـ/1316م أن توجّه صاحب حلب شهاب الدين قرطاي للغارة على إمارة ماردين ، وحين وصوله صادف فرقة مغولية مكوّنة من ألفي فارس كانت قادمة لأخذ الجزية السنوية من صاحب ماردين ، فهجم عليها وقتل منهم ستمائة رجل وأسر أكثر من مائتين ، فسرّ بذلك السلطان الناصر[5].

وفي سنة 716هـ/1316م اختلف حميضة بن أبي نمى مع أخيه رميثة حول إمرة مكة ، فقطع حميضة الخطبة باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعرض على الخان أولجايتو إقامة الخطبة باسمه ، فطمع بذلك نظرا للمكانة المقدسة التي تحتلها مكة والبيت الحرام في العالم الإسلامي ، فسيّر حملة عسكرية لمساعدة حميضة أمير

---

[1] ابن أيبك الدويدار ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 218 و ابو الفدا ، المختصر ، ج4 ، ص 81 .

[2] ابن حبيب ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 183 .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 479 .

[4] كاظم أمير زادة ، المرجع السابق ، ص 280 .

[5] المقريزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 505 .

مكة ضد أخيه رميثة[1]، كما استعد في الوقت نفسه للهجوم على بلاد الشام خاصة بعد وفد عليه الأمير العربي سليمان بن مهنا –بعد أن ولى السلطان الناصر فضل بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة إمارة العرب عوضا عنه – وإقناعه بغزو الشام مرة أخرى ، إلا أن المنية عاجلته دون تحقيق ذلك سنة 716هـ/ 1316 [2].

توفي أولجايتو (محمد خدابندة) بن أرغون في السابع والعشرين من رمضان عام 716هـ/ديسمبر 1316م ، ودفن بمدينة السلطانية[3] التي بناها بالقرب من قزوين ، ولعل أهم حدث ديني وقع في عهده هو تحوله للمذهب الشيعي بعد أن اعتنق الإسلام وفق مذهب أهل السنة ، ويختلف المؤرخون حول سبب تشيعه فانتقلت العلاقات بين المماليك السنة و المغول الوثنيين ثم المسلمين على المذهب السني إلى علاقات سنيّة شيعية في عهد أولجايتو .

ومما زاد الأمر تعقيدا في العلاقات بينه وبين المماليك حماة المذهب السنّي ، عندما كتب إلى سائر الأمصار في بلاده بسب الخلفاء أبي بكر وعمر ، وأمر باتباع المذهب الشيعي ولكنه تراجع عن تشيعه أواخر حياته نظرا لأن أغلب سكان مملكته كانوا من المسلمين السنّة بالإضافة إلى رواية ابن بطوطة التي ذكرت بان كرامة الشيخ مجد الدين قاضي شيراز كانت السبب في ذلك[4].

---

[1] النويري ، المصدر السابق ، ج32 ، ص 192 . و ابن فهد (عز الدين عبد العزيز ت 922هـ) ، **غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام** ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، مركز إحياء التراث الإسلامي ، مكة المكرمة ، 1988 ،ج2 ، ص 53–63.

[2] ابن أيبك الدويدار ، المصدر السابق ، ج9 ، ص75 والنويري ، المصدر السابق ، ج32 ، ص 179.

[3] السلطانية : وهي قنغولان مدينة محدثة بناها خربندا بن أرغون وجعلها كرسي ملكه تقع بالقرب من جبال كيلان على مسيرة يوم منها ، وهي قليلة الفواكه والبساتين . للإستزادة أنظر أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل بن محمد ت732هـ) ، **تقويم البلدان** ، تحقيق : رينود و ماك كوكين ديسلان ، دار صادر ، بيروت ، 1850 ، ص 407 .

[4] ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 38–39 .

د)- الخان أبى سعيد و الناصر بن قلاوون :

بعد وفاته تولى الملك ابنه أبى سعيد في الثالث عشر من ربيع الأول 717هـ/مايو1317م [1]، وهو أول حاكم مغولي في بلاد إيران يحمل إسما إسلاميا فقط[2]، ونظرا لصغر سنه فقد أصبح الأمير جوبان السني المذهب مدبرا للجيوش والمملكة وكان رشيد الدين فضل الله الهمذاني مع علي شاه في الوزارة ، ومن ثم فقد تم إحياء المذهب السنّي من جديد [3].

ولما كان أبى سعيد حديث السن – إحدى عشر سنة[4]– لما تولى خانية المغول في فارس ، فقد استأثر بالحكم قائد الجيوش جوبان ، فأناب ابنه دمشق خواجا بشؤون الجيش وعهد بحكم الأناضول إلى ابنه تمرتاش ، وبذلك سيطر على مفاصل الدولة ولم يعد لأبي سعيد من السلطة إلا اسمها ، لكنه استرد سلطانه حينما شبّ وبلغ الحادية والعشرين من عمره ، فتخلص من دمشق خواجا ، ودبر مؤامرة لاغتيال جوبان ، لكنه فشل في ذلك ، فسار لقتاله وانتصر عليه وقتل جوبان وجميع أبنائه وأقاربه و أحفاده [5].

تواصلت الرسل والهدايا بين السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون و الخان المغولي أبى سعيد ، ففي سنة 717هـ/1317م قدم كتاب المجد إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي يجدد السلام من طرف الخان ووزيره خواجا علي شاه والأمير جوبان

---

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج18 ، ص 165 .

[2] بارتولد شبولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص 78 .

[3] فايد عاشور ، المرجع السابق ، ص 186 .

[4] ابن حبيب ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 82

[5] جليلة أحمد ، المرجع السابق ، ص 295-296 .

، و أكابر أمراء المغول ومعه هدية من طرف الخواجة رشيد الدين الهمذاني ، فجهز السلطان الناصر إلى أبي سعيد هدية جليلة من جملتها فرسا وسيفا [1].

بل أنه في سنة 721هـ/1321م ركب تمرتاش بن جوبان نائب أبى سعيد على بلاد الروم من قيسارية في جيش كثير من المغول والتركمان ، قاصدا غزو بلاد سيس أو أرمينيا أرسل إلى نائب حلب ألطنبغا ليجهز له جيشا يكون عونا له على ذلك ، فلم يستطع تلبية طلبه بدون مرسوم من السلطان الناصر [2].

ومما لاشك فيه أن أبى سعيد واجه مشاكل كثيرة في بداية حكمه الأمر الذي دفعه إلى السعي الحثيث للتقارب مع المماليك خاصة بعد المشاكل الداخلية التي أحاطت به مثل تمرد الأمير يساور الذي أعلن العصيان سنة 716هـ/1316م بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي تمثلت في توجه أوزبك ملك صحراء القفجاق إلى إيران بجيش كبير ، ومن ثم فقد غير الخان المغولي سياسته اتجاه المماليك ووضع حد للحروب القائمة بينهما ، فتراسل مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأرسل رسله محملة بالهدايا ، وبالفعل تم هذه المرة عقد اتفاقيات أدت لفتح الحدود التجارية بين الدولتين ، كما تعهد الناصر بحماية الحجاج الإيرانيين والمحمل الإيلخاني [3].

ولعل العلاقات بين الدولتين تحسنت جدياّ خلال سنة 720هـ/1319م حيث انتظمت عقود الصلح وقبل كل منهما هدية الآخر وتحفه وطرف بلاده ، "فاستقرت الخواطر وتأرجحت الأرجاء بنسمات هذا الخبر العاطر"[4]، ودخلت العلاقات بين المغول

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج2 ، ص 524-525 .

[2] ابن كثير ، المصدر السابق ، ج19 ، ص 211 .

[3] كاظم أمير زادة ، المرجع السابق ، ص282 .

[4] ابن حبيب ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 116 .

والمماليك حالة سلام وصداقة في عهد الخان أبي سعيد الذي تكررت سفاراته إلى القاهرة في عامي 723-724هـ/1322-1323م.[1]

وعلى ذكر الصلح أنشد الإمام شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري شيخ الشيوخ بحماه :

سألت سوارها المثرى فنادى فقير وشاحها الله يفتح

لها طرف يقول الحرب أولى ولي قلب يقول الصلح أصلح[2]

ومجمل القول أن أبى سعيد استطاع الحفاظ على دولته بتحالفه مع الناصر وبذلك نجح في منع حدوث تحالف مغول القفجاق بقيادة أوزبك خان مع المماليك ، إلا أنّ الدولة المغولية في فارس تفككت بعد وفاته سنة 736هـ/1335م إلى دويلات متنازعة فيما بينها نظرا لشغور المنصب الخاني فالحروب التي استنزفت مغول فارس قضت على كل أحفاد هولاكو حتى أن أبى سعيد آخر سلطان مغولي لم يكن له أولادا ذكورا[3]، ومن ثمّ فقد ظهرت على أنقاض المغول الدولة الجلائرية[4] في العراق

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج3 ، ص 61 .

[2] ابن حبيب ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 116 .

[3] كاظم أمير زادة ، المرجع السابق ، ص 290.

[4] الدولة الجلائرية : هي سلالة مغولية قدمت من بلاد ما وراء النهر رفقة جيش هولاكو أثناء غزوه بغداد وقد حكمت العراق وغرب إيران وأذربيجان من سنة 736هـ/1335م إلى 835هـ/1431م وتعددت عواصم ملكهم من بغداد إلى تبريز فالبصرة ، وقد بدأ نجمهم بالصعود في ظل الحكم الإيلخاني فتقلد بعضهم مناصب مهمة في الدولة الإيلخانية ، ومع أفول هذه الأخيرة استولى الجلائريون على بغداد بقيادة مؤسس دولتهم حسن برزك وغزا ولده شيخ أويس شمال غرب إيران ثم انتزع أذربيجان من القبيلة الذهبية ثم استولى على الموصل وديار بكر وخاضوا حروبا عديدة أدت إلى إضعاف سلطانهم فخسروا ديار بكر أمام القراقويونلو و بغداد أمام تيمورلنك ثم قضي عليهم نهائيا من طرف دولة القراقويونلو سنة 835هـ/1432م . للإستزادة أنظر : شعبان طرطور ، **الدولة الجلائرية** ، دار الهداية ، مصر ، 1987 ، ص 7 وما بعدها .

والدولة السربدارية[1] ودولة الخرفان السود القراقويونلو[2] .

والواقع أن التأثير المغولي على العلاقات بين السنّة والشيعة وإن كانت بدايته مع القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي فقد تبلورت خصائصه و بدأت تتضح معالمه في القرون التي تلته خاصة مع الحملة المغولية الثالثة التي قادها تيمورلنك ، وبروز الصفويين بعد ذلك كقوّة شيعيّة منافسة للدولة العثمانية السنيّة ولعل هذا ممّا يحفز همم الباحثين لسبر أغوار هذه المحطة التاريخية المهمّة من تاريخنا الإسلامي التي مازال يكتنفها الغموض .

[1] الدولة السربدارية : حكومة شيعية استولت على الحكم في نيسابور بعد وفاة الخان أبى سعيد آخر ملوك المغول في فارس بعد ثورة ضد الحكم المغولي وذلك سنة 739هـ/1338م واستمرت إلى سنة 783هـ/1381م حيث أنهى تيمورلنك حكم هذه الدولة ومعنى كلمة سربدار بالفارسية الرأس على المشنقة أي المستعدون للموت . للإستزادة أنظر: محمد بن جمال الدين المكي العاملي ، **اللمعة الدمشقية** ، ، تحقيق : محمد كلانتر ، منشورات داوري ، قم ، إيران ، 1410هـ ، ج1 ، ص 143 .

[2] دولة القراقويونلو : ويطلق عليهم أيضا الخرفان السود ، وهم مجموعة من القبائل التركمانية حكموا مناطق أذربيجان وأرمينيا وأجزاء من العراق وفارس منذ سنة 776-872هـ/ 1375م -1468م، وقد كانوا في بداية أمرهم تابعين للدولة الجلائرية في بغداد و تبريز وعندما تولى كارا محمد حاكم الموصل استقل عن الجلائريين كما استقل كارا يوسف أيضا واتخذ القراقويونلو تبريز عاصمة لهم . وفي عام 802هـ/1400م سقطت تبريز في يد تيمورلنك والتجأ يوسف كارا عند المماليك بمصر ، ولكن بحلول 808هـ/1406م تمكن من استعادة تبريز. وانتهى حكم دولة الخرفان السود على يد منافسها من دولة الخرفان البيض سنة 868هـ/1466م . للإستزادة أنظر : The Editors Of Encyclopaedia Britannica , Kara Koyunlu Turkemen Tibal federatio, www.britannica.com/topic/Kara-Koyunlu 23/07/2021 15 :55 .

الخـاتمة

خاتمة :

تعتبر الغزوات المغولية أحد الحلقات التي أثّرت على العلاقات بين السّنة والشيعة فقد كان الغزو المغولي زلزالا هزّ أركان العالم الإسلامي سياسيّا وجغرافيا واجتماعيا ودينيا، فقضى المغول على دول كانت راعية للمذهب السنّي كالدولة الخوارزمية والخلافة العباسية ، وأزال الكيان السياسي للطائفة الشيعية الإسماعيلية المعروفة بالحشاشين من على خارطة إيران السياسية .

لقد كانت الحملة المغولية الأولى على الجناح الشرقي من العالم الإسلامي المتمثّل في الدولة الخوارزمية التي كانت في صراع مع بقيّة الممالك الإسلامية المجاورة ، فلم تجد مُعينا لها على درء الخطر المغولي ، بل على العكس فقد فتحت الغزوات المغولية باب الخيانة على مصراعيه أمام الشّيعة الإسماعيلية في الألموت الذين كانت رسلهم تترى إلى المغول يُطلعونهم بضعف الدولة الخوارزمية إبّان حكم جلال الدين منكبرتي ، ويحثّونهم على قصده والقضاء عليه .

وبعد أن قضى المغول على الدّولة الخوارزمية تماما ، أضحوا وجها لوجه أمام إقليم فارس والدولة الإسماعيلية في إيران ، فاستأنفوا سياسة التوسّع وانطلق هولاكو من قراقورم أثناء حكم أخيه منكو خان ، لإزالة الدولة الإسماعيلية وغزو بغداد ، وحينما حاصر هولاكو قلعة الألموت إحدى أحصن القلاع في التاريخ ، حاول نصير الدين الطّوسي إقناع سيده حاكم القلعة خورشاه بالإستسلام للمغول ، وبالفعل فقد استسلم لهولاكو الذي أرسله إلى أخيه رفقة من يقتله في الطريق ولعل ما حدث من سوء الرأي الذي أدلى به العالم الشيعي نصير الدين الطوسي هو خيانة واضحة لسيّده الذي عاش في كنفه زهاء ثلاثين سنة .

ولمّا اتجه جيش هولاكو إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يستدعيه للقدوم عليه كان التردّد طاغيا على رأي الخليفة الذي تعدّدت مشارب رجاله ومستشاريه بين من يرى الصلح كالوزير ابن العلقمي ومن يرى رأي الحرب والمقاومة كالدويدار الصغير وسليمانشاه ، وتردّدت الرسائل بين الخليفة وهولاكو ، فلم يدر ما يصنع حتىّ وصل المغول إلى ضواحي بغداد ، وبعد مناوشات بين جيش الخليفة وطلائع جيش المغول تأكّدت الهزيمة لجيوش الخلافة العباسيّة .

وحينها أرسل الخليفة وزيره ابن العلقمي إلى هولاكو لعقد شروط الإستسلام ، ولعلّ الوزير قد تحالف مع هولاكو وخان سيّده الخليفة من خلال إقناعه بالنّزول إلى هولاكو وقتله كما أقنع النّصير الطوسي خورشاه حاكم الإسماعيلية من قبل . وقد كان دور نصير الدين الطوسي في واقعة بغداد كبيرا فقد هوّن على هولاكو مقتل الخليفة المستعصم حينما سأله رفقة المنجّم السنّي حسام الدين الذي أخذ يهوّل الأمر ويحذّر هولاكو من الكوارث التي قد تنجم عن إراقة دماء الخلفاء .

لقد كان الصراع في هذه النقطة صراعا سنيّا شيعيّا بامتياز فحين كان حسام الدين المنجّم يعارض بقوّة قتل الخليفة المستعصم الذي يعني في نظره زوال الخلافة العباسيّة السنيّة كان العالم نصير الدين الطوسي الشيعي مؤيّدا لذلك بشكل كبير فراح يُقنع هولاكو بأن هذا محض افتراء وقد قتل الحسين بن علي وقبله علي بن أبي طالب ولم يحدث شيئا من الخسوف أو الزلازل ، ولعلّ الحقد الكبير الذي كان في نفس الطوسي إتجاه الخلافة العباسية السنيّة هو ما جعله يستميت في الدفاع عن رأيه بشأن قتل الخليفة وإسقاط الخلافة .

على أنّه لا يجب تعميم خيانة هذين الرجلين بأنّها خيانة لكلّ الشيعة الذين كانوا في العراق أثناء الغزو المغولي، فقد قاتل بعض أهالي الكرخ والحلّة في جيوش الخليفة بقيادة الدويدار ، إلا أنّهم استسلموا بعد ذلك بل وأرسل أهل الحلّة مجد الدين بن

طاووس الحلي وسديد الدين يوسف بن المطهر الحلي اللّذان ذهبا إلى هولاكو يطلبان الأمان لأهالي الحلّة ، ولعلّ هذين العالمين قد أخذا الأمان مقابل عدم القتال والمقاومة في أمر يشبه إلى حدّ كبير فتوى السيستاني بعدم جواز قتال الأمريكان.

وهذا لا يعني أنّ جميع الشيعة كانوا عملاء وخونة للغزاة بل كان هناك فيهم من قاوم المغول كما رأينا في خضمّ الأحداث التاريخية ، فالملاحظ هنا مدى اختلاف مواقف الشيعة على الصّعيد الرسمي ، والصعيد العام من الناس ، ففي حين كان عوام الشيعة يقاتلون إلى جانب إخوانهم السّنة عند هجوم المغول على بغداد ، نجد أعلام الشيعة تطعن الأمّة الإسلامية وتتعاون مع الغزاة .

وحينما واصل المغول سياستهم التوسعية نحو بلاد الشام والديار المصرية تصدّى لهم المماليك السنّة الذين كانوا يحكمون دولة في طور النشأة ، ولعلّ عين جالوت الخالدة تعتبر السّبب الرئيسي في صعود نجم الدولة المملوكية السنيّة التي التفّ حولها المسلمون في ذلك الوقت فصارت تستقطب كلّ الراغبين في مقاومة المغول.

إن من حظّ المماليك دخول المغول في حرب أهلية استنزفت الكثير من طاقتهم وجنودهم فبعد موت منكوخان والنّزاع الذي دار بين أريق بوقا وقوبيلاي حول عرش الإمبراطورية من جهة ، قام صراع آخر أشد فتكا بين هولاكو الوثني والأمير المسلم بركة خان حاكم القبيلة الذهبية ، وقد أدّت هذه الظروف إلى انشغال هولاكو عن أمر المماليك ، فأعدوا العدّة واستغلوا الفرصة في الإستيلاء على كافة بلاد الشام ، وصارت الحدود بين المماليك والدولة الإيلخانية التي أسّسها هولاكو هو نهر الفرات.

وعلى الصعيد الداخلي فقد حرص المماليك على دعم المذهب السنّي في ديار مصر وبلاد الشام التي كان الشيعة فيها أكثرية ملحوظة بالنسبة لأهل السنّة والجماعة عبر

شواهد الرحالة كابن جبير الذي زارها في القرن 6 هـ/ 12 م إلاّ أنها قد صارت بعد معركة عين جالوت واندحار الغزو المغولي عنها قطبا سنيّا بامتياز باستثناء مناطق محدّدة ظلّ التشيع فيها محدودا حيث ذكر ابن بطوطة في القرن 8هـ/14م بوجود طائفة تسمى النصيريّة على الساحل وبالتالي فإنّ سيطرة المماليك على بلاد الشام أدّت إلى إنزلاق التشيّع نحو الشرق باتجاه العراق وإيران وإلى الغرب نحو الساحل الشامي ، دون أن نغفل عن دور المدارس والمؤسسات العلمية التي بدأت منذ عصر الوزير العظيم نظام الملك الطوسي في عهد السلاجقة ، وتبنّاها بعده الزنكيون ، فقد بنى نور الدين محمود زنكي العديد من المدارس الفقهية ، وحملها بعدهم الأيوبيون وتبعهم على إثرها المماليك وهؤلاء كلهم كانوا من المسلمين السنّة الذين حملوا المشروع السنّي على عاتقهم .

وبكل تأكيد فقد كانت لهذه المدارس السنّية اليد العليا في التصدي للمدّ الشيعي الذي كان قد طغى على بسطاء الناس وراج بين ضعفاء العقول مما استوجب التصدّي لهذا التيّار ومحاربة الفكرة بالفكرة ، خاصة مع إهتمام الحكّام بالمدارس فضلا عن بناء أخرى جديدة والإنفاق عليها ، والاهتمام بالعلماء والفقهاء بكافة المذاهب الإسلامية السنيّة الأربعة .

وعليه فقد تم تجفيف المنابع الشيعية ، والتصدي للأفكار الإمامية خاصة التي عرفت بالغلوّ منها والتطرف، واستبدلت بالأفكار السنيّة الوسطية التي تمثل الإسلام الصحيح ، فتغيرت البلاد ديمغرافيا من أغلبية شيعية إلى أغلبية سنيّة .

أمّا على الصعيد الخارجي فقد أسّس المماليك علاقة صداقة وطيدة مع مغول القبيلة الذهبية –القفجاق– منذ عهد بركة خان الذي كان أول أمراء المغول إسلاما ، فتحالف مع الظاهر بيبرس ضدّ هولاكو والدولة الإيلخانية ، وقد كلّلت العلاقات

بينهما برباط المصاهرة ، كما استمرّ الودّ والتحالف بين الدّولتين إلى غاية سقوط دولة المغول في إيران .

وفي المقابل فقد قضى المماليك على الكيان السياسي للشيعة الإسماعيلية التي كانت تتواجد في القلاع الشامية كمصياف والكهف والقدموس والرصافة وغيرها من القلاع والحصون المتناثرة في الجبال الشامية وأنهوا مجدها التليد ، حتى صارت أداة في أيديهم استغلّها سلاطين المماليك في إرهاب خصومهم السّياسيين ، فيروي ابن بطوطة بأنّهم "سهام الملك الناصر يصيب بهم من يشاء" وهذا دلالة على تبعيتهم المباشرة لسلطان مصر المملوكي ، ويرجع دخول القلاع الإسماعيلية في حكم المماليك للغزوات المغولية التي أنهكتهم وقضت على إخوتهم في الألموت وبلاد إيران ، حتى أن الظاهر بيبرس حينما أقام صلحا مع الإفرنج أدخل في الصلح عدم التعرّض للطائفة الإسماعيلية ، ولعلّ هذا يذكرنا بما حدث مؤخرا في الحرب الأخيرة التي ساعد فيها الأتراك السّنة دولة أذربيجان ذات الأغلبية الشيعيّة في مقابل دعم إيران الشيعيّة لأرمينيا المسيحيّة .

كما استمرت الحروب والصراعات بين المماليك والمغول بداية من عهد أباقا خان الذي انهزم أمام الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون ، إلى غاية تولّي أحمد تيكودار الحكم في الدولة الإيلخانية ، فقد أسلم هذا الأخير وحاول إقامة علاقات ودّية مع دولة المماليك ، محاولا نشر الإسلام بين صفوف المغول الأمر الذي ألبّ الأمراء عليه فتحالفوا مع ابن أخيه أرغون وعملوا على تنحيته وقتله .

وحينما اعتلى غازان العرش أسلم وتسمّى بمحمود غازان وأسلمت بإسلامه معظم عساكر المغول ، لكنه بقي يعمل على سياسة أجداده في ضمّ بلاد الشام لحكمه، فكانت الوقائع الكبرى والمعارك بينه وبين الناصر بن قلاوون ، إلا أنّ المماليك استطاعوا دحره بعد معركة شقحب التي برز فيها شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية.

ومن الأهميّة بمكان أن غازان قد اعتنق الإسلام على المذهب السنّي على خلاف أخيه أولجايتو الذي أسلم وتسمى بمحمد خدابندة ثم مالبث أن تحوّل إلى المذهب الشيعي ، فكان عهده مرحلة خاصة في العلاقات بين السّنة والشيعة ، وتعددت الروايات في سبب تشيّع أولجايتو ، إلاّ أنّها جميعا لا تصل إلى درجة الإقناع في جعله مذهبا رسميّا للدولة المغولية ، بل فرضه على رعاياه من المسلمين في إيران والعراق وشيراز وسائر أقاليم دولته ، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى محاولة اولجايتو استغلال ما حدث بعد معركة شقحب من حرب المماليك لشيعة جبل كسروان التي ذكرت المصادر بأنّ المماليك قد حاربوهم وقتلوا الكثير منهم بدافع الإنتقام وذلك بعدما فعلوه بالعساكر السلطانية المملوكية أثناء رجوعها إلى مصر بعد هزيمتهم أمام المغول في معركة واد الخازندار، كما استأسروا البعض الآخر منهم فاستتابهم الشيخ ابن تيمية من عقائدهم الفاسدة ، ولعلّ في تبنّي أولجايتو للمذهب الشيعي ومحاولة نشره وفرضه جاء لاستعطاف بعض الشيعة من سكان بلاد الشام على غرار سكان جبل كسروان ، كما نلاحظ من خلال تشيع أولجايتو مدى التنافس بين السّنة والشّيعة حول ترويض المغول وكسب اليد العليا في ذلك. ومن المرجح أن فرض التشيّع وإتخاذه مذهبا رسميا للدولة المغولية خلال حكم أولجايتو قد شجّع الكثير من شيعة بلاد الشام إلى التوجه صوب إيران التي ظلّت ذات أغلبية سنيّة طيلة 800 سنة إلى غاية مجيء الصفويين الذي فرضوا التشيع بالقوّة.

لقد أدّت الغزوات المغولية على بلاد الإسلام من الشرق ومن قبلها الحملات الصليبية من الغرب إلى إحداث زلزال جغرافي في مناطق تواجد السّنة والشيعة في بلاد المشرق الإسلامي ، خاصة بعدما أقدم أوّل حاكم مغولي في إيران وهو أولجايتو محمد خدابندة على تبّنى المذهب الشيعي مذهبا رسميّا في خانية المغول في إيران

والعراق ، هذا الأمر الذي لم يقبله المسلمون السنّة في تلك البلاد وقد كانوا غالبية ، في حين أن المذهب الرسمي للمماليك في مصر وبلاد الشام كان المذهب السنّي .

ولعلّ من تأثير الغزو المغولي على العالم الإسلامي أن تغيّرت نظرة أهل السنة للطائفة الشيعيّة من طائفة معارضة سياسيّا تختلف في بعض الأصول والفروع إلى جماعة قادرة على خيانة الأمّة والتحالف مع العدو في وقت الأزمات.

والمؤكد أنّ الظروف السياسية التي نعيشها في وقتنا المعاصر لهي أشبه ما يكون بما حدث أيام الغزوات المغولية ، فالغزو الأمريكي للعراق خلّف حكومة طائفيّة ترعى مصالحها الطائفية الضيّقة وتشدد الخناق على الإسلام السنّي المعتدل وما يبرهن على ذلك قول Paul bremeir بول بريمر الحاكم الأمريكي المدني السابق للعراق قوله بأنه "عندما أطاحت أمريكا بصدام حسين أسقطنا معه ألف عام من الهيمنة السنيّة على بلاد ما بين النهرين بدءا من الخلافة العباسية مرورا بالأتراك والبريطانيين والملوك الهاشميين وقد شكّل هذا هيمنة للسنّة وكان العراق يحكمه أقليّة ولا أعتقد أن هذا كان أمرا صحيحا" ، وهذا التصريح السافر بغضّ النظر عن كونه خاطئا بخصوص أنّ العراق كان يُحكم من أقليّة سنيّة تحكم الأغلبية الشيعيّة فلم تشر كتب الرحالة والجغرافيين بأغلبية الطائفة الشيعية بالعراق ماعدا الكوفة والحلة. إلا أنّه يُستنبط من قوله أمر خطير للغاية مفاده أن الغزاة الأمريكيين وغيرهم قد أمعنوا النظر في تاريخنا ودرسوه بدّقة شديدة عبر المدارس الإستشراقيّة حتّى اكتشفوا مكامن الضعف في الأمّة الإسلامية خاصة في المشرق الإسلامي المنقسم بين السنّة والشيعة .

وتشير المصادر التاريخيّة بمساعدة قبائل خفاجة الشيعيّة العراقية المغول ضدّ المماليك خاصة في معرفة المسالك والطرق . ومن المفارقات التاريخية أن إيران قد استغلت هذه القبائل بعد الغزو الأمريكي للعراق فانضمّت العديد من عشائر خفاجة

الشيعيّة منها إلى جانب التنظيمات الموالية لإيران وفي عام 2012 انشق أوس الخفاجي –أحد شيوخ القبيلة عن زعيم التيار الصدري وأنشأ "قوات أبي الفضل العباس" التي استخدمها في تجنيد مقاتلين لمساندة النّظام السوري .

أما في بلاد الشام وقد صار أهل السنّة والجماعة يشكلّون الأغلبيّة العظمى فيه حتى وقتنا المعاصر، إلا أنّ الأقلية الشيعيّة تمكنّت من الإستيلاء على الحكم باسم آخر غير الطائفية أو التشيّع وهي القومية العربية التي كانوا – للأسف – أبعد ما يكونون عنها ، ففي اللحظة الأولى التي طالبت فيها الجماهير السنيّة العربية بحقّها في حكم نفسها بنفسها واسترداد شرعيتها في الحكم ، خلعت الطغمة الحاكمة رداءها المزيّف المتمثّل في العروبة وراحت تتحالف مع حلفائها التقليديين الطائفيين كإيران الفارسيّة الشيعيّة وحزب الله في لبنان ، حتى أنّها تحالفت مع النّصارى الصليبيين في سبيل الحفاظ على بقاء عروشها، وإنّ زيارة المسيحي الأرثوذكسي الرئيس الروسي بوتين لقبر صلاح الدين الأيوبي التي سبقتها زيارة المسيحي الكاثوليكي الفرنسي هنري غورو قبلها بمائة عام لهي خير دليل على صليبيّة النصارى أرثوذكسيين كانوا أم كاثوليكيين .

كما يجدر الإشارة بأن الشّيعة قد استغلّوا ضعف الحكم المغولي بعد وفاة السلطان المغولي أبى سعيد ، فاتخذوا من منطقة فارس والعراق أرضا لتأسيس دول وممالك على غرار الدولة السّربدارية التي استولت على الحكم في نيسابور ودولة الخرفان السود القراقويونلو في مناطق أذربيجان وأرمينيا وأجزاء من العراق وفارس ، والدولة الجلائرية في العراق وتبريز. وقد سقطت جميع هذه الدول في الحملة المغولية الثالثة على يد تيمورلنك ، والحقيقة أن تأثيرات الغزو المغولي على العلاقات بين السنّة والشيعة تمتدّ بنا إلى القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي متمنيّا إكمال هذا البحث في قابل الأيام إن شاء الله .

وفي الختام تجدر بنا الإشارة إلى أنّ المذهب الشيعي الذي بدأ حزبا سياسيا ضدّ الحكم الأموي قد أخذ في التحول تدريجيا إلى تشيّع ديني ، وانقسم على نفسه إلى العشرات وحتى إلى المئات من الفرق الشيعيّة البائدة والباقية إلى وقتنا المعاصر، إلاّ أنّ الفرق الشيعية خاصة الزيدية والإثناعشرية والإسماعيلية قد اختلفت اختلافا واضحا وجذريا مقارنة بتشيّع اليوم ، فالزيدية التي كانت تقول بإمامة المفضول مع وجود الأفضل دون التعرّض لسبّ الصحابة ، قد اتبعت باقي الفرق الشيعية في ذلك ولنا في جماعة الحوثي في اليمن التي تدّعي أنّها زيدية أبرز مثال على ذلك.

في حين أنّ الشيعة الإثناعشرية التي كانت تقول بعدم جواز الثورة والحكم حتى ظهور الإمام المهدي قد تحوّلت عن هذا الرأي إلى ولاية الفقيه الذي ينوب عن الإمام الغائب ، ومن ثمّ فإنها أخذت تدعو إلى الثورة على الحكام الأمر الذي تلقّفه الخميني وسنّه في كتابه الحكومة الإسلامية ، وأسّس بذلك الحكم الشيعي الإثناعشري في إيران . فالتشيع الإيراني اليوم يختلف تماما عن التشيّع في عصوره الأولى، فصار سبّ الصحابة مباحا في إيران ، الأمر الذي جعل من طالبان التي تسيطر اليوم على أفغانستان تطلق على تسمية المعبر البرّي الحدودي الرابط بين إيران وأفغانستان بإسم الخليفة الأول أبي بكر الصدّيق.

وبذلك تجدّد الصراع السنّي الشيعي إلى حرب شعواء تتّضح معالمها اليوم في دولة مثل اليمن التي صارت أرضا لحرب طائفية بين إيران ودول الخليج العربي. وفي سوريا بين أهل السنّة ضدّ الطائفة النصيرية الشيعية التي تحكم البلاد. وفي لبنان بين حزب الله الشيعي المدعوم من إيران ضدّ بلد بأكمله ، وعلى ضوء ما سبق نرى تحالف الشيعة مع الغرب لضرب المشروع السنّي في العالم الإسلامي.

الملاحق

الملحق رقم 01 :

خريطة العالم المغولي [1]

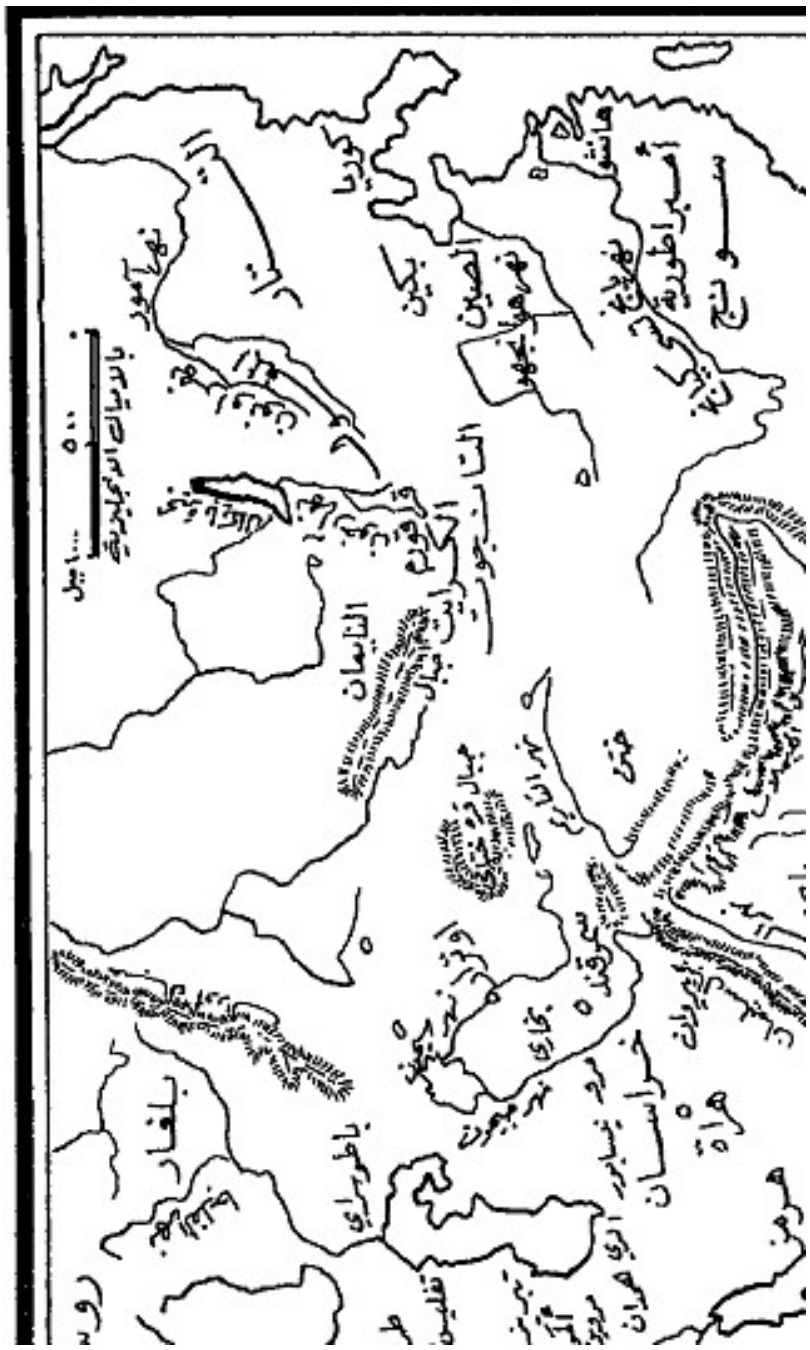

[1] الصياد، المغول في التاريخ ، ص 403 .

الملحق رقم 02 : خريطة الدولة المغولية بعد انقسامها [2]

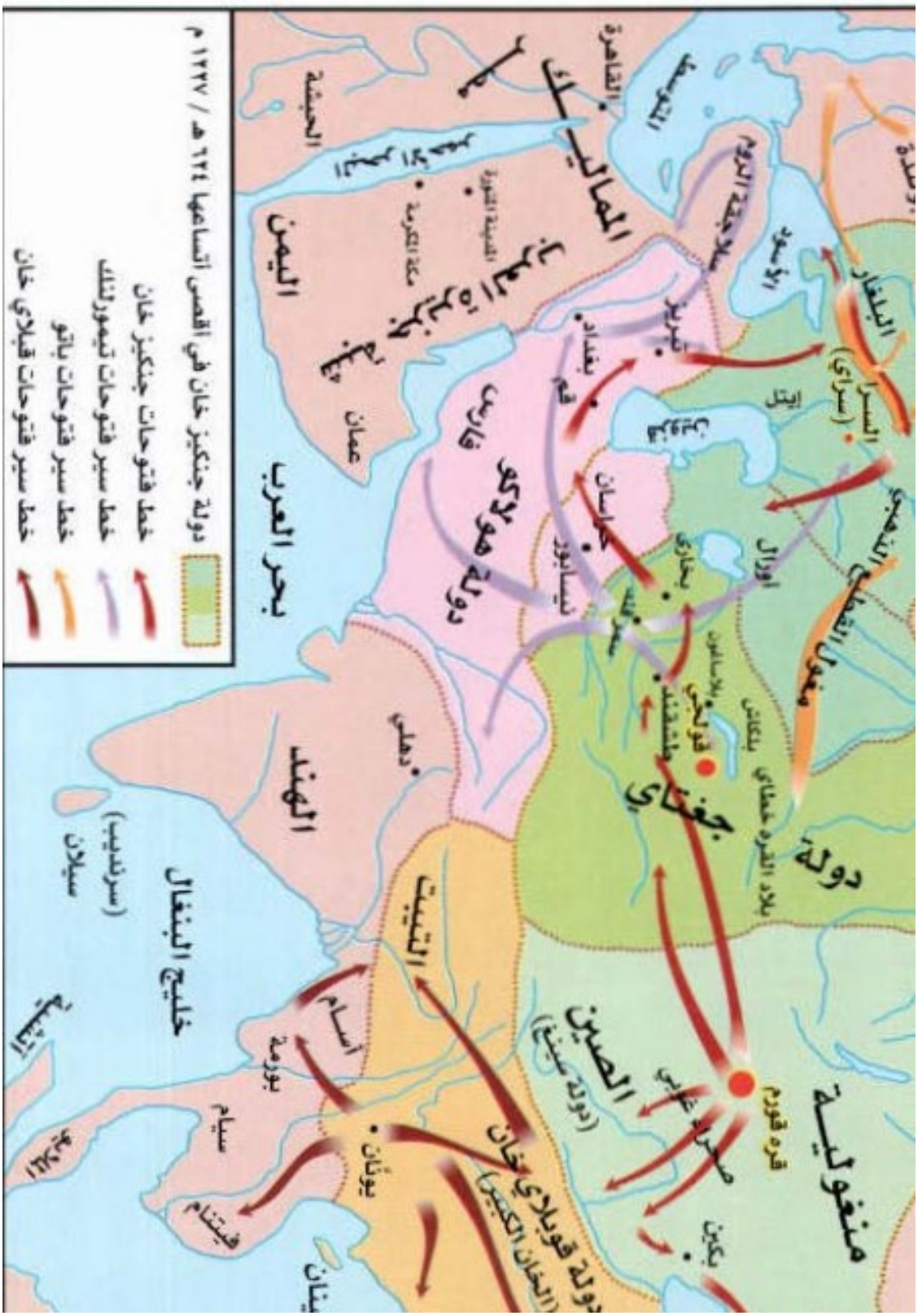

[2] شوقي أبو خليل ، **أطلس التاريخ العربي الإسلامي** ، دار الفكر ، دمشق ، 2001، ص 66

الملحق رقم 03 :

❖ الفرق الشيعية عند الشهرستاني في كتابه الملل والنحل[3]

الشيعة الزيدية	الجارودية – الصالحية والبترية– السليمانية –
الشيعة الكيسانيّة	المختارية – الهاشمية – البيانية – الرزامية
الشيعة الإمامية	الباقرية – الجعفرية الواقفة – الناووسية – الأفصحية – الشميطية – الإسماعيلية الواقفة – الموسوية –المفضلية – الإثناعشرية
الغاليّة	السبائية – الكاملية – العلبائية – المغيرية –المنصورية – الخطابية – الكيالية – الهاشمية – النعمانية – الشيطانية – اليونسية – النصيرية – الإسحاقية –
الإسماعيلية	الباطنية –النزارية – المستعلية – الملاحدة –

❖ الفرق الشيعية عند ابن تيمية [4]

الغاليّة	وهم الذين يجعلون لعليّ شيئاً من الألوهية، أو يصفونه بالنبوّة.
الرافضة	وهم الرافضة المعروفون، كالإمامية وغيرهم، الذين يعتقدون أن علياً رضي الله عنه هو الإمام الحق بعد النبي صلى الله عليه وسلم بنص جلي أو خفي، وأنه ظُلم ومنع حقَّه، ويبغضون أبا بكر وعمر، ويشتمونهما، وهذا عند الأئمة سيما الرافضة، وهو بغْض أبي بكر وعمر، وسبُّهما.
الزيديّة	المفضِّلة من الزيدية وغيرهم، الذين يفضلون علياً على أبي بكر وعمر، ولكن يعتقدون إمامتهما وعدالتهما ويتولونهما، فهذه الدرجة – وإن كانت باطلة – فقد نسب إليها طوائف من أهل الفقه والعبادة، وليس أهلها قريباً ممن قبلهم، بل هم إلى أهل السنة أقرب منهم إلى الرافضة، لأنهم ينازعون الرافضة في إمامة الشيخين وعدالتهما وموالاتهما، وينازعون أهل السنة في فضلهما على عليّ ، والنزاع الأول أعظم، ولكنهم هم المرقاة التي تصعد منه الرافضة؛ فهم لهم باب.

[3] البغدادي ، المصدر السابق ، ص 169–228.

[4] ابن تيمية ، التسعينية ، تحقيق : محمد بن إبراهيم العجلان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، 1999، مج1، ص 263–265

الملحق رقم 04 :

مخطط لحكام الإسماعيلية في إيران[5]

الحسن بن الصباح (483-518هـ)

↓

كيا بزرك أميد (518-532هـ)

↓

محمد بن كيا بزرك أميد (532-557هـ)

↓

الحسن بن محمد (557-561هـ)

↓

محمد بن الحسن (561-607هـ)

↓

جلال الدين بن محمد (607-618هـ)

↓

علاء الدين بن جلال الدين (618-653هـ)

↓

ركن الدين خورشاه 653هـ

[5] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 207 .

الملحق رقم 05 :

خريطة إيران [6]

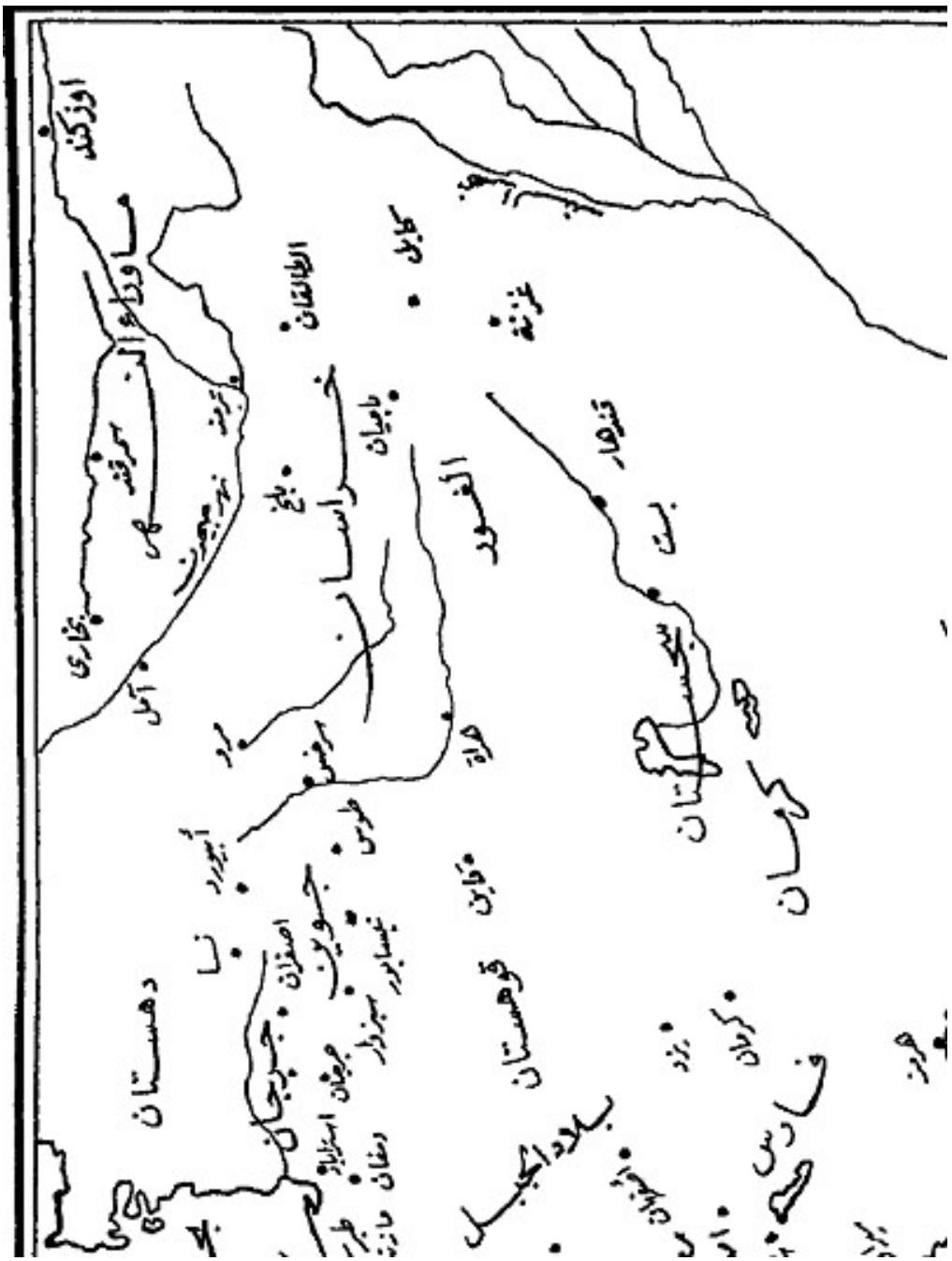

[6] الصياد ، المرجع السابق ، ص 399 .

الملحق رقم 06:

خريطة توضح الغزوات المغولية[7]

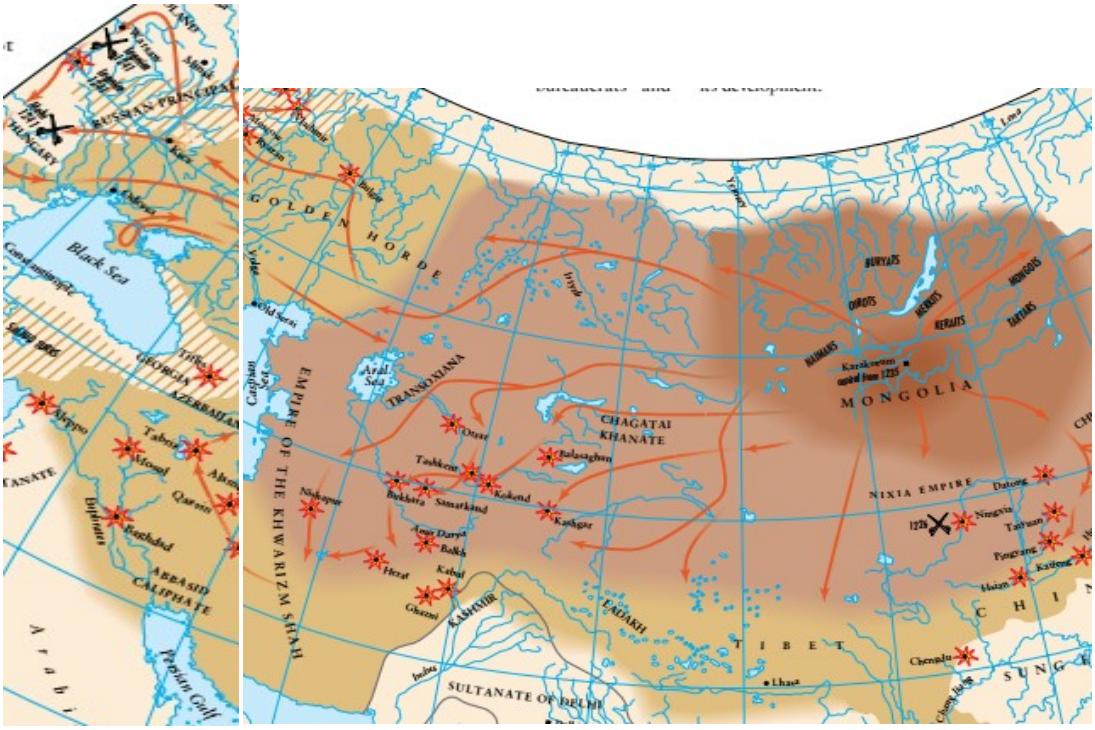

ملاحظة : الأماكن مدوّنة باللغة الإنجليزية

[7] Malise Ruthven with Azim Nanji , **Historical Atlas Of Islam** , Harvard University press , 2004, P64

الملحق رقم 07 :

حملة هولاكو على قلاع الإسماعيلية [8]

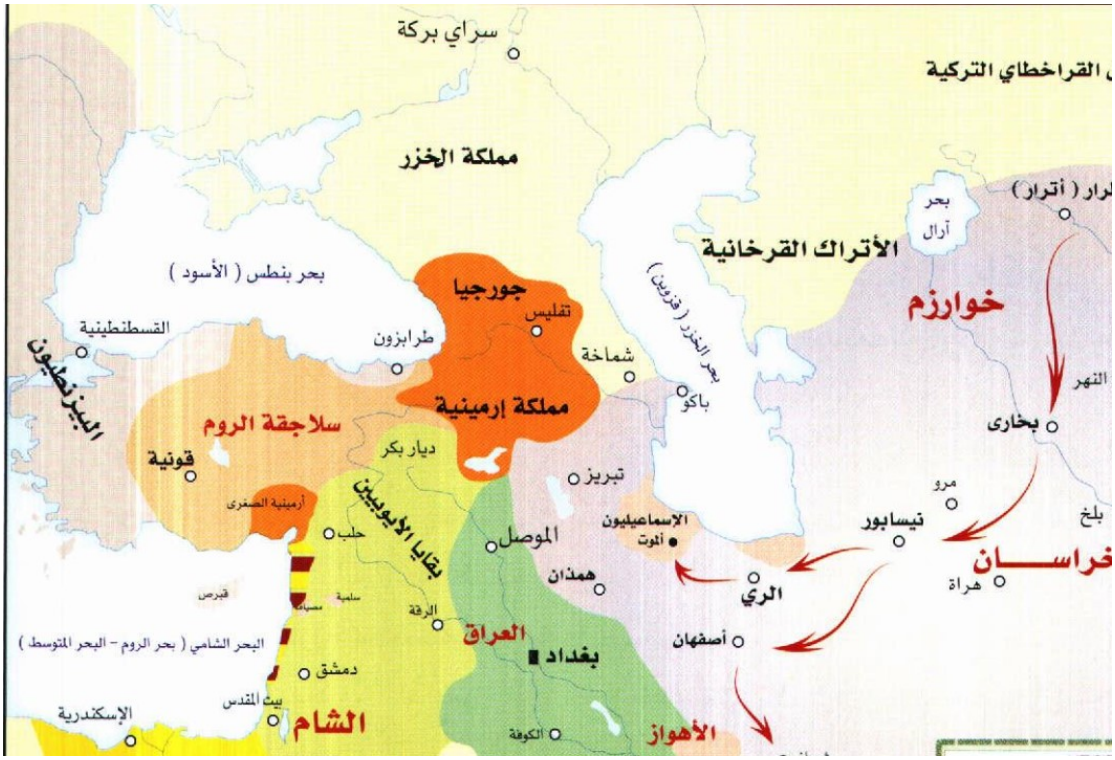

[8] سامي المغلوث ، **أطلس تاريخ العصر المملوكي** ، دار العبيكان ، الرياض ، 2013، ص 27 .

الملحق رقم 08 :

رسالة الخليفة إلى هولاكو [9]

((لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال إذ أن كل ملك – حتى هذا العهد – قصد أسرة بني العباس ودار السلام ببغداد كانت عاقبته وخيمة ، ومهما قصد ذوو السطوة من الملوك و أصحاب الشوكة من السلاطين فإن بناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة ، وفي الأيام السالفة ، قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد ، فلم يبلغ مأربه إذ مات بعلّة الزحار والأمر كذلك مع أخيه عمرو، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني ، وكبله وأرسله إلى بغداد ، لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء. وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة، وسجنه في الحديقة . وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين، باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر، وفي النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار، وقبض عليه وقتله، وأخرج الخليفة من السجن وأعاده إلى بغداد، وأجلسه على عرش الخلافة. وكذلك قصد السلطان محمد السلجوق بغداد ، فعاد منهزما وهلك في الطريق. وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة، فابتلى في روابي أسد أباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه، وهلك أكثر جنده، وعاد خائبا خاسرا. ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيزخان في جزيرة آبسكون. فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين فاحذر عين السوء من الزمان الغادر.))

[9] الهمذاني ، المصدر السابق ، مج2 ، ج1 ، ص 275.

الملحق رقم 09 :

رسالة النصير الطوسي في واقعة بغداد

حين عزم ملك العالم ، مادة الأمن و الأمان هولاكو خان على دخول بلاد الملاحدة واستئصال شأفة هذا القوم أرسل مبعوثا إلى الخليفة : إتجهنا إلى إخضاعهم ، فإذا وصلك رسولي أرسل إلينا مددا . وإستشار الخليفة وزارئه ونوابه عن عدد الجنود الذين سيرسلهم ، فأجابه الأمراء والضباط : إنه ينبغي بهذه الحجة أنْ يخلي بغداد وملك الخليفة من الجند ، حتى إذا أراد مهاجمتنا لم يلقَ رادعاً ، ولهذا السبب أحجم الخليفة عن إرسال الجيش المدد .

وحين فرغ الملك من أمر ولاية الملاحدة ، وقدم إلى همذان أرسل إلى الخليفة عتابا شديدا أن : لم ترسل جيشا ، ودعاه إليه ، فخاف الخليفة واستنار برأي الوزير، فنصحه الوزير بإرسال أموال كثيرة نقدا و جواهر ومرصعات وألبسة فاخرة ، وخيل فارهة، وغلمان وجوار بغال ، يقدم له الأعذار ، فوافق الخليفة على هذا الرأي ، فأمر بتجهيز ذلك وتهيئته ، واختار اثنين أو ثلاثة من خواصه لينقلوا هذه الأموال ومعها الأعذار. فاعترضه الدويدار الصغير وبعض الأعيان لقولهم : إن للوزير في هذا الرأي غرضا ما ، وهو يد واحد مع الجيش والترك ، ويقصد من ورائه هلاكنا على أيديهم . ونرى أن المال إذا خرج أخذناه وأسرنا الرسل ، وسنوزع المال على الشعب ، ونقوم بواجبنا.

حين سمع الخليفة هذا الكلام أحجم عن إرسال الرسل والأموال واكتفى بإرسال قليل من التحف ، فغضب الملك وأرسل إليه أن : تعال ، فإن لم ترغب في الحضور فأرسل واحدا من ثلاثة : الوزير أو الدويدار الصغير أو سليمانشاه ، لكن الخليفة لم لم يلبِّ أيًّا من الطلبين ، وأبدى لذلك عذرا . فزاد ذلك من غضب الملك ، فأمر بالحركة نحو بغداد ، وكم من مرة توقف عن التقدم والتراجع ، ولم تنفع معه وفادة

ابن الجوزي بن محي الدين .

وتحرك الملك من حدود همذان في شوال سنة خمس وخمسين و ستمائة وسبقه في الطريق سوغونجاق نُوين و بايجو على طريق إربل على الميمنة من طريق جبال شهرزورو دقوق ، وكيت بوقا نوين وانكيا نوين على الميسرة سارا عن طريق كريت وبيات ، وسار الملك في قلب الجيش على طريق كرمان شاهان و حلوان.

وخرج الدويدار الصغير بجيش من بغداد ، وعسكر بين بعقوبة وباجِسْرَى على ضفة....، وأمر الملك بايجو بأن يعبر دجلة ، و يأتي بغداد من جانبها الغربي ، ووصل الملك إلى حلوان ، ففتح طريقا هنا بهرب بعض الفرسان ، ووقعت طليعة الجيش على أيبك الحلبي فساقوه إلى خدمة الملك ، على أن يصدقهم القول ، فأعطوه الأمان لذلك ، فذهبت الطليعة مع المغول ، وكان ابن السلطان من بقايا الخوارزمية ، من جنس طليعة المغول ، فكتب رسالة إلى جيش الخليفة : إنني وإياكم من جنس واحد ، ولقد تبعت الملك وخضعت له فانتصحوا بي لترحموا أرواحكم ، فأقبِلوا و قِدموا الطاعة لتتحرروا . وكتب رسالة إلى قراسنقور فجاء الجواب : من هو هولاكو حتى يقصد مهاجمة الأسرة العباسية ، فقد رأت هذه الدولة كثيرا مثله . وإن كان يرغب في الصلح فلا يأتي إلينا ، و لا يخرّب ولاية الخليفة ،ٍ وإن عاد الآن إلى همذان واعتذر عما بدر منه ، ونحن نتشفع للدويدار الصغير حتى يضرع إلى الخليفة ، ليأتي من نفسه إليكم ويطلب الصلح.

وضحك الملك لدى اطلاعه على هذه الرسالة ، وقال: أجل ، إنه حكم الله ، وما أراده كان ، وبينما كان سوغونجاق وبايجو يعبران دجلة ترامت الأنباء إلى البغداديين بأن الملك هولاكو عبر إلى الطرف الغربي ، فما كان من الدويدار وجيشه إلاّ أن تركوا مواقعهم، وعادوا إلى بغداد . وقرب بغداد على ضفة دجلة وعلى حدود الأنبار تقابل جيشهم مع الجيش المغولي بقيادة سوغو نجاق نوين ، فكسروا جيشه وهزموهم

حتى إذا دنوا من بايجو هاجمهم وكسرهم ، وقتل كثيرا من رجال الدويدار ، فتراجعوا نحو بغداد. وعبر الملك نهر ديالي ، من غير أن يترك أية سفينة ، وقدم إلى باب بغداد ، وأرسل بوقاتيمور إلى طرفها الغربي ، وحلّ الملك باب بغداد في منتصف المحرم سنة ست وخمسين وستمائة ، فأمر بحصارها من كل أطرافها ، حتى غدوا حولها سورا آخر ، وصنع الجيش من هذا الجانب جدارا عاليا وصنع مثله بوقاتيمور وسوغو نجاق وبايجو من الجانب الآخر ، حفروا داخل كل جدار خندقا من طرف المدينة ، ونصبوا فيه المجانيق ، وبدأت عمليات الحرب عملها .

أرسل الخليفة صاحب الديوان وابن دربوس مع تحف نزرة إلى الملك ، وقد قيل : إن أرسلنا تحفا كثيرة ظنوا أننا جزعنا وهلعنا ، فلنقتصر على القليل ، وسألهم الملك : ولما لم يأت الدويدار وسليمانشاه ؟ فأرسل الخليفة جوابه مع الوزير : لقد أمر الملك أن يخرج إليه واحد من الثلاثة : الدويدار أو سليمانشاه أو الوزير ، وهأنذا أفي بوعدي ، فأرسلت الوزير الذي هو أعظم مقاما ، وعلى الملك أن يفي بكلامه ولا يطلبهما ، فقال الملك : قلت ذلك حين كنت في همذان ، والآن أنا في بغداد ، فانتهى الشرط . وكيف أقنع الآن ؟ يجب أن يأتي الثلاثة جميعا.

حين نشبت الحرب بين الطرفين كان الملك واقفا على الجانب الشرقي للمدينة مقابل "البرج العجمي" وجيش كيت بوقا يرمون بالأقواس بينما كان بلغاي وسبتاي على الجانب الأيمن للمدينة ، وبوقاتيمور على الجانب الغربي في موضع يعرف بحقل البقل ، وسوغونجاق وبايجو نوين من طرف المستشفى العضدي.

وبدؤوا بحربهم في الثاني و العشرين من المحرم سنة ست وخمسين و ستمائة ، واستمروا ستة أيام بلياليها من غير انقطاع ، وأمر الملك أن يكتبوا أمانا لجماعة السادات ، والعلماء والنصارى ، والشيوخ ، ولمن لا يحاربون ضدّنا ، ورموا هذه الكتابات بالنبال من الجهات الست ، وتأزم وضع الحرب ليلا ونهارا حتى اليوم

الثامن والعشرين من محرم ، حيث رقي الجنود مع الفجر الجدار ، فبلغوا أولا البرج العجمي ، ثم صعدوا من طرفي البرج حين كان الناس يخرجون من صلاة الصبح ، فصعدوا أعلى الأسوار ليتفرجوا على المغول.

حين أمر الملك بصنع الجدار أمر أيضا بحجز السفن الداخلة والخارجة وبإغلاق الجسر ، وعّين حرساً على ذلك كله ، ونصب المجانيق ، وأعّد الآلات النفطية ، وحاول الدويدار الهرب حين إندلعت الحرب عن طريق النهر بإحدى السفن ، فعلم المغول بخطته ، فوجهوا نحوه المجانيق والنبال ، فتراجع عن عزمه في الهرب ، في حين أن ثلاثة من سفنه وقعت في أيديهم ، وقتلوا من بها من الناس ، وصادروا ما فيها من سلاح ، وكان نقيب العلويين من جملة هؤلاء القتلى.

وأمر الملك ، بعد أن صعد الجنود الجدار ، الناس من أهل المدينة بأن يهدموا أسوارهم ، وتوافدت الرسل بين الطرفين ، وكان الملك يأمر بخروج الدويدار وسليمانشاه إذا لم يرد الخليفة الخروج ، وإذا أراد الخروج فلا حاجة إليهما ، فأرسل الخليفة إبنه الأوسط مع الدويدار وسليمانشاه ، ثم أعاد الدويدار وقال لسليمانشاه : عد إلى المدينة وجّند لنا كثيرا من الرجال ، وقصده إخراج رجاله وأهله ، وانتهى أمره في اليوم الثاني ، وأرسل الناس شرف الدين المراغي ، وشهاب الدين الزنجاني يطلبان الأمان لسكان بغداد ، وبعد أن أرى الخليفة إضطراب الأوضاع أعلن أنه خارج من بغداد و خرج في الرابع من صفر ليرى الملك ومعه إبنه وخاصته من الأئمة والسّادات والمشايخ ، فعبروا بوابة كلواذ ، وبعد خروجهم أمر الملك بالغارة على المدينة.

واتجه الملك نحو منزل الخليفة ومعه كل من أراد مشاهدته ، واستدعى الخليفة إليه وطلب أن يقدم له الهدايا ، ووزع الملك كل ما أحضر له على حاشيته من الأمراء ومن الجنود ومن الحاضرين ، ثم وضع طبقا من الذهب أمام الخليفة وقال له : كله

فأجاب الخليفة : إنه لا يؤكل ! فقال : فلم خّبأته ولم تعطه لجنودك ؟ لَم لم تصنع من هذه الأبواب الحديدية حراباً ؟ و لَم لم تأت إلى شاطئ جيحون لتمنعني من العبور ؟ فأجاب الخليفة : إنه أمر الله ، قال الملك : وما يجري لك من أمر الله أيضا ، وعاد في المساء ثم أمر بأن يخرج الخليفة مع نسائه وأولاده من القصر فأحصوهم فكانوا سبعمائة امرأة وألفا وثلاثمائة غلام ، ثم فرقوا الباقين.

وبعد أن إنتهوا من الغارة ، بعد مضي أسبوع أعلن الأمان للسكان ، وأمر بجمع الغنائم، وفي الرابع من شهر صفر عسكر الملك على باب المدينة وطلب الخليفة إليه ، فأحضروه إلى أمامه وخلفه ابنه الأوسط مع ستة من خدامه ، وانتهى أمره في ذلك اليوم في تلك القرية مع ابنه الأوسط ، كما قتل ابنه الأكبر مع من كان معه على بوابة كلواذ ، بينما تفرق باقي النساء والخدم.

وأمر الملك بالرحيل بعد أن أعاد الوزير وصاحب الديوان ، وابن دربوس إلى بغداد الوزير وزيرا ، وصاحب الديوان صاحب الديوان ، وابن دربوس مشرفا على الأوازن والحرف، كما عيّن استوبهادر شحنة البلدة ، وأمرهم بأن يعّمروا بغداد ، ويدفنوا الموتى من الناس والدواب ويبنوا الأسواق.

واتجه الملك المبارك المظفر المنصور إلى الجبل الأسود ، بينما وّجه بوقاتيمور نحو الحلة و واسط ، فأظهر سكان الحلّة الخضوع والطاعة لبوقاتيمور ، فانتقل بعدها إلى واسط فأعمل فيها القتل والسلب أسبوعا ثم عاد بوقاتيمور إلى ششتر ، وأخذ معه شرف الدين بن الجوزي ليخضع تلك البلدة ، أما الجنود والترك فقد هرب بعضهم ، وقتل آخرون ، وأطاعت فئة ثالثة ، ولم يذهب إلى الكوفة والبصرة جيش لخضوعهما.

الملحق رقم 10 :

رسالة هولاكو إلى الملك المظفّر قطز[10]

من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم :

باسمك اللهمّ باسط الأرض ورافع السماء

يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من أحل عليه غضبه ، فسلموا إلينا أموركم تسلموا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، وقد عرفتم أننا خربنا البلاد ، وقتلنا العباد فلكم منا الهرب ، ولنا خلفكم الطلب فما لكم من سيوفنا خلاص : خيولنا سوابق ، وسيوفنا قواطع وقلوبنا كالجبال و عددنا كالرمال ، ومن طلب حربنا الندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا وأوامرنا أطعتم فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، فقد أعذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أننا كفره وثبت عندنا أنكم الفجرة ، فأسرعوا إلينا بالجواب قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترميكم بشرارها ، فلا يبقى لكم جاه ولا عز ، ولا يعصمكم منّا جبل ولا حرز ، فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من اتبع الهدى ، وعواقب الرّدى ، وأطاع الملك الأعلى .

[10] القلقشندي ، صبح الأعشا ، ج8 ، ص 63-64 و المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 514 .

الملحق رقم 11 :

موقع معركة عين جالوت [11]

[11] سامي المغلوث ، المرجع السابق ، ص 48 .

الملحق رقم 12 :

تفويض الخليفة العباسي للظاهر بيبرس بالحكم[12]

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام بملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف ، وشيّدها وهي من غلائه حتى أنسى ذكر ما سلف ، وقيّد لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف.أحمده على نعمه التي رتعت الأعين منها في الروض الأُنُف ، وألطافه التي وقف الشكر عليها فليس عنها منصرف . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة توجب من المخاوف أمنا ، وتسهل من الأمور ما كان حزنا . وأشهد أن محمدا عبده الذي جبر من الدين وهنا ، ورسوله الذي أظهر من المكارم فنونا لا فنا ، صلى الله عليه وعلى آله الذي أضحت مناقبهم باقية لا تفنى ، وأصحابه الذين أحسنوا في الدنيا فاستحقوا الحسنى .

وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا في تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد مقدما ، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجدا ومتهما ، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما ، ولما كانت المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري أعز الله سلطانه ، تنويها بشريف قدره ، واعترافا بصنعه الذي تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية ، بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان من محاسن وإحسان ، وأعتب دهرها المسيء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب ، فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا ، وصرف إليها

[12] المقريزي ، السلوك ، ج1 ، ص 531-534 .

إهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا ، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى ، وأبدى من الإهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمر لو رامه غيره لامتنع عليهن ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه .لكن الله تعالى ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابه ، والسعيد من خفف من حسابه. فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه ، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن حصل الإياس من جمعه .

وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلّدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوّض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى .

فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ، وخلّص نفسك من التبعات اليوم ففي غد تكون مسئولا لا سائلا ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحمد منها طائلا ، وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا ، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة ، وقدّم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة ، وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر الله تعالى بالعدل وحثّ على الإحسان ، وكرّر ذكره في مواضع القران ، وكفّر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما ، وجعل يوما واحدا منها كعبادة ستين عاما ، وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنبت ثماره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه وهو مشيد الأركان ، وتحصن حوادث زمانه والسعيد من تحصن من حوادث الزمان ، وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد ، وأحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد ، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد .

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نوّاب وحكام ، وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام ، فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقّب عليه تنقيبا ، واجعل عليه في تصرفاته رقيبا ، وسل عن أحواله ففي يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا ، ولا تول إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا ، وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق ، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما استحق ، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا ، وأن يوسعوهم برّا وإحسانا وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرمانا ، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرا عليه وسلطانا . والسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله ، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله .

ومما تؤمرون به أن تمحى ما أحدث من سيء السنن وجدد من المظالم التي هي من أعظم المحن ، وأن يشترى بإبطالها المحامد فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن ، ومهما جبى منها من الأموال فإنما هي باقية في الذمم حاصلة ، وأجياد الخزائن وإن أضحت بها حالية فإنما هي على الحقيقة منها عاطلة ، وهل أشق مما احتقب إثما وإكتسب بالمساعي الذميمة ذما ، وجعل السواد الأعظم له يوم القيامة خصما ، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله وقد خاب من حمل ظلما . وحقيق بالمقام الشريف المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ، وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة لهم بحمله ، فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام ما لم تصنع لغيره مما تقدم من الملوك وإن جاء آخرا . فأحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمام هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه الأمور يجب أن

تلاحظ وترعى ، وأن توالى عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليه عقلا وشرعا ، وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلا وصار غيرك فرعا .

ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضا . وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنة التي لا لغو فيها ولا تأثيم . وقد تقدمت لك في الجهاد بيضاء أسرعت في سواد الحساد ، وعرفت منك عزمة هي أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد ، وأشهى إلى القلوب من الأعياد . وبك صان الله حمى الإسلام من أن يتبدل وبعزك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ، وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحا لا تندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ماكان عليه في الأيام الأول ، فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا ، وأيّد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعا سامعا.

ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور ، واحتفال يبدّل ما دجى من ظلماتها بالنور ، واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيّد منها كل ما غادره العدوّ منهما ، فهذه حصون بها يحصل الإنتفاع ، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع وأولاها بالإهتمام ما كان البحر له مجاورا ، والعدو له ملتفتا ناظرا ، لا سيما الديار المصرية ، فإن العدو وصل إليها رابحا وراح خاسرا ، واستأصلهم الله فيها ما أقال منهم عاثرا .

وكذلك أمر الأسطول الذي تزجى خيله كالأهلة ، وركائبه سابقة بغير سائق مستقلة . وهو أخو الجيش السليماني فإن ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكلفت بحمله المياه السائلة ، وإذا لحظها جارية في البحر كانت كالأعلام وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام .

وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب ، وأتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغيب وبسط بعد القبض منك الأمل ، ونشط بالسعادة ما كان من كسل ، وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتديا إليها ، وألزمك المراشد ولا تحتاج إلى تنبيه عليها ، والله يمدك بأسباب نصره ، ويوزعك شكر نعمه فإن النعم ستتم بشكره .

الملحق رقم 13 :

معركة الأبلستين [13]

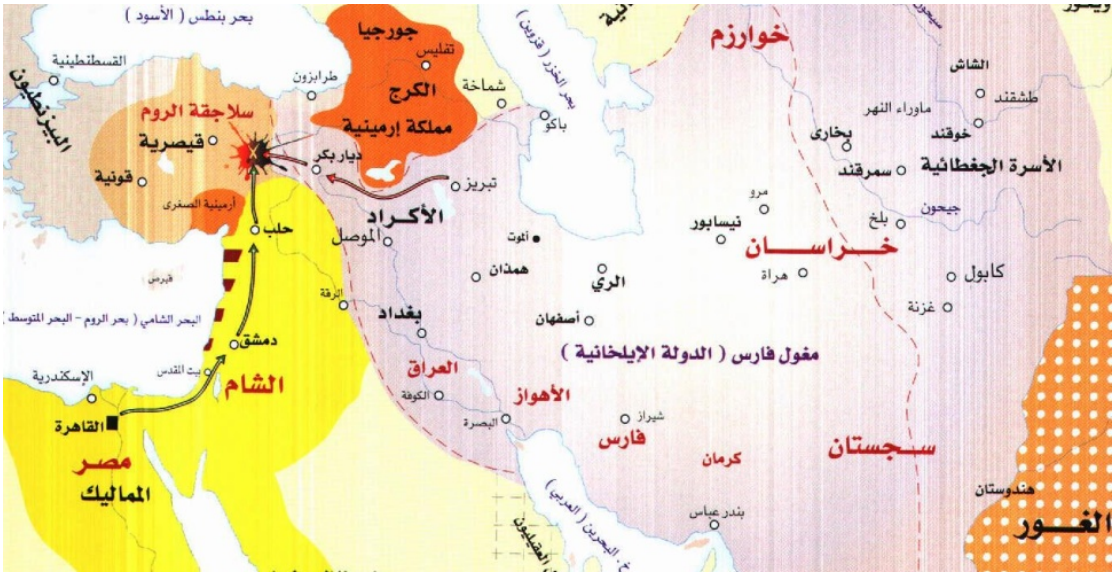

[13] سامي المغلوث ، المرجع السابق ، ص 57 .

الملحق رقم 14 :

رسالة السلطان أحمد تكودار إلى الملك المنصور قلاوون[14]

بسم الله الرحمان الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال قان فرمان أحمد :

إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا ، وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والإعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الإعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريّته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل ، وأخينا الكبير ، نوبة الملك ، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ، ماحقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلّى هذه المملكة علينا ، وأهدى عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريليان المبارك – وهو المجتمع الذي تقدح فيه الآراء– جميع الاخوان والأولاد والأمراء الكبار ، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض بما رحبت من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها ، وشديد بطشتها ، إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها صمّ الأطواد وعزيمة تلين لها الصمّ الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء ، وتسكين الدهماء ، وتجري به الأقطار ، رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار ، في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ،

[14] القلقشندي ، صبح الأعشا ، ج8 ، ص 65-68 .

وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا الله إليه ، من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وأننا لا نحب المسارعة إلى هزّ النّصال للنّضال إلا بعد إيضاح المحجة ، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوّى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، إذ كان الشيخ قدوة العارفين "كمال الدين عبد الرحمان " الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن لبّى دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقاة هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أنّا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، ونشاهد أن عظيم نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، أن لا يحرموها بالنظر إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شان ، فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الإعتماد ، وحجة يثقون بها بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره و عم أثره ، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلام أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره ، تقديما لناموس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف ، وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ، وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ، وتسيير قوافلها ، وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحرّمنا على العساكر

والقراغولات والشحاني في الأطراف التعّرض لهم في مصادرهم ومواردهم ، وقد كان قراغول صادف جاسوسا في زي الفقراء كان سبيله أن يهلك ، فلم نهرق دمه ، لحرمة ما حرم الله تعالى وأعدناهم إليهم . ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار ، فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية ، وعن شوائب التكلف والتصنع عريّة .وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرّة التي كانت موجبة للمخالفة ، فإنها إن كانت طريقا للذب والذود عن حوزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فمن يتحرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب ، وعرّفناهم طريقتنا وماعزمنا بنيّة خالصة لله تعالى على إستئنافها ، وحرّمنا على جميع العساكر بخلافها ، لنرضي الله والرسول ، ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلي بنور الإئتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ، ويشكر سابغ ظلها البوادي والحواضر ، وتقرّ القلوب التي بلغت الجهل الحناجر ، ويعفى عن سالف الجرائر ، فإن وفّق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والإتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك المماليك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل العامة أرض الهوينى وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان . وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع معرفة هذه النعمة

، فقد شكر الله مساعينا وألّلا عذرنا ((وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولا)) والله تعالى الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، إن شاء الله .

الملحق رقم 15 :

رسالة جواب السلطان الناصر إلى السلطان أحمد تيكودار[15]

بسم الله الرحمان الرحيم بقوة الله تعالى باقبال دولة السلطان الملك المنصور كلام قلاون إلى السلطان أحمد أما بعد حمد الله الذي اوضح بنا ولنا للحق منهاجا وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي نجى به أمته و على كل نبي ناجى صلاة تنير ما دجا فقد وصل الكتاب الكريم المتلقى بالتكريم المشتمل على النبأ العظيم من دخوله في الدين وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر المعلّم المعلم والحديث الذي صحح عند اهل الإسلام اسلامه واصح الحديث ما روى مسلم وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت وأن ينبت حب حبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت .

وحصل التأمل للفضل والمبتدأ بذكره من حديث اخلاصه النية في أول العمر وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ودخوله الملة المحمدية بالقول والعمل والنية فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام وألهمه شريف هذا الإلهام كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الاقدام واما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة إليه وتوقله الاسرة التي طهرها ايمانه واظهره سلطانه فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده وصدّق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده .

[15] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 222-226

وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قوريلتاي الذي تنقدح في زند الآراء وان كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في انفاذ العساكر إلى هذا الجانب وانه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفا لما في ضميره إذ قصده الصلاح ورأيه الإصلاح وإنه اطفأ تلك الثائرة وسكن تلك النائرة فهذا فعل الملك المتقي المشفق من قومه على من بقي المفكر في العواقب بالرأي الثاقب وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم الغرة لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى .

وأما القول منه أنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة و تركيب الحجة فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة على من غدت طواعيته عن سلوك المحجة متنكبة . فان الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا انما هو لنصرة هذه الملة وجهادنا واجتهادنا إنما هو في الحقيقة لله وحيث قد دخل معنا في هذا الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول وبارتفاع المنافرة تحصل المضافرة ، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه بيعض ومن أقام منارة فله أهل بأهل في كل مكان وجيران بجيران في كل أرض .

وأما ترتب هذه القواعد الجمة على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمان أعاد الله من بركاته فلم تر لولي قبله كرامة كهذه الكرامة والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعا كأحسن ما كان ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود أن كل حق ببركته إلى نصابه يعود .

وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالي أحواله

وخطرات خاطره ومنتظرات ناظره ومن كل ما يشكر ويحمد ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة إلى أن النفوس ان كانت لها تطلّع إلى إقامة دليل تستحكم به دواعي الود الجميل فلينظر إلى ما ظهر من مآثره في موارد الأمر ومصادره ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبل للحج إلى غير ذلك فهذه صفات من يريد لملكه الدوام فلما ملك عدل ولم يمل إلى لؤم من عدا ولا لوم من عذل على أنها وان كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة فهي واجبات تؤدى وقربات بمثلها يبدّى وهو أكثر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر أو له يدّخر بل إنما يفتخر الملوك الأكابر بردّ ممالك على ملوكها و نظم ما كانت عليه في سلوكها وقد كان والده فعل شيئا مع الملوك السلجوقية وغيرهم وما كان أحد منهم بدينه يدين ولا دخل معه في دين واقرهم في ملكهم وما زحزحهم عن ملكهم ويجب عليه ألا يرى حقا مغتصبا و يأبى إلا ردّه ولا باعا ممتدا بالظلم ويرضى إلا صدّه حتى أن أسباب ملكه تقوى وأيامه تتزين بأفعال التقوى .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات و الشحاني بالأطراف التعرض إلى احد بالأذى و إصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضا بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب وإلى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك وإذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم هذا الإحكام وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذي امسك واطلق وان بسبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجما بالظن فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه وزند من ذلك الطرف كان قدحه وكم من متزي بفقير من ذلك الجانب

سيّروه وإلى الإطلاع على الأمور سوّروه وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ولم يكشف ما غطوه بخرقة الفقر بلم ولا كيف وأما الإشارة إلى ان باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف وتدر بها من الخيرات الاخلاف ويكون بها صلاح العالم وانتظام شمل بني آدم فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنح إلى السلم فما حادّ ولا حاد ومن ثنى عنانه عن المكافحة كان كمن مدّ يد المصالحة للمصافحة والصلح وكان سيد الأحكام فلا بدّ من أمور تبنى عليها قواعده ويعلم من مدلولها فوائده فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مغنى ومعلم أن تهيأ صلح أو لم وثم أمور لا بد وأن تحكم وفي سلكها عقود العهود تنظم قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا وردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس . وأما الإستشهاد بقوله تعالى ((وما كنّا معذبين جتى نبعث رسولا)) فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على هذا السبيل ينهج بل لفضل المتقدم في الدين ونصره عهود ترعى و افادات تستدعى وما برح الفضل للأولوية وان تناهى العدد للواحد الأول ولو تأمل الآية في غير مكانها لتروّى وتأوّل . وعندما انتهينا إلى جواب ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب سمعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب من دخوله في الدين وانتظام عقده بسلك المؤمنين وما بسط من معدلة واحسان مشكورة بلسان كل انسان فالمنّة لله عليه في ذلك فلا يشنيها منه بامتنان وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن باسلامه ((قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان)).

ومن المشافهة ان الله قد اعطاه من العطاء ما اغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء فان حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل فالجواب ان ثم أمورا متى حصلت عليها الموافقة ابتنى على ذلك حكم المصاحبة

والمصادقة وراى الله والناس كيف يكون تصافينا واذلال عدونا واعزاز مصافينا فكم من صاحب وجد حيث لا يكون الأب والأخ والقرابة وما تم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة فان كانت له رغبة مصروفة إلى الإتحاد وحسن الوداد وجميل الإعتضاد وكبت الأعداء والأضداد والإستناد إلى من يشتد الأمر به عند الإستناد فالرأي إليه في ذلك .

ومن المشافهة أنه ان كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من ارض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذي يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود فالجواب عن ذلك انه إذا كف كف العدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت الدهماء وحنقت الدماء وما احقه بان لا ينهى عن خلق ويأتي بمثله ولا يأمر ببّر وينسى فعله وقنغرطاي بالروم وهي بلاد في أيديكم وخراجها يجبى إليكم وقد سفك فيها وفتك وسبى وهتك وباع الأحرار وأبى إلا التمادي على الإصرار والإضرار. ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الغارات ولا تفتر عن هذه الإثارات فيعيّن مكانا يكون فيه اللقاء ويعطى الله النصر لما يشاء فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة ومرة قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدّر وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدّر ولا نحن ممن ينتظر فلتة ولا له إلى غير ذلك لفتة وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بغتة والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة .

الملحق رقم 16 :

فرمان غازان لأهل دمشق بالأمان[16]

بقوة الله تعالى ، ليعلم أمراء التومان ، والألوف والمائة ، وعموم عساكرنا المتصورة من المغول والتازيك والكرج وغيرهم ممن هو داخل تحت ربقة طاعتنا . إن الله لمّا نوّر قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة إبراهيم عليه أفضل السلام ، ((أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين)) .

ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ومدّ الأيدي العارية إلى حرمهم وأموالهم والتخطّي عن جادة العدل والإنصاف وارتكابهم الجور والإعتساف ، حملتنا الحميّة الدينية ، والحفيظة الإسلامية على أن توجهنا إلى تلك البلاد ، لإزالة هذا العدوان وإماطة هذا الطغيان ، مستصحبين الجمّ الغفير من العساكر . ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد ، أزلنا العدوان والفساد وبسطنا العدل والإحسان في كافة البلاد ، ممتثلا للأمر الإلهي ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) النحل :90 ، وإجابة لما ندب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ((أن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمان ، وكلتا يديه يمين الدين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)) ، وحيث كانت طويّتنا مشتملة

[16] النويري ، المصدر السابق ، ج31 ، ص 244-246.

على هذه المقاصد الحميدة والنذور الأكيدة . منّ الله علينا ، بتبليج تباشير النصر المبين ، والفتح المستبين وأتّم علينا نعمته ، وأنزل علينا سكينته فقهرنا العدوّ الطاغية والجيوش الباغية وفرّقناهم أيدي سبا ، ومزّقناهم كل ممزق حتى جاء الحق وزهق الباطل ، وإن الباطل كان زهوقا ، فازدادت صدورنا انشراحا للإسلام ، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ، منخرطين في زمرة من حبّب إليهم الإيمان ، وزينه في قلوبهم ، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة .

فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثّقة ، والنذور المؤكدة ، فصدرت مراسيمنا العالية ، أن لا يتعرّض أحد من العساكر على اختلاف طباقاتها لدمشق وأعمالها ، وسائر البلاد الإسلامية الشاميّة ، أن يكفوا أظفار التعدّي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم ، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه ، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة ، وآمال مفسوحة ، بعمارة البلاد ، وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة ، وغير ذلك . وكان هذا الهرج العظيم ، وكثرة العساكر ، فتعرض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم ، إلى نهب بعض الرعايا وأسرهم ، فقتلناهم ليعتبر الباقون ، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر ، وغير ذلك من الفساد . وليعلموا أنّا لا نسامح بعد هذا الأمر البتّة ، وأن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان ، على اختلاف أديانهم ، من اليهود والنصارى والصابئة . فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم ، من الوظائف الشرعية ، لقول عليّ عليه السلام : ((إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ، ودمائهم كدمائنا)) والسلاطين موصون على أهل الذمة الطيعين ، كما هم موصّون على المسلمين فإنهم من جملة الرعايا . قال صلى الله عليه وسلم ((الإمام الذي على الناس ، راع عليهم ، وكل راع مسؤول عن رعيته)).

فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا ، الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السنّي ، أخذ لحظ الوافر من السرور

والنصيب الأكبر من البهجة والحبور ، مقبلين على الدّعاء لهذه الدولة القاهرة ، والمملكة الظاهرة ، آناء الليل وأطراف النهار .

الملحق رقم 17 :

فرمان غازان للأمراء في بلاد الشام[17]

بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية فرمان غازان

اعلم الأمراء والأكابر وأشراف السادات العظام المشايخ الكرام والمعتبرين وساير مشاهير الأعراب من الخواص والعوام أنه في كل زمان يقتضي الدور أن يرسل الله تعالى نبيّا لهداية العالم ودلالة الإنسان إلى طريق الصواب وحفظ الأساطير في ملل الدين فلما انتهت النوبة إلى خاتم النبيين محمد المصطفى الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أرسله إلى جميع الخلائق ليهدي كافة الأنام من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ويرشدهم من علائق الجثمانيات إلى زوايا الروحانيات ويزيّنهم بكمال الدين وتهذيب الأخلاق وانزل عليه القران العظيم وعلمه الأحكام الشرعية الشريفة المطهّرة لينقذ بها التابعين من نار جهنم فالواجب على كل أحد متابعة هذا النبي ومطاوعة شريعته والذي يخالفه يكون مأواه جهنم وبئس المصير ومن أول بعثته ومفتتح رسالته هذا كلما وقع في أمور الدين الخلل وظهر الوهن في شريعة المسلمين وأقدم الإنسان على العصيان وأصرّ على الطغيان سبّب له من أولى الأمر شخصا يقوّي الأمور الدينية ويزكى الخلايق طرّا وينهاهم عن الأمور المستنكرة ويردّهم إلى الطرايق المستقيمة المستحسنة وقبل زماننا هذا قد ظهر المشركون وعبدة الأوثان والجماعة الذين كانوا يلايمونهم من المسلمين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولا تؤمن قلوبهم وتعدّوا وكانوا يعلمونهم الحيف والجور على الرعيّة وغصب أموالهم وأكل الربا وترك الصلاة والزكاة والصيام والصدقات وأعمال البرّ وقدّر الله من المعجز النبوي المصفى المحمدي على صاحبه الصلاة والسلام أننا من أولاد جنكيزخان الأعظم الذين تحت حكمهم معظم الأقاليم العظيمة دخلنا هذا

[17] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 333-337 .

في الدين القويم والصراط المستقيم بغير تكليف بل جل نور هداية الحق ودين النبي المصطفى على قلوبنا وكرّمنا الله بالإسلام وفضّلنا بالعدل والإحسان ورسخ في قلوبنا محبّة الدين الحنيفي ووفّقنا الله تعالى بالجهاد في قتل المشركين وعبدة الأوثان والمخالفين وهدم بيوت الأصنام ودفع شرّ الظالمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أمر الله في محكم كتابه ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان))

فأمرنا في الممالك كلها ببناء المساجد ونصب المنابر وإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة ونهينا عن أخذ الرّبا ومنعنا سائر أنواع الظلم والخطا فإن الظلم مرتعه وخيم وقررنا في بلاد الإسلام الأموال المقننة لمصالح عساكر الإسلام عند المجاهدة في سبيل الله عز وجل حسبما اقتضاه الشرع المطهّر بلا أحداث قاعدة ولا حيف ولا عدوان ولا تطاول على أحد من المسلمين واجتهادنا في استخدام هذه المعاني زايد عن الحدّ ((والحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنتهدي لولا أن هدانا الله)) وحيث آباؤنا وأجدادنا سمّونا غازان كان ذلك بتقدير الله عزو وجل في الأزل في الالهام الإلهي الملهم بالتلقيب لهذا الإسم الذي هو مشتق من الغزو أوجبنا على أنفسنا الغزو والجهاد وقمع المشركين والخوارج والمتمردين والظالمين وسمعنا من أهل مصر والشام الذين أمسى منهم مسلمون مالهم عهد ولا ميثاق ولا أمانة ولا ديانة ويأخذون أموال المسلمين ويقصدون دماهم توجهنا قاصدين دمارهم لدفع الحركات الردية البادية منهم واثباتهم على دين الإسلام ليكونوا هم وذرّياتهم مفلحين من أهل الجنة ويحصل لنا ثواب الإجتهاد ويردّهم السؤال في معنى خللهم وزللهم في دين الإسلام والجواب أنهم لما تحققوا أننا أولاد سلاطين ربع أقاليم الأرض وأنّا مسلمون ومعاونون دين الإسلام يجب على كل أحد مطاوعتنا اقتداء بكلام الله عز وجل : ((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم)) فحيث عصى من عندنا سلامش وانخرط في الخوارج والمرتدين وأقدم على ايذاء المسلمين ببعض بلاد الروم وتخريب

بيوتهم ونهب أموالهم هرب من عسكرنا المنصور وتوجه إلى تلك البلاد كانت الشريعة النبوية والشفقة الإسلامية تقتضي أن تمسكوه وتبعثوه مغلّلا بالحديد مسلسلا إلى عتبتنا العالية فتغافلتم وتهاونتم عن هذا بل رديتموه بالعساكر والأنعام والنجدة إلى فوج من التركمان ووعدتموه مواعيد عرقوب حتى يقع القتال بين المسلمين من عسكرنا المغول وساكني بلاد الروم وعسى ما بلغهم أن جميع عسكرنا من المغول والإيغورية والقفجاق والخطائية والبخشيّة وكل من كان بعد هذا من اختلاف الملل دخلوا كافّة وطرا بصدق النيّة في الإسلام وأدركهم بتوفيق الله وحسن الإتفاق وارتضعوا افاويق الوفاق ونحن كأسنان المشط في الإستواء والنفس الواحدة في التيام الأهواء وما كان فينا من لم يؤمن بربّه الأعلى ونبيّه المصطفى إلا مرليه فإنه عاش على دين المغول ثمانين عاما وفي هذه السنّة آمن بالله والملّة الحنيفيّة ودخل في زمرة المهتدين والحمد لله رب العالمين .

واذا كنتم متهاونين في قضيّة سلامش وسائر الطاغين فالله الذي هدانا للصراط المستقيم ردّه الله مقيّدا مكبّلا على يد أقل مملوك من مماليكنا فجآؤوا به إلى عتبتنا العالية لما أنعم الله علينا بالدين القويم ووفّقنا لتشييد قواعد سنن رسوله الكريم وأرشدنا في عنفوان الصّبا وريعان الحداثة للإنخراط في سلك أمة محمد عليه أفضل الصلوات والسلام وعلى آله وصحبه الكرام عسى لم تعجبكم تقوية دين الله عز وجل التي نحن مصرّون عليها ولو وصل لأجل هذا لقلوبكم البهجة والسرور لشكرتم الرحيم الغفور وبعثتم من يهنّينا بدخولنا في دين الحق من إخوانكم وأقاربكم فما فعلتم شيئا من هذا إلا أن من اعتصم بالله كفاه وأيضا من أفعالكم المذمومة أن تنصبوا في كل شهر وعام سلطان وتحلفون على طاعته والاعراض عن مخالفته ثم تخالفونه بعد قليل وتقتلون ذوي الأمر منكم خلافا لما أمر الله في كتابه العزيز بطاعة أولى الأمر منكم وتنقضون ميثاقكم ولم توفوا بعدكم حتى تصيروا من ((الذين ينقضون عهد الله من

بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون)) .

وأي جرح أقبح من هذا وأما سائر أخلاقكم وعدم مشروعيتها فهي واضحة غير خافية ومستغنية عن الشرح والتفصيل وقد وافقنا مع عمّنا قاآن الأعظم وسائر أعمامنا وإخواننا وعشائرنا فمنهم قايدو ونوقاي وتوقتا وقرمجي وطو وغيرهم وها نحن متوجهون بأنفسنا إلى تلك البلاد بالعساكر الكثيرة التي ما لها نهاية ولا حدّ والكتائب الجرّارة التي لا تحصى ولا تعدّ ومن ولاية الإفرنج والروم والتكفور وديار بكر وبغداد بعثوا أفواجا كثيرة لا تعد وجمّا غفيرا لنهدي بهم سبل الرشاد وندفع عن سائر المسلمين الشر والفساد فان كنتم تتبعون الهدى وتستقبلون عساكرنا المنصورة فنحن في هذه النهضة الميمونة عازمون على أن لا يصدر عن أمرنا المطاع إلا إطفاء النائرة ومحافظتهم في الأمن والأمان ليستريح المسلمون في عهد الشفقة والإحسان تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله وقد حرّمنا على العساكر المنصورة التعرّض إلى نفوس المسلمين والطموح إلى أموالهم فإن لم يسمعوا ما رسمنا ونصحنا :

فالسيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

ولمّا كانت همتنا المنصورة مقصورة على وضع قواعد العدل والإنصاف وعزمتنا المنيفة مصروفة إلى رفع قوانين الزور والإعتساف بحيث يستقيم الأمر في مركزه تأسيّا بقوله تعالى ((يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض)) ولهذا توجهنا إلى تلك الجهات وكيف يجوز تعذيب الرّعية من غير جريمة صادرة عنهم لا سيما سفك دمائهم وسبي حريمهم فيجب علينا محافظتهم ودفع الاسواء عنهم بموجب قوله صلى الله عليه وسلم : كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته والتزمنا بمحافظة الرعية في أنفسهم وأموالهم والسعي في ترفيه خواطرهم وتطييب قلوبهم فينبغي أن يسكنوا في دورهم آمنين مستكنين ويقيموا أسواقهم ويرتّبوها ويشتغلوا بالكسب والمعاملات بعد

أداء وظائف العبادات واقامة مراسم الطاعات داعين لدوام هذه الدولة القاهرة ودوام أيامنا الزاهرة إذ وجب عليهم وعلى كافة المسلمين طاعتنا لقوله تعالى وأمره بطاعة أولى الأمر منكم وعليهم أن يخطبوا على المنابر باسمنا وعند قرب الوصول إلى بلادهم يستقبلونا وتصاحبنا القضاة والعلماء والصلحاء والمشايخ والسادات والفقهاء مرشدين إلى المزارات المباركة من مشاهد الأولياء ومواقف الأنبياء مستوهبين من الله التوفيق لنيل مثوباتهم واحراز بركاتهم وبعد ذلك نقصد الإحرام بحجة الإسلام وزيارة بيت الله الحرام سيما وهو أكبر قواعد الإسلام إذ هو على كافة الإسلام لقوله عز وجل : ((ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا)) .

وقد نذرت يمينا على ذلك وانعقد نذر بأنه ينادى من جهتنا بان جميع المسلمين وسائر المتوكلين في أمان الله ورسوله ويكونوا مطمئنين فارغي البال رافعي الحال ونحن عاهدنا الله ورسوله على جميع ذلك وإذا وافقوا على ما أنفذنا إليهم يبعثون إلينا من يعرّف أحوالهم وخلوص عقيدتهم وصفاء طويّتهم حتى نعيّن الشحانى المعتبرين في صحبتهم التواقيع والفرامين ليحفظوا البلاد ويقيموا الأسواق ولا يمكّنوا أحدا من الظلم والجور ولا تشويش خواطرهم لأن العساكر الجمّة إذا وصلوا إليهم تبع المعاملات معهم ما يكفيهم سنة وأكثر فاستراحوا من ذلك فإذا تشرفوا بمطالعة هذا التوقيع الشريف وامتثلوا مقاصده وفحواه فقد فازوا فوزا عظيما وإلا فقد خسروا خسرانا مبينا وعقاب ذلك سفك الدماء وعارة الأموال بوقوع الهرج والمرج ونحن نبرأ من ذلك وقد أعذر من أنذر والسلام على من اتّبع الهدى .

الملحق رقم 18 :

فرمان السلطان محمود غازان بتولية الأمير سيف الدين قفجاق[18]

بتقوى الله وميامين الملة المحمدية

الحمد لله الذي جرّد لهذه الدولة القاهرة سيفا ماضيا وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضبا قاضيا وارتضى لها من أصفيائها من أصبح الملك عنه راضيا نحمده ونشكره على نعمته التي أورثتنا الممالك وجمعت لنا ما بين النصر والفتح وما أشبه ذلك ونشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنيل النجاة وترفع الدرجات ونشهد أن محمدا نبيه المرسل بالهدى والصدق والمبعوث بدين الحق صلى الله عليه صلاة تنبله الوسيلة والفضيلة وعلى آله خير آل وأشرف قبيلة .

وبعد فإن الله تعالى لمّا منّ علينا بالإيمان وهدانا إلى أشرف الأديان حمدناه وشكرناه على أنه أضاف إلى ملكنا للدنيا ملكنا للآخرة وجلّل علينا حلل الدين الفاخرة ونذرنا أن نعمّ الرّعية بعدلنا ، ونشمل البريّة بفضلنا وأن لا نسمع بمظلوم إلا ونصرناه ولا نطّلع على مقهور إلا أنقذناه فلما اتّصل بنا ما مرّ بمصر من المظالم ومن فيها من غاصب وظالم هاجرنا لنصرة الله تعالى ونصرة الدين وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين وأرسلناهم وأنذرناهم وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم فلم تنفع فيهم العظة وايقظناهم فلم تكن عندهم يقظة فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وقلعنا آثارهم وملّكنا الله تعالى أرضهم وديارهم وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادي النمل فلم ينج منهم إلا الفريد ولا سلم إلا البريد فلما استقرّ تملكنا البلاد وجدب علينا حسن النظر في العباد فاحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور وانعمنا النظر في من نفوّض إليه مصالح الجمهور فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ويقيم ما انآد من

[18] بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ص 240-243.

قوامها القويم يقول فيُسمع مقاله ويفعل فتقتفى أفعاله يكون أمره من أمرنا وحكمه من حكمنا وطاعته من طاعتنا ومحبته الطريق إلى محبتنا فراينا ان الجناب العالي الأوحدي الكفيلي المجاهدي الأميري الهمامي النظامي السيفي ملك الأمراء في العالمين ظهير الملوك والسلاطين قفجق هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة والمحتوي على هذه المناقب الجميلة وأن له حرمة المهاجرة إلى أبوابنا ووسيلة القصد إلى ركابنا فعرفنا له هذه الحرمة وقابلناه بهذه النعمة ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين وعلى ما استحفظ قويّ أمين وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا فأقمناه مقامنا في العدل والقضايا.

فلذلك رسمنا أن تُفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية والساحلية والجبلية والعجلونية والرحبية من العريش إلى سلمية نيابة تامّة عامة كاملة شاملة يؤتمر فيها بأمره ويزدجر فيها بزجره ويطاع في أوامره ونواهيه ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه له الأمر التّام والنظر العامّ وحسن التدبير وجميل التأثير والإحسان الشامل لأهل البلاد واستجلاب الغزاة والقواد وتأمين من يطلب الأمان والطاعة والإمتنان متّفقا في الإستخدام والتأمين مع ملك الأمراء ناصر الدين فان اجتماع الآراء بركة والهم تؤثّر إذا كانت مشتركة وكل من أمناه فإنه أماننا أجريناه على قلمها ولسانهما وقد أُنعم عليه بالسيف والسنجق الشريف والكوس والبايزة الذهب برأس السبع ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله وليكونوا تحت حكمه رفعة لقدره وتنويها باسمه .

وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين والصدور والأعيان والجمهور أن يتحققوا أنه نائبنا في السلطنة الشريفة وأن له هذه المنزلة المنيفة وليطيعوه طاعة تزلفهم لديه وتقرّبهم إليه ويحصل لهم بها رضاه عنهم واقباله

عليهم وقربهم منه وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على ما يحبّ.

وعلى ملك الامراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه وخشيته في نقضه وابرامه وتعظيم الشرع وأحكامه وتنفيذ أقضية كل قاضي على قول إمامه وليعتمد الجلوس للعدل والإنصاف وأخذ حق المشروف من الأشرف وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه وليكفّ الكف العادية عن كل من يتعدّى إليه وقد تقدّم من الأمر بالآثار الجميلة في الشام المحروس ما تشوقت إليه الأعين وتاقت إليه النفوس وقد ردّه الله سبحانه إليهم ردّا جميلا وليكن بمصالح الدولة ومصالح الرعيّة كفيلا والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلا ويوضح له إلى مراضي الله ومراضينا دليلا بمنه ولطفه.

فرمان السلطان محمود غازان بتولية الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار

بقوة الله وميامين الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

الحمد لله الذي أيّدنا بالنصر العزيز والفتح المبين وأمدّنا بملائكته المقربين وجعلنا من جنده الغالبين نحمده على الهداية إلى سبيل المهتدين والإرشاد إلى إحياء الدين حمدا يوجب المزيد من فضله كما وعد الحامدين ونشهد ألاّ اله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة تنظمنا في سلك المخلصين ونشهد أن محمدا عبده ورسوله خاتم النبيين .

أما بعد فإن الله تعالى لمّا ملّكنا البلاد وفوَّض إلينا النّظر في أمور العباد وجب علينا أن ننظر في مصالحهم وأن نهتم بنصايحهم وأن نقيم عليهم نائبا يتخلق بأخلاقنا في كرم السجايا ويبلغنا الأعراض من مصالح الرعايا فاعملنا الفكر في من نقلده الأمور وأنعمنا النظر فيمن نفوّض إليه مصالح الجمهور واخترنا لها من يحفظ نظامها

المستقيم ويقيم ما آناد من قوامها القويم يقول فيُسمع مقاله ويفعل فتُقتفى أفعاله يكون أمره من أمرنا وحكمه من حكمنا وطاعته من طاعتنا ومحبّته هي الطريق إلى محبتنا فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي المؤيدي العضدي النصيري العالمي العادلي الذخري الكفيلي السيفي سيف الدين ملك الأمراء في العالمين ظهير الملوك والسلاطين باكتمور هو المخصوص بهذه الصفات الجميلة والمحتوي على هذه السمات الجليلة وله حرمة المهاجرة إلى أبوابنا ووسيلة الوصلة إلى ركابنا فرعينا له هذه الحرمة وقابلناه بهذه النعمة ورأينا انه لهذا المنصب حفيظ مكين وخاطبنا لسان الإختيار: ((إن خير من استأجرت القويّ الأمين)) ، وعلمنا أنه يبلّغ الغرض من صون الرعايا ويقوم مقامنا بالعدل في القضايا . فلذلك رسمنا أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الحلبية والحموية وشيزر وأنطاكية وبغراس وساير الحصون والأعمال الفراتية وقلعة الروم وبهسنا وما أضيف إليها من الأعمال والثغور نيابة تامّة عامّة كاملة شاملة يؤتمر فيها بأمره ويزدجر فيها بزجره ويطاع في أوامره ونواهيه ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه له الأمر التام والنظر العام وحسن التدبير والإحسان الشامل إلى أهل البلاد واستجلاب الولاء والوداد ويأمن من يطلب الأمان ويتلقى من يترامى إلى الطاعة والخدمة بالإمتنان متفقا في الإستخدام والتامين مع ملك الأمراء والوزراء ناصر الدين فإن اجتماع الآراء بركة والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة فليثق كل من يؤمّناه بأمانهما فإنه أماننا أجريناه على قلمها و لسانهما وقد أنعمنا عليه السيف والسنجق الشريف والكوس والبايزة الذهب برأس السبع .

فسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء الأعيان والتركمان والأكراد والدواوين والصدور والأعيان والجمهور أن يتحققوا أنه نائبنا الذي فوّضنا إليه النيابة الشريفة والمنزلة المنيفة وأن يطيعوه طاعة تزلفهم لديه وتقرّبهم إليه ويحصل لهم بها رضاه عنهم

وقربه منهم ويلزموا عنده من الأدب والخدمة ما يجب وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على المصالح كما يحبّ .

وعلى ملك الأمراء سيف الدين تقوى الله في أحكامه ونقضه وإبرامه وتقوية يد قضاة الشرع وحكامه وتنفيذ أقضية كل قاض على قول إمامه وليتعاهد الجلوس للعدل والإنصاف وأخذ الحق للمشروف من الأشراف وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه وليكفّ الكف العادية عن كل من تعدّت عليه والله تعالى يجعل له إلى الخيرات سبيلا وإلى مراضي الله ومراضينا دليلا إن شاء الله تعالى .

مؤرخ في ثالث عشر جمادى الآخرة

سنة تسع وتسعين وستمائة بمقام برج الرنبقية

الملحق رقم 19 :

رسالة محمود غازان إلى الناصر بن قلاوون[19]

صبح الأعشا ، ج8 ، ص 69-71

بسم الله الرحمان الرحيم ، بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم السلطان الملك الناصر ، أنّه في العام الماضي ، بعض عساكركم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا ، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا ، كماردين ونواحيها ، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها ، وأقدموا على أمور بديعة ، وارتكبوا آثاما شنيعة ، من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة ، فأنفنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهم ، وأخذتنا الحمية الإسلامية فجذبتنا إلى دخول بلادهم ومقابلتهم على فسادهم فركبنا بمن كان لدينا من العساكر وتوجهنا بمن اتفق منهم أنهم حاضر وقبل وقوع الفعل منا ، واشتهار الفتك عنا ، سلكنا سنن سيد المرسلين ، واقتفينا آثار المتقدمين واقتدينا بقول الله ((لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل)) وأنفذنا صحبة يعقوب السكرجي جماعة من القضاة ، والأئمة الثقات ، وقلنا ((هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة)) فقابلتم ذلك بالإصرار وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالإضرار ، وخالفتم سنن الملوك ، في حسن السلوك ، وصبرنا على تماديكم في غيّكم ، وخلودكم إلى بغيكم ، إلى أن نصرنا الله ، وأراكم في أنفسكم قضاة ((أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله)) وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال ، وآل بهم الأمر إلى ما آل ، أنهم تداركوا الفارط من أمرهم ، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم ، ووجه إلينا وجه عذرهم ، فإنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى

[19] القلقشندي ، صبح الأعشا ، ج8 ، ص 69-71 .

الديار المصرية ، رسلا لإصلاح تلك القضية ، فبقينا في دمشق غير مثحثحين ، وتثبطنا تثبط المتمكنين ، فصدهم عن السعي في صلاح حالهم التّواني ، وعلقوا نفوسهم عن اليقين ، بالأماني ، ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام ، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام ، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه ، وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه ، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم ، وقلنا لعل وعساهم ، فما لمع لهم بارق ، ولا ذرّ شارق ، فقدمنا إلى أطراف حلب ، وعجبنا من تبطيهم غاية العجب ، وفكرنا أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة ، وجموعنا العظيمة القاهرة ، ربما أخرب البلاد مرورها ، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها ، وعم الضرر العباد ، والخراب البلاد ، فعدنا بقيا عليها ونظرة لطف من الله إليها . وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزائمنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الإنذار ((وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا)) . وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجا ، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى ابن يوسف ، وقد حملناهما كلاما شافهناهما به ، فلتثقوا بما تقدمنا له إليهما ، فإنهما من الأعيان ، المعتمد عليهما في الديوان ، كما قال الله تعالى ((فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداهم أجمعين)) ، فلتعدوا لنا الهدايا والتحف ، فما بعد الإنذار من عاذر ، وإن لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم ومطلوبة عند الله في طول تقصيرهم .

فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم " من ولاه الله أمرا من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم ، احتجب دون حاجته وخلته وفقره " . وقد أعذر من أنذر ، وأنصف من حذر ، والسلام على من اتبع الهدى – في العشر الأواسط من شهر رمضان سنة سبعمائة – بجبال الأكراد ، والحمد لله رب

العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه وعترته الطاهرين .

فهرس

الأعلام

فهرس الأعلام

أباقا خان304 ,300 ,298 ,297 ,296 ,286 ,261 ,
ابن العلقمي ,233 ,232 ,229 ,228 ,227 ,226 ,225 ,224 ,223 ,221 ,219 ,214 ,
234, 236, 237, 238, 239, 240
ابن القيم الجوزية234 ,233 ,
ابن تيمية234 ,232 ,212 ,
ابن مطهر الحلي266 ,265 ,
أبى سعيد (الخان المغولي)322 ,321 ,320 ,319 ,
أبي جعفر الطوسي91 ,
أتسز137 ,133 ,131 ,130 ,129 ,128 ,127 ,126 ,125 ,
أحمد بن حنبل98 ,97 ,80 ,
أرغون318 ,306 ,305 ,263 ,262 ,261 ,
أستاذ الدار ابن الصاحب96 ,
أسد الدين شيركوه104 ,103 ,101 ,
أنوشتكين125 ,124 ,
أوكتاي260 ,258 ,254 ,67 ,64 ,61 ,55 ,43 ,
أولجايتو318 ,317 ,316 ,315 ,267 ,266 ,265 ,264 ,263 ,
أولون فوجين42 ,
ايل أرسلان139 ,137 ,136 ,135 ,134 ,133 ,132 ,
باتو286 ,285 ,257 ,
بدر الجمالي102 ,101 ,
بدر الدين لؤلؤ245 ,240 ,220 ,
بركة خان ,286 ,285 ,284 ,283 ,282 ,281 ,257 ,256 ,255 254 256 ,201 ,
293
البساسيري93 ,92 ,91 ,216 ,
بكتار45 ,
بورتشو46 ,
بيبرس الجاشنكير312 ,

بيبرس (الملك الظاهر) ,278 ,277 ,276 ,275 ,274 ,256 ,255 ,253 ,251 ,201 ,
279, 281, 282, 283, 284, 285, 286, 287, 289, 291, 292, 293, 294,
295, 296, 297, 298, 299, 300, 301, 303, 304, 305, 306, 307, 308,
310, 311, 312, 313
تاج الدين بن الصلايا245 ,
تاياناك51 ,50 ,43 ,
تيكودار306 ,304 ,262 ,261 ,
تيموجين49 ,48 ,47 ,46 ,45 ,44 ,43 ,42 ,41 ,40 ,39 ,38 ,24 ,
جاموخا49 ,48 ,
جعفر الصادق77 ,75 ,74 ,
جغتاي259 ,258 ,66 ,65 ,64 ,57 ,55 ,
جلال الدين منكبرتي ,194 ,193 ,191 ,190 ,189 ,186 ,184 ,163 ,162 ,148 ,
195, 196, 197
جلال الدين(الإسماعيلي) 209 ,208 ,196 ,195 ,194 ,193 ,
جمال الدين قشتمر210 ,208 ,
جنكيزخان ,50 ,49 ,45 ,43 ,42 ,41 ,40 ,39 ,38 ,37 ,36 ,35 ,33 ,29 ,28 ,24 ,
51, 52, 53, 54, 55, 56, 57, 59, 60, 64, 65, 153, 155, 163, 164, 168,
169, 170, 171, 172, 173, 176, 177, 179, 185, 186, 187, 189, 196,
193, 199, 235, 252, 254, 258, 261, 298
جوجي قسار43 ,
جوجي66 ,64 ,60 ,59 ,55 ,45 ,43 ,
حسام الدين المنجم 218 ,217 ,
الحسن بن الصباح124 ,123 ,122 ,121 ,120 ,77 ,76 ,196 ,271 ,269 ,
خاموش 195.

الخليفة القادر85 ,
الخليفة المسترشد124 ,101 ,94 ,
الخليفة المعتصم بالله80 ,
الخليفة الناصر لدين الله العباسي ,194 ,159 ,158 ,157 ,143 ,142 ,141 ,95 ,139 ,
195, 208, 239

رشيد الدين الوطواط130 ,
ركن الدين خورشاه273 ,
سنان273 ,272 ,271 ,270 ,
سنجر الأشقر301 ,
سنجرالسلجوقي 155 ,132 ,131 ,130 ,129 ,128 ,127 ,126 ,125 ,
سونيت27 ,
سيف الدين الباخرزي260 ,256 ,
سيف الدين قبجق313 ,310 ,308 ,
شرف الدين اقبال الشرابي226 ,211 ,
صلاح الدين الأيوبي125 ,115 ,114 ,113 ,107 ,101 ,95 ,277 ,273 ,272 ,
طغرلبك95 ,94 ,93 ,91 ,90 ,
الطوسي ,239 ,238 ,236 ,235 ,234 ,233 ,232 ,231 ,230 ,218 ,204 ,203 ,
240 ,247
عضد الدولة91 ,84 ,83 ,
علاء الدين تكش151 ,144 ,141 ,139 ,137 ,
عماد الدين زنكي101 ,100 ,
غازان ,312 ,311 ,310 ,309 ,308 ,307 ,306 ,305 ,267 ,266 ,263 ,262 ,
315, 316
غياث الدين الغوري151 ,148 ,146 ,144 ,143 ,138 ,
قطب الدين الشيرازي305 ,304 ,
قطب الدين حبش259 ,
قطز288 ,287 ,255 ,253 ,252 ,251 ,
قطلوشاه314 ,312 ,
قلاوون ,312 ,311 ,309 ,308 ,306 ,305 ,304 ,301 ,300 ,299 ,298 ,280 ,
313, 315, 318, 319, 320, 321
قوبيلاي69 ,68 ,63 ,62 ,43 ,285 ,284 ,252 ,193 ,
كيوك65 ,61 ,
لأونك خان48 ,
المتوكل81 ,80 ,78 ,
مجاهد الدين الدويدار237 ,225 ,210 ,

مجير الدين طاشتكين97 ,
محمد بن أحمد بن القصاب97 ,
محمد خوارزمشاه193, 207 ,
محمد علاء الدين خوارزمشاه147, 149, 151, 155, 156, 158 ,
محمود بن يلواج260 ,
المستعصم 213, 214, 216, 219, 221, 223, 224, 225, 227, 229, 235, 237, ,
240
مظفر الدين كوكبري207 ,
المعتضد81 ,
معز الدين البويهي82 ,
معين الدين برواناه298 ,
المنتصر80, 91 ,
منكو43, 63, 68 ,
منكوخان193, 197, 199, 204, 206 ,
منكوخان61, 62, 198, 199, 200 ,
موسى الكاظم75, 77, 97 ,
المؤيّد بن القصاب142 ,

ناصر الأطروش73 ,
ناصر الدين مهنا292 ,
الناصر بن قلاوون309 ,
نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي255 ,
نصير الدين الطوسي203, 204, 217, 230, 231, 232, 234, 240, 245, 256 ,
نور الدين محمود زنكي100, 103, 111, 114 ,
هولاكو 61, 62, 63, 65, 66, 193, 198, 199, 200, 201, 202, 203, 204, 206, ,
214, 215, 216, 217, 218, 219, 220, 221, 222, 225, 226, 228, 229,
232, 233, 234, 235, 236, 237, 239, 240, 242, 244, 245, 246, 247,
248, 252, 254, 255, 256, 257, 261, 262, 273, 278, 279, 281, 282,
283, 285, 286, 293, 300, 305, 309, 322
واصل بن عطاء73 ,

يسوكاي48 ,47 ,45 ,44 ,42 ,41 ,40 ,

فـهرس

الأمـاكن

فهرس الأماكن :

أبهر 160 ,
أترار 184, 173, 171, 170, 169, 168, 167, 166, 153, 259, 257 ,
أذربيجان 209, 207, 195, 161, 160, 134 ,
اران 196, 193, 134 ,
إربل 247, 245, 244, 219, 211, 210, 209, 208, 207 ,
أرمينيا 320, 316, 300 ,
الإستبس 32, 22 ,
أستوا 185 ,
أصفان 140 ,
أصفهان 188, 160, 142 ,
أصفهان 261 ,
ألتاي 32, 22, 21 ,
ألموت 195, 194, 178, 141 ,
الألموت 271, 269 ,
آمد 211, 209, 191 ,
ايران, 202, 201, 200, 199, 198, 197, 196, 65, 64, 63, 62, 59, 58, 51, 21 ,
205, 206, 214, 230, 231, 235, 242, 259, 261, 264, 265, 267, 286,
303, 319, 321, 322
البحر الأسود 57, 27 ,
بحيرة البايكال 37 ,
بخارى, 179, 178, 177, 176, 175, 172, 171, 170, 168, 154, 140, 129, 65 ,
255, 256,257
البصرة 93, 92, 89, 88, 303, 270 ,
بغداد, 195, 194, 193, 322, 304, 303, 291, 285, 267, 262, 261, 256, 255 ,
201, 208, 210, 211, 213, 214, 216, 217, 218, 219, 220, 221, 222,
223, 224, 225, 226, 227, 228, 229, 232, 233, 234, 235, 236, 237,
238, 239, 240, 241, 242, 243, 244, 245, 248, 251, 24, 26, 30, 32,

37, 77, 79, 80, 81, 85, 86, 87, 89, 90, 91, 92, 93, 95, 97, 98, 99,
100, 110, 119, 124
بكين69 ,68 ,54 ,53 ,
بلاساغون31 ,
بلخ30 ,182 ,150 ,149 ,146 ,133 ,128 ,127 ,
التبت51 ,49 ,35 ,21 ,20 ,
التركستان21 ,
ترشيز202 ,
توران250 ,246 ,244 ,205 ,202 ,199 ,
تون193 ,
جيحون ,180 ,176 ,175 ,171 ,152 ,147 ,137 ,136 ,128 ,127 ,126 ,124 ,
185, 21, 53, 59, 61, 62
حران247 ,212 ,207 ,
حلب255 ,246 ,245 ,244 ,239 ,
حلب,311 ,310 ,299 ,295 ,293 ,291 ,290 ,289 ,288 ,272 ,271 ,270 ,269 ,
313, 318, 320
الحلة242 ,220 ,
حماه313 ,303 ,301 ,293 ,290 ,289 ,288 ,277 ,272 ,269 ,
حمص310 ,308 ,306 ,301 ,300 ,298 ,290 ,289 ,288 ,287 ,270 ,269 ,
خانقين214 ,211 ,
خجندة65 ,21 ,
خراسان ,148 ,146 ,144 ,138 ,135 ,134 ,133 ,130 ,128 ,127 ,126 ,124 ,
149, 150, 155, 156, 158, 160, 162, 181, 182, 184, 185, 186, 188,
189, 192, 193, 256, 261 ;195, 200, 207
خوارزم ,137 ,136 ,135 ,134 ,132 ,131 ,129 ,128 ,127 ,126 ,125 ,124 ,
139, 141, 142, 144, 146, 147, 149, 152, 154, 157, 158, 160, 161,
162, 163, 164, 165, 166, 179, 181, 182, 183, 184, 185, 192, 21, 31,
51, 61
دقوقا214 ,211 ,209 ,208 ,

دمشق ,297 ,295 ,293 ,291 ,289 ,288 ,286 ,276 ,271 ,270 ,269 ,262 ,
299, 301, 308, 309, 310, 312, 313, 314, 317, 320
ديار بكر250 ,211 ,
الديلم120 ,90 ,82 ,81 ,74 ,73 ,
الرحبة101 ,92 ,
الرها247 ,212 ,207 ,
الري192 ,188 ,181 ,160 ,142 ,139 ,135 ,
زنجان160 ,157 ,
زوزن193 ,186 ,
ساوة160 ,
سجستان150 ,149 ,
سرّ من رأى80 ,78 ,210 ,98 ,80 ,
سرخس145 ,138 ,134 ,133 ,126 ,
سروج247 ,
سمرقند ,178 ,175 ,174 ,171 ,170 ,162 ,154 ,153 ,152 ,151 ,129 ,127 ,
179
السند206 ,
سوريا280 ,275 ,
سيحون62 ,21 ,
الشاش155 ,154 ,124 ,
الشام ,114 ,113 ,111 ,109 ,108 ,107 ,106 ,103 ,101 ,100 ,78 ,63 ,62 ,
115, 116, 119, 120, 125 ;206, 211, 239, 243, 244, 245, 250, 251,
252, 254, 255, 256, 262, 268, 269, 270, 271, 273, 274, 275, 278,
279, 282, 287, 289, 290, 291, 294, 295, 296, 297, 298, 299, 300,
301, 303, 305, 306, 308, 309, 310, 311, 314, 315, 317, 318
شيراز319 ,267 ,261 ,188 ,187 ,
صور273 ,
الصين51 ,49 ,41 ,35 ,34 ,33 ,31 ,30 ,27 ,21 ,20 ,
الطالقان149 ,145 ,138 ,
طمغاج51 ,20 ,

طوس146 ,
العراق119 ,100 ,95 ,93 ,92 ,90 ,89 ,88 ,87 ,84 ,75 ,71; 62 ,51 ,33 ,26 ,
, 135, 139, 142, 156, 158, 160, 162, 180, 187, 189, 191, , 193, 201,
202, 207, 213, 222, 224, 226, 256, 261, 270, 302, 303, 304, 322
فرغانة155 ,154 ,
قاجيون43 ,
قاين193 ,
قزوين251 ,197 ,196 ,
القلاع الإسماعيلية ,140 ,256 ,214 ,205 ,203 ,202 ,201 ,200 ,199 ,197 ,194 ,
195
قهستان202 ,200 ,
كابل186 ,156 ,
كاشغر66 ,
الكرخ93 ,92 ,89 ,87 ,243 ,241 ,238 ,237 ,228 ,224 ,223 ,
كرمان187 ,186 ,162 ,156 ,155 ,
كنجة195 ,193 ,
كوشان155 ,
الكوفة243 ,241 ,220 ,
ماردين255 ,248 ,212 ,318 ,308 ,300 ,
مراغة239 ,207 ,
مرو الروذ138 ,
مرو159 ,147 ,146 ,145 ,139 ,138 ,134 ,133 ,130 ,128 ,126 ,110 ,
مصر ,70 ,69 ,67 ,68 ,64 ,63 ,61 ,57 ,54 ,51 ,49 ,43 ,42 ,40 ,38 ,35 ,25 ,
73, 74, 77, 78, 80, 83, 84, 85, 86, 90, 91, 99, 100, 101, 102, 103,
104, 105, 106, 107, 108, 111, 112, 113, 115, 116, 119, 120, 121,
199, 230, 236, 250, 251, 252, 253, 255, 261, 269, 270, 274, 278,
281, 283, 284, 286, 287, 288, 289, 290, 291, 292, 295, 299, 304,
305, 308, 311, 312, 315, 316, 317, 322

مكران156 ,155 ,
منشوريا34 ,29 ,26 ,22 ,21 ,
منغوليا29 ,28 ,27 ,22 ,21 ,
الموصل255 ,245 ,240 ,220 ,212 ,211 ,210 ,207 ,
ميافارقين62 ,248 ,247 ,244 ,211 ,
نصيبين212 ,211 ,209 ,
نهر أمور23 ,
نهر أونون40 ,
نيسابور ,180 ,146 ,145 ,137 ,136 ,135 ,134 ,133 ,130 ,128 ,112 ,110 ,
183, 185, 186, 188, 193, 256, 261, 322
هراة193 ,150 ,149 ,147 ,145 ,138 ,133 ,128 ,
همذان181 ,161 ,160 ,143 ,142 ,140 ,135 ,
الهند227 ,206 ,187 ,180 ,156 ,151 ,146 ,145 ,144 ,
واسط88 ,87 ,
يزد 188

فـهرس

الأقـوام والـقبـائل

والـدول

فهرس الأقوام والقبائل و الشعوب

الإثنا عشرية120 ,77 ,74 ,

الأدارسة73 ,

الأرمن316 ,313 ,309 ,301 ,263 ,

الإسبتارية301 ,300 ,277 ,276 ,

الإسماعيلية ,122 ,121 ,119 ,117 ,116 ,115 ,77 ,76 ,75 ,74 ,62 ,
123, 124, 125, 126
الأنغوت54 ,27
الأويغور65 ,64 ,52 ,51 ,35 ,34 ,32 ,31 ,29 ,28 ,20 ,
الباطنية122 ,83 ,75 ,

البهرة76 ,

التانغوت54 ,53 ,
التايجوت45 ,44 ,
التبت53 ,50 ,35 ,21 ,20 ,
التتار ,42 ,40 ,37 ,36 ,35 ,34 ,31 ,30 ,25 ,24 ,20 ,228 ,201 ,
44, 253, 256, 281, 291, 299, 302, 308, 314
الترك60 ,59 ,56 ,52 ,34 ,32 ,30 ,27 ,26 ,23 ,21 ,20 ,
تنكقوت27 ,
توركش28 ,27 ,
الجغطائية260 ,258 ,

جلاير37 ,27 ,

الحشاشين277 ,276 ,

الخطا ,128 ,127 ,124 ,65 ,64 ,53 ,52 ,51 ,35 ,30 ,29 ,28 ,20 ,
130, 136, 137, 139, 140, 144, 145, 147, 149, 151, 152, 153,
154, 155, 158, 162, 163, 171, 182
خفاجة303 ,302 ,

الخلافة العباسية ,96 ,95 ,85 ,83 ,82 ,81 ,79 ,78 ,62 ,61 ,55 ,26 ,
100, 141, 143, 144, 190, 193, 206, 207, 209, 216, 221, 222,
228, 230, 239, 241
الدولة الإيلخانية322 ,311 ,294 ,287 ,283 ,281 ,261 ,198 ,

الدولة الأيوبية68 ,

الدولة الجغتائية67 ,66 ,64 ,
الدولة الحمدانية78 ,

الدولة الخوارزمية ,141 ,140 ,136 ,133 ,132 ,130 ,129 ,127 ,124 ,
143, 144, 145, 150, 156, 159, 161, 162, 163, 165, 166, 167,
170, 172, 173, 174, 180, 184, 189, 190, 191, 192, 196, 197,
68, 100, 119

الدولة السامانية90 ,

الدولة العبيدية105 ,76 ,

دولة القراقويونلو322 ,

الدولة المرداسية79 ,

سلاجقة الروم307 ,294 ,261 ,

سلاجقة الروم68 ,

السلاجقة ,119 ,118 ,116 ,115 ,108 ,101 ,100 ,94 ,93 ,91 ,90 ,
125, 126, 127, 128, 130, 131, 132, 140, 141, 142, 190, 269,
294

الشيعة الإسماعيلة206 ,195 ,194 ,192 ,

الشيعة الزيدية89 ,

الشيواي مينغ24 ,

الصليبيين281 ,300 ,293 ,292 ,279 ,275 ,273 ,272 ,

الفداوية279 ,

الفرنج291 ,276 ,

القارلوق52 ,34 ,27 ,

القبائل التركية31 ,29 ,27 ,22 ,

قبجاق27 ,

القبيلة الذهبية322 ,316 ,293 ,286 ,255 ,252 ,

القبيلة الذهبية61 ,60 ,59 ,58 ,56 ,

القراخانية30 ,

القراخطائيين29 ,

القرامطة75 ,

القرغيز52 ,35 ,31 ,28 ,20

القفجاق61 ,60 ,59 ,56 ,322 ,321 ,283 ,281 ,
قيات39 ,
الكرايت50 ,48 ,47 ,40 ,38 ,31 ,27 ,
الكرج301 ,300 ,
المركيت49 ,48 ,47 ,38 ,27 ,
المستعلية120 ,76 ,
الملاحدة233 ,232 ,205 ,202 ,200 ,198 ,197 ,
النايمان51 ,50 ,47 ,42 ,34 ,33 ,32 ,27 ,
النزارية279 ,271 ,270 ,269 ,
الياسا64 ,57 ,26156 ,259 ,258 ,

فهرس

المحتويات

فهرس المحتويات

- إهداء
- شكر
- مقدمة .....أ

الفصل الأول : المغول دراسة جغرافية بشريّة

- المبحث الأول : موطن المغول 20-25

1- الموقع الجغرافي:.....20-22

2- أصل المغول :.....22-25

- المبحث الثاني : القبائل المكوّنة للمجتمع المغولي.....26-38

1- القبائل التركية..... 26-32

أ- قبيلة توركش.....27

ب- قبائل القرغيز:.....27

ج- قبائل الأويغور:.....28

د- قبائل القراخطائيين:.....29

هـ- قبيلة الكرايت :.....30

و- قبيلة النايمان:.....31

ز- قبائل القارلوق:.....32

2- القبائل المغولية :.....33-38

أ- التتار:.....33

ب- قبائل أويرات:.....36

ج-المركيت:.....36

د- قبيلة قيات :.....37

❖ المبحث الثالث : توحيد القبائل المغولية 38-55

1- ظهور جنكيزخان:.....38- 44

2- إخضاع القبائل المغولية الكرايت والنايمان.....45-48

3- سيطرته على أقاليم الصين وبلاد الأويغور .....48-52 والخطا

4- دستور الياسا :.....52-54

❖ المبحث الرابع : دول المغول:.....55-63

1- مغول القبيلة الذهبية:.....55

2- مغول إيران:..... 58

3- مغول تركستان:.....60

4- مغول الصين:.....63

الفصل الثاني: العلاقات بين السنة والشيعة قبيل ظهور المغول

❖ المبحث الأول: السنة والشيعة :.....67-77

1- تعريف السنّة: 67

2- تعريف الشيعة:.....69

3- فرق الشيعة :.....72

أ- الزيدية:.....72

ب- الإسماعيلية: 74

ج- الإثناعشرية : 76

❖ المبحث الثاني : الخلافة العباسية : 77-97

❖ المبحث الثالث: الدولة الأيوبية

1- الجانب السياسي 98

2- الجانب الديني 105

❖ المبحث الرابع: القلاع الإسماعيلية : 117-123

الفصل الثالث : الحملة المغولية الأولى على العالم الإسلامي

❖ المبحث الأول : الدولة الخوارزمية 124-157

❖ المبحث الثاني : نهاية الدولة الخوارزمية 158-179

1- أسباب الحملة المغولية على الدولة الخوارزمية : 158-166

1-1 المعاهدة التجارية بين المغول والدولة الخوارزمية.....:158-162

1-2 مقتل التجار في أترار : 162-164

1-3 مقتل رسل جنكيز خان :.....164-166

2- سقوط الدولة الخوارزمية..... 166-174

2-1 سقوط أترار و بخارى و سمرقند :.....168-174

أ- سقوط أترار : 168-170

ب- سقوط مدينة بخارى:..... 170-173

ج- سقوط سمرقند :..... 173-174

2-2 / سقوط باقي المدن :.....174-176

2-3 / أسباب سقوط الخوارزميين ووفاة خوارزم شاه :..... 176-179

❖ المبحث الثالث : مقاومة جلال الدين منكبرتي وعلاقته .

بالشيعة الإسماعيلية

1- مقاومة جلال الدين منكبرتي :..... 179-186

2- علاقته بالشيعة الإسماعيلية :..... 186-191

الفصل الرابع : الحملة المغولية الثانية على العالم الإسلامي

❖ المبحث الأول : القضاء على الإسماعيليّة

1- أسباب العداء بين الإسماعيلية و المغول :..... 193-199

2- سقوط القلاع الإسماعيلية في إيران :..... 200- 205

❖ المبحث الثاني : **سقوط الخلافة العباسية**

1- الإرهاصات الأولى للهجمات المغولية على أراضي الخلافة:..... 206-212.

2- حملة هولاكو على بغداد :..... 212-220

2-1/ الرسائل بين هولاكو و المستعصم :..... 212-217

2-2/ كيفية حصار بغداد : 217- 219

2-3/ مقتل المستعصم و سقوط الخلافة العباسية ..... 219-220.

3- دور الشيعة في سقوط بغداد

3-1/ موقعة الكرخ : .....220 -221

3-2/ دور ابن العلقمي:..... 221-227

3-3/ دور نصير الدين الطوسي :..... 227-233

أ)- الروايات المؤكدة: 228

ب)- الروايات المفنّدة:.....232

ج)- الروايات المتحفّظة:.....232

4- رؤية في سقوط بغداد :..... 233- 238

❖ المبحث الثالث : سقوط بلاد الشام ومقاومة المماليك

1- حكام بلاد الشام وحلب والجزيرة:..... 238-239

2- سقوط بلاد الشام والجزيرة : 240-244

3- مقاومة المماليك :.....245-250

3-1/ الحالة السياسية لمصر قبيل الغزو المغولي :..... 245-248

3-2/ معركة عين جالوت : 248-250

الفصل الخامس :العلاقات بين السنة و الشيعة بعد معركة عين جالوت إلى نهاية القرن 13م/7هـ

❖ المبحث الأول : انتشار الإسلام بين المغول

1- دور السنّة في إسلام المغول

1-1 دور السنة في إسلام القبيلة الذهبية:.....252-257

2-1 دور السنة في إسلام مغول التركستان (الجغطائية):.....258-260

3-1 دور السنة في إسلام مغول الدولة الإيلخانية:.....260-263

2- دور الشيعة في إسلام المغول:.....263-267

❖ المبحث الثاني : العلاقات بين المماليك السّنة وطائفة الإسماعيلية

1- نشأة الإسماعيلية في بلاد الشام :..... 268-272

2- العلاقات بين المماليك والإسماعيلية:..... 272- 278

❖ المبحث الثالث : العلاقات بين المماليك و المغول

1- العلاقات بين المماليك و مغول القفجاق:..... 279-284

2-العلاقات بين المماليك و مغول الدولة الإيلخانية

2-1 في عهد الظاهر بيبرس

أ)- معركة حمص الأولى:..... 285-290

ب)- معركة الأبلستين :..... 291-295

2-2 في عهد المنصور قلاوون

أ)- معركة حمص الثانية 680هـ/1281م : 295-300

ب)- التقارب في عهد قلاوون وأحمد تيكودار :.....301-302

2-3 في عهد الناصر بن قلاوون

أ) معركة واد الخازندار 699هـ/1299م :.....302-307

ب) معركة شقحب 702هـ/1303م:.....307-311

ج) الخان أولجايتو والناصر بن قلاوون : 311-314

د) الخان أبى سعيد والناصر بن قلاوون : 315-318

خاتمة 320-328

الملاحق 330-375

قائمة المصادر والمراجع 377-397

فهرس الأعلام 399-403

فهرس الأماكن 405-409

فهرس القبائل والدول والأقوام 411-414

فهرس المحتويات 416-422

Summary.....1

Summary

The Mongolian invasions of the Islamic world are among the most prominent features in the human world in general and the Islamic world in particular, because these invasions came at a difficult moment in the history of the Islamic nation, as the Islamic world fell quickly due to the attacks of the Mongols. Except for the Mamelukes in Egypt, who managed to defeat the Mongols at the Battle of Ain Jalut.

The Mongolian invasions had a major impact on the political, social, economic, and cultural aspects of the Islamic world. It also had an impact on the relations between the existing Islamic sects, especially the Shiites and Sunnis. How was the impact of the Mongol invasions on the Sunni-Shiite relationship?

In this thesis project, we will study these chapters :
Chapter One: The Mongols - A Human Geographical Study
Chapter Two: Relations between Sunnis and Shiites, prior to the Mongol invasion.
Chapter Three: The First Mughal Campaign on the Islamic World
Chapter Four: The Second Mughal Campaign on the Islamic World
Chapter Five: Relations between Sunnis and Shiites after the Battle of Ain Jalut to the end of the 13th century CE / 7AH.

1- Expected research results:

The expected results of the research are:
1- Study the historical roots of the Mongols and prove the origins of the Mongols.
2- Relations between Sunnis and Shiites at the political and social levels.
3- The effect of the Mongol invasions on the relations between Sunnis and Shiites in terms of unity and confronting the common enemy.
4- To get rid of sectarian tensions that have strained the unity of Muslims.
5- Union of Sunnis and Shiites in confronting the Mongols.

6- Some Shiites and Sunnis betray the nation and collude with the Mongols.

2-Methodology: analysis tools and investigation techniques

- Study the main sources on the topic.
- Empty the information into research cards.
- Comparing sources and information.
- Initial editing of the thesis .
- Final editing of the thesis and correcting errors.

3-Work description :

Chapiter 1: The Mongols - A Human Geographical Study -
Study Stages:
1- The first topic: Geography of the Mongol countries.
2- The second topic: the tribes that make up the Mughal community.
3- The third topic: Mongol countries.

Chapiter 2: Relations between Sunnis and Shiites before the invasions of the Mongol
Study Stages:
1- The first topic: Sunnis and Shiites (Ideological history - Sunnis - Shiite groups
2- The second topic: The Abbasid Caliphate (overview - Bouyehoun - Seljuks).
3- The third topic: The Ayyubid state (a historical preliminary - the elimination of the Fatimid caliphate - the state of the Ayyubid state before the Mongol invasion)
4- The fourth topic: Ismaili castles.

Chapiter 3: The First Mongol Campaign on the Islamic World
Study Stages:
1. The first topic: The alkhawarzmi state (origin - geography - rulers)
2. The second topic: The fall of the alkhawarzmi state (Muhammad Khwarizm Shah - the traders incident - the destruction of the alkhawarzmi state)

3.The third topic: the resistance of Jalaluddin Mankaberti and his relationship with Ismaili Shiites.

Chapiter 4: The Second Mongolian Campaign against the Islamic World

1-: the elimination of Ismailism (the emergence of castles - beliefs - the fall)

2-: the fall of the Abbasid caliphate (causes of the fall - the involvement of the Shiites and the disregard for the Sunnis)

3-: marching towards the Levant and Egypt (rulers of Levant and Egypt)

4-: the Mamelukes confronting the Mongols (Ain Jalut).

Chapiter 5: Relations between Sunnis and Shiites after the Battle of Ain Jalut to the end of the 13th century CE / 7AH

1-: Sunnis and Shi'ite's race to Islamize the Mongols

2-: the relations between the Mamluks and the Ismailis

3-: the relations between the Mamluks and the Mongols